عبد القادر عياش

حضارة وادي الفرات

مدن فراتية

القسم السوري



اعداد وليد مشوح


حضارة وادي الفرات

* حضارة وادي الفرات (القسم السوري)

«مدن فراتية»

* عبد القادر عياش

* اعداد: وليد مشوح

* الطبعة الأولى - ١٠ / ١٩٨٩

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - هاتف ٤٢٠٢٩٩ - ص. ب ٩٥٠٣ - تلكس ٤١٢٤١٦

عبد القادر عياش

حضارة وادي الفرات

القسم السوري

«مدن فراتية»

اعداد: وليد مشوح

تصدير

لقـد وضـع الاستـاذان فاروق وغـازي ، ولدا المرحوم عبد القادر عيَّاش بين يدي مؤلفـات والـدهما . كان التساؤل يدور بخلدي : هو جهد يوضع على عاتق مجمـوعـة من أبنـاء الفـرات ، بعضهم يختص بالأدب ، والبعض بالتاريخ ، وثالث بالجغـرافيـا ، ورابـع بالآثـار ، وخـامس بالاجتماع وهكذا حيث يمثلون توجهات الموروث الذي تركه المرحوم المحامي عبد القادر عياش عن وادي الفرات . . . ولم يوضع على عاتق فرد واحد!!!! . . انها البداية . . . .

لذا ترددت توجساً لا نكوصاً فللرجل الراحل أفضال على المنطقة لذا تر لم نعـرضهـا ، يكفيـه حفـظ ديناميتها الاجتماعية ، والتأريخ لها وذا يكفي فخراً ، لأن العمـل فردي اعتمـد على مقدرته الذاتية والمعنوية والمادية ، حتى أن البعض نعى عليه ذلك ، وقذفه بما ليس به .

وقبـل أن أتحـدث عن خطـوات عمـلي في إعـداد الكتـاب وتقـديمـه الى القـارىء ، لابـد من التنـويـه الى أن كل الأوراق والمقـاطـع التي قمت بتنسيقها ، لأجعـل الكتـاب مقتصـراً على المـوضـوعـة التي بين يديكم الآن : تلك الأوراق

ستكـون أمـانـة تقـدمهـا كما جاءت الى المكتبة الوطنية لتحفظها وثيقة سيكون لها شأنها ربما في زمن غير زمننا هذا، واضطررنا الاقتصار على المدن الفراتية بانتظار ـ استكمال المـوضـوعـات الأخـرى من عادات وتقـاليد وأمثال ووصف للعاديات، وتفاصيل أخرى هي في صلب كينونة المجتمع الفراتي عبر تاريخه الطويل العريق.

أما منهجي في اعداد الكتاب فقد اتفقت مع ولديه على أن نتعجل بإصدار أثر من آثار، على أن تلي الآثار الأخرى في فسحة أفضل من الظرف الآن، ووافقاً واعـين كل ما يحيـط بمـوضوعة الطباعة فشرعت انتقي المدن مدينة مدينة واترك ما كتبـه الـراحـل الكبـير بأمانة، والغي من النص كل ما تأخر عن الزمن من معلومة احصـائيـة، زراعيـة أو رعـوية، أو عمرانية، فبعضها يستند على احصاءات عام ١٩٥٢ وبنصهـا (وهـذا الأحـدث) على إحصاءات عام ١٩٧٢. لذا ودفعاً لكل لبس، رفعت هذه المعلومـات، وسأتـركهـا في حوزة الـورثـة أو لدى مكتبـة الأسد للامانة والتاريخ.

اننـا نضـع بعضـاً يسـيراً من تراث المـرحـوم عبـد القـادر عيـاش بين يدي القـارىء، وهي معلومات قيمة تحتاجها مكتبتنا العربية ويحتاجها القارىء العادي اكثر من الباحث المختص، لأن خصوصيتها تكمن اصلاً في عفويتها، وأسأل الله الرحمة للراحل الكبير عبد القادر عياش.. والله ولي التوفيق.

وليد مشوح

تقديم

ولـد الأستـاذ عبـد القـادر عيـاش في ديـر الزور عام ١٩١١ وتوفي فيها في عام ١٩٧٤ وقـد تنقـل في دراستـه بين ديـر الزور وبيروت وحمص ودمشق، مبعداً مع أهله عن ديـر الـزور لأن السلطـة الفـرنسية كانت قد نفت أسرته عن هذه المدينة لنشـاط والـده وأخـوتـه في منـاهضة تلك السلطة ووجودها الاستعماري وفي عام ١٩٣٥ تخرج من جامعـة دمشق حامـلاً اجازة الحقوق، وتولى عدداً من المناصب القضـائيـة والاداريـة قبـل أن يستقيـل من الوظيفة ليعمل محامياً، ولينصرف الى جانب عمله القـانـوني الى الكتـابـة والتأليف في كل مايهم ديـر الـزور، مدينته، ووادي الفـرات الـذي ينتسب إليـه، ناشـراً كتاباته في الصحف السيارة وبصورة خاصة في مجلة انشأها وراح يحررها بنفسه وينفق عليها من حر ماله ويوزعها على المهتمين بمواضيعها دون مقابل ومجلته هذه هي: «صوت الفرات».

وقـد ترك لنـا الاستاذ عياش رحمه الله من هذه الكتابات ذخيرة كبيرة يمكن اعتبـارهـا موسوعة تبحث في تاريخ وادي الفرات وجغرافيته وحضارته من مختلف

جوانبها وفي مختلف أسوارها. وعدا عن الصفة الموسوعية لهذه الكتابات فإنها تتميز بكونها عملاً منفرداً سد ثغرة في معارفنا عن وادي الفرات لم يتعرض أحد قبله الى سدها، كما أن أحداً لم يتقدم الى اكمال سدها بعده مع الأسف. ويزيد من قيمة هذا العمل كونه ثمرة جهد فرد واحد لم يسنده فيه معين لا في البحث العلمي ولا في التكاليف المادية. بل ان صاحب هذا العمل كثيراً ما افتقد التقدير لجهده ممن كان يرجى منهم العون فيه والمعاضدة له.

وقد اعترف الاستاذ عياش فيما كتبه في حياته بأن ابحاثه، التي كانت معدة للنشر في مجلة دورية تصطبغ في بعضها بصبغة الاستعجال واعتذر لذلك بعذر مفهوم ومقبول. فهو يذكر مثلاً في مقدمة بحثه عن منطقة البوكمال «اعد دراساتي هذه متسرعاً، لأغطي في أقل وقت، أكبر فراغ ممكن عن أحوال وادي الفرات، كما لو كنت المسؤول الوحيد عن هذا الفراغ واختصرها ما امكنني، وأقلل عدد نسخ الدراسة الواحدة لأضغط نفقات طبعها، لأنها على عاتقي الذي ينوء بها، حيث لا رواج لها. وبرغم ذلك اتابع اخراجها لأقدم الى الفرات خدمة ترضيني».

على أن ذلك لا ينقص من قيمة هذه الابحاث ولا يبرر تجاهلنا قيمتها. لا سيما حين نرى أن السنين تمر متتابعة. والتسهيلات للدراسة العلمية تتزايد، والمؤهلين للابحاث كثيرون ونظل نفتقد من يقوم بجزء ضئيل مما قام به عبد القادر عياش في التعريف بمنطقة مهمة، تزداد اهميتها يوماً بعد يوم بالنسبة لقطرنا وللمحيط العربي بصورة عامة، ونعني بها منطقة وادي الفرات.

د. عبد السلام العجيلي

كلمة

لكل ميدان من ميادين النشاط الانساني رواده الأوائل. واستاذنا الكبير المرحوم عبد القادر عياش كان وسيبقى الرائد الأول في ميدان التأريخ والكتابة عن وادينا العظيم، وادي الفرات في القطر العربي السوري. فهولم يترك، طيلة حياته المعطاء، جانباً من الجوانب التي تخص هذه الوادي وسكانه ومدنه وآثاره وحضارته، إلا وخصص له جزءاً هاماً من كتاباته وأبحاثه الكثيرة التي انجزها بدافع حبه للبحث العلمي ولبلده، ونشر كل ما من شأنه التعريف بهذا البلد وبسكانه وحضارته، والرفع من شأنه وشأنهم. معينه في ذلك ثقافة واسعة، وهمة عالية، وروح متابعة لم ينلها في يوم من الأيام ملل أو كلل. لقد تجول في أطراف الوادي وقام بابحاث ميدانية، وعايش الأحداث، وتحسس روح العادات والتقاليد والأمثال فيه، مكرساً لذلك الكثير من جهده ووقته وماله. لذلك فانه عندما كتب ووصف فقد أحسن الكتابة والوصف. وعندما فسر واستنتج فقد أصاب وأفلح في التفسير

والاستنتــاج ، وتمكن من الاحـاطـة بالأسبـاب والـدوافـع ومن الكشف عما صعب على غيره الكشف عنه من بواطن الأمور.

لقـد أصبحت كتـابات وابحاث الاستاذ عبد القادر عياش عن وادي الفرات ، تراثاً علمياً ومرجعاً أساسياً لكل دارس عربي أم أجنبي ، تراثاً تجب المحافظة عليه، ومن ثم نشره بالكامل. وإذا كانت المديرية العامة للآثار في القطر قد أخذت على عاتقها إنجاز الخطوات الأولى التي من شأنها الحفاظ على هذا الـتراث. وإذا كانت بعض دور النشـر الأجنبيـة قد بدأت بنشـر وتـرجمـة لقسم منـه . فان عمـل الأخ وليـد مشـوح ، وهـو أحـد باحثينـا الشباب من أصحـاب الاختصـاص في اللغـة والأدب والصحافة والنشر، والذي قام فيه بمراجعة وتحقيق بعض ما كتبه الاستاذ عبد القادر عياش عن حضارة وادي الفـرات والمـدن فيـه، يأتي اليـوم مبشراً ببداية العمل على تحقيق ونشر هذا التراث بالشكل الذي يستحقه، ويسهل وصول الدارسين والباحثين إليه .

ولا يسعني في نهاية هذه الصفحة التي أكرمني بها الأخ وليد مشوح من كتـابـه، لأسطـر فيهـا هذه المقـدمـة القصـيرة، معبراً عن بعض ما اكنه من احترام لاستـاذنـا المـرحـوم عبـد القـادر عيـاش، إلا أن أبـدي خالص امتنـاني، وعظيم تقـديـري للعمـل العلمي القيم الـذي أقـدم على انجـازه بكـل جرأة وثقة وموضوعية. راجياً أن لا يقف عنده. وأن يتبعه وبالتعاون مع رفاقه الشباب المختصـين بأعـمال جادة ونـاجحـة أخرى، تؤدي في النهاية إلى تحقيق ونشر كامل التراث. والله ولي التوفيق.

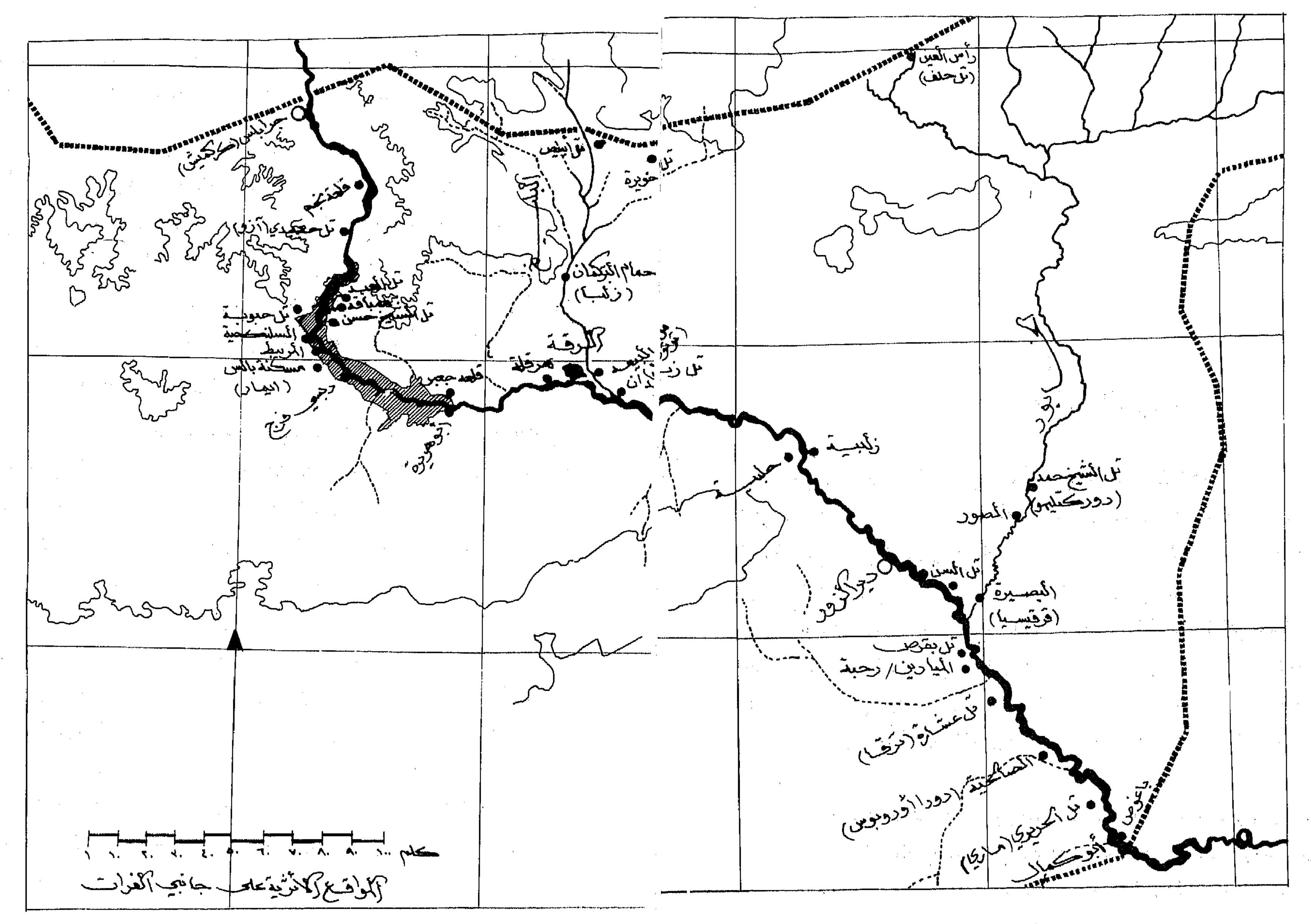
دمشق ١/ ٩/ ١٩٨٨

● الدكتور محمود رمزي

مدخل
حضارة وادي الفرات السوري

قلما تضاهي منطقة سورية أو عربية وادي الفرات السوري بكثرة آثاره وتعدد أصولها وتنوعها وأهميتها وشهرة بعضها شهرة عالمية، مغاور وكهوف من صنع انسان وادي الفرات قبل التاريخ، وتلال اصطناعية مجللة بحطام أوانٍ فخارية ملونة، وطرق قديمة مرصوفة بالحجارة، وآثار جذبت من نهر الفرات ونهر الخابور وسدود نهرية، وبقايا ركائز نواعير ومطاحن مائية وحمامات تقع على نهر الفرات مباشرة، وآبار قديمة في البادية الفراتية، ومدافن أرضية، وأبراج جنائزية، وزوايا، وصوامع منفردة على التلال، وأديرة، واطلال قلاع وحصون، وآثار مدن متعددة لها شهرة في التاريخ.

وفي بطون الكتب والمصورات القديمة أسماء مدن وقرى وقصور كانت على ضفاف الفرات وعلى ضفاف رافديه الخابور والبليخ، وفي سهول هذه الأنهر. وتراث أدبي ضخم هو نتاج أدباء وعلماء ولدوا ونشأوا في



رأس العين
(تل حلف)
جرابلس (كركميش)
قلعة نجم
تل خويرة
حمام التركمان
(زلبا)
مسكنة بالس
(ايمار)
قلعة جعبر
هرقلة
الرقة
زلبية
حلبية
تل الشيخ حمد
(دور كتليمو)
الصور
تل السن
دير الزور
البصيرة
(قرقيسيا)
تل بقرص
الميادين / رحبة
تل عشارة (ترقا)
الصالحية (دورا أوروبوس)
تل الحريري (ماري)
أبو كمال
كلم ١٠٠ ٩٠ ٨٠ ٧٠ ٦٠ ٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ١
المواقع الأثرية على جانبي الفرات

مدن وادي الفرات السوري القديمة ، وفي قراه ، فنون من الأدب الشعبي موفورة بما فيها من الأساطير والمعتقدات ذات الصلة بحضارات وادي الفرات القديمة .

كانت لوادي الفرات حضارات قديمة مزدهرة ، ولا عجب ، فلقد بدأ التاريخ على ضفاف الانهار الكبيرة ومنها الفرات . وكانت لهذا السبب أهميته الكبرى . وما زال له أهمية كبرى لغزارة مياهه واتساع سهوله وخصوبة أرضه ، ولطول مجراه (٢٤٠٠ كم) من منبعه الى مصبه في الخليج العربي . (طول الفرات السوري ٦٨٠ كم) وتشكل مياهه ٩٠٪ من مجموع مياه سورية ، وله امكانية كبيرة للري والزراعة وإقامة السدود لتوليد الكهرباء وانارة المدن والقرى وتشغيل المصانع .

يمر الفرات حالياً بأراضي سبع مناطق هي : منطقة جرابلس ، ومنطقة عين العرب ، ومنطقة منبج ومحافظة الرقة ومركز دير الزور ، ومنطقة الميادين ، ومنطقة أبو كمال ، وعليه مئات القرى والمزارع .

كان لوادي الفرات شهرة مستفيضة في العصور القديمة . وتعود أهمية الفرات الى أنه كان طريقاً «مائية» سلكتها سفن شعوب كثيرة . وكانت ضفافه طريقاً برية هامة . وكانت الضفة الغربية بين مدينة الأنبار في العراق وبين حلب تعرف في العصر العباسي بطريق الفرات .

وعن طريق الفرات المائي والبري نشأت كثير من العلاقات بين شعوب الشرق الادنى القديمة . وتأسست على ضفافه الموانىء النهرية التي كانت مراكز تجارية وقواعد عسكرية . وشيدت عليها القلاع منذ القديم لحماية طرقه ومدنه وقراه . وعرفت سهولة نظاماً محكماً للري في عهود السومريين والبابليين والفرس والرومان والعرب خربه التتر في القرن الثالث عشر الميلادي .

كانت أعمال الري المنظمة وخصوبة الارض التجارية، والوحدات السياسية الكبرى أساس ازدهار حضارات وادي الفرات القديمة.

ليس بين كل الوديان التي تضاهي وادي الفرات مساحة وغزارة مياه وخصوبة أرض، أو بين كل الشعوب التي تناهز شعب الفرات في الاهمية التاريخية والقومية، بلد أو شعب ناله من اهمال الباحثين والكتاب والصحفيين في العصور الحديثة ما نال وادي الفرات وسكانه.

فهنا بوادي الفرات السوري مدن قديمة، ومدن قديمة حديثة أخذت دوراً عظيماً في التاريخ العربي ولكن ما نعرفه عنها ضئيل جداً، اذا قيس بما نجهله...

لقد ازدادت معرفتنا نسبياً بمجاهل المنطقة المتجمدة الشمالية أو الجنوبية، بينما لا تزال معلوماتنا عن المدن الفراتية ضئيلة جداً. ويرحل أساتذة تدريس مادة الجغرافية بجامعتي دمشق وحلب الى أقطار أوربا وآسيا وأميركا وافريقية ولكنهم يهملون زيارة وادي الفرات والتعرف على مدنه وسكانه وجغرافيته.

لقد أخرجت المدن الفراتية السورية في كل العصور أدباء وعلماء كباراً شاركوا في الحركة الفكرية والادبية في العصور العربية. وبالرغم من ذلك لم يهتم الكتاب العرب القدامى ولا المحدثون بتاريخ هذه المدن: الرحبة وقرقيسيا والرصافة والرقة وجعبر وبالس وحران ومنبج وغيرها....

تطالعنا كتب التراجم والسير والطبقات والادب بالحراني والرقي والبالسي والرصافي والجعبري والمنبجي بثبت طويل من هذه الأسماء، لا يكاد ينقطع، قل أن اخرجت مدن أخرى مثل المدن الفراتية مقدار هذا العدد من الادباء والعلماء. وبسبب تميزهم، حفظ التاريخ الادبي نسبتهم

الى مواطنهم الفـراتيـة . وليس بين الادبـاء والعلماء من هو أكثر لمعانا «من هؤلاء الحـرانيـين الذين تتابع ظهورهـم في مختلف العصور الاسلامية نسبة» الى موطنهم حران ، احـدى مدن بلاد مضـر التي كانت الـرقـة حاضـرتها . وحسبنا أن نعلم أن من بين من أخرجتهم حران العالم الفلكي الشهير البتاني وشيخ الاسلام العالم العامل ابن تيمية تقي الدين .

لم يكن بد لكثير من الشعراء العرب والادباء والفلاسفة والكتاب من أن يأتـــوا الى وادي الفـرات السـوري لأسبـاب سيـاسيـة أو اقتصـاديـة أو اجتـماعيـة ، فيلبثـوا قليـلا «أو كثـيرا» ويتنقلوا في أمـاكنه لتوسطه بين الشام والجزيرة والعراق ، لوجود امارات عربية في أطرافه ، ولوجود قبائل عربية في سيف الفـرات وبـواديه قبل الاسلام وبعده . كقبيلة تغلب وطي ونمير وسليم وكلاب وقي واياد وخزاعة ، نزحت اليه من موطنها في الجزيرة العربية . ولم تنقطـع الصلة بين هذه القبـائـل في موطنهـا الاصـلي وموطنها الجديد (وادي الفرات) والجزيرة الفراتية .

وقل من بين الشعراء العرب الاقدمين : حجازيين وعراقيين وشاميين جاهليين واسلاميين من لم يذكر أماكن وادي الفرات في شعره .

ومع ذلك لم ينل وادي الفرات ولم تحظ مدنه باهتمام الكتاب العرب . فلا يوجد فيه ولا في أي مدينة من مدنه كتاب أو بحث أو رسالة .

ان بحوث الكتاب العرب التاريخية الحديثة المطبوعة تكاد تدور كلها حول العواصم العربية القاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب والقدس وبغداد .

وللقـدامى العـرب عذرهم ، اذا هم لم يتركـوا لنا كتباً في تاريخ المدن الفـراتيـة السورية ، لعدم توفر المصادر التاريخية لهم ، ولصعوبة المواصلات ولأن علم الآثار والحفريات لم تكن قد وجدت ، ولأسباب أخرى . على أن

بعضهم لم تفته فكرة وضع مصنف في تاريخ احدى المدن الفراتية، فكتب في ناحية محدودة بايجاز، وخاصة الجزريين وهم المتنسبون الى الجزيرة الفراتية بوادي الفرات السوري.

ولكننا لا نعلم ما هو عذر المحدثين العرب وقد توافرت لهم المصادر بوجود المخطوطات القديمة وكثرة المطبوعات بشتى اللغات وظهور الحفريات وانتشار البحوث الاثرية، وتهيؤ الأسباب من مواصلات ومكاتب، إلا أن يكون هؤلاء الكتاب المؤرخون للساسة والأدب وهم من غير أبناء الفرات لايعنيهم أمر تاريخ مدنه. في حين أن هذا التاريخ جزء من التاريخ العربي لم ينفصل عنه في عهد من العهود. ولا يفهم التاريخ العام فهماً صحيحاً الا بفهم جزئياته وتمثل دورها وطبيعتها.

ولم يتهيأ لمدن وادي الفرات السوري في العصر الحالي انجاب مؤرخين يكتبون تاريخ مدنهم لتأخر المنطقة، وغلبة الامية عليها في العصور الأخيرة وحداثة عهدها بالتعليم الذي أخذ ينتشر مؤخراً.

ان وضع بحوث في تاريخ المدن الفراتية لأول مرة ـ ضرورة قومية تتطلبها نهضتنا في بعثها الحالي، لتجديد معرفة أبناء الاقطار العربية بلادهم.

لقد كانت القاهرة تعرف جيداً قلعة الرحبة على الفرات في الشرق وقلعة جعبر على الفرات في الشمال ـ كانتا حصني وحدة الشام ومصر على الفرات لا لصد التتر في القرن الثامن للهجرة. وكانت القاهرة تكلأهما بالعناية والاهتمام الشديد. ولقد جاء البطل والرجل العظيم الظاهر بيبرس الى الفرات مجاهدا التتر وانتصر عليهم، فكبر الفرات وكبرت معه دمشق والقاهرة وجميع مدن الشام ومصر والحجاز.

إن تاريخ المدن الفراتية لما يبعث في النفس العربية نشوء الفخر

والاعتـزاز . وأنـه ليـذكـرنـا بجهـود شمب الفـرات العربي في سبيل ابداع حضارات زاهية سجلها التاريخ . وبامكانياته وقابليته العظيمتين .

اننـا أهل لابداع حضارة جديدة . حضارة نقيمها على أساس العلم والصنـاعـة على ضفـاف الفرات الذي شهد فيها مضى حضاراتنا الزاهية . والتي ضاهت أرقى حضـارات العـالم القـديم . الفـرات لايفتأ يتطلع إلينـا لاعادة الأعمال الحضارية الحديثة على ضفاف متمثلة في مدن عصرية وقرى حديثة وسدود عظيمة وطرق جديدة وخطوط حديدية ومصانع ومطارات . باشرنا بإرساء أساساتها وشرعت تخطو وتتحقق .

دير الزور ـ سورية　　　　　　　　عبد القادر عياش

البو كمال

التاريخ القديم للمنطقة
ماري (تل الحريري) عاصمة الفرات الأوسط

لم نعد نرجع أصول الفنون الى بلادالاغريق، صرنا نعرف أن أصول الحضارة، تمتد الى أبعد من ذلك بكثير، الى سومر - أقدم كل هذه الأمم - لقد قامت الحضارة السومرية على دلتا شط العرب منذ خمسة آلاف سنة، من أهم الحضارات التي عرفها التاريخ. وكان الكشف عنها من أروع الأمور في علم الآثار سكن بلاد النهرين منذ فجر التاريخ، قبائل من أصول مختلفة، هاجرت الى الأقليم الخصيب الذي تكون من الأرساب الفيضي لنهري دجلة والفرات في الخليج العربي. كانت سومر أول القبائل المهاجرة الى المنطقة في أواخر الألف الرابع ق.م.

اختلف العلماء في الاصل الذي انحدر منه الشعب السومري ، الذي عرف بأنـه شعب ذكي مبـدع قيـل أتـوامن آسيـا واستقـروا في دلتـا شط العـرب ، ثم السـاميـون الاكـاديون الذين وحدوا سومر وآكاد ، وعرفت باسم بابل ، حين تمكن العموريون من تدعيم وحدة البلاد تحت سلطة بابل في الالف الثاني ق . م . وهم ساميون قبائل ، هاجرت من شبه الجزيرة الى الجزء الشمالي الغربي لبلاد سومر وآكاد .

أخذ الشعب السومري يؤسس على شط العرب مدناً هي : أور ، واريدو ، وكيش ، ولارسـا ، ولجش حوالي (٣٠٠٠) ق . م . واخـذ يتقـدم الى الشـمال ، وانتقلت الحضـارة السـومـريـة على طول مجرى الفرات ودجلة . فكانت الاساس لحضارة (مابين النهرين) .

ولكي يأمن السـومـريـون شر فيضـان الفـرات ودجلة . أجـروا ميـاههما في قنـوات ، تخترق البـلاد طولا وعـرضاً ، فكان لهم نظام ري محكم يرجع عهده الى أربعة آلاف سنة ، وكان الأساس الذي قامت عليه حضارتهم .

أخـرجت الحقـول بفضل الري محصولات وفيرة من الذرة والشعير والقمح والبلح والخضـروات . ظهـر عنـدهـم المحراث تجره الثيران ، واستخدموا النحاس والقصـديـر ، وصنعـوا منهـما البرونز . وعرفوا الحديد ، وصنعوا منه آلات . وكانت صناعة النسيج منتشرة . وكانت البيوت من الغاب تعلوه لبنات من الطين والقش . وكان لها أبواب من الخشب . وكانت البضائع تنقل بطريق الماء بمراكب . وكانت توجد صلات بين سومر ومصر والهند .

وقـد وجـدت ألـواح طينيـة عليهـا كتابات سومرية هي وثائق تجارية ، دلت على حياة تجارية ناشطة .

كانت كل مدينة تحرص على استقلالها ولها ملك كاهن ، سمى العلماء هذه المدن : «حكومات المدن» كانت ماري احداها .

استطـاعت شخصيـات قويـة ان تخضـع المـدن لسلطـانهـا . وتنشيء

امبراطورية. كان الملك الأعظم، يعيش في قصر منيع، يحتوي على العديد من الغرف والردهات والفسحات، فيه هيكله ومكتبه ومكاتب كبار موظفيه ومكتبة.

كانت النزعة الانفصالية التي تسود المدن السومرية حافزاً قوياً للحياة والفن. وباعثاً على النزاع من أجل السيطرة على طرق التجارة وتوسع حدود الدولة.

كان لكل مدينة مجموعة آلهة تمثل النشاط البشري. وكان السكان يقدمون اليها القرابين من مال وطعام في المعابد. وقد أثرى الكهنة من القرابين.

وكانت تلحق بالمعابد مدارس يعلم فيها الكهنة والذكور والاناث.

كانت نساء الطبقات العليا يحيين حياة مترفة، يستعملن الأصباغ والجواهر. وكان عندهم نظام للمجاري وتصريف الفضلات في الأحياء المأهولة. ولم يكن الأثاث يخلو من الفن. كانت بعض الأسرَّة تطعم بالعاج والمعادن. وكانت التماثيل تزين الهياكل. وبلغت صناعة الذهب مستوى رفيعاً.

ابتدع السومريون الخط المسماري في الكتابة، وكتبوا على ألواح الطين حوالي سنة ٣٢٠٠ ق. م فكانت من أروع ما خلفوه، وأعظم مالهم من فضل على الحضارة العالمية.

بدأ المؤرخون السومريون من عام الفين ق. م يكتبون تاريخهم وأساطيرهم ولم يحل عام ٢٧٠٠ ق. م حتى كان عدد كبير من دور الكتب العظيمة قد أنشىء في المدن السومرية.

أخرجت سومر وآكاد حتى بعد انقراضها صناعاً وفنانين وشعراء وحكماء واداريين ومؤرخين.

ان عناصر معينة من الثقافة المصرية القديمة مستمدة من بلاد سومر وبابل. لقد استمدت ماري المستقلة حضارتها الراقية من الحضارة السومرية في عهد ملوك الفترة السومرية الأولى.

لقد دمرت الحروب المدن السومرية ومنها ماري ، واختفت آثارها في بطون التلال التي تقوم على شاطيء الفرات .

في تل الحريري المرتفع ١٤ م والذي يبعد عن البوكمال (١٦) كم الى الغرب الشمال بقرب قريتي السيال والغبرة في محافظة دير الزور، وعلى شمال الطريق المزفتة بين دير الزور والبوكمال ، تختفي ماري احدى العواصم القديمة الكبرى ، وعاشرة المدن العظمى ، التي قامت فيها بين النهرين . وعروسة الفرات الاوسط (السوري) في ذلك الحين وحاضرته .

كانت ماري من المدن الضائعة . وبقي تل الحريري ينتظر في صبر منذ آلاف السنين من يكتشف كنزه ، الى ان جاء عام ١٩٣٣ ، حيث كان بعض السكان يحفرون في التل لاستخراج حجر يضعونه شاهداً على قبر . عثروا على تمثال ضخم بدون رأس ، مع رأس مكسور. صور ضابط الاستعلامات الفرنسي التمثال والرأس . وأرسل الصورة الى متحف اللوفر بباريس ، الذي طلب من مديرية الآثار السورية منحه الامتياز للتنقيب في تل الحريري ، أجيب طلبه ، فأوفدت بعد ١٥ يوماً العالم الآثاري الدكتور اندريه بارو على رأس بعثة . وابتدأ العمل في ١٥ كانون الأول عام ١٩٣٣ . وبعد ثلاثة أيام من العمل ، وجد تمثالاً بحالة سيئة ، يمثل إنساناً يحمل بين ذراعيه حملاً ، دون أن توجد عليه كتابة . اشعر باريس بذلك ، فأجابته بأن عليه أن يجد بأي ثمن أثراً عليه كتابة . وبعد شهراً اختار مكاناً آخر للحفر مستعيناً بعمال من المنطقة . وعند أول ضربة معول ، وجد العمال تماثيل صغيرة مهشمة . وبفضلها رأى وثائق تنتمي الى عام ٣٠٠٠ق . م . وبعد أيام وجد على بعض هذه التماثيل كتابة معناها (ملك ماري) . وكتابة معناها الآلهة عشتار ، مع تسجيل صغير جداً قرأه ، فصار متأكداً من أن تل الحريري هو (ماري) . وانه يقف على معبد يخص الآلهة عشتار. ولديه تماثيل تنتمي الى ٣٠٠٠ق . م .

ومنذ عام ١٩٣٣ قام بارو وبعثته بـ(٢٠) حملة حفريات . وهذه الحملة هي

العشرون. واصلت البعثه عملها حتى شتاء ١٩٣٨ - ١٩٣٩، واضطرت للتوقف بسبب الحرب. قامت خلالها بخمسة مواسم اسفرت عن نتائج عظيمة.

استأنفت البعثة عملها ابتداء من سنة ١٩٥١ - ١٩٥٢، واستمرت الى اليوم. سمحت الحفريات بأن تجد البعثة ليس فقط مدينة فوق العادة ولكن حضارة فوق العادة.

بنيت ماري باللبن، لعدم وجود الأحجار. وبرغم ذلك يعتبر بناؤ ها أجمل الأبنية في التاريخ القديم، نظراً لاحتفاظها بشكلها ولعظمتها وأهميتها.

لقد وجدت البعثة قصراً ملكياً (بلاطاً) يعود الى (٢٠٠٠) سنة ق.م يحتوي على ٣٠٠ غرفة وردهة وساحة، تغطي هكتاراً ونصف. وهو بناء واحد وكان يعد من أفخم القصور التي شيدت في بلاد ما بين النهرين، لدرجة أن ملك أوغاريت أرسل خطاباً الى الملك الحوري «يارملم» يطلب تعريفه بملك ماري الذي يملك قصراً فخماً، زينت جدرانه بالمناظر الملونة، وذلك لرغبته في تشييد قصر على نمطه.

ومن أحسن الآثار التي بقيت من قصر ماري مجموعة من التصاوير الجدارية الملونة على سطح أبيض، وتصور مواضيع دينية وأساطير ومواضيع من الحياة اليومية، يرى الملك ماثلاً أمام عشتار اله الحرب. وأشخاصاً يحملون أواني الماء المقدس وغيرها، ووحدات من الحيوانات الخرافية، وبعض الأشجار.

كما وجدت عدة معابد مملوءة بالتماثيل الموهوبة الى الآلهة.

وتحت هذا القصر وجد قصر آخر أبعد تاريخاً، يعود الى ٣٠٠٠ سنة ق.م مبني باللبن ومحتفظ بشكله.

إن أهمية ماري ليست بتماثيلها وبنائها فقط، ولكن بوثائقها الملكية، التي وجدت. وتتألف من (٢٥٠٠٠) لوحاً من الطين مليئة بالكتابة. وعرف العلماء أنها مراسلات ملكية بين آخر ملوك ماري الذي يسمى «زمرليم» مع جميع الملوك المجاورين والدول المجاورة. مثلا مع ملك العشارة التي كانت تسمى «تركة»

واسم حاكمهـا «بـاروينى» الـذي يكتب الى ملك ماري . وقـد عثـر على جميـع المـراسـلات بين هذين الملكـين . وعثر على أسماء كثيرة للمدن الاخرى مثل ملك بابليـون حمورابي ، واسم ملك جرابلس «كـركميش» الذي ارسل الى ملك ماري نبيذاً جيداً . ووجدت أسماء مئات القرى والانهار، عرفت بعد اكتشاف ماري .

هذه المراسلات تعتبر فريدة من نوعها في تاريخ الشرق، حيث استطاع من خلالها اعادة كل التاريخ السياسي منذ (٢٠٠٠) سنة ق.م .

لقـد نشـرت البعثـة حتى الآن ١٤ مجلداً تحتـوي نصوصاً لبعض اللوحات الطينيـة المكتـوبـة مع ترجمتهـا والتعليق عليها . وعندما تنتهي قراءة جميع اللوحات تعاد الى سورية .

عرف من هذه اللوحـات أن مملكـة ماري ، كانت في وقتهـا أقوى الممالك في الشـرق، فقـد استطاعت عبر قرون أن تصمد ضد السومريين، ثم ضد البابليين الـذين أزعجهم أن تحول ماري بينهم وبـين الوصول الى البحر الأبيض المتوسط . فقـد كانت ماري قويـة . فقـد نصت الـوثـائق المكتشفـة على أن الممالك المجاورة لماري ، كانت تشكـل أحـلافـاً عسكـريـة ضد مملكـة ماري . ولـذلك قد هدمت وحـرقت في البـدء حوالي (٣٠٠٠) ق.م من قبـل السـومـريـين، واخـيراً من قبل البابليين في مطلع (٢٠٠٠ ق.م) .

ومن الـــوجهـــة الفنيـــة ، فإن اكتشـــاف ماري كشف عن حضـارة لم تكن معـروفـة، وغـير مشكوك فيها حتى الآن . تمثلت في القصر الملكي (البلاط) على النمط السومري . يرتقي الى ماقبل عهد حمورابي ، ومما يزيد في قيمته بقاء جدرانه سالمـة بارتفـاع يبلغ في بعضهـا أكثـر من خمسة أمتار. مما لا نظير له في أية بقعة من بقـاع آسيـا الغـربيـة ، يرجـع تاريخها الى مثل هذا العهد، أي الى الألف الثالث ق.م . ولهـذا فإن لقصـر ماري أهميـة كبرى ، بما يقدم من معلومات عن فن البناء والنحت والتصـويـر في الشـرق القديم . فتعرف طريقة تنوير الغرف نهاراً ، وقضية فقـدان النـوافـذ، وارتفـاع الابـواب، وطـريقة صنع السقف، وعلو البناء وشكل

المخطط. وتصريف مياه الاستعمال، ودفن الموتى وتزيين وزخرفة القصور والتعليم والحلي.

شيد القصر على مراحل. باللبن، ثم تطلى الجدران بالطين المخلوط بالتبن. وكان الحجر والآجر يستعملان في الأساس. وكانت جميع وسائل الرفاهية متوفرة في القصر: حمامات ومغاطس ومطبخ وأفران ووجدت غرفة منقوشة بافاريز وأشكال هندسية، وقاعة واسعة فيها عدة صفوف من مقاعد اللبن، لعلها كانت مدرسة لتعليم الأطفال قواعد الكتابة والحساب، فتكون أقدم مدرسة يعثر عليها المنقبون، وكانت أدوات القصر المنزلية من المعادن والفخار.

أما من جهة النحت فقد عثر في البلاط وفي المعابد على تماثيل كثيرة، وأكبر تمثال استخرج من البلاط ينتمي الى (٢٠٠٠ ق. م) ويوجد تمثالان هامان في متحف حلب. أولاً التمثال الذي يحمل الوعاء الذي يندفع منه الماء، وهو آلهة الخصب، أجمل تمثال في العالم اكتشف من عصر (٢٠٠٠ ق. م)، ثانياً: تمثال ملك ماري، وهو مرسل من مدينة أور على الخليج العربي. وهما أكبر تمثالين اكتشفا حتى الآن ومع التماثيل وجد التصوير التشكيلي محفوراً على الجدران، وعلى قوالب الحلوى من الفخار، حفر عليها مشاهد جميلة لحيوانات وطيور وأشكال هندسية. وقد وجد في المعابد تماثيل صغيرة، ترجع الى عدة آلاف سنة قبل المسيح، قدمها المتدينون، بعضها ذو أهمية عالية، مثل تمثال (أورنينا) على ظهرها كتابة تشير الى أنها امرأة كانت راقصة أو مغنية في بلاط الملك (ابلونئيل).

واكتشفت في ماري جرة مليئة باشياء ثمينة بينها دبابيس ثمينة تستعملها المرأة لتشبيك ثيابها. وتمثال من البرونز والذهب وطوق من الذهب تتدلى منه حجرة كبيرة ثمينة، ونسر كبير يفرش جناحية، وأساور من الذهب وأشياء ثمينة، كان أرسلها ملك أور، الجار القوي الى ملك ماري في عصر (٣٠٠٠ ق. م) مما يظهر أهمية ملكة ماري السياسية.

آثار ماري لا تكشف فقط مدينة مع معالمها الأثرية، ولكنها تكشف عن

حضـارة بمنتهى الاهمية والعجب تدل على المستوى الراقي الـذي وصلت اليه ماري، ليس فقط في عصر (٣٠٠٠ ق. م) ولكن أيضاً قبل ذلك بكثير.

واذا كانت البعثة الآثارية الفرنسية، قد قامت بعشرين حملة حفريات في ماري، فهـذا يؤكـد تأكيداً كبيراً الأهمية البالغة لماري، ومما يدل على أن سكان وادي الفرات القدماء كانوا متمدنين وطلائعيين.

وضعت البعثة الآثارية لماري قائمة بأسماء ملوكها الذين عرفوا حتى الآن، بما قرىء من الألواح. ولقد وجدت لهم في قصر ماري تماثيل ضخمة، كانت لهم عنايـة بالعلوم والآداب والمكتبات والفنون والبناء، شجعوا أربابها. فلا عجب أن جاء قصـر ماري أضخم قصـر اكتشف من آثـار ذلك العهد. ولا يوجد ما يضاهيه سوى قصـر الامـبراطـور سرجـون في خورسبـاد احدى عواصم الآشوريين شرق الموصل. وقصر ماري اقدم من قصر سرجون بألف سنة. وكان قصر ماري يحتفظ بأرشيف منظم (سجلات ووثائق).

احـدث اكتشـاف ماري دويـاً لدى علماء التـاريـخ والآثار، فقد كانت من أشهـر عواصم العـالم القـديم تضـارع بالشهرة بابل ونينوى. وبظهور ماري تبلج التاريخ السوري، حيث ظهرت أقدم مملكة سورية.

ان معلوماتنا عن ماري لا تزال ضئيلة. فما زال معظم المدينة لم يكشف بعد.

لقـد اشتبكت مملكـة ماري مع مملكـة بابل بحروب طويلة، واقتحم جيش حمورابي ماري مرتين وأحرقوها ودمروا قصرها الملكي. ثم زالت في عام ١٨٥٠ ق. م.

توجـد الآثـار المكتشفـة في ماري في متحفي دمشق وحلب ومتحف اللوفـر بباريس. وللدكتور اندريه بارو مؤلفات مصورة عن ماري.

ان من دواعي سعـادتي وافتخـاري زيـاراتي لماري ولـرئيس بعثتها الآثارية الدكتور بارو. اكرر له الشكر الجزيل عن أبناء وادي الفرات في محافظة دير الزور،

على ما أسدى اليهم من الفضل العظيم باكتشافه مدينة ماري، الذي اقتضاه عشرين حملة (١٩٣٣ - ١٩٧٢) حتى اليوم.

آثار الباغوز

عند قرية الباغوز الواقعة في أسفل هضبة عالية، تسمى تل الهري ويسمى الموقع العرسي. وفي الامثال الفراتية مثل، يضرب في بعد المسافة هو: «من الدبسي الى العرسي». والدبسي. قرية من قرى مخفر أبي هريرة بمحافظة الرقة على الطريق العام بين حلب ودير الزور على ضفة الفرات الغربية وعندها كذلك آثار مدينة من مدن الفرات القديمة، وعلى قمة هضبة الباغوز، كان يقوم حصن يعود تاريخه الى عهد مدينة ماري القريبة من الباغوز يفصل بينها نهر الفرات. ولعله كان من خطوط دفاع ماري على ضفة الفرات الشرقية يحميها. وقد درست آثار الحصن، ولم يبق منها غير ثلاثة أبراج متباعدة عن بعضها البعض، اثنان مخربة عبارة عن انقاض. والثالث الى جنوبها ما زال قائماً مرتفعاً عدة أمتار مبنياً بالحجارة ومطلياً بالجص الابيض وهو برج جنائزي، حيث توجد في قاعدته مقابر، وما تزال أدراجه سليمة وقد صعدت فيها. ربما كان في نفس الوقت مرقباً أو زقورة لبلدة صغيرة. والى جنوب البرج المذكور، توجد مقبرة في بطن الأرض تشبه المغارة، حفرت قبورها في جوانبها، وقد اكتشفت في عام ١٩٤٤ نزلت اليها في سنة ١٩٥٧.

والمقبرة تشبه المقابر الرومانية. وقد يكون الرومان استولوا على هذا الموقع المرتفع. ولعله كان من بعض حصونهم تجاه الفرس، وهو قريب من موقع دورا اوروبوس جنوبها على بعد أربعين كيلومتراً ويفصل بينهما الفرات وربما كان حصناً للفرس. وربما أتى لفظ الباغوز من باخوس إله الخمر. وربما كانت السهول المتصلة بالموقع تزرع كرماً ومنها يعتصر الخمر.

والباغوز لفظة تركية تعني المضيق. باعتبار الهضبة المطلة على النهر تتحكم

بالطريق المائية. وكانت السفن منذ العهد السومري وبعده الحثي تمخر في نهر الفرات وتقطن في قرية الباغوز فرقة المراسمة أصلها من عشيرة الجبور. والمراسمة من لواحق عشيرة العقيدات في منطقة البوكمال.

دورا أوروبوس (صالحية الفرات) الميناء التدمري على الفرات

دخلت الحضارة الاغريقية الى سورية مع الاسكندر المقدوني سنة (٣٣٢) ق.م وحاول خلفاؤه صبغ الشرق الادنى بالصبغة الاغريقية. وفي جملة ما اعتمدوا من الوسائل انشاء شبكة من المراكز والمدن في سورية الشمالية وبلاد ما بين النهرين وفارس، فأنشأوا انطاكية، وسلوقية القريبة من مصب العاصي، ومدينة اللاذقية، ومدينة أفامية، واسسوا على الفرات «دورا أوروبوس» أو «دورا نيكاتوريس» أي مدينة نيكارتور، قائد من كبار الشخصيات المقدونية (٣١٢ - ٣٨٠) ق.م قيل هو الذي أنشأها في عام (٣٠٠) ق.م. كان من أعوان الملك اليوناني سلوقس الأول. وربما كان حاكم بلاد ما بين النهرين.

ان لفظة دورا سامية آشورية تعنى حصن أو محلة. وفي العصر السلوقي أضيفت إليها لفظة (أوروبوس) وتعني مدينة، وقيل أنها اسم المدينة التي ولد فيها سلوقس الأول في مقدونيا.

ان بداية تاريخ دورا مجهولة. وقد كانت جزءاً من المملكة السلوقية واحدى حواضرها، وقلعة من قلاع الدفاع عنها، ومحطة هامة للقوافل التي تخترق آسيا الصغرى في طريقها الى ايران والهند على الطريق التجارية ـ طريق الفرات، بين البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي. وكانت مستعمرة هلينية، ومركزاً للتجارة في عهد السلوقيين. ويقال ان نيكاتور هو الذي أحاط المدينة بسورها الأول القديم ليحميها من الاخطار.

وهي في حد ذاتها تتمتع بموقع عسكري وموقع جغرافي واقتصادي ممتاز

واقعـة على هضبـة على ضفـة الفرات الغربية، تطل على النهر والصحراء. كان الفـرات يجري من تحتهـا من الشرق، وهي معزولة من جهاتها الثلاث. الاخرى بوديـان، ولا يمكن بلوغهـا الا من الجهـة الغـربيـة ولذا فقد حصنها أهلها تحصيناً قوياً. وتقع شمالي مدينة ماري.

تبعد ٨٥ كم عن دير الزور الى الجنوب الشرقي، و١٤٠ ميلا عن تدمر الى الشرق. و٣٥ كم من الخابور، ومنطقتها تفصل بين الحدود السورية العراقية.

ولـذا ازدهرت تجارتها، وازداد عمرانها، بلغت مساحتها ١٣ هكتاراً وكانت مقسمـة بواسطـة شوارع متقاطعة بزوايا قائمة كرقعة الشطرنج. وبلغ عدد سكانها عشـرين الفـاً خليطـاً من مقدونيين واغريق وساميين، والتقت فيها ديانات شتى. حملت اليها هذه العناصر لغاتها وآدابها وفنونها وعباداتها وعاداتها.

ولما ضعفت المملكة السلوقية، استولى الفرس (الفرثيون الأركاشيون) على المدينة منذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد وظلت في أيديهم ٢٠٠ سنة.

ترك الفرتيون للمقدونيين والاغريق قدراً كبيراً من حرية التصرف بشؤونهم.

ولمـا احتـل الـرومـان سوريـة في سنة ٦٤ ق.م لم يمتد اليها نفوذهم احتلها الـرومـان في عهـد الامـبراطـور الـرومـاني (تراجان) الذي زحف لاحتلال مدينة (قسطيفون) على دجلة في العراق سنة (١١٦) ب.م واستخدمها الرومان كمعقل على حدود الامبراطورية من جهة الفرات.

أوكل الامبراطور (هادريان) (١١٧ ـ ١٣٨م) ادارة المدينة الى مملكة تدمر. ومنـذ ذلـك العهـد، ارتبـط مصـيرها بتدمر، التي اخذت تزدهر لفضل التجارة. وازدهـرت بازدهـارهـا. وكـانت ميناء لتدمر على الفرات. وبينهما طريق معبد عبر الصحـراء. وكـانت فيهـا جالية تدمرية كبيرة. وقد أثرت الحضارة التدمرية تأثيراً بالغـاً في دورا اوروبـوس، ظهر في معابدها وتصاويرها. وما عدا التحصينات التي

كانت يونانية، فإن جميع الآثار التي وجدت فيها هي من طراز تدمري وفرتي وروماني.

أما الكتابات فجميعها يوناني، وبعضها تدمري ولاتيني. والتاريخ يؤرخ به هو من عهد سلوقس الأول الذي يبدأ تشرين الأول سنة ٣١٢ ق. م).

زادت مساحتها حتى أصبحت ٧٢ هكتاراً. وكان للمدينة ثلاثة أبواب. الأول في طرفها الغربي، والى الآن يسمى باب تدمر، كانت تخرج منه القوافل الى تدمر. والثاني في جهة النهر، والثالث في الجهة الجنوبية.

في ايلول ١٦١ ب. م، خربت هزة أرضية المدينة وتحصيناتها، ثم أعيد بناء الدور. ولم يعد بناء القلعة الا بعد ان استولى القائد الروماني (لوسيوس فيروس) على المدينة، وهو الذي هزم الفرتيين تحت اسوار دورا سنة ١٦٥ وصارت قلعة رومانية، حصنها (سبتيموس سويرس) وكركلا، وعادت الى التدمريين مرة ثانية بموافقة الرومان الذين كانوا يفيدون من قيام التدمريين بالتجارة، وكان هؤلاء تحت نفوذ روما.

ولما خلع الجند الروماني الامبرطور (غودريان) عن العرش الروماني، نادوا فيليب العربي امبراطوراً مكانه عام ٢٤٤م، وبينما كان الامبراطور السابق سجيناً بجانب دورا اغتاله جنده.

ظلت (دورا) مرتبطة بتدمر الى ان سقطت تدمر بيد الامبراطور (اورليانوس) عام ٢٧٣ م وبعد أن مضى عليها حقبة بيد الرومان، وكان فيها حامية رومانية، هاجمها الفرس الساسانيون سنة ٢٥٦ م وحاصروها، فدافعت حاميتها، واقامت سوراً يلي السنور الخارجي. ولكن الفرس شددوا الحصار عليها فسقطت بيدهم ودمروها.

وفي عهد الامبراطور قسطنطين في بدء القرن الرابع الميلادي، كانت دورا مخربة، يسكنها بعض الفقراء. ولما سار الامبراطور جوليان الى (قسطيفون) سنة ٣٦٣ لم يجد دورا الا خرائب.

لم يرد ذكرها في الفتوحات الاسلامية ، مما يدل على أنها مازالت مخربة . جاء ذكر منطقة (الفراض) ومرور خالد بن الوليد بها بطريق عودته من العراق الى الشام . قال المؤرخ العراقي الفريق طه الهاشمي : ان موقع الفراض هو منطقة صالحية الفرات ، دورا القديمة .

سميت صالحية الفرات ، لوجود قرية جنوبها على ضفة الفرات الغربية ، من قرى منطقة البوكمال تسمى الصالحية . او صالحية البوكمال . في وسط الطريق بين الميادين والبوكمال . وقرية الصالحية قديمة وفي المصادر السريانية أن مار دانيال الصالحي مولود في مدينة على الفرات . وقد ذاع صيته في النصف الأول من القرن السادس . وكان أول أمره رئيس دير الصالحيين واليه ينسب ، وربما كان على أنقاض دورا أوريس سمي دير الصالحيين أما نسبة الى الصالحية أو الى صلاح رهبانه وتقواهم .

لم يرد ذكر الصالحية ولا ذكر ديرها في المصادر العربية الاسلامية :

وفي شرق قرية الصالحية آثار ناعور على الفرات مبنية بالآجر ، كانت لسقاية السهل الممتد في أسفل الهضبة من جهة الجنوب والشمال . ويسقي اليوم بمحركات ديزل ويزرع حبوباً وقطناً . كان الطريق بين دير الزور والبوكمال يمر من وسطها .

يعود الاهتمام بحفريات الصالحية الى سنة ١٩٢٠ . يرجع الفضل بذلك الى الآنسة جوترود يل - المستشرقة الانكليزية . ومديرة مصلحة الآثار في العراق في العشرينات من قرننا ، وفي سنة ١٩٢٨ ، تضافرت جهود جامعة ييل الامريكية وأكاديمية الخطوط والآداب الجميلة الفرنسية على الحفر في دورا تحت ادارة السيدين فرانز كومان العالم البلجيكي ، ورستوفتزيف أستاذ التاريخ القديم في جامعة بيل ، بمساعدة من مؤسسة روكلفر . وعهدت ادارة الأشغال الى علماء فرنسيين واميركان . استمرت الحفريات الى سنة ١٩٣٧ .

كشفت الحفريات عن مدينة ازدهرت في عهد الفرس الساسانيين على

الخصـوص. وعن قصـر أمـير المـدينة داخلها. وكشفت الحفريات عن ١٢ معبداً وعن القلعة والساحة وعدة حمامات، تغطي ارضيات بعض غرفها الفسيفساء.

يعـود تاريـخ انشـاء الشـوارع الى العهـد اليوناني. وكشفت الحفريات عن السـوق والمنـازل وعدة كنائس وقوس نصر. ومنازل عديدة للطبقة الخاصة، زيّنت افـاريـز بعضهـا بتصـاويـر مأخـوذة من الفن اليوناني. وكشف التنقيب عن هياكل التدمريين. وجد فيها قطع تصويرية وقد امتزجت المعبودات الاغريقية بمعبودات بقية العناصر.

وكان معبد أرتميس نانايا في وسط المدينة من معابدها المشهورة، يرجع تاريخه الى تأسيس المدينة. ومعبد اتاركاتيس. ومعبد أدونيس ومعبد زوت تيوس. ومعبد الآلهة افروديت.

وفي القرن الثالث ظهرت فيها عبادات جديدة منها عبادة الآلهة فير، يمثلها هيكـل مزدان بنقـوش وتصـاويـر وقـد زينت الكنيسـة المسيحيـة (٢٣٢) م بقطـع تصويرية، يمثل بعضها الراعي الصالح.

وأهم ما عثـر عليـه في دورا كنيس يهودي يرجع تاريخه الى سنة ٢٥٠م هدم سنـة ٢٥٦ م بمحـاصـرة الفرس للمدينة لوجوده قرب أسوارها في الجهة الشرقية، طليت جدرانـه. وصـور تمثـل مشـاهـد من التـوراة. فنرى في احداها قصة النبي موسى عنـدمـا وضـع في سلة في النهـر وهـو رضيـع. ورأتـه ابنة فرعون، فأمرت خادمتها باحضار السلة. وتظهر الأميرة مرة أخرى تستعطف فرعون مصر في عدم قتـل الطفـل. ويظهـر من رسمهـا تأثيرات الفنون الشرقية والاغريقية. كان فنانو المدينة يتوخون الوضوح في رسمهم والاتزان الفني.

نشوء قصبة البوكمال ومدراء منطقتها:

في السبعينات من القرن الماضي، كانت عشائر العكيدات الحالية تقطن في الأمـاكن التي تشغلهـا على ضفـة الفرات الغربية، وكانت هذه الأماكن جزءاً من

القائم الأقصى المعروف في العصر العباسي. وتشكل السهول التي تمتد على ضفاف الفرات الغربية غربي بلدة عانة. وعلى ثلاث كيلومترات من بلدة البوكمال الحالية، كان موقع معبر على الفرات يسمى النحامة. جرفه الفرات فيما بعد، وعند النحامة كان مجتمع كثير من سكان العشائر. وعلى بعد مائة وخمسة كيلومترات من البوكمال والى الجنوب الشرقي منها تقع بدلة عانة العراقية على ضفة الفرات الغربية، أخذ مهاجرون من أبنائها يفدون الى موقع النحامة هذه، ويتخذونها مقاماً لهم. ولم تمض غير سنوات على استيطان العانيين في النحامة وانضمام آخرين اليهم، حتى نشأت قرية كبيرة هي أول قرية في الوسط العشائري، تصلح بأن تكون مركزاً للعشائر في هذه المنطقة، ومحطة للقوافل بين حلب وبغداد عبر طريق الفرات القديم. وكان في النحامة قشلة قديمة تدعى قشلة المشاهدة. والمشاهدة عشيرة.

ولفت الموقع أنظار المسؤولين العثمانيين، وعندما اصدروا التشكيلات الادارية في السبعينات، جعلوا المنطقة قضاء. واختاروا موقع النحامة ليكون مركز القضاء وقصبته. وكان المكان يسمى ايضا القطعة لقطع النهر، كما يسمى الشريعة أي المورد.

١ ـ كان أول قائمقام (مدير منطقة) عين للقضاء الجديد فيما يروي الاهلون شخص يدعى: درويش افندي وقد لاحظ أن مجرى الفرات يهدد موقع النحامة بالانحراف، فأختار موقع تل أبي سيباط شرقي النحامة. وقد اتصل في السنوات الأخيرة ببلدة البوكمال. ورحل السكان اليه.

وفيما كان يشرف بنفسه على تخطيط القصبة المزمع انشائها، سقط عن ظهر جواده وتوفي من ساعته.

٢ ـ عينت الحكومة خلفاً له محمد رفعت ـ ابو حسين ـ لاحظ عدم ملائمة الموقع الذي اختاره سلفه بسبب كثرة التلال فيه. وتشاءم من الموقع الذي شهد مصرع سلفه فقرر اقامة البلدة على مكان يقع الى الشرق بمسافة قليلة. وبنيت

ثكنة للجند والموظفين على مساحة دونم، سميت القشلة، اعطت اسمها للمكان وللقرية التي احدثت مؤخراً واشتهر المكان باسم القشلة، وهي ابرزما في هذا المكان انيط بحاميتها حماية الطريق والمحافظة على الأمن في المنطقة ومعالجة مشاكل السكان.

ولما كانت عشيرة البوجمال وهي احدى فروع عشيرة العقيدات، تقيم حول هذا الموقع، سميت القشلة بـ«قشلة البوجمال» وما زال اسم القشلة شائعاً، يعنون به قصبة البوكمال. واسقطوا لفظة القشلة، واطلقوا على المكان وعلى القضاء لفظ البوكمال.

ومكان هذه الثكنة على الشارع العام على يمين القادم من الغرب الى البلدة بجوار دار الحكومة الى الجنوب، اتخذت في الأعوام السابقة مخفراً للشرطة وسجناً، هدمتها الحكومة عام ١٩٧٢، وشرعت ببناء حديث في مكانها من طابق واحد ليكون مخفراً للشرطة وسجناً على مساحة الف متر مربع.

وأمام هذا المخفر ودار الحكومة على شمال الداخل من الغرب الى البلدة بناء من الطين ذو بروج وغرف وباحة يشغل مساحة ٤٠٠٠ متر مربع يشغله حرس البادية، كان خاناً في أواخر العهد العثماني وهو ملك لأسرة النقيب، استأجره الفرنسيون منهم في أول عهد الانتداب وفي سنة ١٩٣٢ تملكوه بمبلغ مائتي ليرة ذهبية دفعوها ورقاً، جعلوه مقراً للحرس السيار. آل الى الحكومة السورية بعد انسحاب الفرنسيين. باعته الحكومة عام ١٩٧٢ بالمزاد العلني بمبلغ (٦٠٠، ٢٠٠) ليرة سورية الى السيد جاسم العلاكه من البوكمال، وهذا سيهدمه ويبني مكانه مخازن وأبنية.

وقد أنشأ القائمقام محمد رفعت أبو حسين الجامع الكبير في موقع متوسط وهو أول بناء يبنى في البوكمال وانتقل السكان الى هذا المكان واخذوا يبنون مساكنهم على الطريق العامة بين دير الزور وبغداد وبالقرب من الجامع والثكنة (القشلة).

ولما توفي القائمقام أبو حسين دفنه السكان في باحة الجامع اعترافا بفضل مؤسسه ومؤسس البوكمال. وما زال قبره في الجامع وقد أدخلوا على الجامع تغييرات.

وبالنظر لأهمية الموقع الجغرافية على الطريق القديمة. طريق الفرات، وأهميته الاقتصادية ووقوعه على ضفة الفرات وبالقرب من معبر، أخذ يجتذب السكان وينمو عددهم. وقد ازداد الموقع أهمية عندما تقرر تعيين الحدود بين سورية والعراق الى شرقي قصبة البوكمال. وعلى بعد ستة كيلومترات من الحدود العراقية حيث موقع القرية العراقية حصيبة وهي مركز ناحية القائم، تتبعها عدة قرى، هي أماكن تجمع عشائر ومناطق زراعية ورعي، ومنطقة ترانزيت بين العراق وسورية يخترقها كذلك طريق مائي ـ هو الفرات، تنحدر فيه السفن موسوقة، بمختلف الأصناف من الاناضول وسورية الى العراق وبلدان الخليج العربي وفارس.

أصبحت قصبة البوكمال (القشلة) محطة للبضائع المستوردة من العراق وقد بنيت فيها الخانات لايواء التجار وخزن البضائع وخاصة التمور، والحبوب، وعلى الأخص القمح والشعير لتموين العشائر العراقية والسورية والقرى المجاورة. فهي نقطة تلاقي طرق المواصلات بين العراق وسورية، وصلة وصل بين البادية السورية والجزيرة الفراتية السورية والعراقية. وتتوسط القرى التابعة لها. وهي منطقة حدود ينشط فيها بيع البضائع المستوردة من العراق ومن سورية أما بالطرق الرسمية واما عن طريق التهريب. كما هو شأن مدن الحدود في سائر الأقطار.

٣ ـ عينت الحكومة العربية. عبد الرزاق منير قائمقاماً لمنطقة البوكمال وهو من العراق، وعينت توفيق شلاش آمراً لموقعها العسكري، من عشيرة البوسرايا القاطنة غرب دير الزور، شقيق الضابط رمضان شلاش عام ١٩٢٠.

٤ ـ مصطفى الوقاع من المياذين ١٩٢١ كان مدير ناحية العشارة.

٥ ـ فرحان السليمان ١٩٢٢، من دير الزور كان مدير ناحية الكسرة.

٦ ـ تركي المحمود الحاج عويد من دير الزور، ١٩٢٣ كان موظفاً في عانة.

٧ ـ شكري البقجه جي من أبناء دير الزور ١٩٢٥، كان مدير ناحية البصيرة.

٨ ـ محمود بك نديم بن الحاج اسماعيل من تركيا ١٩٢٧، عاش في دير الزور.

٩ ـ علي صائب الفرحان الشيخ موسى من دير الزور ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩، نقل من قضاء القامشلي.

١٠ ـ عزة المفتي من حلب ١٩٣٠ ـ ١٩٣١.

١١ ـ ذهني الدهني من طرابلس الشام ١٩٣٢.

١٢ ـ محمود بك نديم حاج اسماعيل، مرة ثانية ١٩٣٣ ـ ١٩٣٥.

١٣ ـ خليل الاسعد من ازرع في حوران ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨.

١٤ ـ مسلم الحافظ من دمشق ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩.

١٥ ـ حسن صبري سلطان من حلب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠.

١٦ ـ ابراهيم بكر من حلب ١٩٤١، وكيل قائمقام نقل من الحسكة كان ترجماناً.

١٧ ـ امين عليوي من دير الزور ١٩٤٣.

١٨ ـ مصطفى الحوراني من حماه ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤.

١٩ ـ فليب فرح من حماه ١٩٤٥.

٢٠ ـ زكي البرهاني من دمشق ١٩٤٥ ـ ١٩٤٧.

٢١ ـ سعيد السيد من دير الزور ١٩٤٩.

٢٢ ـ محمد رضا الخطيب من دمشق ١٩٥٠، كان مدرساً بمدرسة البوكمال درس الحقوق.

٢٣ ـ سليمان الحسيني من دمشق ١٩٥٠.

٢٤ ـ توفيق اسماعيل من اللاذقية ١٩٥١ ومرة ثانية ١٩٥٣.

٢٥ ـ عدنان عقدة من اللاذقية ١٩٥١ ـ ١٩٥٢.

٢٦ ـ كامل عقيلي من حلب ١٩٥٢ .
٢٧ ـ سليمان اسماعيل من لواء الاسكندرون ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ .
٢٨ ـ فوزي بسمار من دمشق ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ .
٢٩ ـ عبد المناف غلاونجي من جبلة ١٩٥٧ .
٣٠ ـ وجيه العطار من دمشق ١٩٥٨ .
٣١ ـ حسن عباس من منطقة اللاذقية ١٩٥٩ .
٣٢ ـ عادل صعيدي من دمشق ١٩٦١ .
٣٣ ـ نجدة ملا حيدر من حلب ١٩٦٣ .
٣٤ ـ احمد الجندي ١٩٦٣ .
٣٥ ـ زين العابدين دالاتي من الزبداني ١٩٦٤ .
٣٦ ـ حسن حرفوش من اللاذقية ١٩٦٥ .
٣٧ ـ النقيب محي الدين العمر من حماه ١٩٦٦ .
٣٨ ـ النقيب منهل صعوب من محافظة درعا ١٩٦٧ .
٣٩ ـ النقيب محمد جابر نصاري من شيخ مسكين ـ درعا ١٩٦٨ .
٤٠ ـ الرائد محمد صالح السمان من حلب ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ .
٤١ـ الرائد احمد السعدي من حمص انتقل الى البوكمال بتاريخ ١٩٧٢/٤/١ .

عناصر سكان بلدة البوكمال

أولا : عانيون ، جاءوا من بلدة عانة في العراق من نحو قرن ، في أوقات مختلفة ، يشكلون ٨٠٪ من سكان البلدة ، يتألفون من الأسر التالية حسب قدمها :

١ ـ حاج عجيل الدبس (بوخريص) يتمثل في اولاده واحفاده ، يطلق

عليهم اسم الدبوس. ٢ ـ برغش. ٣ ـ عبد الهادي وعبد الباقي الزرزور، ٤ ـ حاج برغوث (كرابلة)، ٥ ـ عبيد الاشعب، ٦ ـ محمد المردود، ٧ ـ حاج حامد السلمان، ٨ ـ محمود علاو، ٩ ـ حاج حميداوي الطه، ١٠ ـ سيد صالح وسيد عبد الجبار قدوري، ١١ ـ السادة ملا حمد الخضر، ١٢ ـ علي وشامان الحسين، ١٣ ـ حوهان، ١٤ ـ سيد توفيق المعروف، ١٥ ـ بيت النقيب (عبد اللطيف المظهور)، ١٦ ـ حاج عثمان وحاج عمر الحبيب، ١٧ ـ بيت خليف (حاج طالب الجاسم ورديف)، ١٨ ـ جابر الزعين، ١٩ ـ ذياب العطو، ٢٠ ـ حاج عبد الحميد دله علي، ٢١ ـ ياسين زعيتر، ٢٢ ـ شاكر المحمود، ٢٣ ـ حسن الصباغ (الصبايغة)، ٢٤ ـ جبير الحاج مهيدي.

ثانيا ـ راويون: جاءوا من بلدة راوة في الحدود العراقية، مقابل بلدة عانة على ضفة الفرات الشرقية يتألفون من الأسر التالي:

١ ـ شريف وعلي الاصيل، ٢ ـ جبير الأحمد الراوي، حسين الراوي، اسماعيل عبد الرزاق الراوي.

ثالثا ـ مشاهدة من المنطقة ومن العراق متأخرون.

رابعا ـ ديريون، جاءوا من دير الزور، هم:

١ ـ أحمد الحنيش، كان مدير ناحية البحرة في العهد العثماني، ثم مديراً لناحية الصالحية، ثم عين مديراً للسجل المدني في البوكمال، استقال وسكن البوكمال، ولد له فيها اولاد توفي عام ١٩٧٠. ٢ ـ مرعي الحسن (أولاده عثمان المرعي وجمعه المرعي)، ٣ ـ رسلي الفرحان كان موظفاً في البوكمال في الحرب العالمية الأولى، تزوج بامرأة من البوكمال، وتملك بستاناً مساحته ستين دونماً، توفي، ٤ ـ حسون المنيدي، ٥ ـ خليفة الديري.

خامسا ـ مواصلة، جاءوا من الموصل في العراق هم: بيت حاج محمود الموصلي.

سادسا ـ مسيحيون، هم: ١ ـ نعوم نعمة (أولاده أمين ونوري وكامل)،

٢ ـ بيت سعيد آرو ، جاء من الميـاذين ، ٣ ـ فرج حنـا من الميـاذين ، ٤ ـ اسحاق ككلوف من روسيا .

سابعـا ـ عكيـدات ، مصـدرهـم عشيرة العقيدات في منطقة البوكمال ، جاء اشخاص قلائل مؤخراً وسكنوا في البلدة .

ثامنا ـ مشاهدة جاءوا مؤخرا من الريف .

تاسعا ـ دمشقيون من دمشق جاءوا حديثاً : هم علي الحافظ وآخرون نزحوا .

اذا كانت ديـر الـزور ما تزال وسطـاً بين القرية والمدينة ، فإن قصبة البوكمال اشبـه بالقـرية . ما زال السكان متطبعين بالطابع العشائري .

التشكيلات الادارية للمنطقة

المركز:

لم يكن لواء دير الزور حتى سنة ١٨٦٤ ملحقاً لولاية سنجق . وكان في دير الزور بضعة موظفين ، وكانت سلطة الدولة فيه لا تذكر.

وفي السنة المذكورة جاءه ثريا باشا والي حلب بحملة عسكرية وجعله قضاء مربوطاً بولاية حلب . وركز فيه قائمقاماً ومأمورين قلائقل وقفل راجعاً الى حلب . وقدرت السلطة أهميته فجعلته بعد سنة متصرفية .

وفي أواخـر عام ١٨٧٠ وبـزمن متصـرف لواء دير الزور ارسلان باشا جرت تشكيـلات اللولاء الادارية ، وعينت له عدة أقضيـة ، كان قضاء البوكمال أحداها ويتألف من نواحٍ وقرى ومخافر للأمن ، وجعلت قصبة البوكمال مركز القضاء الذي يتبع لواء دير الزور. أو متصرفية دير الزور. وتقع قصبة البوكمال على خط العرض الجغـرافي ٣ , ٣٨ درجـة شمال خط الاستـواء ، وخط الطول الجغرافي ٥ , ٤٥ درجة شرقي غرينش . على ضفة الفرات الغربية في شرق سورية على الحدود السورية

العراقية، والتي تبعد عنها ثمانية كيلومترات، وتبعد مسافة ١٣٠ كيلومتراً عن مدينة دير الزور مركز محافظة دير الزور.

وهي نقطة تلاقي طرق المواصلات بين العراق وسورية وصلة وصل بين البادية السورية والجزيرة الفراتية العراقية السورية وعلى طريق مائية هي الفرات. تتبعها خمس وعشرون قرية لكل منها مختار وهيئة اختيارية. ترتفع القصبة ١٧١ متراً عن سطح البحر. يحدها من الشمال تل أبو سيباط ومن الغرب تلال ثلاثة. ومن الجنوب وادي علي (وادي الرتكا) ومن الشرق الفرات. الذي ينقسم عندها الى فرعين بينهما حويجه.

سكان القصبة عناصر من العانيين والراوين والمشاهدة وديريين من دير الزور. ومواصلة ومسيحيين وعكيدات وحلبيين ودمشقيين. فصلت الكلام عنهم سابقاً.

كان أول المؤسسين لقصبة البوكمال الذين هاجروا إليها من بلدة عانة: صالح الزرزور، ومحمود الزرزرو، وحماده الزرزور، وسيد مصطفى العز الدين، وسيد خليفة الزعين، وسيد عثمان الزعين، ومحمد النقيب، وساير الجاسم، وملاّحميد الخضر، هؤلاء القوا عصيهم في «النحامة» عند قشلة المشاهدة.

وأول من جاء من رواة: دار الراوي، وسيد حامد، ثم شريف وعلي الأصيل، وجاء من شرقي قرية حصيبة العراقية آل برغوث في العهد العثماني عمال فلاحة، لهم في البوكمال سوق خاص وبساتين.

لقد حلت بقصبة البوكمال في أثناء مسيرتها لتكوين بنيانها كوارث طبيعية أضرت بها ـ على حداثة عهدها وضآلة امكاناتها وثروتها ـ فحدّث من اتساع عمرانها وتقدمها. نذكر لأنها جزء من تاريخ قصبة البوكمال:

في ٢٩ نيسان عام ١٩٤٧ هطلت ليلاً أمطار غزيرة وداهمت المدينة سيول جارفة من البادية، فغمرت المياه شوارع البلدة، ونفذت الى الدور، بارتفاع نحو متر، وأتلفت أرزاقاً وأموالاً. وهدمت مائتي بيت، واتلفت المزارع والحقول واقتلعت

كثيراً من أشجار البساتين . وقتلت عدداً كبيراً من المواشي وجاءت الفيضانات وارجال الجراد الصحراوي . وحلت مواسم جفاف اضرت بالأهلين كثيراً . وفي عام ١٩٤٨ داهمت البلدة سيول جارفة وأضرت بها .

وفي عام ١٩٤٩ ، حدث فيضان الفرات . فأغرق المزروعات وجرف كثيراً من الماشية . فتراكمت على المزارعين ديون المصارف وتجار المحركات والزيوت وغيرهم .

الجوامع في بلدة البوكمال

١ ـ الجامع الكبير : في وسط البلدة ، مقابل دار البلدية بني عام ١٨٩٠ بتبرعات الأهلين وباشراف أول مدير منطقة عيِّن في البوكمال ، تحيط به عقارات يغطي دخلها نفقات الجامع والجوامع الأخرى له منارة ، أوقف أرضه عبد الهادي الزرزور ـ للأوقاف .

٢ ـ جامع عمر الفاروق في جنوب البلدة على الشارع العام ، مقابل المقبرة القديمة ، بني عام ١٩٦٤ بتبرعات الأهلين ومساعدة الحكومة ، له منارة مضلعة جميلة ، جلبت احجارها من حلب وبناها بناء حلبي .

٣ ـ الجامع الغربي (جامع المدرس) ، تبرع بالأرض الشيخ عبد الله النهر ، وبنى الجامع بتبرعات الأهلين عام ١٩٥٣ ، في مدخل البلدة من الغرب .

٤ ـ توجد زاويتان تقام فيهما الصلاة ، الاولى وهي الأقدم تقع في شرق البلدة بنيت بتبرعات الأهلين في أواخر القرن التاسع عشر ، والثانية في غرب البلدة بقرب بناء شركة الكهرباء أنشأها حاج عبيد الدبس سنة ١٩٢٢ ورممها أهل الخير .

الدواوين والمقاهي

الدواوين جمع ديوان . أي المضافة أو المنزول أو القناق . المجلس الذي

يتخـذه شخص بارز في عشـيرتـه أو بلده لاستقبـال زواره وضيـوفـه ، للسمر وحل المشاكل . وهو تقليد اجتماعي في مناطق الفرات . كانت أولى دواوين البوكمال هي دواوين السادة : رشيد الداود . الحاج عجيل الجاسم . عبد الهادي الزرزور . عبد اللطيف المظهـور . الحـاج حامـد السلمان . حاج برغـوث . وقـد تقلصت . وليتها استمـرت وتـزايد عددها بتحسن دخل الأفراد . انها تقليد مفيد ـ صالونات ـ خير من المقـاهي المضـرة . التي انتشـرت في البوكمال انتشار الوباء ، عرفت منها : مقهى البلديـة ، ملك البلديـة بايجـار عبـد الـرزاق عبد الهادي وصالح المشوح ، ومقهى النـاصـر ، صاحبه خاروف اليونس ، ومقهى الشباب صاحبه جميل حيدر ، ومقهى الـرافـدين صاحبـه عبـاس السمـران ، ومقهى حامد السحاب ، وكلها في الشارع العـام ذات مسـاحـات كبـيرة . تغص بالـرواد من المتعلمين وسكان الريف وابناء البلدة . ومقـاهٍ صغـيرة منتشـرة في الاسـواق ، تزود الحـوانيت بكؤوس من الشاي يحتسونها طوال ساعات النهار والليل .

ان شرب الشاي هواية وهم جميع سكان البوكمال . والمقاهي عدوى انتقلت اليهم من عاصمتهم دير الزور ـ مستنقع المقاهي .

نواب منطقة البوكمال

كانت البوكمال في العهد العثماني قضاء تابعاً لمتصرفية دير الزور ، التي كانت تمثل بمبعوث واحد في مجلس المبعوثان العثماني في استانبول .

كانت الانتخابات لهذا المجلس تجري على درجتين ـ فكان منتخبو الدرجة الأولى في البـوكـمال لانتخـاب ممثـل المتصـرفيـة السادة : جاسم أبو شكير ، وعبد الهادي الزرزور ، وعجيل الجاسم ، وتوفيق الداود ، وعبد اللطيف المظهور .

وفي عهد الانتداب بقي الانتخاب على درجتين ، وكان المنتخبون الأولون

نفس المذكورين، ليدلوا بأصواتهم لممثل لواء دير الزور في مجلس المندوبين في دمشق .

وعندما اتيح للبوكمال التمثيل المباشر، انتخبت البوكمال السيد توفيق الداود عام ١٩٢٨ في مجلس المندوبين السوريين من ابنائها.

وفي عام ١٩٣٢ ، انتخبت السيد تركي المحمود للمجلس النيابي مرشحاً عن الكتلة الوطنية. وهو من أبناء دير الزور، وكان قائمقاماً في البوكمال عام ١٩٢٣ ، شغل مناصب أخرى، وتوفي في دير الزور عام ١٩٣٨ .

وفي سنة ١٩٣٦ انتخبت البوكمال السيد عبد الهادي الزرزور نائباً في البرلمان السوري ، توفي في البوكمال عام ١٩٤٤ .

وفي عام ١٩٤٦ ، انتخبت السيد عثمان المرعي الحسن من أبناء دير الزور، يقيم في البوكمال، واعيد انتخابه لمجلس عام ١٩٤٧ ، توفي عام ١٩٥٠ .

وفي عام ١٩٤٩ ، انتخبت البوكمال الشيخ دحام بن رجاء الدندل، من العقيدات عضوا للجمعية التأسيسية وهو من أبناء قرية السويعية، ويقيم في البوكمال .

وفي سنة ١٩٥٣ ، مثَّل المنطقة في المجلس النيابي ، عبد الحليم الدبس من أبناء قصبة البوكمال، ولد عام ١٩٢٦ ، اتم دراسته الابتدائية في بلدته ١٩٣٨ ، والتحق بالكلية الشرعية بدمشق، ثم بالازهر. وتخرج منه عام ١٩٥١ .

وفي عام ١٩٥٥ ، ازداد تعداد نفوس المنطقة، فمثلها نائبان : الشيخ دحام رجاء الدندل، والشيخ فهد مشرف الدندل، والثاني من قرية الغبرة، توفي بتاريخ ١٩٧٢/٨/١٦ .

وفي تموز ١٩٦٠ مثل المنطقة في القاهرة السادة عبد الكريم عثمان المرعي ، توفي في ١٤ ايلول ١٩٦٩ ، وصالح حاج حمداوي من بلدة البوكمال، ودحام الدندل من عشيرة العقيدات.

لم تمثل المنطقة بأي شخص في المجلس الوطني بدمشق عام ١٩٦٥ ،

ويمثلها في مجلس الشعب بدمشق عام ١٩٧١ . السيد مطر الجاسب المحمد من قرية هجين .

ومثل منطقة البوكمال في مجلس الادارة المحلية بمركز محافظة دير الزور في الانتخابات التي جرت في ١٩٧٢/٣/٣ السادة .

١ - عطا الله عبد الهادي الزرزور من قصبة البوكمال مدرس في ثانوية البوكمال .

٢ - ميزر بن الشيخ مشرف الدندل من قرية الغبرة .

٣ - نافع بن حمود السيد شريف من قصبة البوكمال، توفي في ١٩٧٢/٨/١٦ .

٤ - اعبيد بن جاسم الفندي من قرية السيال الشرقي .

٥ - نوري كسار الصياح من قرية المصلخة .

٦ - مصطفى بن حرب الحاج خلف من قورية عشائر .

٧ - زوبع بن ناصر العكلة من قرية هجين .

قضاة منطقة البوكمال

منذ أن أحدثت التشكيلات الادارية لسنجق دير الزور، وجعلت البوكمال قضاء في السبعينات من القرن الماضي ، أحدثت فيها محكمة ابتدائية . تعين وزارة العدل لها قاضياً ، يمكث مدة ، ثم تنقله وتعين قاضياً محله ، وبذلك شهدت البوكمال حتى اليوم ٢٤ قاضياً من مختلف المناطق السورية . في غير وظيفتهم . هل افادت المنطقة من علمهم ومن سلوكهم الاجتماعي؟ لم يكن هؤلاء القضاة على مستوى يؤهلهم لكي يفيد السكان منهم . كان لكثير منهم سلوك معوج . فاضروا بارتشائهم وتبذلهم .

كان اتصال اولئك القضاة بالبوكمال ووجدهم فيها جزءاً من تاريخها الاجتماعي . ولذا اقتضى ذكرهم حسب ما وقع لي .

١ ـ محمد شريف الحاج عبد اللطيف العاني، جاء من عانه، وكان مفتياً في البوكمال في أواخل العهد العثماني. وفي أول عهد الانتداب عين قاضياً في البوكمال حتى أوائل ١٩٢٧، نقل الى الحسكة ثم الى الرقة ثم اعيد الى البوكمال عام ١٩٣٣ قاضياً، احيل على التقاعد ١٩٣٤، سكن البوكمال حتى سنة ١٩٤٦، توفي في بغداد ١٩٤٦ وهو والد السيد شفيق العاني رئيس محكمة النقض في بغداد توفي سنة ١٩٧١. والسيد بديع العاني الاستاذ بكلية الآداب في بغداد، ولد للسيد شريف العاني في البوكمال الطبيب مصطفى العاني وتوفيق مجاز حقوق وعبد الرزاق مجاز حقوق وعبد الباسط مجاز شريعة، جميعهم في العراق أسرة عربية عريقة.

٢ ـ محمد نهري بن حمود الشحاذة من دير الزور ١٩٢٧ مكث نصف سنة ثم عين مفتياً في الحسكة، توفي في دير الزور عام ١٩٤٣.

٣ ـ حمادي الشعيبي من أبناء الميادين وفي الأصل من عشيرة البوسرايا ١٩٢٨ ـ ١٩٣٣.

٤ ـ عبد القادر ملا حويش من عانه نشأة دير الزور ١٩٣٤.

٥ ـ توفيق فكرة الحسيني من أبناء دير الزور ١/٨/١٩٣٤ ـ ٥/ ١٢/ ١٩٣٥.

٦ ـ حسن الآغا من دمشق ١٩٣٦.

٧ ـ فوزي الرفاعي من حلب ١٩٣٩.

٨ ـ اديب الكيلاني من حماه ١٩٤٣ ـ ١٩٤٨.

٩ ـ حسين الفواز من الرقة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩.

١٠ ـ شهير ارسلان من حلب ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢.

١١ ـ صالح كيالي من حلب ١٩٥١ ـ ١٩٥٢.

١٢ ـ حسن اسماعيل من دمشق ١٩٥٢.

١٣ ـ احسان سبيناتي من دمشق ١٩٥٢.

١٤ ـ نديم مرشد من محافظة اللاذقية ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥.

١٥ ـ عبد الرحمن الشيخ يوسف من طيبة الامام محافظة حماه ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨ . وجاء مرة ثانية عام ١٩٧٢ .

١٦ ـ محمد الريحاوي من حلب ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ .

١٧ ـ عثمان سويد من قرية كرناز محافظة حماه ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ .

١٨ ـ صبحي الجاسم من دير الزور ١٩٦٣ .

١٩ ـ حلمي عجم أوغلي من حمص ١٩٦٤ .

٢٠ ـ جمعة عبد الله من دير الزور ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ .

٢١ ـ يوسف ربابي من قرية نوى بحوران ١٩٧٠ .

٢٢ ـ غياث الدين مظفر البعاج من دير الزور ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ .

٢٣ ـ عصمت سليمان من الحسكة ١٩٧٢ .

المفتون

١ ـ محمد شريف عبد اللطيف العاني، كان مفتياً في البوكمال في آواخر العهد العثماني، مر ذكره في قضاة البوكمال .

٢ ـ ملا محمد العلي المحمد، الملقب بـ محمد الخرسا، لأن أمه كانت خرساء . ولد في عشيرة البوعمرو شرقي دير الزور عام ١٨٥٠ جاء الى دير الزور، يعلِّم ويقرىء الصبيان في داره . عين مدرساً في قرية البصيرة سنة ١٩٢١ ونقل الى البوكمال مفتياً ١٩٢١ ، وكان يدرس التلاميد . هدم الجامع القديم في البوكمال وبناه على نفقته ، وكان يعمل مع العمال في بناء الجامع ، توفي في سنة ١٩٤١ في قرية الصالحية بطريقه من البوكمال الى دير الزور ودفن في دير الزور.

٣ ـ الشيخ محمد عمر العزي النقشبندي ولد في دير الزور عام ١٩١٧ . تعلم في دير الزور وفي قرية بيارة الشهيرة بلواء السليمانية شمال العراق ١٩٣٨ . بمدرسة الشيخ علاء الدين العثماني النقشبندي الذي جاء الى دير الزور سنة

١٩٢٣ وجـرى له استقبـال حافـل . وتزوج أخت الشيخ عمر النقشبندي وله منها أولاد في العراق وايران .

عين الشيـخ عمـر مفتيـاً لمنطقة البوكمال في ٤ آذار **١٩٤٢** ، وبقي حتى ١٨ كانون الثاني **١٩٥٥** حيث نقل الى الحسكة وفي **١٩٥٦** نقل الى دير الزور.

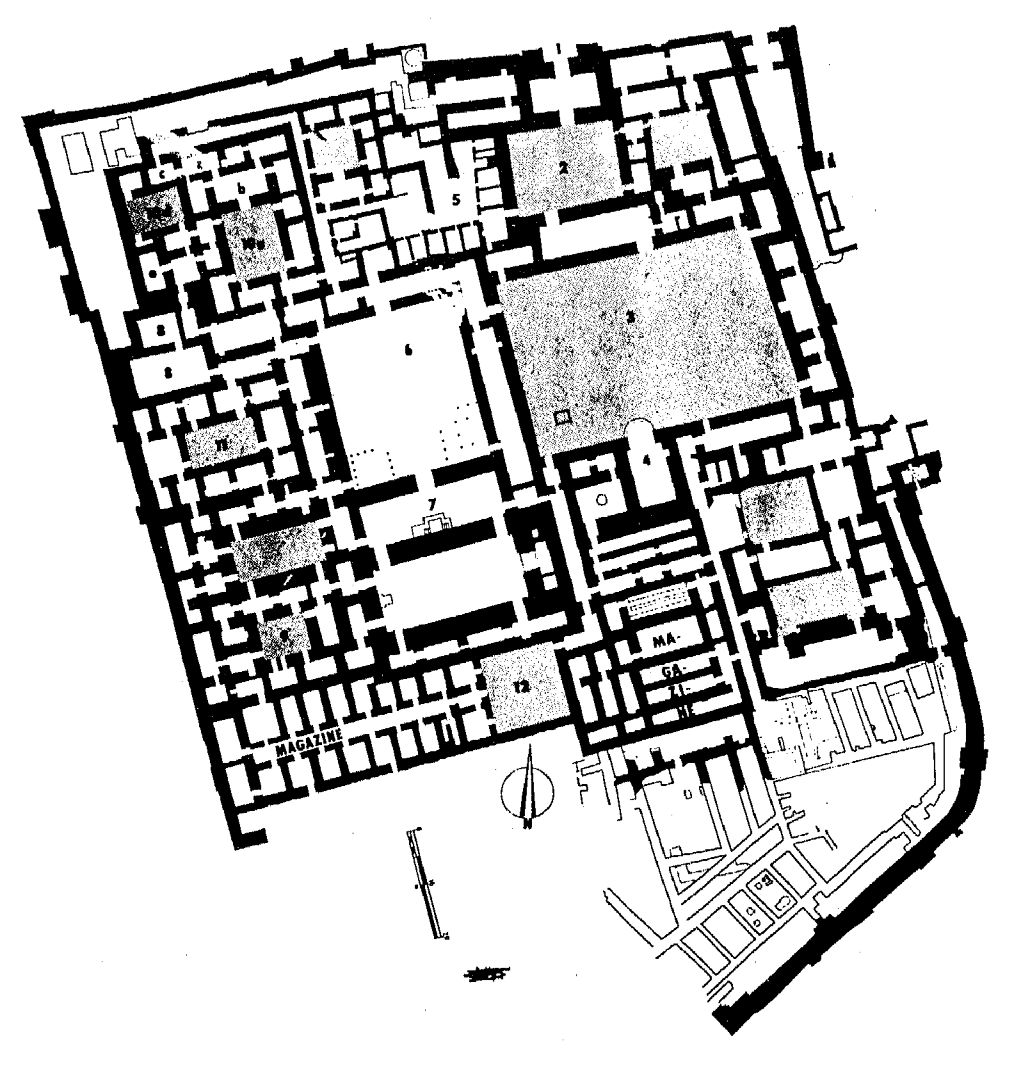
ماري (تل الحريري)

عاصمة الشمالي السوري
عروس الفرات الأوسط

مضى الزمن الذي كانت ترجع فيه أصول جميع الفنون الى بلاد الاغريق، وصرنا نعرف أن أصول الحضارة تمتد الى أبعد من ذلك، الى سومر اقدم كل هذه الأمم ـ فقد قامت في وادي الرافدين منذ خمسة آلاف سنة حضارة من أهم الحضارات التي عرفها فجر التاريخ، هي الحضارة السومرية. ولم يكن اليونان والرومان واليهود ـ وهم الذين نسميهم القدماء يعرفون شيئاً عن سومر. وقد كان الكشف عن الحضارة السومرية من أروع الأمور في علم الآثار.

اختلف العلماء في الأصل الذي انحدر منه الشعب السومري الذي عرف بأنه شعب ذكي مخترع، مبدع، وطد أقدامه على المجرى المتكون من نهري دجلة

والفرات ـ شط العرب ـ واسس مدناً عليه هي : أور، وأريدوا، وكيش، ولارسا، ولجش حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل المسيح وأخذ يتقدم الى الشمال الغربي شيئاً فشيئاً، وانتقلت الحضارة السومرية على طول مجرى الفرات ودجلة، فكانت هي التراث الأول لحضارة بلاد (مابين النهرين) كان أساس هذه الحضارة تربة الأرض التي أخصبها فيضان النهرين السنوي الذي كان ضاراً ونافعاً، وخلدوا اخطاره بالقصص التي تتحدث عن فيضان عظيم طغى على الأرض ثم انحسر عنها آخر الأمم، ونجا الناس من شره. ولكي يأمن السومريون شر الفيضان أجروا ماء النهرين في قنوات تخترق البلاد طولاً وعرضاً، فكان لهم نظام ري محكم يرجع عهده الى أربعة آلاف سنة، من أعظم الأعمال الانشائية في الحضارة السومرية، وكان الأساس الذي قامت عليه هذه الحضارة، واخرجت الحقول بفضل الري محصولات موفورة من الذرة والشعير والقمح والبلح والخضار. وظهر عندهم المحراث تجره الثيران، واستخدموا النحاس والقصدير وصنعوا منها البرونز وعرفوا الحديد وصنعوا منه عدة آلات. وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار، وكانت البيوت من الغاب تعلوه لبنات من الطين والقش، وكان لها أبواب من الخشب، وكانت البضائع تنقل بطريق الماء. فقد وجدت المركبات. وكانت توجد صلات تجارية بين سومر وبين مصر والهند قد وجدت الواح طينية عليها كتابات سومرية هي وثائق تجارية دلت على حياة تجارية ناشطة، وكان لديهم تقويم يقسم السنة الى اثنى عشر شهراً قمرياً يزيدونها شهراً كل أربع سنوات، وكانت كل مدينة شديدة الحرص على استقلاليتها ولها ملك كاهن. وقد سمى العلماء هذه المدن «حكومات المدن». كانت مدينة ماري احداهن. وما وافى عام ١٨٠٠ قبل المسيح حتى نمت التجارة فنشأت من المدن امبراطوريات استطاعت شخصيات قوية عظيمة ان تخضع المدن والملوك لسلطانها، وكان الملك الاعظم يعيش في قصر منيع فيه هيكله وفيه مكتبة وأماكن لكبار موظفيه، وكانت النزعة الانفصالية التي كانت تسود المدن السومرية حافزاً قوياً للحياة والفن، ولكنها كانت باعثاً على النزاع



مخطط قصر ماري مصور رقم (٣)

والحــرب التي كانت تشن للسيطـرة على طرق التجارة والاسـتحواذ على السلع وتوسيع حدود الدولة.

كان لكل مدينة مجموعة آلهة تمثل النشاط البشري. وكان السكان يقدمون القرابين للآلهة من مال وطعام في المعابد، وأثرى الكهنة من هذه القرابين. وكانت تلحق بالمعـابـد مدارس يعلم فيهـا الكهنة الأولاد والبنات، وكانت نساء الطبقات العليا يحيين حياة مترفة، فالادهان والاصباغ والجواهر من أظهر العاديات في المقابر السومرية. وكان الاغنياء من أهل المدن يشيدون قصورهم على الروابي، وكانت الميـاه تؤخـذ من الآبـار وكـان عنـدهم نظـام للمجـاري وتصـريف الفضلات في الاحيـاء المأهـولـة في المـدن، ولم يكن الاثـاث يخلو من طابع الفن، فكانت بعض الأسـرة تطعم بالمعـادن والعـاج، وكـانـت التـماثيـل تزين الهيـاكل وبلغت صناعة الذهب مستوى رفيعا.

ولقد عرف السومريون الكتابة على الواح الطين فكانت من أروع ما خلفوه وأعظم مالهم من فضـل على الحضـارة العـالميـة. وتبدأ الالواح الطينية في الظهور حوالي سنـة ٣٢٠٠ قبـل المسيـح، ولم يحل عام ٢٧٠٠ قبـل المسيح حتى كان عدد كبـير من دور الكتب العظيمـة قد انشيء في المـدن السـومـريـة. وبـدأ المؤرخون والسـومـريـون من عام ألفـين ق. م يكتبـون تاريخهم وقد عثر على لوح كتب عليه الاصـل السـومـري لملحمـة جلجميش. والسـومريون ابتدعوا الخط المسماري في الكتـابـة، وابتـدعـوا في العـمارة الاشكـال الاسـاسيـة للمنازل الاعمدة والقباب والعقـود. مما يشهـد على رقي الحضارة السومرية التي كانت الاساس للحضارتين البابلية والآشورية.

وأخـرجت سومر وآكد حتى بعض انقراضهـا صناعاً وفنانين وشعراء وحكماء واداريـين ومؤرخـين. وان عنـاصـر معينة من الثقافة المصرية القديمة مستمدة من بلاد سومـر وبـابـل لوجـود علاقات تجارية بين هذين البلدين، كما توجد علاقات لغـويـة بين اللغـة المصرية مستمدة من بلاد سومر وبابل لوجود علاقات تجارية بين

هذين البلدين ، كما توجد علاقات لغوية بين اللغة المصرية القديمة ولغات الشرق الادنى السامية .

ان حضارتنا هي امتداد للحضارة السومرية التي غابت آثار مدنها في الاكام والروابي والتلال الاصطناعية التي تقوم على شاطيء الفرات النهر العظيم الذي سقى هوونهر دجلة بلاد ما بين النهرين . ففي بطون هذه التلال مدن قديمة دمرتها الحروب وجعلتها أنقاضاً غطتها الاتربة بفعل الرياح بسماكة عدة أمتار من هذه التلال (تل الحريري) الواقع بجوار قرية الغبرة الى الغرب شمال غربي أبو كمال على بعد ١٢ كم على شمال الطريق العام بين بلدتي المياذين وأبو كمال مركز منطقة أبو كمال احدى مناطق محافظة دير الزور على الحدود السورية العراقية وعلى شاطيء الفرات الأيمن .

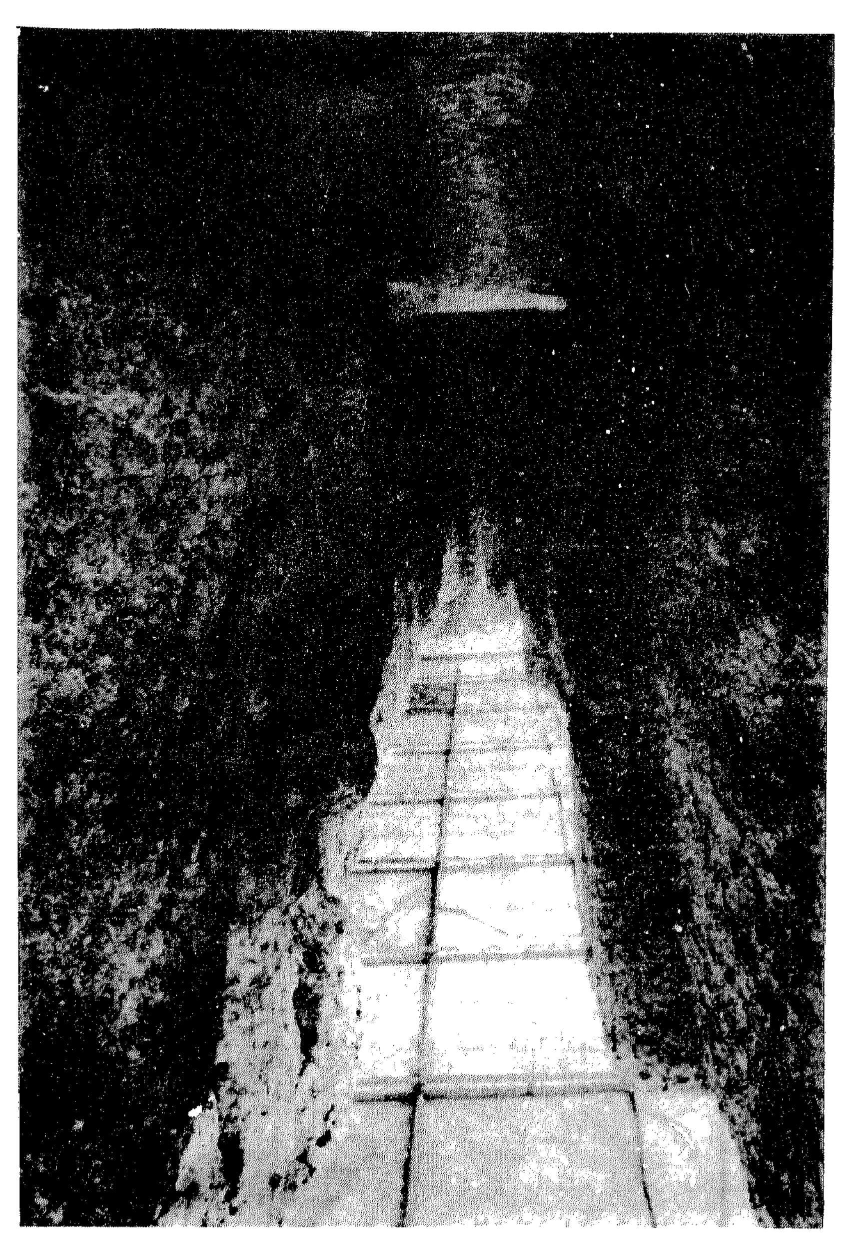
في تل الحريري تختفي مدينة ماري ، احدى العواصم القديمة الكبرى وعاشرة المدن العظمى التي قامت فيما بين النهرين بعد الطوفان المشهور الذي ورد ذكره في الكتابات القديمة .

كانت هذه المدينة العظيمة من المدن الضائعة وبقي تل الحريري ينتظر في حبر آلاف السنين ان يتجه اليه اهتمام الناس لاستخراج دفائنه التي كشفتها الصدفة وجهود البعثة الاثرية الفرنسية المؤلفة من علماء أفذاذ وعلى رأسها الاستاذ اندره بارو المحافظ الرئيسي في متحف اللوفر بباريس ومن أساطين العلماء في الآثار وصاحب الشهرة المستطيرة والذي كشف عن اقدم مملكة سورية عرفها التاريخ في تل الحريري وأقدم عاصمة في شمال سورية .

يعود تاريخ الاهتمام بتل الحرير الى صيف عام ١٩٣٣ حيث شاهد ضابط المصالح الخاصة في بلدة أبو كمال المدعو كايان ، فوق تل الحريري جمعاً من السكان يحفرون في اطراف التل لاستخراج حجر ليضعوه شاهداً على قبر ، فعثروا على تمثال ضخم بدون رأس من الحجر الأبيض . واخبرت السلطات الادارية بذلك ، وهذه نقلت التمثال الى المتحف الوطني بحلب . وثبت ان عهد التمثال المكتشف

يرجع الى العصر السومري ، وهو يمثل رجلاً هو الاله شمش حامي مدينة ماري ، ووجد في محل اكتشافه آثار بناء يدل على وجود معبد وضع فيه التمثال . وما ان ذاع خبر الاكتشاف حتى طلب متحف اللوفر من مديرية الأثار في سورية منه الامتياز للتنقيب واجراء الحفريات في تل الحريري فاجيب طلبه .

وجاءت البعثة الى تل الحريري وابتنت داراً عادية أقامت فيها وباشرت الحفريات في المكان الذي عثر فيه على التمثال ، مستعينة بعمال من المنطقة وأخذت المدينة تحبو البعثة بالكشف عن دفائنها ، كشفت البعثة عن بيوت كثيرة أضرحة في جرار ، والت البعثة جهودها وأخذت تنقل الحفر الى عدة أطراف في التل ، فكانت تعثر على رؤوس وتماثيل يتزايد عددها كل اسبوع وبينها تمثال عشتار . وكانت الكتابات لا تزال تنقص البعثة فما لبثت أن عثرت على أول نص عبارة عن بضعة أسطر سطرت على ظهر تمثال شخص يدعى لانجي ـ ماري عند أعلى الكتف العاري ، وكان ملكاً وقدم تمثاله لهيكل عشتار . ومن قراءة سطر عرفوا اسم المدينة الضائعة : ماري وعثر على هيكل عشتار وخلصته مما يحيط به من الأتربة والانقاض وأخذت البعثة على نفسها ان تقف ما كانت عليه مدينة ماري ، فضاعفت عدد فرق العمال فأصبحت ثماني فرق بعد ان كانت أربعاً ، وكانت البعثة توافي باريس بمكتشفاتها ، ومنها عثورها على قصر عظيم من عهد قدماء الكلدانيين يرتقى الى ماقبل عهد حورابي يغطي اكثر من هكتارين ونصف الهكتار من الأرض ، ويعد أكثر من ٣٠٠ غرفة وفسحة دار ، كانت الجيوش البابلية نهبته ودمرته وأحرقته في أوائل الألف الثاني قبل المسيح . وقد كان اكتشاف القصر الملكي من المصادفات السعيدة التي رافقت البعثة ، ومما يزيد في قيمة هذا القصر بقاء جدرانه سالمة في وسط القصر بارتفاع يبلغ في بعضها أكثر من خمسة أمتار ، مما لم يوجد له نظير قط في أية بقعة من بقاع آسيا الغربية يرجع تاريخها الى مثل هذا العهد ، أي الى الألف الثالث ق . م . ولهذا فإن لقصر ماري أهمية كبرى بما يقدم الينا من معلومات عن فن البناء في الشرق القديم فتعرف طريقة تنوير الغرف نهاراً ، وقضية فقدان النوافذ



حضارة ماري بعد الكشف عنها

وارتفاع الأبواب، وطريقة صنع السقف وعلو البناء، وشكل المخطط، وقد شيد القصر على مراحل وكانت الأبواب مرتفعة، ومواد البناء. هي اللبن ثم طلي الجدران بالطين المخلوط بالتبن، وكان الآجر والحجر يستعملان في الاساس، وكانت أبواب الغرف من الخشب، والسقف من جذوع الشجر الضخمة، وكانت جميع وسائل الرفاهية موجودة في هذا القصر من حمامات ومغاطس ومطبخ وأفران، وغرف خاصة بالادارة وبنساء القصر، ووجدت غرف منقوشة بأفاريز وأشكال هندسية وفي وسط القصر فناء متسع، وقاعة واسعة فيها مصطبة منقوشة بما يشبه المرمر ويظن أنها كانت قاعة العرش، وعثر على غرفة واسعة وجد فيها عدة صفوف من المقاعد المصنوعة من اللبن بينها ممرات ضيقة يرجح أنها كانت مدرسة لتعليم الأطفال قواعد الكتابة والحساب، فقد عثر على لوحات فخار وأدوات يظن أنها كانت تستعمل في الكتابة. وهذه أقدم مدرسة يعثر عليها المنقبون، وكانت جميع أدوات القصر المنزلية من المعادن أو الفخار تصنع في القصر. وعثر على عدد كبير من الرسائل الدبلوماسية وكان للملك وعائلته معبد خاص في القصر بني أحسن بناء وزين ببعض النقوش الهندسية. وكشفت التنقيبات عام ١٩٣٧ عن مدخل القصر من الجهة الشمالية عرضه ستة أمتار يحيط به برجان من كل جانب، وقد عثر على لقى في القصر منها: ١ ـ تمثال الهة الماء المتفجر وهو تمثال امرأة مصنوع من حجر رخامي فج. ٢ ـ تمثال ايشتوب ايلوم تمثال لأمير من امراء ماري مصنوع من حجر الديوريت الصلب، بلحية طويلة لابساً القبعة التي كان يلبسها الأمراء السومريون. ٣ ـ رأس محارب من الرخام. ٤ ـ قوالب الحلوى من الفخار وقد حفر عليها مشاهد جميلة كصور الحيوانات والطيور، وأشكال هندسية. ٥ ـ حلى ذهبية. ٦ ـ نقوش جدارية. ٧ ـ تماثيل. ٨ ـ عشرون ألف رقيم من الفخار مكتوبة. ٩ ـ قطع أخرى مختلفة.

تواصلت حفريات البعثة مدة خمسة مواسم حتى شتاء ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ توقفت بسبب اندلاع الحرب واتت بنتائج عظيمة، كشفت في أهم ما كشفت معبد

المدينـة، وهـو أول بنـاء اكتشفتـه البعثـة وهـو مركب من سلسلة معابد مبنية فوق بعضها، فالمعبد الأول يرجع الى أوائل الألف الثالث، ثم يتبعه بناء ثان بني على الأول فبنـاء ثالث يرجـع عهـده الى الملك زمير يليم وكان قد خربه جنود حمورابي البابلي. وقد اكتشف في غرف هذه المعابد أجزاء كثيرة لتماثيل كبيرة وصغيرة رممها خبراء مديـريـة الآثـار الفنيون، فإذا هي أبدع ما أنتجته عبقرية سكان الفرات في تلك العصور، وهي ذات قيمة تاريخية منقطعة النظير. وقد عبدت الربة عشتار، الهة الحب والحرب في ماري في هذا المعبد الذي يشبه في تقسيماته معبدها في مدينة آشـور. ولما استولى سرغون اغاديا على ماري في القرن الثامن والعشرين خربها وهـدم معبـد عشتـار فيهـا وشوه تماثيله. على أن السلام ما لبث أن عاد الى ماري فازدهرت من جديد وأعيد بناء المعبد. وعثر على معابد أخرى منها آخر معبد بناه ملوك ماري في أواخـر الألف الثـالث ق.م. وقـد خربـه حمورابي وجنـوده عنـد استيلائهم على المدينة.

عثـر على لقى كثـيرة في معبـد عشتـار، اكثـرها تماثيل اشخاص في وضعية العبـادة وتمـاثيـل آلهـة ولقـد وجدت كتابات على الكتف العارية لبعض التماثيل. وتـرجـع جميـع الآثـار المـوجـودة في المعبد الى أوائل الألف الثالث ق.م. وبعض المعـابـد متعـددة القـاعات، وبعضها يضم حجرة واحدة وكانت هذه المعابد على غاية من الثراء والزينة، ولكن الغزاة نهبوا كل شيء وحطموا التماثيل.

وكان في معابد ماري كتبة لتسجيل ما يخرج منها وما يدخل إليها من الأموال التي تجبى أو تنفق باسم المعبد، وكان حي المعابد بجانب قصر ماري. وكانت آلهة متعـددة تعبـد في هذه المعـابـد التي يقـرب عددها من العشرين. وبعضها يحرسها تماثيل لبوات من البرونز، ارسل ما عثر منها عليه الى متحف حلب. ومما عثر عليه في حي المعـابـد زقـورة، وهي صرح شاهق العلو، يمثل أعلى ما وجد في المدينة، ويـرمـز بعلوه الى الصلة بين الأرض والسـماء، وقـد سمت البعثـة هذه الـزقورة: (الكتلة الحمراء). وقد دل ظهورها على حضارة رفيعة ذات فن معماري راق. كان

البـابليـون وقبلهـم السـومريون يبنون مثل هذا البناء يسمونه زقورة. وقد اشتهرت زقورة بابل ببرج بابل، وقد حلت المآذن محلها.

بنيت زقـورة ماري على سطـح مرتفـع من اللبن، وكان الى جانبها معبد، وكـانت الـزقـورة محميـة بحـرس مؤلف من عدد كبـير من الأسـود الـبرونـزية أو الخشبيـة. وكـان اللبن يستعمل في بناء الزقورة وضمنه جذوع شجر لتقويته. وعثر في منطقـة الـزقـورة على لقى كثـيرة منهـا أسـد برونز وعدة تماثيل ونقوش جدارية ملونـة. وتعمقت البعثة في الحفـر فكشفت عدة طبقـات من الأبنيـة بعضهـا فوق بعض، ولقد عثر في عدة غرف من قصر ماري على نحو ٣٠ ألف رقيم من الفخار مكتوبة بالخط المسماري وهي مراسلات ووثائق واتفاقيات مع الممالك المجاورة نقلت الى باريس، وينكب على دراستها منذ عدة سنوات عدد كبير من كبار العلماء في العـالم لقـراءتهـا وتـرجمتها وتوضع التقارير العلمية عن دراستها لهذه الوثائق وترسل الى مديـريـة الآثـار والمتـاحف بدمشق. وبـالامكـان ترجمة النصوص المنقولة عن الفخار الى اللغة العربية عن الترجمة الفرنسية، وقد يترجمها علماء من الجمهورية العـربيـة المتحـدة رأسـاً عن اللغـة الأكـادية الى العربية. وستعاد هذه الرقم بعد دراستهـا الى المتحف بدمشق وكثـير من هذه الـرقم له قيمة تاريخية عظمى، فهي تدلي الينـا بمعلومـات تاريخ ماري وتاريخ البلاد الشرقية في ذلك الوقت السياسي والاقتصـادي، وعن اسـماء بلدان كثيرة واسماء ملوك كنا نجهلهم فنرى منها تبادل الهبـات بين ملوك ماري وملوك حلب والعـلاقـات بين ملوك ماري وحمورابي ملك بابل وملوك اوغاريت. وقد استؤنفت الحفريات في ماري من قبل بنفس البعثة في سنـة أخـرى ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ ـ وتتـابعت مواسم الحفر في تل الحريري، وكشفت اشيـاء اظهـرت ملامح ماري التي كانت تسـود المـمالك الشمالية بين خليج العرب والبحـر الابيض المتـوسـط قبـل الميلاد ببضعة قرون، وكان لها سفراء في كل منها. وكـانت مملكـة بابل تسود الممالك أو المدن الجنوبية. وكانت حدود مملكة ماري تمتد الى مدينـة حلب، وقـد تزوج زيمـريم ملك ماري ابنـة ملك حلب ياديم ليم

واسمها تشيبوا، وقد اشتبكت مملكة بابل مع مملكة ماري بحروب طويلة، واقتحم جنود حمورابي ماري مرتين واحرقوها ودمروا قصرها الملكي فتحولت عاصمة الشمال الى قرية وفقدت استقلالها ثم زالت نهائيا في عام ١٨٥٠ قبل الميلاد، وكانت عاصرت الحثيين الذين كانوا في آسيا الصغرى (تركيا). وعاصرت البابليين أسياد العراق، وقاومت طويلاً اقواماً جبابرة حتى غلبها الملك العظيم حمورابي العربي الذي حاول توحيد الهلال الخصيب بضم الساحل والداخل. وكانت هذه الممالك كلها تتكلم اللغة الآكادية.

وفي القرن الثامن والعشرين استولى سرجون اغاديا على ماري وخربها. غير أنه مالبث أن عاد الى المدينة فازدهرت من جديد.

وبرغم تطاول الزمن على ماري وما أصابها من تهديم وتخريب وحريق حفظ لنا قصرها في بعض قاعاته نقوشاً كانت تزين بعض الجدران تعد من أثمن اللقى النادرة المثال. وكان قصرها اضخم قصر ملكي اكتشف من آثار ذلك العصر.

ان ظهور آثار ماري دل على حضارة رفيعة ذات فن معماري على غاية من الرقي، وكشف النقاب عن عصر زاهر بلغ فيه الفن أوج الكمال، تجلى في النقوش واستخدم المعادن الثمينة والنحت والتصوير الواقعي. وقد ساعد ملوك ماري كثيراً على ترقية الفن فيها بتشجيعهم الفنانين ورعايتهم له.

ولقد وضعت البعثة قائمة بأسماء ملوك ماري الذين عرفوا حتى الآن بما قرىء من اللوحات (الرقم)، والأمل ان تتوفق البعثة في حفرياتها الى معرفة اسماء جميع الملوك الذين رفعوا شأنها. وقد حكم هؤلاء الملوك في العصر الذي كان فيه قصرها عامراً أي بين سنة ٢٣٥٠ وسنة ١٩٧٥ قبل الميلاد. ولقد وجدت لهم في قصر ماري تماثيل ضخمة، وكانت لهم عناية بالعلوم والآداب والمكاتب والفنون والبناء، فلا عجب أن جاء قصرها اضخم قصر اكتشف من آثار ذلك العهد، ولا يوجد ما

يضاهيه سوى قصر الامبراطور صارغون في خورسباد، احدى عواصم الآشوريين شرق الموصل.

وقصر ماري أقدم من قصر صارغون بألف سنة، وقد احتفظ قصر ماري بشكله القديم، وكانت غرفة تحتوي على أرشيف منظم (سجلات ووثائق).

اعتبر علماء الآثار ان الحفريات التي أجريت في ماري من أهم الحفريات الأثرية التي أجريت في الشرق الادنى منذ ٣٠ سنة، واحدث اكتشاف ماري دويا في العالم كله. لأنها كانت من أشهر عواصم العالم القديم، تضارع بالشهرة بابل ونينوى. وبظهور هذه العاصمة تبلج التاريخ السوري القديم بوضوح لم يكن موجود من قبل حيث ظهرت أقدم مملكة سورية.

لقد اكتشفت في اطلال ماري آثار عظيمة وأوابد فنية يعود عهدها الى زمن يمتد بين ٣٠٠٠ - ١٨٠٠ق.م. وأهم من ذلك هو العثور على وثائق مخطوطة على الفخار، هي ألواح ماري (الرقم) تكشف لنا الستار عن معلومات متنوعة وكثيرة ومهمة وجديدة.

ان بعثة الحفريات في ماري لم تدل بعد بجميع ايضاحاتها العلمية عن تاريخ ماري لانها ما زالت تدرس، ومازال معظم المدينة لم يكشف بعد ولذلك فإن معلوماتنا عن ماري لا تزال سطحية وستضيف معلومات ماري اضافات على التاريخ المكتوب.

لقد لفت اكتشاف ماري على شاطىء الفرات ومدينة أوغاريت في موقع رأس شمرا على الساحل السوري أنظار العالم، فأصبح اسم سورا على كل لسان، وكثرت المؤلفات والمحاضرات عن هذه الآثار العظيمة وصارت أرض سورا من مصادر التاريخ. وبفضل اكتشاف ماري وأوغاريت تدفقت البعثات الاثرية على الأقليم السوري، وخاصة على منطقة الفرات في الرصافة وتل حلف والرقة ومار والخابور.

وصارت الصحف السورية تكتب عن الآثار المكتشفة في الرقة وماري

الـرصـافـة وتنشـر رسـومهـا. واحسنت مديـريـة الآثـار بدمشق بإقـامـة معارض للمكتشفات الاثرية بدمشق، وأصدرت مجلة الحوليات الأثرية، مما جعل الجمهور السـوري يمتلك وعيـاً أثرياً يزداد من وقت لآخر. وقد رعته وزارة الثقافة والارشاد القـومي بدمشق التي أخـذت تعني بتأسيس المتاحف الاثرية في الأقليم السوري، فضلاً عن متاحف التقاليد.

توجد آثار مدينة ماري في متحفي دمشق وحلب، وهي آثار فريدة من نوعها وذات أهميـــة تاريخيـة كبرى، وأن وجـودهـا في هذين المتحفـين مما يغنيهـما ويعـزز مركزهما وأهميتها.

إن هذه الآثار وغيرها من آثار الأقليم السوري لما يبعث في النفس السورية العـربيـة نشوة الفخر والاعتزاز بماضي سوريا الحافل بالروائع والأمجاد. وانها لتطل علينـا وتـذكـرنـا بجهـاد السـوريين في سبيل ابداع حضارات زاهية، ما زلنا أهلاً لابـداع مثلهـا وأحسن في عهـد الـوحدة الذي يتيح لنا امكانيات عظيمة ويؤهلنا لصنـع حضـارة مزدهرة قريبة على ضفاف الفرات النهر المبارك العظيم الذي شهد قيام حضارات متعددة وزاهية على تعاقب العصور على شواطئه الخصيبة منذ فجر التاريخ.

دورا أوروبوس
الميناء التدمري على الفرات

(صالحية الفرات)

دخلت الحضارة الاغريقية الى سوريا بدخول الفاتح الكبير الاسكندر المقدوني سنة **٣٣٢** قبل المسيح وكانت قد شرعت في التسلل الى هذه البلاد منذ زمن، وكان سلوقس الأول وخلفاؤه يحاولون جادين صبغ الشرق الادني بالصبغة الاغريقية، وجعل الاغريق بما لهم من مدنية رفيعة الطبقة الحاكمة في هذه البلاد. ومن جملة ما اعتمدوا من الوسائل انشاء شبكة من المستعمرات والمدن في سوريا الشمالية وبلاد ما بين النهرين وفارس. فانشأوا انطاكية عاصمة الامبراطورية السلوقية على نهر العاصي، وسلوقية القريبة من مصب العاصي، ومدينة

اللاذقية، ومدينة افامية ومدن أخرى على الفرات منها دورا اوروبوس، أودورا نيكاتوريس أي مدينة نيكاتور وهو الذي أنشأها في نحو عام ٣٠٠ قبل المسيح وهو قائد من كبار الشخصيات المقدونية (٣١٢ - ٢٨٠) ق. م ومن أعوان الملك سلوقس الأول، والارجح أنه كان حاكماً لبلاد ما بين النهرين.

ان دورا لفظة سامية آشورية تعني قلعة أوحصن أو محلة. وفي العصر المكدوني أضيف إليها لفظة أوروبوس وتعني مدينة، وقيل انها الاسم للمدينة التي ولد فيها سلوقس الأول في مكدونيا.

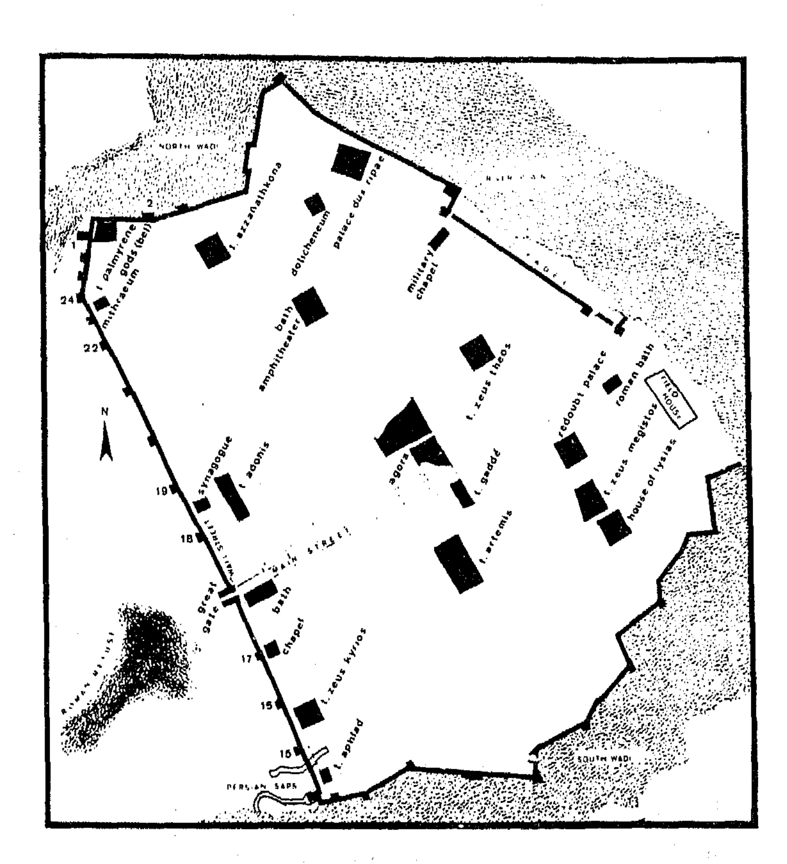
ان بداية تاريخ دورا مجهولة، وقد كانت جزءاً من المملكة السلوقية واحدى حواضرها. وقلعة من قلاع الدفاع عنها، ومحطة مهمة على طريق تجار تمر بها القوافل التجارية بين الخليج العربي وسوريا والبحر المتوسط. ويقال ان نيكاتور نفسه هو الذي احاط المدينة بسور ليحميها من الأخطار التي تتعرض لها. وهي بحد ذاتها ذات موقع ممتاز واقعة على ضفة الفرات الغربية على هضبة مرتفعة تطل على النهر والصحراء في آن واحد فتتمتع بمركز استراتيجي وموقع جغرافي واقتصادي ممتاز. تبعد ٨٥ كم عن دير الزور الى الجنوب الشرقي و١٤٠ ميلا عن تدمر الى الشرق و٣٥ ميلا من الخابور. ومنطقتها تفصل بين الحدود السورية والعراقية مما اعطاها هذه الميزة العسكرية في كل العصور، ولذا عرفت ازدهاراً تجارياً عظيماً وازداد عمرانها وعدد سكانها الذين بلغوا حوالي عشرين ألفاً، وكانوا خليطاً من العناصر والتقت فيها ديانات شتى وكثر عدد الساميين فيها واختلطوا بالمقدونيين والإغريق وقد حملت إليها هذه العناصر لغاتها وآدابها وفنونها وآلهتها وعاداتها. ولما ضعفت المملكة السلوقية استولى الفرس (الفرثيون الاركاشيون) على المدينة منذ نهاية القرن الثاني قبل المسيح وخلال المائتي سنة بعده وترك الفرثيون للمقدونيين والاغريق شطراً كبيراً من الحرية في التصرف بشؤونهم. ولما احتل الرومان سورية في سنة ٦٤ ق. م لم يمتد اليها نفوذهم لأنها كانت على الحدود بين سوريا وفارس، وخضعت لتغيرات مختلفة ولم يستقر فيها الامر مدة، ثم

احتلها جيش تدمر في القرن الثاني بعد المسيح ، ومنذ ذلك العهد ارتبط مصيرها بتدمر التي اخذت تزدهر بفضل التجارة . وكانت دورا ميناء لتدمر على الفرات وكانت فيها جالية تدمرية كبيرة ، وقد أثّرت فيها المدنية التدمرية تأثيراً بالغاً يظهر في معابدها وتصاويرها ودياناتها ، ويحوي سورها الذي بناه نيكاتور مساحة تبلغ ١٣ هكتاراً . وكانت هذه المساحة منقسمة بواسطة شوارع متقاطعة بزوايا قائمة . وما عدا التحصينات التي كانت يونانية فإن جميع الآثار وجدت فيها هي آثار من طراز تدمر وفرثي وروماني . اما الكتابات فجميعها يونانية وبعضها تدمرية ولاتينية . والتاريخ الذي يؤرخ به هو من عهد سلوقس الأول الذي يبدأ بتشرين الأول سنة ٣١٢ ق . م .

كان الفرات يجري من تحتها من الشمال ، وهي معزولة من جهاتها الثلاث بوديان ولا يمكن بلوغها الا من الجهة الغربية ولذا فقد حصنها أهلها تحصيناً متيناً ، وزادت مساحتها حتى أصبحت ٧٢ هكتاراً . وكان للمدينة ثلاثة أبواب : يقع الأول في طرفها الغربي المطل على الصحراء والى الآن يسمى باب تدمر ويقوم الثاني في جهة النهر والثالث في جنوبها ويشرف على الوادي الكبير .

واحتلها الرومان في عهد الامبراطور تراجان الذي زحف لاحتلال قسطيفون على دجلة سنة ١١٦ب . م ولكن الامبراطور هارديان ترك ادارتها الى تدمر فازدهرت بازدهارها وارتبطت بها الى سقوط تدمر بيد الامبراطور اورليانوس ٢٧٣م .

وفي ايلول سنة ١٦١ ب . م خربت هزة أرضية مجموع أبنية المدينة وتحصيناتها ، ثم أعيد بناء الدور ولم يعد بناء القلعة الا بعد ان استولى القائد الروماني لوسيوس فيروس على المدينة وهو الذي هزم الفرثيين تحت اسوار دورا سنة ١٦٥ ولم تتغير صفاتها الاغريقية وصارت قلعة رومانية حصنها سبتيموس سويرس وكركلا على الخصوص . وعادت الى التدمريين مرة ثانية بموافقة الرومان . فقد كان التدمريون يقومون بالتجارة وكانوا تحت نفوذ روما ، ولما خلع



مخطط مدينة دورا أوروبوس (صالحية الفرات) وتظهر فيها مواقع المباني المكتشفة معلمة بالاسود.

الجنـد الـرومـاني الامبراطور غودريان عن العرش الروماني، نادوا بفيليب العربي امـبراطـورا مكـانـه عام ٢٤٤، وبينها كان الامبراطور السابق سجيناً بجانب دورا أوروبوس اغتاله جنده.

وبعد مضي قرن عليها بيد الرومان وكان فيها حامية رومانية هاجمها الفرس الساسانيون سنة ٢٥٦ ميلادية وحاصروها، فدافعت عنها حاميتها دفاعاً مستميتاً، ولكي تمنع الحامية الرومانية هدم اسوار المدينة المحاصرة دعمت اسوارها من جميع الجهات بقطع من الآجر المشوي بحيث أقيم منه سوريلي السور الخارجي من الـداخـل، ولكن حصار الفرس للمدينة كان شديداً فسقطت وخربها الفرس، وجلا سكانها واهملت نهائياً.

وفي بدء القـرن الـرابـع في عهـد الامـبراطـور قسطنطين كانت دورا مخربة ومهملة يسكنهـا بعض الفقـراء، ولما سار الامـبراطـور جوليـان في سنة ٣٦٣ الى قسطيفـون لم يجد الا خرائب مدينـة كانت عامـرة. وظلت دورا أوروبوس منسية. وان تكن خرائب الصـالحيـة معروفة لدى الأهلين ومن الرحالين الاوروبيين الذين كانـوا يسـافـرون على الطريق بين حلب وبغداد مارين بدير الزور والصالحية منذ القـرن التـاسع عشر. وسميت صالحية الفرات لوجود قرية جنوبها تدعى الصالحية من قرى قضاء ابو كمال في منتصف الطريق بين ابو كمال والميادين، ولها طريقان. الطـريق القـديم ويسمى التحتـاني يجتـاز دورا ويمـر بقـريـة الصالحية. والطريق الفـوقـاني وتقـع الصـالحية على شمالـه على بعد ست كيلومترات وله طريق فرعي يذهب اليها.

ويظهـر ان بعض النصـاري سكنها بعد خرابها وكان اسمها تنوسي فأسموا المكـان الصـالحيـة وكان ظهور هذا الاسم في القرن السادس الميلادي فقد جاء في المصادر السريانية ان مار دانيال الصالحي مولود في مدينة الصالحية على الفرات في جنـوب الجـزيرة العليا، وقد ذاع صيت دانيال الصالحي في النصف الأول من القرن السادس. وكان في أول امره رئيس دير الصالحيين وإليه ينسب. ويظهر أنه أقيم دير

فوق انقاض دورا اوروبوس سمى دير الصالحيين وان اسم الصالحية انحدر إلينا من اسم ذلك الدير الذي لم يعمر طويلا . ولا توجد نصوص اسلامية عن الصالحية ، لأنها كانت خراباً عند الفتح الاسلامي لبلدان الفرات ولم يجدد احد عمرانها في كل العصور الاسلامية .

والصالحية اليوم قرية صغيرة فيها مدرسة ابتدائية ومخفر للشرطة وهاتف . تبعد ٤٠ كم عن الميادين . وفي شمال القرية آثار ناعورة ماء مبنية بالآجر على ضفة الفرات الغربية قد تكون من آثار مدينة دورا أوروبوس لسقاية السهل الممتد في أسفل الهضبة من جهة الجنوب الشرقي .

يعود الاهتمام بحفريات الصالحية الى سنة ١٩٢٠ ويعود الفضل بذلك الى الانسة جرترود بل المستشرقة الانكليزية ومديرة مصلحة الآثار في العراق .

وفي سنة ١٩٢٨ تضافرت جامعة ييل الاميركية وأكاديمية الخطوط والآداب الجميلة الفرنسية على متابعة الحفر في دورا تحت ادارة السيدين فرانز كومان العالم البلجيكي ورستوفتزيف استاذ التاريخ القديم في جامعة يي وبمساعدة مؤسسة روكلفر، وعهدت ادارة الاشغال الى علماء فرنسيين واميركان وبقيت الحفريات الى سنة ١٩٣٧ ولقد كشفت الحفريات عن مدينة ازدهرت في عهد الفرس الارساسيين على الخصوص وقد بنيت بشكل رقع الشطرنج على طراز المدن اليونانية بعهد الاسكندر ويوجد قصر أمير المدينة داخلها . وكانت معابدها يتألف كل واحد منها من ثلاثة أقسام : الباحة والدهليز وقاعة العبادة ، وقد كشفت الحفريات عن (١٢) معبداً وعن القاعة والاغوار والساحة وعدة حمامات . والشوارع يعود انشاؤ ها الى العهد اليوناني . وسوق وبضعة منازل . وتختص منازلها الخاصة باحتواء كل منها على باحة داخلية ، ومقبرة خارج المدينة وهي بشكل البرج وتقع عند باب تدمر في الجهة الغربية ، وعدة كنائس وقوس نصر ومنازل عديدة للطبقة الخاصة زينت افاريز بعضها بتصاوير مأخوذة من الفن اليوناني وكشف التنقيب عن هياكل الآلهة التدمريين وجدت فيها قطع تصويرية . وهيكل

جوبتير دوليخنوس وهيكل هدد. وقد امتزجت المعبودات الاغريقية والبر برية، وكان معبد ارتميس نانائا وهو من معابدها المشهورة في وسط المدينة ويرجع تاريخه الى تأسيس المدينة، ومعبد اتاركاتيس. ومعبد ادونيس وزوت ثيوس ومعبد الآلهة افرويت ومنزل الكهان اكتشفت سنة ١٩٢٩ وفي القرن الثالث ظهرت عبادات جديدة فيها دلت حفريات المدينة على أهميتها، ومنها عبادة الالهة مثير التي يمثلها هيكل مزدان، بنقوش وتصاوير. وقد زينت الكنيسة المسيحية (٢٣٢ م) بقطع تصويرية يمثل بعضها الراعي الصالح، ووجدت حجرتا هيكلين مسيحين، وزقورة (برج) وميدان روماني. وأهم ما عثر عليه في دورا كنيس يوهدي يرجع تاريخه الى زمن استيلاء روما على المدينة سنة ١٦٥م هدم سنة ٢٥٦ لما حاصر الفرس المدينة لوقوعه قرب أسوار المدينة في الجهة الشرقية طليت جدرانه وصور عليها مشاهد من التوراة وبعض الزخارف، ويظهر من رسمها تأثيرات الفنون الشرقية والاغريقية. وكان فنانوا المدينة يتوخون الوضوح والاتزان الفني وقيمة هذه الرسوم في قدمها، إذ لم يعثر على ما يماثلها في القدم.

وقد نقلت هذه الرسوم الى المتحف الوطني بدمشق. وفي المتحف الوطني بحلب مجموعة ثمينة من الآثار التي وجدت في (صالحية الفرات) يعود تاريخها الى القرون الميلادية، الأولى: لوحات حجرية منقوشة وصور ومجموعة كبيرة من الأواني الخزفية الخضراء والزرقاء ذات أشكال متعددة، وصورة حفلة دينية وجدت على جدران معبد الالهة التدمرية.

وكشفت الحفريات عن وجود مسرح في دورا اوروبس شأن المدن السورية في العهد الروماني، ومسرح دورا يختلف عن مسارح المدن الكبيرة. فقد اتصف بناؤه بشيء من الاستقلال في الاسلوب المعماري، وهو مخصص للطقوس الدينية وهو صغير المساحة، قطره حوالي (١٤) متراً وليس له منصة، وهو على شكل نصف دائرة ممتد وله أربعة أدراج وثمانية صفوف من المقاعد المغطاة بالقرميد، وربما



آثار دورا أوروبوس

كان من نوع الاوديون (للحفلات الموسيقية) ويظهر المسرح كقصر يوناني روماني متحد مع معبد له باحة واسعة من أصل سامي .

وأهمية أبنية (دورا أوروبوس) الهلنستية : اسوارها وأبراجها التي بقيت الى زماننا ، وتمتد هذه الاسوار على شكل مضلع غير منتظم وقد بنيت من أحجار جصية مقطوعة قطعاً جيداً من مقالع بقربها وتوجد بينها (مونة) جصية . أما الأبراج فإنها مربعة ومستطيلة ويبعد كل منها عن الآخر (٨٠/٥٧) متراً ويتألف كل منها من طابقين أو أكثر، وأشهرها (برج رماة الرماح) و(برج التدمريين) و(برج خماسي) في السور الجنوبي ، وهذا البرج الاخير من أجملها ، ويعد من أكثر الآثار الهلنستية ندرة في سوريا . ولم يبق من أبواب المدينة الا الباب الغربي المشرف على الصحراء ويحده برجان بارزان ، في كل منهما بابان متداخلان يعلوهما قوس مدور وارتفاعهما (١١) متراً .

وتوجد في طرف المدينة المطل على الفرات قلعة مفصولة عن بقية احياء المدينة بوادي عرضه (١٠٠) متراً وشكلها مستطيل طوله ٣٥٠ متراً وعرضه ٥٠م ويقوم في كل زاوية من زواياها برج طوله ٢٦ متراً ومبنية بأحجار تشبه أحجار السور. وبعض أقسام القلعة كان جرف بفيضان الفرات ، وتخطيط القلعة شرقي ولا يعلم تاريخ بنائها . وبعض جدرانها مغطى بالرسوم .

لقد كان سكانها خليط من اليونانيين والمكدونيين ، والتدمريين ، والرومانيين ، والفرس ، والارمن . ومن الاراميين السوريين وهم القوم الاصليون ومن عناصر اخرى قليلة تأتيها مع القوافل التجارية التي تمر بها ، وكانت كل جالية تلبس لباسها القومي ، اما الكهنة فيرتدون لباسا أبيض طويل يظهر اليد الواحدة ويخفي الاخرى حتى ليوجد احياناً تأثير حثي في اللباس . وكل جالية تتكلم لغتها وكان الكثير من السكان يعرف اكثر من لغة بحكم الاختلاط والمقتضى التجاري . وظهرت اللغة اللاتينية ، واللغة الآرامية هي السائدة لانها لغة السكان . وأثّرت تدمر في حياة السكان لمجاورتها لها ولما بينهما من علاقات

واتصالات دائمة فاثرت ديانة تدمر في دورا وكذا الاغريق اثروا فيها بفن البناء والنحت والرسم والديانة .

وكشفت الحفريات عن كميات كبيرة من الخزف الاصفر الفاقع والاصفر الضارب الى الرمادي واخضر ورمادي وأرقى أنواعه الخزف الاخضر المصقول المائل الى الزرقة وأشكاله متعددة، ويوجد بعضها في متحف دمشق على شكل جرار، وعلى بعضها نقوش بسيطة ويرجع تاريخ استعمال الخزف في دورا الى القرن الأول ق.م. ووجدت فيها بعض النقود في القبور ويعود تاريخها الى زمن انطيوخوس (٢٨٠ - ٢٦١) وبعضها لعهد الامبراطور تراجان. ووجدت آثار فنية أخرى وبعض الاساور والحلي والعقود والخواتم وأمشاط عرضة بمتحف دمشق.

ان فن بناء دورا مستوى من فن البناء العسكري الذي نشر أصوله مهندسوا الاسكندر وقواده من بعده في مستعمراتهم في حوض الفرات.

لقد كانت دورا أوروبوس مدينةمشهورة في سوريا على الفرات وهي مدينة بشهرتها وازدهارها الى موقعها الجغرافي الاستراتيجي الممتاز جعل منها حصناً على الحدود بين الشرق والغرب، وكانت بؤرة التقت فيها حضارات الشعوب وثقافاتها. ولفنونها أهميتها في تاريخ الفنون. وهي وشقيقاتها المدن الفراتية القديمة في الاقليم السوري تظهر أهمية وادي الفرات السوري وامكانياته العظيمة في كل الازمان.

المياذين . . . .

فئات سكان بلدة المياذين

كان عدد سكان بلدة المياذين عام ١٩٧٣ (١٦) ألفاً وهو ثلاثة أضعاف ما كان عليه في العشرينات من هذا القرن، يتألفون من الفئات التالية:

١ ـ البوخليل، مصدرهم قلعة الرحبة، من فرق الكلعيين، نسبة الى قلعة الرحبة. النسبة اليهم: خليلي وهم فرعان الأول: البو ابراهيم بيوتهم البورسان والحمد الشيخ وعبد الاحمد، وطه ملاّ حساني وسهو الشيخ وغبين (بيت ضويحي والمهيد) والأيوب (أحمد وحمد وعبد الله السوادي) الفرع الثاني البو اسماعيل، **بيوتهم (القاضي الحمش)، الناصر (عبد الله الناصر).**

٢ ـ البو ناصر بيوتهم العبادي زايد السوادي، **طعمة اللطيف، المالج، عالج.**

٣ ـ السنانيون، منهم سليمان الملقب جروان.
٤ ـ الويسات، بيوتهم: جعفر الصادق الرحبي، أحمد ومحمد السليمان ملا خالد.
٥ ـ البومصطفى، مصدرهم قلعة الرحبة من فرق الكلعيين النسبة اليهم مصطفاوي. بيوتهم: محمد الخضر، الخليفات (الصياح) والبوناصيف (شعيبي العبد الله الناصيف).

جمع الفئات المار ذكرها كلعيون نسبة الى قلعة رحبة مالك بن طوق جنوبي بلدة المياذين الحالية جاءوا منها.

٦ ـ المشاهدة مصدرهم من بلدة مشهد في العراق، بيوتهم: العبد الموسى الشدخان، الشرابي العليوي، الدكاك، عباس الحسين، السعران (الحنيش والطوير).
٧ ـ العانيون، مصدرهم بلدة عانة في العراق. بيوتهم: رشيد النجم، مشوح، محمد الصالح (بداوي المحمد الصالح) ربيع، السبتي، الزركان، حاج رزوكي، بيت الرحمو. النسبة اليهم: عاني.
٨ ـ الراويون من راوة جارة عانة في العراق، بيوتهم: سيف الدين المرادي، كمال المرادي، حامد المرادي، عبد الغفور الراوي، السلاطنة (احمد السلطان وجاسم السلطان والبحر). النسبة اليهم: راوي.
٩ ـ ديريون، مصدرهم مدينة دير الزور، بيوتهم أحمد البصري، شاهر الفريح، عبد الله الكساري، عبد الوهاب الفياض، العشيش، سعيد (حسن العلي وسليمان العلي)، النسبة اليهم ديري.
١٠ ـ بوسرايا، مصدرهم عشيرة ابوسرايا غرب دير الزور، بيت الشعيبي سادة (حمادي الشعيبي، بيت حمد. النسبة اليهم سراوي).
١١ ـ عكيدات، مصدرهم من مختلف فرق عشيرة العكيدات الذين تجاوز

منـــازلهم وقـراهـم بلدة الميـاذين منهم بيت محمـد المخلف جيجـان . الـويسـات . نسبتهم : عكيدي .

١٢ ـ سخاني مصدرهم قرية السخنة بين دير الزور وتدمر، أما من السخنة مباشرة وأما من سخاني دير الزور: الحسون، الصوامعة، نسبتهم سخني .

١٣ ـ مواصلة، مصدرهم مدينة الموصل في شمال العراق، منهم بيت قاسم المصلاوي وبيت زهور الحمد الصالح . نسبتهم : مصلاوي .

١٤ ـ بيت رمضـان : اكـراد من الجـزيـرة الفـراتيـة (صـالـح رمضان وكمال رمضان) لم يبق منهم أحد .

تطور بلدة المياذين

(مركز منطقة المياذين) في العهد السوري الى اليوم .

منـــذ ١٩٢٠ تطـورت بلدة الميـاذين كثـيراً ، اتسـع عمـرانهـا ، وهـو آخـذ بالاتسـاع ، وأصبـح عدد سكـانهـا ثلاثـة أضعـاف ما كان ، وتضـاعفت مسـاحة الأراضي الـزراعيـة وتطـورت وسائل الري فيها من النصبة الى الغراف الى محرك الضخ الانفجاري ودخلت الجرارات .

أحـدثـت فيهـا تغـيرات عديدة هامة ساعدتها على التطور الملحوظ بالنسبة الى السنـة ١٩٢٠ ومـا قبلهـا ، وأهـم هذه التغـيرات تعبيـد الطريق بينها وبين دير الـزور، فقـد كانت ترابيـة وجـرى تعبيـدها على مراحل ، ثم عبدت الطريق بينها وبين أبو كمال . ولهذه الطريق أهميتها في انعاش المنطقتين ، لأنها الطريق بين حلب وبغداد عبر وادي الفرات ، وجرى تنوير البلدة بالكهرباء في السنة ١٩٥٣ ، وارتفع المستوى الصحي والاجتماعي .

وانشأت بلدة المياذين مشروع مياه الشرب في السنة ١٩٦٤ ، وحديقة عامة بمساحة عشرة دونمات سنة ١٩٦٨.

واخـذت وزارة الـتربيـة تهتم بانشاء المدارس الابتدائية والاعدادية في مركز

الميـاذين وفي القــرى، وفي الستينـات من قرننـا أنشأت مدارس ثانـويـة للذكـور وللانـاث، وشهـدت المنطقة في السنوات الأخيرة حركة تعليم ملحوظة، فلا تخلو قرية من مدرسة ابتدائية.

وقـد أخـذت هذه الحـركـة تثمـر بالتحاق عدد كبير من ابناء الميادين وقراها بالجـامعـات، وتخرج عدد منهم في مختلف الدراسات. وانشئت فيها صالة للسينما أول مرة عام ١٩٥٥. ويقبــل أبنــاء منطقــة الميــاذين على المدارس في مختلف مراحلهـا، وعلى الالتحـاق بالجـامعـات في سوريـة وفي الخارج. وبنت الحكومة مجمعاً حكومياً بمساحة ٤٦٩٢م٢ شغلته سنة ١٩٦٦. كما بنت مركز انعاش ريفي بمســاحــة ٤٠٠٠٠ م٢ انتهى سنة ١٩٦٦ ميزانيته الداخلية ٣٠٠٠٠ ل.س وعدد موظفيـه ٢٠ وعبّـدت الطـرق الفـرعية بين الطريق العامة والقرى، وقررت الدولة انشاء جسر على الفرات في الميادين ١٩٧٢ حيث الاتصال بين ضفتي النهر بواسطة سفينة محلية، على ان الزراعة في الميادين وقراها ما تزال متخلفة، وتخلو المنطقة من الخضار واشجار الفاكهة. قرية العشارة وحدها تصدر البطيخ.

الجوامع في بلدة الميادين

١ ـ جامع الوسط، شيده أهالي البلدة في سوقها سنة ١٩٢٥.

٢ ـ جامـع المشـوح، بنـاه محمـد شريف الملقب بـ(مشوح) في المحلة الشرقية على ضفـة الفـرات الغـربيـة، جدد بناءه سنة ١٩٢٥ السيد عبد الله مشوح. وبنى سياجه الخارجي ومرافقه الاستاذ محمود مشوح سنة ١٩٦٧، وقد هدمه اليوم ليجدد بناءه وشرع بالبناء (انتهى بناؤه عام ١٩٧٩).

٣ ـ جامع الغرب بنته الدولة قرب الحديقة العامة سنة ١٩٦٧.

٤ ـ جامع الحريب في محلة الوسط بناه صالح الحريب نائب الميادين سنة ١٩٥٠.

٥ ـ تكيـة الـراوي في محلة الشـرق بنـاهـا سنـة ١٩٣٢ عبـد العزيز جروان وهدمت سنة ١٩٦٠ .

٦ ـ جامع عبد الله العبيد بني في محلة محلة الغرب، العلوة، يبنيه أهل الخير .

٧ ـ جامع غرب دار الحكومة .

٨ ـ جامع عبد الله المشوح بناه ورثته .

نواب منطقة المياذين في مختلف العهود السورية .

ـ عبد المحسن الهفل، خريج مدرسة العشائر في استانبول من العكيدات .

ـ تركي النجرس، خريج مدرسة العشائر من العكيدات فرقة المثلث موطنه العشارة .

ـ عبود الجدعان من قرية ذيبان رئيس عشيرة العكيدات .

ـ صالح الحريب من بلدة المياذين فرقة البو مصطفى موظف مالي .

ـ عبد المجيد المشوح مياذيني عاني موظف مالي ومدرس .

ـ عبد الوهاب الخضر مياديني من فرقة البو مصطفى مزارع .

ـ أحمد الجيجان من عشيرة العكيدات الشويط معلم .

ـ سلوم الشعيبي مياديني من البو مصطفى مزارع .

رؤساء بلدية المياذين :

رشيد النجم الزركان (عاني)، محمد الخضر، حسن الأحمد كيكي (ديري) محمد الدخيل الأبورسـان . أحمد البصري ديري . هواش اليوسف (عاني) صبحي الحنيش . خالد الحسن السعيد .

المفتون :

١ ـ عمر مشوح توفي عام ١٩٤٥ .

٢ ـ محمود مشوح عين بعد وفاة والده واحيل الى التقاعد سنة ١٩٦٨ .

٣ ـ الشيخ مسلم الصوفي .

القضاة :

١ ـ محمد بن سالم من البو خليل جد حامد القاضي الذي يقيم في دير الزور.

٢ ـ حاج حميدي الشعيبي أصله من البوسرايا من الخريطة .

٣ ـ عبد القادر ملا حويش ، ولادة عانة ونشأة وإقامة دير الزور.

٤ ـ صار القاضي الصلحي يشغل وظيفة القاضي الشرعي بالاضافة الى وظيفته .

المقاهي في بلدة المياذين

١ ـ أول مقهى في الميـاذين افتتحـه عجيل المثقال من دير الزور ١٩٠٥ بقي عشر سنوات . وفتح بعده محمد السالم من البوسنان مقهى .

٢ ـ القهوة المعلقة ، سميت بهذا الاسم لأنها كانت في طابق ثان أمام جامع الوسط الى الجهة الجنوبية ، كانت ملك جروان ومحمد الخضر مؤجرة ، استعملت في العام ١٩٢٤ وهجرت في سنة ١٩٣٧ ثم هدمت . رقصت فيها الراقصة حسيبة النورية ، فكان ذلك مدعاة تعليقات شتى من أبناء دير الزور وأبناء المياذين .

٣ ـ مقهى مدَّاد الصياح في الحي الغربي على الشارع العام المتجه الى أبو كمال .

٤ ـ مقهى عبد الرحمن دكاك مقابل مقهى عيد الصياح .

٥ ـ مقهى عبد الرزاق الشعيبي بجوار مقهى عبد الرحمن المذكور.
٦ ـ مقهى مرعي مطلق الحتر وش غرب مقهى مداد الصياح .
٧ ـ مقهى أحمد النايف مقابل المستوصف على طريق أبو كمال.
٨ ـ مقهى حميد الشاكر أمام المجمع الحكومي .
٩ ـ مقهى صالح الضويحي أمام المجمع الحكومي .
١٠ ـ مقهى أحمد الصالح داخل المدينة .
١١ ـ مقهى عابد الدلهوث مقابل مقهى أحمد الصالح .
١٢ ـ مقهى شاطيء المخلف داخل البلدة في السوق.
١٣ ـ مقهى أحمد السلمان داخل البلدة .

الدواوين وأصحابها في بلدة المياذين

الدواوين جمع ديوان، وهو المجلس الذي يتخذه شخص بارز في عشيرته أو بلده، في بيته في وقت معين من كل يوم بصورة مستمرة، يستقبل فيه زواره وضيوفه، ويقدم لهم القهوة ولفائف الدخان. ولهذه الدواوين دورها الكبير في حياة السكان، كل ديوان أشبه بالندوة، يلتقون فيها ويتحدثون، وإليها ترد الأخبار وتصدر وفيها يسمرون ويتبايعون، ويحلون كثيراً من خلافاتهم وفيها يستعرضون مشاكلهم ومشاكل بلدهم ومنطقتهم وفيها تصدر مطالبهم العامة وقراراتهم. كانت بعض الدواوين تعقد قبل الظهر. وأخرى تعقد في العصر ودواوين تعقد في الليل. لقد كانت هذه الدواوين جزءاً من تاريخهم الاجتماعي جديرة بالذكر، كما هي النوادي. وكان الديوان مجلس رئيس العشيرة واقاربه منها لعام ومنها الخاص.

كان أبناء الميـاذين يجارون أبناء دير الزور في اتخاذ دواوينهم. وكان اتخاذ ديوان مفخرة لصاحبه ولذا كانوا يحرصون على اتخاذها. وانه لسلوك محمود، فيه خدمة اجتماعية للمحيط اذا قيس بالمقاهي التي كلها شرور. ويقتضي مكافحتها.

كان أبناء الميـاذين عنـدمـا يحضـرون الى ديـر الـزور يحرصـون على زيارة الدواوين فيها. وقد انقرضت الدواوين في كل من دير الزور والمياذين. وهذه أسماء أصحاب الدواوين من الجيل السابق في بلدة الميادين أذكرهم لتقديري سلوكهم هذا:

دواوين عامـة: دخيـل البورسان، وقاع البورسان، ضويحي الغبين، محمد السالم، زايد الوادي طعمة لطيف جميع هؤلاء من البوخليل.

دواوين خاصـة: الشيـخ جعفـر الـويس، خلف السهـو، علاوي المهيد، ضيف المهيد.

دواوين عامـة: نايف المحمـد العبد الجادر، حسين الحمادة، ابراهيم العبد الله الجـامـوس، محمـد الخضـر، حمش الخلف، جميعهم من البـومصطفى وديوان خاص: أحمد الجواد.

دواوين عامـة: محمـد المحمود، حاج حميدي العلي، حاج عباس الحسين، صبحي الحنيش، فائق الشلال، جميعهم مشاهدة.

دواوين عامـة: المفتي الشيـخ عمـر المشوح، هواش اليوسف، حاج نجيب الرشيد، جميعهم عانيون أحمد البصري (ديري) سيد ابراهيم الشعيبي (سراوي) سيد رجب الراوي (راوي) لافي الحسون (سخني).

ديوان خاص: صالح العشاير (ديري).

الرحبـــة

الموقع وأهميته ومواصفاته وتابعيته

من أهم المـواقـع والمدن التي اشتهرت في وادي الفرات الأعلى في العهدين الارامي والعباسي تقوضت في أواخر القرن السابع عشر للهجرة. وقد قامت بلدة المياذين الحالية على انقاضها، في الربع الأخيرة من القرن التاسع عشر للميلاد. وتقـع شرقي مدينـة ديـر الـزور على ضفة الفرات الغربية على بعد خمسة وأربعين كيلومـتراً، وقـد أفـادت الميـاذين في بدء نشـوئها من آجر انقاض الرحبة القديمة باستخراجه من سور المدينة القديمة ومن جدران دورها القديمة، وحتى من القلعة القديمة الواقعة جنوبي بلدة المياذين على بعد خمسة كيلومترات، فوق تل مرتفع، قدّمن من هضبة محاذية لنهر الفرات، تطل على سهل وادي الفرات من يمينه وشماله.

الى الآن لم يجر في موقع الرحبة القديمة تنقيب علمي ، ولذلك لا نعلم شيئاً عن تاريخها قبل القرن الثالث للهجرة ، ولا عن مساحتها وخططها القديمة . ولم يكتب تاريخها كاتب ولا مؤرخ لا قديم ولا حديث، لا عربي ولا أجنبي .

وفي أيام اليونان والرومان ، الذين استولوا على هذه الربوع ، لا نجد شيئاً هاماً عن مدينة الرحبة لأن المدينة كانت قد خرجت في القرن السادس قبل الميلاد .
لم تذكر الرحبة في المصادر العربية الا في عهد الامير التغلبي مالك بن طوق بن عتاب المتوفى سنة ٢٥٩ هـ ـ ٨٧٣م . وهذه المصادر لم تذكر إلا نتفاً قليلة عن الرحبة في سياق الاحداث الاسلامية في العصور العباسية وما تلاها من العهود، وكذلك فإن المصادر العربية لم تذكر الا نتفاً عن أول حاكم لها مالك بن طوق العتابي التغلبي فلا نجد الا طريقاً لبعض الجيوش ، أو ملجأ لبعض القواد والامراء المغامرين أو اقطاعاً يقطعها السلطان لبعض الرجال ، وقد لاقت عبر التاريخ محناً شديدة ، فنهبت وخربت مراراً كثيرة حتى عفت آثارها ، وطمست اخبارها ، ولازمها سوء الطالع حتى انه لم تجر فيها تنقيبات آثارية علمية ، كما جرت في أخواتها المدن الفراتية غربيها وشرقيها كمدينة ماري (تل الحريري) ودورا اوروبوس (صالحية الفرات) والرصافة ، وبالس (مسكنة) في السنوات الاخيرة برغم مرور كثير من الرحالين الاجانب والآثاريين بها منذ القرن السادس عشر للميلاد الى اليوم ، وورود اسمها في مؤلفاتهم ورحلاتهم فضلا عن ذكرها في بعض الموسوعات الاجنبية وبخاصة في الموسوعة الاسلامية التي أصدرها لفيف من المستشرفين باللغة الفرنسية والانجليزية والالمانية . وشرع الاساتذة المصريون ابراهيم زكي خورشيد واحمد الشنتاوي والدكتور عبد الحميد يونس بنقلها الى العربية ، وقد صدرت اجزاء من الترجمة في طبعتين قديمة وحديثة باسم دائرة المعارف الاسلامية . .

لقد عز على سكان المنطقة أن ينسى ذكر الرحبة وذكر مالك بن طوق مجدد بنائها فاطلقوا على قلعة قديمة آشورية اسم رحبة مالك بن طوق أميرها العربي

الأول، وشاع الاسمان مقترنان، الى يومنا، واكتفى السكان العامة والمتعلمون بذلك، دون أن يهتموا بمعرفة موقع المدينة القديمة وتاريخها وشأنها، وأمر مدينة مالك بن طوق التي ذاعت لها شهرة بعيدة في حياة مالك وبعده، وليس من المعقول ان تكون رحبة مالك هي القلعة الآشورية القديمة، واكتفى القراء من ابناء المنطقة وغيرهم رواية ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» عن سبب بناء الرحبة وربطه بالخليفة العباسي هارون الرشيد. ان رواية ياقوت الحموي هذه عارية عن الصحة. وكذلك روايات كثيرة يرويها السكان عن الرحبة.

ليس سكان بلدة الميادين ـ وريثة رحبة مالك بن طوق. ولا سكان منطقة وادي الفرات وحدهم الذي اهملوا معرفة تاريخ الرحبة وتحقيق موقعها، وانما شاركهم في هذا الاهمال الزري كل من وزارة التربية وجامعة دمشق ووزارة الثقافة والمؤسسات الثقافية في سورية، والسوريون المعنيون بتاريخ الشرق القديم.

ليست الرحبة بلا تاريخ، لقد كان لها شأن خطير في الاحداث العربية في العصر العباسي وفي المملكة الفاطمية ودولة المماليك. ان تاريخها هام فهو تاريخ وادي الفرات، الجدير كل الجدارة باهتمامنا الزائد بجميع نواحيه وشؤونه وأحواله التاريخية والجغرافية وغيرهما. . . .

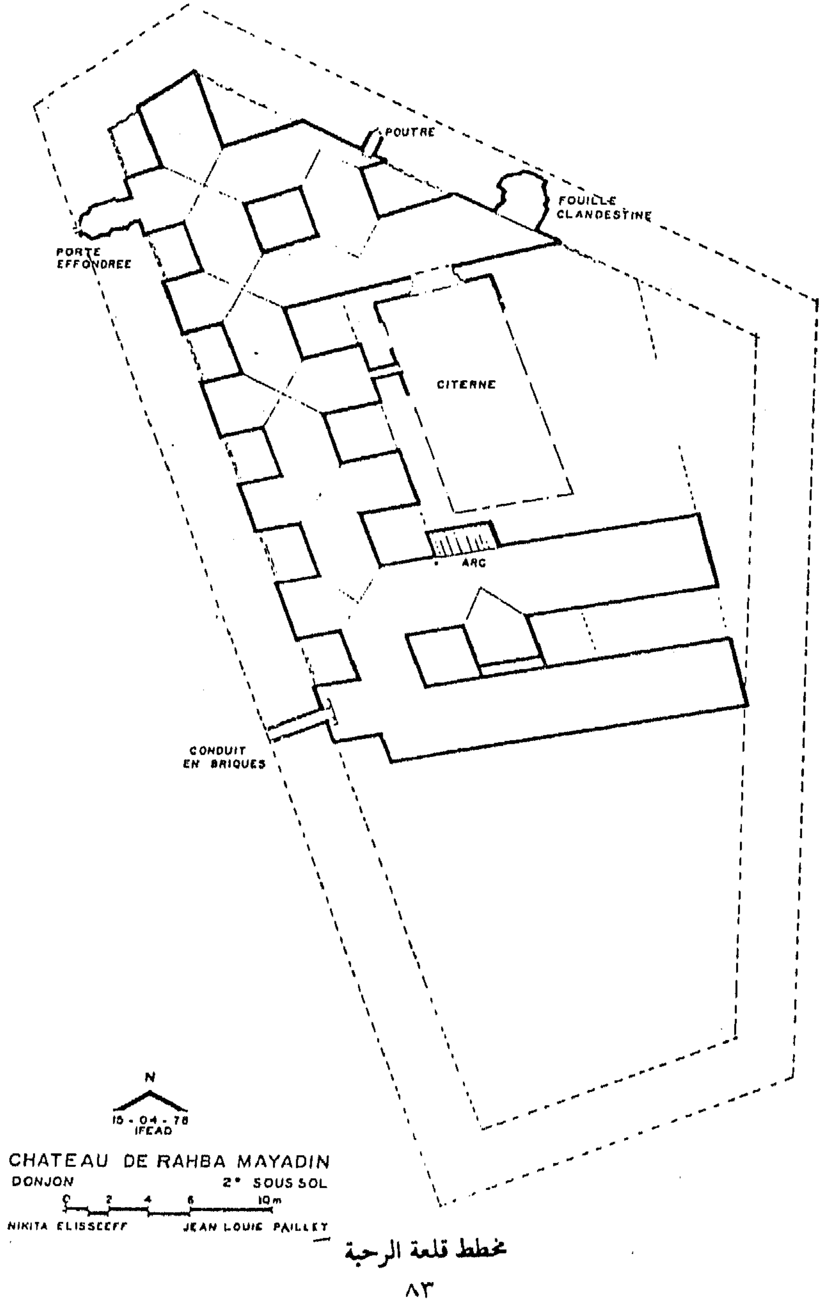
قال البلاذري في كتابه «فتوح البلدان»: «لم يكن لها أثر قديم، انما أحدثها مالك بن طوق العتابي التغلبي في خلافة المأمون» وتقول مصادر اسلامية ان مالك جدد بناء الرحبة ان «مالك» عندما عين والياً على الجزيرة الفراتية والخابور وأعمال طريق الفرات، وكان لابد له من اختيار مكان اقامة له ولرجاله، لفتت اطلال مدينة الرحبة القديمة نظره، واسترعى انتباهه حسن موقعها الاستراتيجي والاقتصادي على الطريق الممتدة على ضفة الفرات الغربية، بين مدينة الانبار ميناء على ضفة الفرات الشرقية وكانت بقرب من بلدة (الفلوجة) الواقعة على ضفة الفرات الغربية على بعد ستين كيلومتراً غربي بغداد، وبين بالس (مسكنة) ميناء حلب على الفرات، شرقي حلب تبعد عنها نحو تسعين كيلومتراً، على

الطريق العامة بين حلب وديـر الـزور. ولإشراف موقع الرحبة على بادية الشام وبادية السماوة وبادية الجزيرة الفراتية حيث منازل قبيلة تغلب الشهيرة قوم مالك بن طوق واليهـا نسبتـه. ومن هذه القبيلة بنـو حمدان الـذين اسسـوا دولـة لهم في الموصـل واخـرى في حلب. قال ابن حوقـل في كتابـه (صورة الأرض: «فدخل عليهم في هذا الوقت من بطون قيس عيلان الكثيرة من بني قشير وعقيل وبني نمير وبني كلاب وملكـوا غير بلد واقليم منهـا. كحـران وجسـر منبج والخانوقة وعرابان وقـرقيسيـا والـرحبـة في أيـديهم، يتحكمـون في مرافقها، ورسم ابن حوقل مكان الـرحبـة في مصـوره»[1]. وقد أطنب في خصب السهول المروية في الرحبة والتي على ضفـة الفـرات الشـرقيـة. وانهـا ذات ريـاض وبساتين، ينمو فيها النخيل، وكان سفرجل هذه الناحية مشهوراً (المقدسي) ذلك ان الضفة الشرقية كانت تسقى من ماء الفـرات ومن ترع الخـابـور، وهي سهـول فسيحـة، بخـلاف سهـول الضفة الغربية فإنها ضيقة محصورة بين الفرات وهضاب وكلا الضفتان كانت في نطاق الرحبة.

وكان السهل الذي تقع فيه الرحبة والممتد على ضفة الفرات الغربية خصباً عامـراً بالقـرى والمـدن منهـا الرحبة والدالية، وتعرف بدالية مالك بن طول، وهي مدينة صغيرة في أسفل الرحبة على ضفة الفرات الغربية، وكان موقع الدالية عند مصب ترعـة سعيـد الخـير الأمـوي في الفـرات. واحسب ان مكـانهـا اليـوم قرية «القـريـة» شرقي بلدة الميـاذين على بعد ثلاثة عشر كليومتراً. وكانت ترعة سعيد تخرج من غربي ديـر الـزور وتخـترق السهل الممتد بين دير الزور والمياذين، وتمر من جنوب الرحبة ومن أسفل قلعة الرحبة، فكان سهل الرحبة في الشامية يسقى منها ومن الفـرات، ومن ذلـك جاءت وفـرة أشجـار وخيرات الرحبة، فضلاً عن مرور

---

١ ـ أخطأ ابن حوقل في وضع الرحبة على ضفة الفرات الشرقية بدلا من وضعها على الضفة الغربية.



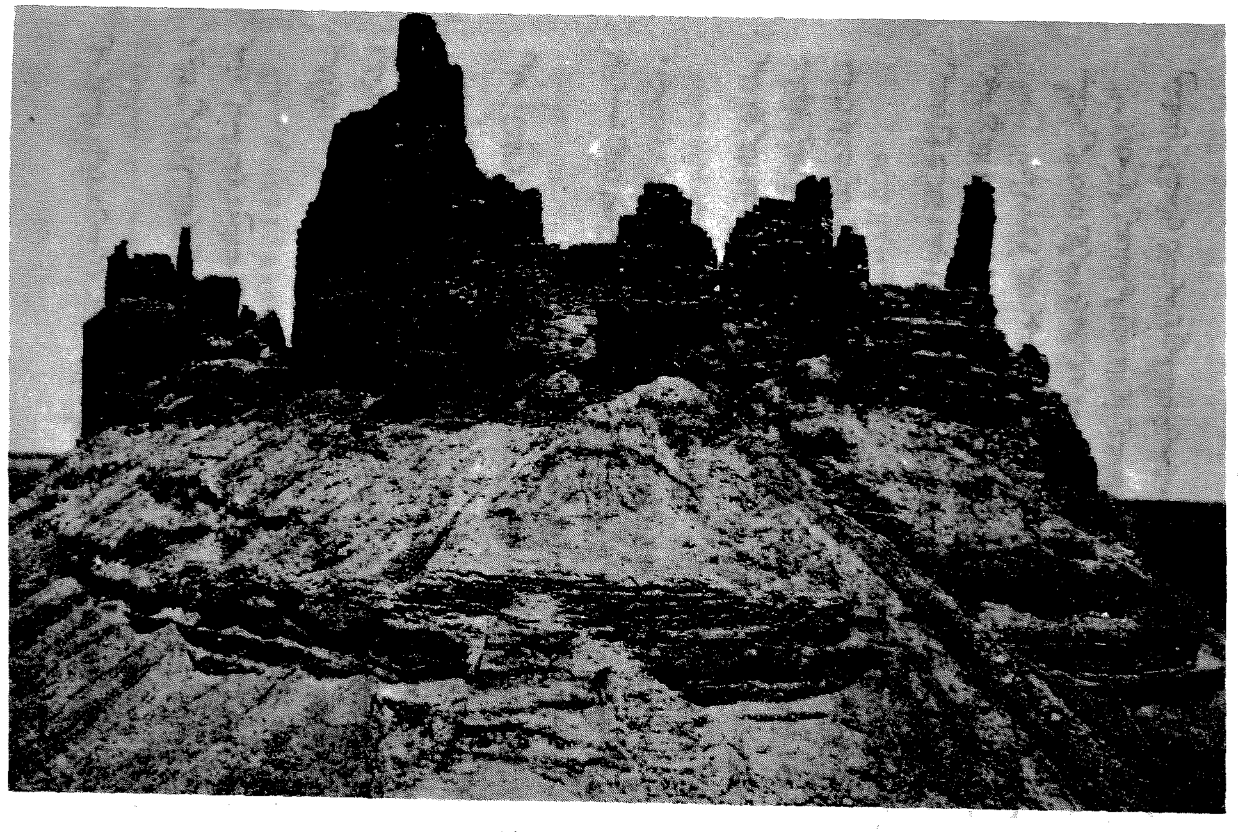
مخطط قلعة الرحبة

طريق الفـرات الشهـير فيهـا . والـذي كان من أهم أسبـاب نمو الرحبة وازدهارها وشهرتها المستفيضة في العصر العباسي ، وما تلاها من العصور والعهود ، وبقيت لها شهـرتهـا حتى بعـد خرابهـا ، وقيام بلدة المياذين الحالية على انقاضها . وهي ميناء على نهر الفرات تمر بها السفن التي تمخر به .

وبحسب رأي المقدسي فإن الرحبة شيدت في شكل نصف دائري في طرف الصحراء ، تحميها قلعة حصينة في الجنوب على بعد خمسة كيلو مترات على تل ، وكان يحيط بها خندق ، وحول تلها اكام كانت لحراسة المدينة ، ولحراسة موضع هام من الطـريق التجـاري والنهـري الـذاهب من مدن الفـرات في سورية الى بغداد والعـراق ، ويـرجـع بنـاء هذه القلعة الى العهد البابلي ، على ان فيها بناء آشورياً وفـارسيـاً ورومـانيـاً واضـافات عربية ظاهرة حتى اليوم . وما زال خندقها ، وكانت جانب تلها مرصوفة بالحجارة ، لا تزال بعض آثارها . وقد زارها الرحالة ابن بطوطة وزار قلعـة حلب ، فقـال وهـذه القلعـة تشبـه قلعة رحبة مالك بن طوق التي على الفرات بين الشام والعراق (رحلة ابن بطوطة ج١ ، ص٤٠ طبعة مصر ١٩٢٨) .

وكـانـت هذه القلعـة مسكـونـة منـذ نيف ومـائة سنة ، سكنها أجداد بعض سكـان بلدة الميـاذين الحـاليـة ، ولا يزال يسمون بالقلعيين نسبة الى هذه القلعة ، وانتسب بعضهم الى الرحبة . ويؤخذ على سكان المياذين ، انهم منذ نصف قرن الى اليـوم يهدمـون جدران هذه القلعـة ، ليحصلوا على الآجـر لادخـالـه في بناء دورهم في المياذين ، يحملونه على ظهور حميرهم ، بعد أن استنفذوا آجر سور مدينة الـرحبـة القديمة وآجر اساسات دورها القديمة . تعمل السلطات المحلية ومديرية الآثار السورية هذه القلعة ، كما اهملت آثار اخرى في المنطقة .

وبحسب الاصطخـري ، كانت الـرحبـة أكبر من قرقيسيا ، ويسميها نقطة الوسط لناحية الفرات قال المقدسي في كتابه «احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» وأمـا المـدن الفـراتيـة ، فأكـبرهن رحبة مالك بن طوق ، وقال : «وناحية الفرات ،



قلعة رحبة طوق بن مالك (الميادين)

آجلها الرحبة، مدينة كبيرة من نحو البادية، ولها حصن وربض، وفيها السفرجل الفائق».

وقال ابن حوقل: «ورحبة مالك بن طوق اكبر من قرقيسيا، وهي كثيرة الشجر والمياه. . . وقد عداها الاختلال، وهي ذات سور صالح، ولها نخيل وثمر وسقي كثير من جميع الغلاق.

وتذكر الروايات العربية ان هذه المدينة، كانت تعرف في وقت من الأوقات باسم «فرضة نُعم» الطبري أو «الفرضة» فحسب، «ابن مسكوية» «تجارب الأمم» وكان في جوارها دير هو «دير نُعم» «ياقوت» وقد كان بالقرب منها «دير حنظلة» سيأتي ذكره.

وعرفت بـ«رحبة الشام» لأنها كانت آخر ديار ربيعة، وأول بلاد الشام على الفرات، حيث يحدها من الشرق ديار العراق.

واشتهرت باسم «رحبة مالك بن طوق الذي جدد بناءها وعني بعمرانها وأمنها واقتصادها وكان له قصر فيها أو قل بلاط، وقصده شعراء كبار، ومدحوه، فيهم أبو تمام والبحتري والعتابي ودعبل وغيرهم.

وسميت رحبة الفرات أو الرحبة الفراتية، لوقوعها على الضفة الغربية لنهر الفرات، ولتمييزها عن أماكن اخرى تحمل كل منها اسم الرحبة في غير جهات الفرات، والرحبة منذ تأسيسها قاعدة منطقة الفرات أو طريق الفرات أو ناحية الفرات. وكان لها حكامها الاداريون وخراجها.

وكانت مدينة الرحبة أسقفية يعقوبية على أنها ايضاً كانت في بعض الفترات نسطورية، كما يتبين من ترجمة حياة الجاثليق «ايليا الأول» الذي عين اسقفاً لهذه المدينة قبل وفاته بقليل من السادس من شهر مايو ١٠٤٩م.

في بعض عهودها كانت تابعة لبغداد، وفي عهود اخرى تابعة الى حلب وطورا تابعة الى الموصل واخرى تابعة لدمشق أو القاهرة أو لحمص أو حماه.

وكانت دوماً مركز ناحية كبيرة، مشحونة بالسفن والفرسان والعسكر ومطمع

انظـار المغـامـرين والمسـاومين على أهميتها الاستراتيجية والجغرافية والاقتصادية. ولـذلـك كثـرت عليها أيدي الطامعين وجر عليها حسن موقعها الويلات. عاشت وسط القتال تلعق جراحها.

ولاستفـاضـة شهـرة الرحبة، فقد سمى أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصـري (٤٤٦ ـ ٥١٦هـ) المقـامـة العـاشـرة، بالمقامة الرحبية، نسبة الى مدينة مالك بن طوب. أي أن الحرير، أسلك الرحبة في جملة المدن المشهورة في عصره، والتي سمى مقـامـاتـه بأسمائها، كالمقامة الكوفية، والمقامة الاسكندرانية، والمقامة البغـداديـة، والمقامة الدمشقية، والمقامة المكية، والمقامة الحلبية والمقامة البصرية. وهذا أول المقامة الرحبية.

«حكى الحارث بن همام قال: هتف داعي الشوق بي الى رحبة مالك بن طوق...»

وقـد شرح ابـو العبـاس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي، أحد أئمة الأدب واللغة من الاندلسيين الذين عاشوا في كنف دولة الموحدين، قال في شرح لفظـة «الـرحبـة»: «والرحبة مدينة شهيرة من عمالة الفرات، بناها مالك بن طوق ووليها فنسبت اليه، واليها تنسب الثياب الرحبية، وتعرف برحبة الشام.. ومالك كنيتـه ابـو كلثـوم ابن مالـك بن عتاب، وكان جواداً ممدوحاً، شجاعاً، أميراً على الجزيرة، مسكن قومه بني تغلب..».

كانت الـرحبـة مشهـورة بثيـابها الرحبية القطنية، فقد كان القطن يزرع في سهـولهـا التي يرويهـا الفـرات ونهر سعيد الخير على ضفة الفرات الغربية، ويرويها الفـرات وتـرع الخـابور على ضفة الفرات الشرقية. وكانت هذه السيول تنبت من أنواع الفواكه مالا يحصى، اليك ما جاء في رحلة ابن بطلان المتطيب الراهب من أهـل بغـداد، وكـان خرج من بغداد الى حلب. قال: «وكنت خرجت على اسم الله وبـركتـه مستهـل شهـر رمضـان سنـة أربعـين وأربعمائة (كانون الثاني ١٠٤٩ مصعـداً في نهر عيسى على الانبـار، احـد الانهار المتفرعة من الفرات)، ووصلت

الى الـرحبـة بعـد تسع عشرة مرحلة ، وهي مدينةَ طيّبة ، وفيها من أنواع الفواكه ما لايحصى ، وبهـا تسعـة عشـر نوعـاً من الأعنـاب ، وهي متوسطة بين الانبار وحلب وتكريت والموصل وسجار والجزيرة. وبينها وبين قصر الرصافة مسيرة أربعة أيام . . » .

ان حجي خليفـة يحسب من عانـا الى الرحبة ثلاث أيام سفر، ومن الرحبة الى الـديـر ديـر الزور يوماً واحداً (جهان نامه) والمسافة اليوم بين عانا والرحبة نحو مائتي كيلو متر ومثلها بين الرحبة والرقة . وبينها وبين حلب ٣٥٥ كيلو متراً ، وبينها وبين دمشق عبر بادية تدمر ٤٦٠ كيلو متراً .

تاريخ موقع الرحبة قبل العصور الكلاسيكية

سكن الانسـان ناحيـة الفـرات منـذ العصـر الحجري ، وكانت له حضارته البـدائيـة التي كشف التنقيب العلمي عنهـا مؤخراً في قرية بقرص من قرى منطقة الميـاذين . وعـرفت المنطقـة الانسـان السـومـري والأكادي والآشوري والآرامي ، وكـانت موجـات من الجـزيـرة العـربيـة تفـد الى وادي الفرات بسبب الجفاف في الجـزيـرة طلبـاً للماء والكلأ والمـراعي ، وفي هذه المـوجـات البشرية كان الآراميون الـذين انتشـروا في انحـاء وادي الفرات وبلاد ما بين النهرين ، واسهموا في عمران هذه البـلاد ونشـروا لغتهم وآدابهم ، ومكنـوا لاستقـرارهم وسـط أقـوام أخـرى ، واستطـاعـوا أن يؤسسـوا على شواطىء الفـرات امـارات وممـالـك صغيرة آرامية مزدهـرة كانت كل منهـا ذات حكم ذاتي محلي تحت نفوذ ملوك بابل ، ثم تحت نفوذ ملوك آشـور. ومن وادي الفـرات انطلق الآراميـون الى بقيـة أنحـاء سوريـة ، يؤسسون الممالك الآرامية في حلب وحماه ودمشق وفي بلاد ما بين النهرين .

ومن الامـارات الآراميـة على الفرات : بيت أديني ، أو (عدن) وهي منطقة الـرقـة ، وكـانت عاصمتهـا تل برسيب ، وامـارة زوحي ولاقي ، بين نهري الخابور والبليـخ ، ومـوقعهـا منطقـة حلبيـة ومنطقـة زلبية حالياً ، ومملكة رماني بين الفرات

وينابيع نهر البليخ، وامارات (آرام بيت رحوب) منطقة الرحبة القديمة، والمياذين حالياً.

ومدينة الرحبة عريقة في القدم يرتقي تاريخها الى حوالي القرن العشرين قبل الميلاد وعندما أسسها الآراميون اماراتهم في موقعها استبقوا اللفظة القديمة مع اخضاعها الى أصول اللغة الآرامية. وهي لفظة سامية قديمة وتعني الرحابة والوسع، وذكرت بكونها مسقطاً لرأس أحد ملوك آدوم، وسلسلتهم في الاصحاح السادس والثلاثين والعدد **٣١ ـ ٣٩** من سفر التكون «التوراة».

وبعد أن يأتي الكاتب على ذكر ملوك آدوم، اعتباراً من بالغ بن بعور حتى سملة، وهو الملك الخامس في هذه السلسلة، يقول: «مات سملة، فملك مكانه شارك الأول من رحبوت النهر».

ثم وقعت رحبوت بيد الآراميين عند استيلائهم على المدن السورية في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، واسسوا فيها مملكة، سميت (آرام بيت رحوب).

ان كلمة بيت في الآرامية تعني دائماً: موضع، أو محل، أو بيت ونرى هذه الكلمة في اسم رحبوت، ورحوبوت، وفي الآرامية القديمة «رحبوتا» ومعناها الأماكن الرحبة، وهي أسماء لمدينة واحدة. وهذا الخلاف في التسمية، يعود الى أصول اللغة الآرامية. فعند استيلاء الآراميين على هذه المدينة قدموا مقطع (بيت) على رحوب بحسب لغتهم، فقالوا: بيت رحوب عوضاً عن رحبوت وقد ذكرت «أرام بيت رحوب» مرات كثيرة في التوراة وقد عين موقعها على نهر الفرات.

وعرفت بهذا الاسم مدينتان، الاولى كانت بين نينوى وكالح من حواضر الآشوريين في الشمال وهي مدينة أسسها آشور، أو نمرود، في أرض آشور والثانية على الفرات، وهي التي بنيت على انقاضها مدينة رحبة الأمير مالك بن طوق في

العهد العباسي، وبنيت على أنقاض هذه بلدة المياذين الحالية مركز منطقة المياذين في محافظة الفرات السورية.

كانت هذه الامارات على الفرات على اتصال دائم مع بعضها البعض، ومع الممالك الآرامية الاخرى في سورية وفي بلاد ما بين النهرين بدافع القومية الواحدة والمصلحة المشتركة والدفاع عن كيانها تجاه أقوام وممالك طامعة بأرضها وبخيراتها وباخضاعها واستعبادها.

كانت امارة الرحبة الآرامية تتمتع بمنزلة مرموقة أتاحتها وفرة مياهها وخصوبة أرضها وحسن موقعها وازدهارها، فكانت عضواً فعالاً في جسم الامبراطورية الآرامية بزعامة مملكة دمشق الآرامية. وقد أسدت الى دمشق الآرامية يداً كريمة، حيث ساعدتها عسكرياً، عندما اصطدمت مملكة دمشق بمملكة اسرائيل في أواسط القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وذلك عندما قرر داوود ملك اسرائيل مهاجمة الآراميين في عقر دارهم. فاستنجد ملك دمشق الآرامية اخوانه الآراميين، فهبوا لنصرته، وألفوا حلفاً آرامياً قوياً. وكان لآرامي «الرحبة» اليد الطولى في هذا الحلف. فقد قدموا الى هذا الحلف زهاء عشرين الفاً من الجنود المدربة والمسلحة، من أبناء الفرات.

وقد بلغ الآراميون بعد هذا التاريخ أوج عزهم، فكانت مملكتهم تسيطر على المنطقة العليا من بلاد ما بين النهرين ـ وهي منطقة آشورية ـ وخضعت لهم بلاد آشورية. كان ذلك في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد، هبت آشور واكتسحت الامارات الآرامية وغيرها، وسيطرت على بلاد مابين النهرين الى حدود بابل، وقسمتها الى ولايات صغيرة، وفرضت عليها الجزية. ولم يبق للآراميين الا بيت ديني، وما لبث الملك الآشوري، آشور ناصر بال، ان هاجمها وطوقها، فاستسلمت اليه، واجبر ملكها «اهين» على دفع الجزية ونقل من سكانها الآراميين ألفين وأربعمائة الى مدينة كالح على نهر دجلة، كما كان شأن بعض ملوك آشور في البلاد التي يفتحونها، لكي يأمنوا انتفاضات سكانها عليهم، ولكن

ذلـك لم يكن مجديـاً ولا حائـلاً، دون تصـدع الامـبراطـوريـة الآشـورية وثورات الشعوب المغلوبة لاستعادة حريتها.

وزحف الملك الآشوري شلمنا الثالث على هذه الربوع مرتين متعاقبتين في السنتـين ٨٥٨ و٨٥٧ قبـل الميـلاد، واخضـع ما تبقى من المدن الآرامية ومن بينها (بيت أديني) و(بيت رحوب) وأخذ منها الجزية فضة وذهباً ونحاساً وآنية نحاسية، وغلات زراعية، وأعقب ذلك خرابها.

لقـد شاركت مدينـة رحبوت أخوتها المدن الآرامية صعوداً وهبوطاً، فنهضت معهـا، ووقفت الى جانبهـا وأفلت بافـولهـا. ولم يستطـع الـزمن أن يعفي على أسسهـا، بل زادتـه حقب متعـاقبـة متفـاوتة انتشاراً وذيوعاً، ولقد رجوت من هذه الـدراسـة المتـواضعـة بان يكـون حزمـة حطب جزل على نار اسم الرحبة فتزيده اشتعـالاً وتـوهجـاً وارتفـاعـاً وسناء، فيمتد الى أزمنة أخرى، ان الفرات يتيمني، وتهيمني مدنه القديمة والحديثة فاطلب لها جميعا ذيوع الصيت والخلود. ومن أجل ذلك اكتب محاولاتي الفراتية.

تاريخ الرحبة في العصر العباسي

ان تاريـخ الـرحبـة في العصـر العباسي، انما هو تاريخ باعث عمرانها وأول ولاتهـا الامـير مالك بن طوق العتابي التغلبي، وكنيتـه أبو كلثوم، فلا بد لنا من الوقوف عنده بعض الوقت، نتعرف شيئاً عن اخباره وملامحه، ما اسعفتنا المصادر على ندرتها.

ان اخبـار هذا الـوالي العبـاسي قليلة جداً وغامضة لا تشفي غليل الراغب بمعرفة شخصيته، ولم يترجم له أحد من المؤرخين والكتاب المعاصرين سواء من العرب أو من غيرهم على أهمية هذه الشخصية. والتي تهم أبناء وادي الفرات لأن تاريخها جزء من تاريخ وادي الفرات في فترة زاهية تبعث على الفخر والاعجاب. بضعة أسطر وردت عنه في ابن خلكان، لم يزد عليها صاحب الاعلام.

عرف الخلفاء العباسيون **أهمية منطقة الفرات العسكرية والاقتصادية** الكبيرة، والجغرافية والسكانية لخصب أراضيها ووفرة مياهها وكثرة مدنها وقراها ومرور طرق كبيرة فيها، ولتوسطها بين العراق والشام والحدود البيزنطية ولأنها مجال عشائر عربية ذات حول وطول. فأولوها عناية كبيرة واهتماماً زائداً، فكانوا يولون امرة انحائها ومدنها كبار ولاتهم وقوادهم ووليها بعض أولياء العهد. فمن ولي الرقة المهدي ولي عهد المنصور وعبد الملك بن صالح بن علي من الهاشميين، والقائد طاهر بن الحسين وابنه عبد الله بن طاهر، وكانت مصر مضافة اليه، يولى عليها والياً من قبله وهو مقيم في الرقة.

لقد خبر خلفاء بغداد مالك بن طوق، وقدروا كفاءته ونسبه التغلبي. وحسبوا حساب قبيلته تغلب الكبيرة ومنزلتها الرفيعة قبل الاسلام وبعده ومنازلها في الجزيرة الفراتية بين الخابور والرقة وفي منطقة البشري في الشامية، مما يلي الفرات، فاختاروا مالكاً والياً على (ناحية الفرات) أو(طريق الفرات) كما كان يسمى في العصر العباسي، وهي المنطقة الممتدة بين عانة وبالس (مسكنة) والتي عرفت مؤخراً بمصطلح (الزور).

لم تسعفنا المصادر بمكان ولادة مالك ولا بتارخ ولادته، وكان نشأته وتاريخ تعيينه والياً على الرحبة ولا تاريخ عزله عنها، وتعيينه مرة ثانية ولا تواريخ اتصال مادحية الشعراء به، واختلفت الروايات في تاريخ وفاته روى انه توفي في السنة **٥٢٩هـ - ٨٧٣**م وروي أنه توفي في السنة **٢٦١هـ - ٨٧٥**م.

نفيد من رواية البلاذري ان تعيين مالكاً والياً على الرحبة كان في خلافة المأمون (١٩٨ - ٢١٨).

ان الرواية التي رواها ياقوت الحموي في معجمه (معجم البلدان) في مادة الرحبة والتي ملخصها أن الرشيد اجتاز الفرات بسفينة ومعه مالك بقرب الرحبة، فانقلبت السفينة بمن فيها، وكان مالك حذر الرشيد من ركوبها وأن الرشيد اقطعه هذه البقعة، ثم عصى مالك على الرشيد فاخضعه وحمل مكبلاً بالحديد الى

بغداد وأمر الرشيد بضرب عنقه، فأنشده أبياتا يستعطفه فيها على صبية له صغار فعفى عنه، ان هذه الرواية ملفقة لا أساس لها.

ان الابيات التي ذكرها ياقوت الحموي على أنها لمالك، هي الى تميم بن جميل السدوسي، كما جاء في كتاب (المستجاد في فعلات الأجواد) للمحسن التنوخي، تحقيق الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق مطبوعات المجمع العلمي العربي العام ١٩٤٦ ـ ص ١١٧ ـ ١١٨).

وكان تميم هذا هو الذي خرج بشاطىء الفرات. والتف حوله كثير من الأعراب، فعظم امره، وبعد ذكره، فكتب الخليفة المعتصم الى مالك بن طوق ان يحاربه. فهزمه وظفر به، فحمله موثقاً الى باب المعتصم، ولاتصال حياة تميم بن جميل السدوسي بتاريخ وادي الفرات وبحياة مالك بن طوق أذكر أبياته وقصتها:

قال أحمد بن أبي داوود: «مارأيت رجلاً، عاين الموت، فما هاله، ولا شغله عما كان يجب عليه ان يفعله الا تميم بن جميل، فإنه لما مثل بين يدي المعتصم، فاحضر السيف والنطع، واوقف بينهما تأمله المعتصم، وكان جميلاً وسيماً، فأحب أن يعلم اين لسانه من منظره فقال تكلم: يا تميم. فقال: أما اذا اذنبت يا أمير المؤمنين، فأنا اقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدا خلق الانسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء معين، جبر بك صدع الدين، ولمّ بك شعث المسلمين، وأوضح بك سبل الحق، واخمد بك شهاب الباطل. ان الذنوب تخرس الالسن الفصيحة، وتعيي الأفئدة الصحيحة ولقد عظم الذنب، وانقطعت الحجة، وساء الظن، ولم يبق الا عفوك أو انتقامك وأرجو أن يكون أقربهما مني، وأولاهما بكرمك، ثم قال:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا يلاحظني من حيث ما اتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي وأي امرىء مما قضى الله يفلت
وأي امرىء يأتي بعذر وحجة وسيف المنايا بين عينيه مصلت

ومـــا جزعـي من أن أمـــوت وأنـــني	لا علم ان المـــوت شيء مؤقـــت
ولـكـن خلفـي صبيـــة قد تركتهم	وأكـبـــادهـــم من حســـرة تتـفـتت
فإن عشت عاشـــوا سالمين بغبطـة	اذود الـــردى عنهم وان مت موتـــوا
وكـــم قائـــل لا يبـــعـــد الله داره	وآخـــر جذلان يســـر ويـشـــمـت

فتبسم المعتصم وقـال: ياتميم قد وهبتـك للصبيـة وغفـرت لك الصبـوة، ثم أمر بفك قيوده، وخلع عليه.

إن (مالك) عندما عين والياً على طريق الفرات والجزيرة الفراتية والخابور. اتخـذ من موقـع الـرحبـة مركـزاً لامارته، فجدد بنائها وأقام فيها مدة طويلة. وكثر سكـانهـا في عهده، بالنظر لحسن موقعها ووقوعها على طريق هامة هي ثانية طرق المملكـة العبـاسية. وكانت الطريق الأولى هي التي تذهب من الموصل الى حلب عبر الجـزيـرة الفـراتيـة. مارة بنصبيين ورأس العين، تجتاز الفرات عند جسر منبج وتتوجه الى بزاعة ومنها الى حلب. فضلاً عن الطريق المائي وهو الفرات.

وقـد كان مالـك أمـيراً جواداً وفصيحـاً وفارساً شجاعاً وشاعراً، محباً للشعر يرويـه، ويشجـع الشعـراء في الرحبة ومدحوه بقصائد جيدة، ومن هؤلاء الشعراء أبو تمام الطائي والبحتري، والعتابي ودعبل الخزاعي وابن أبي الشيص، وبكر بن النطاح وغيرهم.

وكـان مالـك واليـاً على الـرحبـة في عهـد المأمـون وعهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧)هـ. وجـاء في (فـوات الـوفيـات) لابن شاكـر الكتبي في مالـك: «صاحب الرحبة»، أحد الاشراف والفرسان الأجواد، ولي امرة دمشق للمتوكل، كان ينادى على باب داره بالخضراء، وكانت دار الامارة، بعد المغرب، الافطار يرحمكم الله، قال: والابـواب مفتحـة، يدخلهـا النـاس، توفي سنة تسع وخمسين ومائتين، وهو الذي بنى الرحبة على الفرات، واليه تنسب».

يستفـاد من هذه الـروايـة ان مالكـاً عزل عن الـرحبة، ثم أعيد اليها ولعله عزل عن الرحبة في خلافة المتوكل، لشغب قبيلته تغلب عليه في الجزيرة الفراتية.

وتخاصمهما فيما بينهما فأتعبت واتعبت المتوكل وأجرى الصلح بينها وأقر الأمن في الجزيرة الفراتية، وكان حازماً شديداً، بطش بمن خرج عليه من بني قومه ومن غيرهم، وطردهم، ثم جاءوا مستغفرين، فشفع فيهم الشاعر أبو تمام ضيف مالك في الرحبة، فعفى عنهم.

فقال أبو تمام من قصيدة يمدح مالكاً ويخاطب بني تغلب:

مهلا بني غنم بن تغلب انكم	هدف الأسنة والقنا يتحطم
فستذكرون غداً صنائع مالك	إن جلّ خطب أو تدوفع مغرم
ان تذهبوا عن مالك أو تجهلوا	نعماه فالرحم القريبة تعلم
كانت لكم اخلاقه معسولة	فتركتموها وهي ملح علقم
فقساً لتزدجروا من يك حازماً	فليقس احياناً على من يرحم
واخافكم كي تغمدوا أسيافكم	ان الدم المعتر يحرسه الدم
ولقد علمت لدن لججتم أنه	ما بعد ذاك العرس الا المأتم

لأبي تمام عدة قصائد في مالك من عيون الشعر العربي انشدها في مدينة الرحبة. وحسب ابنائها فخراً أن يشرف مدينتهم شاعر كبير كأبي تمام، وان ينشد فيها قصائده في أميرها، وتشارك هي في وحي هذا الشعر، ويصدر عنها، كما لو كان ابو تمام من أبنائها، فإن لم يكن من الرحبة ذاتها، فهو فراتي من قرية جاسم بمنبج، وحسب الرحبة فخاراً ان يزورها أبو تمام، ويقيم بين أهلها وينشد شعره أميرها في قصره، ويستمعوا هم إليه، وما احسبهم إلا قد حرصوا على تقييده في دفاترهم وعلى استظهاره، وترويته لابنائهم وأحفادهم.

على أن الرحبة ليست وحدها التي تفخر بقصائد أبي تمام في أميرها الفارس الشاعر فالفرات كله يفخر بذلك ويزهو.

لقد تمنيت لو أن أديباً أو متأدباً من أبناء المياذين أو من أبناء الفرات، يدرس شعر أبي تمام الذي انشده في الرحبة، ذلك أن هذا الشعر جزء من أدب وادي الفرات، جدير مع غيره من الأدب الفراتي باهتمام أبناء الفرات ودراستهم.

من قصائد أبي تمام في مالك تائيته، وتقع في اثنين واربعين بيتاً، نوه فيها بجود بني عتاب عشيرة مالك، وأشار الى الخلاف المستحكم بين مالك وقومه وذكر أياماً مشهورة لتغلب، واثنى على بطش مالك بمن أساءوا إليه ومطلعها:

لو أن دهراً رد رجع جواب ... أو كف من شأويه طول عتاب

ومنها:

لا جود في الأقوام يعلم ماخلا ... جوداً حليفاً في بني عتاب
متدفقاً صقلوا به أحسابهم ... ان السماحة صيقل الأحساب
قوم اذا جلبوا الجياد الى الوغى ... ايقنت ان السوق سوق ضراب
يا مالك بن المالكين ولم تزل ... تدعى ليوسي نائل وعقاب
للجود باب في الأنام ولم تزل ... يمناك مفتاحاً كذلك الباب
يا مالك استودعتني لك منة ... تبقى ذخائرها على الأحقاب
يا خاطباً مدحي اليه بجوده ... ولقد خطبت قليلة الخطاب
هم صيروا تلك البروق صواعقاً ... فيهم وذاك العفو سوط عذاب
فأقل اسامة جرمها واصفح لها ... عنه وهب ما كان للوهاب
لارقة الحضر اللطيف غذتهم ... وتباعدوا عن فطنة الأعراب
فإذا كشفتهم وجدت لديهم ... كرم النفوس وقلة الآداب
أسبل عليهم ستر عفوك مفضلا ... وانفح لهم من نائل بذناب

وقصد الشاعر البحتري مالكاً في السنة ٢٢٦ هـ وكان البحتري في العشرين من عمره ومدحه بقصيدة جيدة أوحتها شخصية مالك القوية وجوده ومنزلة الرحبة وشهرتها، جاء فيها:

بالرحبة الخضراء ذات المنهل العذ ... ب المشارب والجناب المعشب
عطن الوفود فمنجد أو متهم ... أو وافد من مشرق أو مغرب
القوا بجانبها العصي وعولوا ... فيها على ملك اغر مهذب
ملك له في كل يوم كريهة ... إقدام ليث واعتزام مجرب

وتـــراه في ظلم الـــوغى فتخــالــه	قمـراً يشـد على الـرجـال بكوكب
يا مالــك بن المـالــكـين الألـى	مالــلمـكــارم عنهـم من مذهــب
اعطـيـتني حتى حسبت جزيـل ما	اعطــيـتـنـيــه وديـعــة لم توهـب
فشـبـعت من برّ لديـك ونـائـــل	ورويت من أهـل لديـك ومـرحب
فلتشكـرنـك مذحـج ابنة مذحـج	من آل غوث الاكثــرين وجنــدب
ومتى تغــالـب في المكــارم والنـدى	بالــتــغـلـبيــين الأكــارم تغـلب

وممن وفـد على مالـك في الـرحبـة من أئمـة الشعر والادب كلثوم بن عمرو العتـابي قريب مالـك . وقد أنس مالك بضيفه الاديب الكبير ، وأكبره وارتاح الى وجـوده ورآه أهـلاً كي يبثـه شكـواه من خروج عشـيرته ، وكيف تدل عليه وستكبر وتستطيل . فيقـول له الأديب العتـابي : «ايهـا الأمير : ان عشيرتك من أحسن عشرتك ، وان عمك من عمك خيره ، وان قريبك من قرب منك نفعه ، وأن أحب الناس اليك اخفهم ثقلاً عليك» .

ويغلب على الظن ان الشاعر دعبل الخزاعي قصد مالكاً في الرحبة ومدحه بشعـره ، وأجـازه مالـك ، ويظهـر أن دعبل استقل عطاء مالك ، أو استبطأ عطاءه ودعبل حاد المزاج ، مولع بهجاء الولا ة والملوك ، فهجا مالكاً هجاء مقذعاً ، وهجا قومـه تغلب ، وهـرب الى البصـرة ، وعليهـا اسحق بن العباس وكان ممن هجاهم دعبـل ، فضــاقت به البصرة ، فهرب الى الاهواز ، فبعث مالك من يتتبعه ليقتله ، حتى وجـده في قريـة من نواحي السـوس في الاهـواز ، فضرب ظهره بعكاز لها زج مسموم ، فمات من غد السنة ٢٤٦ هـ ، وكانت ولادته في السنة ١٤٨ هـ .

كان مالـك بن طوق يقـول باتصـال نسب بنسب عمـرو بن كلثوم التغلبي صاحب المعلقـة المشهـورة واحـد فرسان تغلب وسادتها فهجا دعبل مالكاً حتى في هذا الامر حيث قال :

الـنــاس كلهـم يعـدو لحاجتــه	ما بين ذي فرح منهـم ومــهــوم
ومــالــك ظل مشـغــولاً بنسبتــه	يروم منهـا بنـاء غير مهـدوم

يبني بيوتاً خراباً لا أنيس بها ما بين طوق الى عمرو بن كلثوم

وبما هجا به تغلب عشيرة مالك قوله :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يرونها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسؤوم

وممن قصد مالك في الرحبة من الشعراء ابن ابي الشيص محمد بن عبد بن رزين الخزاعي جاء يحمل كتاب توصية به الى مالك من الحسن بن وهب بن سعيد الحارثي ، أبو علي الكاتب والمتوفى العام ٢٥٠هـ و٨٦٥م ، من الشعراء كان معاصراً لأبي تمام له معه أخبار ، وكان وجيهاً استكتبه الخلفاء ، ومدحه أبو تمام ، وهو أخو سليمان (وزير المعتز والمهتدي) ولما مات رثاه البحتري بأبيات وهذا نص الكتاب الذي حمله ابن أبي الشيص الى مالك ، أورده للعلاقة بين مالك والحسن بن وهب ولاتصال الكتاب بحياة مالك :

«كتابي اليك ، كتبته بيدي ، وفرغت له ذهني ، فما ظنك بحاجة هذا موقعها مني؟ اتراني أقصر في الشكر عليها ، أو أقبل العذر فيها؟» .

وفي العقد الفريد لابن عبد ربه : «أقبل اعرابي من بني أسد الى مالك بن طوق ، فأقام بالرحبة حيناً ، وكان صعلوكاً في عباءة صوف وشملة شعر ، فكلما أراد الدخول منعه الحجاب ، وشتمه العبيد وضربه الاشراط ، فلما كان في بعض الأيام يخرج مالك بن طوق ويريد التنزه حول الرحبة ، فعارضه الاعرابي ، فضربوه ومنعوه ، فلم يثنه ذلك ، حتى أخذ بعنان فرسه ، ثم قال : أيها الامير اني عائذ بالله من أشراطك هؤلاء ، فقال مالك : فدعوا الاعرابي؟ هل من حاجة يا اعرابي؟ قال : نعم اصلح الله الأمير ، ان تصغي اليّ بسمعك ، وتنظر اليّ بطرفك ، وتقبل اليّ بوجهك . قال : نعم فأنشد الاعرابي يقول :

ببابك دون الناس انزلت حاجتي وأقبلت أسعى حوله وأطوف
ويمنعني الحجاب والستر مسبل وانت بعيد والشروط صفوف
يدورون حولي في الجلوس كأنهم ذئاب جياع بينهن خروف

فأما وقد أبصرت وجهك مقبلا فاصرف عنه انني لضعيف

ومالي من الدنيا سواك ولا لمن تركت ورائي مربع ومصيف

تخطى أعناق الملوك ورحلتي اليك وقد أخنت علي صروف

فجئت أبغي اليسر منك فمر بي ببابك من ضرب العبيد صنوف

فلا تجعلن لي نحو بابك عودة فقلبي من ضرب الشروط مخوف

فاستضحك مالك، حتى كاد أن يسقط عن فرسه. ثم قال لمن حوله:

من يعطيه درهماً بدرهمين، وثوباً بثوبين. فوقعت عليه الدراهم والثياب من كل جانب ثم قال له: هل بقيت لك حاجة يا اعرابي؟ قال أما اليك فلا. قال: فالى من؟ قال: «الى الله أن يبقيك للعرب، فإنها لا تزال بخير ما بقيت لها».

«جلس مالك بن طوق في قصره في شباك مطل على البرية، ومع جلساؤه فاقبل اعرابي تخب به ناقته. فقال إياي أراد، ونحو قصد. ولعل منه أدباً، ينتفع به. ثم أمر بادخاله. فلما مثل بين يديه قال: ما أقدمك يااعرابي؟ قال: سيف الأمير، ورجاء نائله، قال هل قدمت أمام رغبتك وسيلة؟ قال نعم: أربعة أبيات قلتها بظهر البرية، فلما رأيت ما بباب الامير من العيبة والجلال استحقرتها واستصغرتها.

قال مالك: فهل لك أن تنشدنا أبياتك، على أن نجزيك عليها ألف درهم، فإن كنت ممن أحسن ربحنا، والا فقد نلت مرادك، وربحت، قال رضيت - وأنشده:

ومازلت أخشى الدهر حتى تعلقت يداي بمن لا يتقي الدهر صاحبه

فلما رآني الدهر تحت جناحه رأى مرتقى صعباً منيعاً مطالبه

رآني بحيث النجم في رأس باذخ تظل الورى اكنافه وجوانبه

فتى كسماء الغيث والناس حوله اذا قحطوا جادت عليهم سحائبه

فقال مالك: والله ما قيمتها الا عشرة آلاف درهم. فأمر له بها».

كان مالك يحب الشعر الجيد ويرويه، وكان يقيد ما يستحسن من الشعر في دفاتر يلازمها في مجالسه، ينظر فيها من وقت إلى آخر.

حدث عبدون الحراني قال: «دخلت على مالك بن طوق، وعنده العتابي وعليه جبة صوف وكساء صوف، وفي يده دفتر، فرفع رأسه إليّ فقال: قاتله الله ما أشعره. قلت من يا أبا عمرو؟ قال، الذي يقول:

اذا نحن اثنينا عليك بصالح فانت كما نثني وفوق الذي نثني
وان جرت الالفاظ منا بمدحة لغيرك انساناً فانت الذي نعني

قلت: من هويا أبا عمرو؟ قال: أو ماتعرفه؟ قلت: لا. قال الذي يقول... وانشد أبياتاً أخرى، ثم تكرر انشاد الشعر والسؤال عن الشاعر. حتى عرف آخر الأمر أن الشاعر الذي يتغنى مالك بقوله ويلهج بفضله هو ابو نواس.

وكما سبق للرحبة أن أرسلت نجدة كبيرة من الجند الى آرامیي دمشق عند مهاجمة دولة اسرائيل لها في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ترسل بعد مرور عشرين قرناً في القرن التاسع عشر للميلاد نجدة الى بغداد. قال ابن الاثير في كتابه (الكامل) في حوادث السنة ٢٥١هـ:

«وفي هذه السنة بويع للمعتز بالله، وكان بسامرا. وكان المستعين خليفة مستقراً ببغداد فاستاء منه جماعة الاتراك، فعملوا على استخلاف المعتز بالله، وكان محمد بن عبد الله في معية المستعين في بغداد. ولما اتصل بمحمد بن عبد الله خبر بيعة المعتز، أمر بطع الميرة عن أهل سامرا، وكتب الى مالك بن طوق في المسير الى بغداد هو وأهل بيته وجنده، وكتب الى آخرين في منع السفن والميرة عن سامرا. وأمر المستعين بتحصين بغداد وبحفر الخنادق. ونصب على الأبواب المنجنيقات والعرادات وشحن الاسوار. وجرت اشتباكات بين أنصار المستعين وبين أنصار المعتز بالله، ولقيت بغداد والانبار وسامرا بلاء شديداً من ذلك. ثم تم الصلح بين الطرفين في السنة ٢٥٢هـ».

(وفي السنة ٢٥٦هـ بويع الخلافة أحمد المعتمد على الله. بايعه بخراسان

محمد بن عبد الله بن طاهر، وبكور الفرات مالك بن طوق التغلبي ، وبديار مضر وديار ربيعة وجند قنسرين ابن أبي الساج محمد بن ديواداذ، المعروف بالأفشين، وبمصر أحمد بن طولون التركي» هؤلاء هم ولاة أمصار المملكة العباسية المعاصرون لمالك بن طوق .

لقد ساعدت الظروف وبعد مصر عن مركز الخلافة أحمد بن طولون، بأن يستقل بمصر، ويؤسس فيها الدولة الطولونية فيوجد من يؤرخ سيرة حياته ويجمع أخباره، وتعاكس الظروف مالك بن طوق في كور الفرات، فتتحرك الاحقاد الكامنة في قوم مالك تغلب في انحاء الجزيرة الفراتية وربوع الفرات وتحارب بعضها بعضاً، ويتدخل الخليفة المتوكل في النزاع، ويصلح بين الاطراف المتنازعة، ويمدح أبو تمام المتوكل منوهاً بفضله بهذا الصلح .

ولكن المتآمرين بمالك يستمرون في عملهم ضده حتى عزل عن ولاية الرحبة والجزيرة الفراتية قبل موته بنحو ثلاث سنوات .

وكتب رجل الى مالك لما عزل : «أصبحت والله فاضحاً متعباً، أما فاضحاً فلكل وال قبلك بحسن سيرتك . وأما متعباً، فلكل وال بعدك أن يلحقك» شهد مالك عهود ثمانية خلفاء من بني العباس من المأمون الى المعتمد .

قال ابن الأثير في الكامل ج٥ ص ٣٧٣ (المطبعة المنيرية) في حوادث السنة ٢٦١ هـ : «وفيها مات مالك بن طوق التغلبي بالرحبة، وهو بناها واليه تنسب» مات في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) (٨٧٠ - ٨٩٢م) .

وقد كانت مدة ولاية مالك بن طوق على الرحبة نحوا من أربعين سنة .

لم يشتهر اسم أحد من ولاة مدن منطقة الفرات بمثل الشهرة التي ذاعت واستمرت حتى اليوم لمالك بن طوق، برغم عدم وجود سيرة له، وبرغم قلة أخباره، واهمال الترجمة له كل هذه القرون . ولم تشتهر مدينة من مدن هذه المنطقة نظير شهرة مدينة الرحبة، التي بقيت تنسب الى مالك منذ أن بعث عمرانها وولى أمرتها الى يومنا هذا . اقترن اسم كل منهما بالآخر، اقتراناً محكماً، لم تستطع

الحقب الطويلة ان تعفيه . برغم قلة أخبار الرحبة كذلك . واهمال المؤرخين القدامى والمحدثين التاريخ لها والكتابة عنها .

بعد موت مالك ، خلفه على حكم الرحبة ابنه أحمد .

وفي السنة ٢٦٩هـ و٨٨٢م هاجم الرحبة محمد بن أبي الساج المعروف بالافشين ، والذي كان يحكم ولاية الموصل والجزيرة والرقة وحلب ، فدافع أهلها عنها ، وقاتلوه ، فغلبهم ، وقتل منهم اناساً كثيرين ، وهرب أحمد بن مالك بن طوق الى الشام .

وكان ابن ابي الساج وهو تركي ومن قواد المعتصم ، تارة يتفق مع أحمد بن طولون يدعو له على منابر أعماله ، ويتلقى الأموال منه ، وتارة ينقلب عليه ، ويعمل لخليفة بغداد . وكان تحالف مع اسحاق بن كنداج على أن يحكما ديار ربيعة ومصر والشام ، ثم تنافرا وجرت بينهما عدة مواقع وخاض ابن ابي الساج معارك كثيرة ، وعاث في هذه البلاد فساداً وتقتيلاً وتخريباً .

آلت الرحبة الى حمدان بن ناصر الدولة التغلبي ، أقطعه اياها ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الذي كان والياً على الموصل وإليه الجزيرة الفراتية في خلافة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ ٩٣٢م) .

وفي السنة ٢٩٥هـ عاثت بنو تميم في جهات حلب وافسدت فساداً عظيماً وحاصروا حلب ، وكان واليها يدعى ذكا . فكتب المقتدر الى الحسين بن حمدان وهو مقيم في الرحبة في انجاد ذكا ، فأسرى من الرحبة ، حتى أناخ بخناصرة ، فأسر منهم أربعمائة رجلاً وحملهم في غرائر الشعر على جمالهم وانصرف ولم يجتمع بذكا فمات أكثرهم في الحبوس ببغداد . الى أن سئل فيهم الاغر السلمي ، فأطلقوا ولم تسكن بنو تميم بعدها .

ولابي فراس الحمداني قصيدة يرثي بها أبا المرجى جابر بن ناصر الدولة وقد توفي بالرحبة ومدح الشاعر الصنوبري الحسين بن حمدان لايقاعه ببني تميم .

فهـا هي الـرحبـة تنجـد حلب بعد أن كانت في عهد واليها مالك بن طوق انجدت بغداد، وبعد أن كانت انجدت دمشق في عهد الآراميين.

الرحبة في يد القرامطة

في عهد الخليفة العباسي المقتدر، سار أبو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنـابي القـرمطي صاحب البحرين الى الكوفة سنة ٣١٥هـ يريد الشام، واقتتل مع عسكر الخليفة فهزمهم، وسار الى الأنبار، واقتتل مع عسكر الخليفة وهزمهم، وواقع أهل هيت يوم الاحد لثمان خلون من ذي الحجة السنة ٣١٥هـ وارتحل عنها الى ناحيـة رحبـة مالـك بن طوق، وعليهـا أبـو جعفر محمد بن عمرون التغلبي، فافتتحهـا عنـوة ونـزلهـا في ٣٠ آذار السنـة ٩٢٨م. وقتـل كثـيراً من أهلهـا (ابن مسكوية: تجارب الأمم) والمسعودي وابن الاثير.

ومن الرحبة بعث السواري الى النواحي في الجزيرة الفراتية، الى كفر توثا، ورأس العين ونصيبين فأوقعوا بالاعراب من تغلب والنمر وغيرهم.

ووجه بسرية في نحو ألفين الى الرقة، وكان نزول السرية عليها يوم الاحد لثمان بقين من جمادى الأولى السنة ٣١٦هـ. وبعد قتال ثلاثة أيام، وقتل أناس من الفـريقـين رجـع القـرامطة الى الرحبة، وبقي فيها أبو طاهر سبعة أشهر يروي في قصـد الـرملة في فلسطـين أو مدينة دمشق متخذاً من الرحبة مكان انطلاق. ولكنه سار عنهـا في أول شعبـان السنـة ٣١٦هـ في البر والماء منحدراً في الفرات وعاد الى البحرين. هذا الانحدار يدل على أهمية الرحبة كميناء على الفرات.

وكـانت الـرحبـة بعد ذلك ـ في عهد الخليفة العباسي الراضي، الذي ولي الخـلافـة في السنـة ٣٢٢هـ و٩٣٤م. وتـوفي في السنة ٣٢٩هـ ـ ٩٤٠م من اقطاع أبي بكـر محمـد من رائق الذي ولاه الراضي ولاية بغداد ولقبه أمير الامراء. وولاه الخراج في جميع بلاده وأمر أن يخطب له على جميع المنابر، وقلد الراضي ابن رائق طريق الفرات وديار مضر وحران والرها وما جاورهما وجند قنسرين والعواصم، وهو

الــذي يستــوزر، وكــان ابن رائق قد اختــار رجلين لقيـادة الجيش احـدهما بدر الخرشني، والثاني بجكم الديلمي.

كان في الـرحبـة من جهـة ابن رائق في السنة ٣٣٠هـ رجل يدعى مسافر بن الحسن، فلما قتل ابا بكر بن رائق استولى مسافر على الناحية وجبى خراجها فسير ناصـر الـدولـة علي بن خلف بن طيباب ومعـه عدل حاجب الامـير بجكم حاكم دمشق وهـو أمـير تركي، الى ديـار مصر الشام، التي كانت بيد ابن رائق، وارسل طياب عدلاً في جيش، ليخرج (مسافر) عن الرحبة. فلما سار اليها، فارقها مسافر من غير قتال، وملك عدل الحاجب البلد مع طريق أفرات وقسماً من الخابور (ابن الأثير) في العام ٢٣٠هـ ٩٤١ ـ ٩٤٢م.

صار مسـافـر الى قرقيسيـا وأخـرج منهـا أصحـاب عدل وملكها، وبقي في الخـابـور ستـة أشهـر فجبى الأمـوال العظيمـة وقـوى وعاد الى الرحبة، فسار اليه الحسـين بن حمدان وأسره مع ابنه وسمل عدلاً وسيرهما الى بغداد بسبب خيانته، فوصلاها في العشرين من شهر شعبان اسنة ٣٣١هـ.

اختلفت على الـرحبـة أيـدي أبناء ناصر الدولة الحمداني. وكانوا يتقاتلون عليها، فتقع تارة بيد حمدان وتارة بيد أبي تغلب وأخرى بيد أبي البركات.

وفي السنـة ٣٥٦هـ (٩٦٩م) استـولى ابو البركات على الرحبة ثم استناب بها من يحفظها في طائفة من الجيش وعاد الى الرقة.

وكـان نجـا غلام حمدان ونـائبـه بالـرحبـة، أخـذ جميـع ماله بها وهرب الى أصحـاب أبي تغلب بحـران فسار اليها حمدان من برية تدمر ودخلها، وقتل رجال أخيه، أبي البركات، وسار في اثره حتى ادركه في بلدة عرابان على الخابور وقتله، وعـاد الى الـرحبـة وجاء ابو تغلب من حران، وكبس أخاه حمدان بالرحبة، فهرب واستـولى أبـو تغلب على الرحبة، وحسبن أحوالها وعمّر سورها، ورجع الى الموصل في ذي الحجة من العام ٣٦٠هـ.

القرامطة في الرحبة مرة ثانية

كان الاخشيديون حكام مصر والشام، يحملون الى القرامطة في الاحساء كل سنة مالا ليدفعوا اذاهم عن حدود مملكتهم. ولما استولى الفاطميون على مصر سيروا احد قوادهم جعفر بن فلاح بن مروان الكتامي الى فلسطين ومنها الى دمشق لقتال الاخشيديين والاستيلاء على ما بأيديهم من المدن ولما استولى جعفر بن فلاح على دمشق، انقطع المال عن القرامطة. لقد أراد الاخشيديون ان يستعينوا بالقرامطة لمحاربة الفاطميين في الشام ومصر واستعادتها. فذهب من رجال الاخشيديين محمد بن عصودا وظالم بن مرهوب العقيلي الى الاحساء، وحثا القرامطة على المسير الى الشام، فوافق ذلك منهم رغبة دفينة سبق أن شرعوا بتنفيذها، واليوم تهيأ لهم انصار في الاخشيديين والنافرين من الفاطميين الشيعيين، فساروا ونزلوا على الكوفة، وكتبوا الى الخليفة ببغداد وهم يعلمون مدى خوفه من الفاطميين الذين يريدون تقويض سلطان العباسيين والاستيلاء على بغداد، وقد ملكوا دمشق. فأنفذ اليهم خزائن سلاح، وكتب لهم بأربعمائة ألف درهم على أبي تغلب عبد الله بن ناصر الدولة ابن حمدان من مال الرحبة، وعندما نزل القرامطة على الرحبة اكرمهم أبو تغلب وبعث الى أبي الحسن بن حمدان ابن ابي سعيد الجنابي، المعروف بالأعصم كبيرهم يقول له: «هذا شي اردت أن أسير أنا فيه بنفسي، ولكني مقيم في هذا الوضع الى أن يرد إلي خبرك، فان احتجت الى مسيري، سرت إليك».

ونادى في عسكره من أراد السير من الجند الاخشيدية وغيرهم الى الشام مع الحسن بن امد فلا اعتراض لنا عليه. وقد أذنا له في المسير والمعسكران واحد، فخرج الى القرامطة كثير من الاخشيدية الذين كانوا بمصر وفلسطين ودمشق ممن فرَّ من جوهر الصقلي ومن جعفر بن فلاح.

وكان جعفر بن فلاح، لما أخذ طبرية، بعث الى أبي تغلب ابن حمدان حمدان بداع من الدعاة الفاطميين، يقال له ابو طالب التنوخي، يقول له: انا

سائـرون اليـك ، فتقيم لنـا الـدعـوة . فلما قدم الـداعي على أبي تغلب ، وهـو بالموصـل ، وادى الرسالة ، قال له : هذا ما لايتم ، لانا في دهليز بغداد ، والعساكر منـا قريبـة ، ولكن اذا قربت عساكركم من هذه الديار، أمكن ما ذكرته ، فانصرف الداعي بغير شيء .

ثم أن الحسن بن أحمـد القـرمطي سار عن الـرحبـة الى أن قرب من دمشق فخرج اليهم جعفر فقاتلهم قتالاً كبيراً فانهزم اصحاب جعفر ووجد قتيلاً . وكانت هذه الـوقعـة يوم الخميس لست خلون من ذي القعـدة السنـة ٣٦٠هـ فامتلأت أيدي القرامطة بما احتووا عليه من المال والسلاح ، ملكوا دمشق وورد الخبر بذلك الى جوهـر القـائـد في مصـر فاستعـد لحرب القـرامطـة الـذين كانوا قد عادوا الى الاحساء، بعد أن دقوا باب القاهرة في ربيع الأول ٣٦١ وفي ربيع الثاني ٣٦٣ .

افتكين القائد التركي العباسي في الرحبة

كان ابو منصور افتكين التركي الشرابي غلاماً لمعز الدولة احمد بن بويه ، ولم يزل يترقى حتى عظم شأنه في بغداد وغلب على عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه . وسار افتكين الى الرحبة في نحو أربعمائة رجل بطريقه الى دمشق لإقامة الخطبة للخليفة العباسي الطائع بن المقتدر بويع له بالخلافة في ذي القعدة ٣٦٣هـ (اغسطس ٩٧٤م) وخلع في رجب سنـة ٣٨١هـ (تشـرين الأول السنة ٩٩١٪) .

وأمـد أبـو المعـالي بن حمدان افتكـين بجيش وتلقـاه في منطقة حمص وأكرم وفادته . وكـاتبـه أهـل دمشق لكـرههم المغاربة ، ودخل افتكين دمشق من غير حرب . كما دخـل بعلبـك . ودعا للطائع العباسي وقد استدعى افتكين القرامطة من الاحساء لمعـاونتـه على قتـال الفاطميين واخراجهم من الشام ومن مصر، فقدموا دمشق في السنة ٣٦٥ ومعهم كثير من اعوان افتكين الذين شتت المعز البويهي شملهم . مع ان القرامطة كانوا يقولون بأنهم من مذهب الفاطميين وبأنهم ينشرون الدعوة لهم .

سار القـرامطـة وافتكـين من دمشق الى الـرملة ، وانضم اليهم كثير من

الاخشيـديـين ، وجـرت معـارك بن الطرفين ، كانت كفة القرامطة هي الراجحة ، وتفاقم خطر القرامطة وافتكين في الشام واستعصى امرهما على الفاطمين، ولم يتم القضـاء عليهـما الا في عهد العزيز الفاطمي على يد جوهر الصقلي فقد سار جوهر بنفسـه على رأس جيش عظيم لقتـال افتكين والقرامطة سنة ٣٦٦هـ وبعد معارك كاد افتكـين أن يقضي فيهـا على جوهـر ويأسر جيشه ، حقق العزيز بكل الوسائل الانتصار يوم الخميس ٢٣ المحرم السنة ٣٦٨هـ وفر الحسن القرمطي وقبض على افتكـين وارسـل الى العـزيـز في القاهرة وشفع به جوهر فعفى عنه العزيز، وعاش مكرماً في مصر حتى مات في السنة ٣٧٢هـ.

خرجت الـرحبـة من يد أبي تغلب بن حمدان في السنة ٣٦٨هـ ـ ٩٧٨م وخضعت لسلطـة عضـد الـدولـة البـويهي . واستـولى عليهـا أبـو علي بن ثمال الخافجي ، ولاه عليها الحاكم بأمر الله صاحب مصر.

وفي عهـد الخليفـة القـادر الذي بويع سنة ٣٨١هـ وتوفي سنة ٤٢٢ استولى على الرحبة بكجور الذي كان والياً على دمشق للعزيز بالله الفاطمي . وفي السنة ٣٧٨هـ عزلـه عنهـا ، فتـوجـه الى الـرقة واستولى عليها وعلى الرحبة وجعل الرقة مقـره ، وقتـل واستـولى سعـد الـدولة مالك حلب على امواله بالرقة . ومات سعد الدولة بعد ذلك . فأرسل أهل الرحبة الى بهاء الدولة البويهي ببغداد يطلبون اليه أن ينفذ من يتسلم بلدهم ، فأنفذ اليهم اميراً تسلمها.

انتقلت البلاد الى حوزة الفاطميين، وصار يخطب لهم بالرقة والرحبة . الا أن سلطـانهم كان اسمياً والنفـوذ الى رؤ سـاء القبـائـل المضـريـة . وكـان هؤلاء يتطـاحنــون ، فقــد قتــل عيسى بن خلاط العقيــلي السنـة ٣٩٩ على بن ثمال الخفـاجي ، واستـولى على الـرحبـة . وأقـام فيهـا مدة . وقصـده بدران بن المقلد العقيلي ، فأخذها منه ، فأمر الحاكم بأمر الله الفاطمي نائبه بدمشق لؤلؤ البشاري بالمسـير اليـه ، فقصـد الـرقـة أولا وملكهـا ، ثم سار الى الـرحبة وملكها وعاد الى دمشق . وعادت الرحبة الى سلطان الفاطميين.

لقد كان موقعها يهم الفاطمين، لتحكمها بطريق الفرات المؤدي الى بغداد. والفاطميون منذ أن جاءوا الى مصر، فكروا بالاستيلاء على بغداد والقضاء على الدولة العباسية السنية، ونشر مذهبهم الفاطمي في العراق وكانت الرحبة موضع انطلاقهم الى العراق.

كان بالرحبة رجل من أهلها، يعرف بابن محكان. ملك البلد، واحتاج الى من يستعين به على رد من يطمع فيه، فكاتب صالح بن مرداس الكلابي في الحلة فقدم اليه، وأقام عنده مدة وتزوج ابنة ابن محكان. وضم ابن محكان عانه اليه ولكن أهلها خرجوا عليه، فسار ابن محكان وصالح الى عانه، وكان اكثر مقام صالح في الحلة، فبعث من اغتال ابن محكان[٢]، وسار الى الرحبة فملكها في السنة ٤١٥هـ. ثم ملك منبج وبالس، ثم ملك حمص وبعلبك، وأسس الدولة المرداسية بحلب والتي استمرت الى السنة ٤٧٢، ملك من بعلبك الى عانه. وكان يدعو للفاطميين بمصر، بقيت الرحبة بيد أبنائه. تنتقل من يد أحدهم الى الآخر، تارة بالقتال فيما بينهم وتارة بالاتفاق كما كان حالها مع الحمدانيين.

فكانت في السنة ٤٢١هـ الى معز الدولة ابو علوان ثمال بن صالح المرادسي. وكان البساسيري اتخذ الرحبة مقراً له بموافقة المرداسيين، ووضع فيها أمواله وسلاحه. فلما قتل سنة ٤٥١هـ سار الامير أسد الدولة أبو ذؤابة عطية بن صالح من بالس الى الرحبة فيمن جمعه وحشده، ولم يزل نازلاً عليها، ومضايقاً لاهلها، ومراسلاً لهم الى أن سلمت اليه في صفر السنة ٤٥٠هـ. (ابن القلانسي، والنجوم الزاهرة).

ولي معز الدولة بن صالح وزارته في السنة ٤٤٢هـ رجلاً من أهل الرحبة يقال له أبو الفضل ابراهيم بن عبد الكريم بن الانباري، ولقبه الثقة الكافي، وكان رجلاً حسن السياسة.

---

٢ ـ توجد قرية بمنطقة المياذين تسمى محكان.

وفي السنة ٤٤٧هـ ولى معز الدولة المذكور سديد الدولة أبا القاسم هبة الله بن محمد الرعباني الرحبي (ابن العديم ـ تاريخ حلب).
انتهى امر المرداسيين على يد الدولة العقيلية في الموصل في عهد خليفة بغداد القادر بن المقتدر، بويع بالخلافة في رمضان السنة ٣٨١هـ (تشرين الأول ٩٧٤م).

الرحبة قاعدة فاطمية

وصول البساسيري وداعي الدعاة اليها

منذ قيام الدولة الفاطمية في المغرب، أخذ الفاطميون يخططون للاستيلاء على مصر التي كانت بيد الاخشيديين وعلى الشام والحجاز ويطمعون بالاستيلاء على بغداد والقضاء على الدولة العباسية السنية، ونشر المذهب الفاطمي في العراق. وكان الفاطميون يرسلون الدعاة الى مصر والشام وفارس، وكسبوا انصاراً كثيرين بين مختلف طبقات الناس. ولما فتحوا مصر في السنة ٣٥٨هـ ـ ٩٦٩م على يد القائد جوهر الصقلي، أخذ في بث الدعوة للخليفة المعز الفاطمي وبني جامع الازهر، لبث المذهب الفاطمي واجتماع اشياعهم. وقام المعز بنفسه في مصر بنشر الدعوة، ثم تولاها الخلفاء الفاطميون أنفسهم من بعده.
وقد استعان الفاطميون في نشر مذهبهم الدعاة بالدعاة الذين كانوا يدمجونهم في جيوشهم، وكانت الدعوة للمذهب الفاطمي بعد فتح مصر، تذاع على يد داعي الدعاة، وكان من كبار الموظفين. وقد خصص له المعز مكاناً في قصره.

وقد استعان جوهر الصقلي قائد الفاطميين وفاتح مصر بطائفة من الدعاة، وعين لهم رئيساً هو داعي الدعاة، كان مركزه الجامع الازهر. وكان يساعد داعي الدعاة في بث التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً. كما كان له نواب ينوبون عنه في

سائـر البـلاد المصـرية . ويحضر إليه فقهاء الدولة ، يتلقون منه الأوامر . وكان يلقي عليهم المحاضرات .

كان من أغـراض تأسيس جوهـر للقـاهرة لتكون مقر الفاطميين ، ومركزاً لنشر مذهبهم الـديني ، واتخـاذهـا حصنـاً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين دقوا باب القاهرة ، وكادوا أن يقوضوا دعائم الدولة الفاطمية .

كان أبو الحارث ارسلان بن عبد البساسيري ممن كسبتهم الدعوة الفاطمية وعملوا لها ، كان مملوكاً تركياً من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي . وهو منسوب الى بسا مدينة بفارس ، كان سيده الأول منها .

وكـان الخليفـة القـائم بأمـر الله ببغـداد ، قد قدمه على جميع الاتراك وقلده الامور ، وخطب له على منابر العراق وخوزستان ، فعظم أمره ، وهابته الملوك . وفي السنـة ٤٤٧هـ ، ابتـدأت الـوحشـة بين البساسيري وبين الخليفة القائم ، وخرج عليـه ، وأخـرجه من بغداد . ولما علم بقدوم السلطان طغرلبك ، سار الى الرحبة ، وسـير الى معـد أبي تميم الامـام المستنصر بالله في مصر ، يلتمس منه النجدة لفتح بغداد ، وانه يكفي في رد طغرلبك عن قصد الشام ومصر ، فأجيب الى ذلك (ابن ميسر ، وابن خلكان) .

كان البسـاسـيري في أرض الـرحبـة في قل من الرجال وبموافقة المرداسيين أصحابها وبالاتفاق مع الفاطميين ، فلقي فيها معز الدولة ثمال بن صالح المرداسي وأكرمه وحمل إليه مالا عظيماً (ابن العديم في زبدة الحلب من تاريخ حلب) .

وحدث بعض العرب من بني كلاب ، انهم لم يروا مثله في الشجاعة والمكر ، وكـان اذا ركب معـز الـدولـة ، قفـز إليـه ، ليمسـك له الـركاب ، ويصلح ثيابه في السـرج ، وهمت بنـو كلاب بالقبض عليـه ، فمنعهم معـز الـدولـة . ثم ندم ، واجتمعت اليه العرب والاتراك ، ففزع منه معز الدولة . «وكان قد عرض عليه اولا مفـاتيـح الـرحبة ، فلم يأخذها منه ، ثم طلبها منه في هذه الحالة ليجعل فيها أهله

ومـالـه وسـلاحه في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، فسلمها معز الدولة إليه». «وكان معز الدولة كريماً معطاء حليماً».

كان حصـول البسـاسـيري في الـرحبـة حدثـاً هامـاً في تاريخهـا وفي تاريخ الفـاطميـين، فقـد اتخـذت قاعـدة للفـاطميـين لاحتـلال بغداد وتقويض الدولة العباسية، وبسط سلطان الفاطميين على العراق.

ولم يكن حصـول البسـاسـيري في الـرحبـة صدفـة، وإنما كان بتدبير دعاة الفـاطميـين وبفضل نشاطهم وتفانيهم من أجل انجاح الدعوة الفاطمية ونشرها، وقـد كان وراء هذه الحـركـة واتخـاذ الـرحبـة قاعدة فاطمية، بصورة خاصة داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله بن موسى، عرف في تاريخ الأدب العربي برسائله التي ناظر بها ابا العلاء المعري في موضوع أكل اللحوم سنة ٤٤٩هـ. عرف بلقبه المؤيـد في الـدين. وعـرف احيـانـاً بـ(المؤيـد) فقط، ويسمى بالسلماني نسبة الى سلمان الفارسي.

ولد في شيراز حوالي السنة ٣٩٠هـ في أسرة اتخذت التشيع دينا، والفاطمية مذهبـاً، وكـان والـده داعيـاً للمـذهب الفـاطمي بشيراز وعرف المؤيد بنشاطه في الـدعـوة لمذهبـه، وكـان له أمر المذهب في شيراز، وقد شقي في حياته. وهرب من فارس الى مصر في السنة ٤٣٨هـ. واتصل ببعض الوزراء ورجال بلاط المستنصر بالله، قابـل الـوزيـر الفلاحي الذي أكرمه ورحب بوصوله، وأمر بأن تجهز له دار. وزار أبـا سعيـد التسـتري المتصرف بالبلاد كلها، فبالغ في اكرامه، ووهبه الاموال والخلع. وزار القـاسم بن عبـد العـزيـز بن محمـد، وكان يتولى القضاء والدعوة. وطلب المؤيد من الوزير الفلاحي ان يتشرف بمقابلة الامام المستنصر، فساعده، ومثل بين يدي الخليفة في آخر شعبان من السنة ٤٣٩هـ وولي بدار الانشاء، وزاد في زرقه فتحسن حاله. وظل في ديوان الانشاء الى السنة ٤٤٦هـ. وفيها سمع بان طغرلبك السلجوقي دخل مدينة الري، بعد أن هادن البيزنطيين. وانهما اتفقا على غزو املاك الـدولـة الفـاطمية في الشام وأعالي الجزيرة. فعمد المؤيد لدفع البلاء

الذي سيحل بالفاطميين الى مكاتبة الكندري وزير طغرلبك كما كاتب آخرين ممن كان يعفرهم ، ويعرف أنهم على اتصال بالسلجوقيين ، واجتمع في ان يستميلهم جميعاً الى الفاطميين . وكان البساسيري قد وصل الى الرحبة . فاتفق المؤيد مع أولى الأمر في مصر على أن يكاتبوا السباسيري ومن معه بأن الفاطميين على استعداد لتأييدهم ومدهم بالاموال والسلاح ضد السلجوقيين ، ووصلت كتب المؤيد الى السباسيري فرحب بالعمل للخليفة الفاطمي فأخذ الفاطميون في اعداد الاموال والخلع والسلاح التي وعدوا بها السباسيري وفوض خليفة مصر المؤيد بتولي أمر الأموال والخلع ، والقيام بهذه المهمة وهي قلب نظام الحكم في العراق واسقاط الدولة العباسية .

وقبل المؤيد المهمة بعد رفض واعتذار ، على أن يسافر مع الذخيرة ، مشترطاً بأن لا يوجه إليه لوم ، ان فشل في مهمته . فأجيب الى ذلك . وصدر توقيع الخليفة بقبول الشرط . ودعى المؤيد للبس خلع الوزراء فاعتذر ، مفضلا أن يظل في زي أهل العلم . ورحل الركب بعد أوودع المؤيد امامه وسار بين جلبة عظيمة . والناس في عجب من أمره ، فإنه مقدم على خطر جسيم دون أن يتخذ معه جنداً . بل كان اعتماده على الأموال والخلع التي معه .

وصل المؤيد الى دمشق ، فكاتب ثمال بن صالح بن مرداس بحلب . وشرح له سبب خروجه . فاظهر ثمال رغبته لخدمة الفاطميين . والتقى المؤيد وثمال في الرستن وسارا معاً الى حلب وفيها أخذ المؤيد عليهم إيمان البيعة للخليفة المستنصر ، وخلع على ثمال بن صالح . ثم تأهبوا للسفر الى الرحبة حيث البساسيري . وأخذ المؤيد في مراسلة القواد والكتاب وامراء الامارات والدويلات في ديار مضر وديار ربيعة وديار بكر وكور الفرات وغيرها يستميلهم إليه ، ويدعوهم الى نصرته وتأييده ، ويحذرهم من الخضوع لطغرلبك وكتب له نصر الدولة أحمد بن مروان صاحب ديار بكر ، يظهر له مفارقته لطغرلبك ، ورغبته في معاونه المؤيد ،

فرحب المؤيد بدخوله في طاعته. ودعاه الى آن يدعو للمستنصر في بلاده، وان يتصل بالخليفة الفاطمي في مصر.

وسار المؤيد الى الرحبة ومعه الأموال والخلع. وكان جموع كبيرة من العرب والاتراك والاكراد قد تجمعت في الرحبة حول البساسيري، لبّت نداءه. وقوي شأنهم لما سرى فيهم نبأ ورود المؤيد بالاموال.

وخرج البساسيري وجيشه للقاء المؤيد على بعد مرحلتين من الرحبة. وفي الرحبة أخذ المؤيد العهود على أمراء العرب والأكراد وخلع عليهم الخلع الفاطمية النفيسة، التي لم يشاهدوا لها مثيلاً. ولما فرغ من ذلك خلع على البساسيري في يوم مشهود، وقرأ عهده من الامام المستنصر على الناس.

ووصلت الى الرحبة نجدة من دمشق من بعض الأمراء الكلبيين، فلقيهم المؤيد بالابتهاج. وسار هذا الجيش المؤلف من جماعة مختلفة المذاهب والغايات والاهواء، والتي استطاع المؤيد أن يوفق بينهم مؤقتاً بقيادة البساسيري. ولكن الذي كان يدير دفته ويرقب حركاته هو المؤيد ويكاتب الامراء حوله لنصرته. حتى انتصر على جيوش طغرلبك في الموقعة التي تعرف (بموقعة سنجار).

ودخل جيش البساسيري الموصل في شوال ٤٤٨هـ وأرسل المؤيد الى مصر بالنصر وكان لهذا النصر أثره القوي في نفوس امراء العراق. وأقاموا الدعوة للمستنصر في بلادهم.

ولكن نجاح المؤيد لم يدم طويلاً، لأن جيوشه كانت مؤلفة من أناس مختلفي النزعات، فدب الانقسام فيها.

فلما علم طغرلبك بانقسام جيوش عدوه، سار من بغداد اليها، وقاتل العرب بالموصل والجزيرة وانتصر عليهم، واستولى على الموصل والجزيرة، وسلمها الى أخيه لأمه ابراهيم بن ينال، ثم عاد الى بغداد في أوائل السنة ٤٤٩هـ.

وقابل الخليفة القائم بأمر الله ففوض اليه الخليفة أمر ادارة البلاد، وخاطبه بملك المشرق والمغرب.

أجفل البساسيري الى الرحبة، ووجل أهلها. فقد كان وجود جيوش البساسيري فيها حملا ثقيلاً عليها. فكانت ترى نفسها بين المطرقة والسندان. بين جيوش البساسيري الموالية للفاطميين بمصر، وجيوش طغرلبك المؤيدة لخليفة بغداد السني. فكان الخوف والقلق يعذبان أهل منطقة الرحبة. وأصبح موقف المؤيد حرجاً جداً، وخشى من مقامه بالرحبة، ولكنه أظهر الجلد، واستمر في ارسال الكتب الى الامراء يستحثهم ويؤملهم في النصر، ولكنهم لم يتحركوا. ووقع الضعف في جيش البساسيري بعد هزيمتهم في الموصل. وطالب البساسيري وآخرين المؤيد بأن يدفع لهم أموالاً مما يرده من مصر. والا فالجيش في حل من قسمه، وللأمراء ان يتفرقوا. فاضطرب المؤيد، واقنعهم بخلو يده من المال.

وسار المؤيد الى حلب. ثم لحق به البساسيري والتقيا في دير حافر. وفي اجتماعهما اكد البساسيري عهده للمؤيد. وبعد أيام قليلة أرسل ابراهيم بن ينال من الموصل رسولاً الى البساسيري يطلب اليه أن يخاطب المؤيد لكي يخلع عليه ويلقبه من جانب الدولة الفاطمية، واذا هو غدر بطغرلبك، وملك البلاد باسم الفاطميين. فسير البساسيري رسول ابراهيم بن ينال الى المؤيد بحلب، فرحب به المؤيد، وسلم بكل ما طلبه ابن ينال من شروط. وأطال المؤيد المقام بحلب يراقب حركات ابراهيم بعد هذا الاتفاق الذي ابرم بينهما.

وفي السنة ٤٥٠ هـ خالف ابراهيم بن ينال طغرلبك، وترك بلاد الموصل وتوجه الى همذان لتنفيذ الخطة التي انفق بشأنها مع المؤيد. وكان المؤيد كلما همَّ بترك حلب، تبعه البساسيري بجيشه. فلما ورد الخبر بترك ابن ينال الموصل، انتهز المؤيد هذه الفرصة، وأمر البساسيري بالرجوع الى الرحبة، فرجع اليها، واقنع المؤيد بعض الأمراء الاتراك البغداديين المقاطعين للبساسيري والذين كانوا يريدون الذهاب الى مصر بأن يردهم الى جيش البساسيري. المهم ترك ابراهيم بن ينال الموصل وتوجه الى همذان السلطان طغرلبك، فذهب من نصيبين في

الجزيرة وراء ابراهيم بن ينال، عاد البساسيري بقوته وكان المصريون يساعدونه ويمدونه. ولم يزل يجتاح البلاد، حتى وصل الى بغداد في ثامن ذي القعدة السنة ٤٥٠ هـ واستولى عليها لخلوها من جند يحميها. وخطب بجامع المنصور لمعد المستنصر العلوي صاحب مصر. وأذّن بخير العمل، وكانت العامة مالت اليه، أما الشيعة فلا تحاد المذهب. وأما أهل السنة فلما فعل بهم الاتراك من الشر.

وذهبت البشائر الى مصر، وأقيمت فيها معالم الزينة، وخلع المعد الخلع على الرسل الذين بشروا بالاستيلاء على بغداد.

أما الخليفة القائم بأمر الله، فقد ساروا به من قصره الى حديثة عانه. وسار البساسيري في بغداد سيرة ملك، ورفعت على رأسه الألوية البيضاء التي أرسلت اليه من مصر. ثم ملك واسط والبصرة، وهتف على منابرها باسم آل علي.

استنجد السلطان طغرلبك بأولاد أخيه، فجاءوه وهو بالري بالعساكر الكثيرة، فخرج بهم الى ابراهيم ينال بالقرب من الري وأسره وقتله.

وقصد بغداد، ولما قرب منها، رحل عنها البساسيري سادس ذي القعدة السنة ٤٥١ هـ متوجهاً الى حلة دبيس بن مزيد. فسير السلطان عسكراً في أثره ومن معه، فأدركوه وقاتلوه وقتلوه وحملوا رأسه الى بغداد وعلق فيها. واستولى عطية بن مرداس على أمواله وسلاحه التي تركها في الرحبة.

سرد المؤيد حياته بدءاً من السنة ٤٢٩ هـ ذاكراً الحوادث التي ساهم فيها.

*سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة) نشرتها دار الكاتب المصري سنة ١٩٤٩.

الرحبة بيد العقيليين

استطاع أبو الذؤاد محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد من بني عقيل ان يؤسس دولة عربية، سميت بدولة بني عقيل وبني المقلد وآل المسيب تألف من بني

عقيـل وبني كلاب وبني نمـير وبني خفـاجة وكلهم من عامر بن صعصعه وبني من كهلان . كانوا انتشروا ما بين الجزيرة والشام في عدوة الفرات ، وكانوا كالرعايا لبني حمدان ، يؤدون اليهم الاتاوات وينفرون معهم للحروب . واتسعت حتى شملت من السنـديـة التي على نهر عيسى في غربي بغـداد الى ديـار مضـر وربيعة وحلب والشـام . وكـان شرف الـدولـة مسلم العقيـلي من أشهر أمراء بني عقيل وأحسنهم سيـاسـة . ضاهى بقـوته ملوك السلجوقيين . وأخذ الاتاوة من بلاد الروم . وكانت اليـه الـرحبـة . قتله قوام الـدولـة أبو سعيد كربوقا في صفر السنة ٤٧٨هـ . ولذلك أسـره تاج الـدولـة تتش وسجنـه بحلب الى أن قتل تتش وملك ابنه الملك رضوان حلب . فأطلقــه بطلب من السلطــان بركيـارق واطلق أخـاه التـونتـاش . فرتب السلطـان ملكشـاه السلجوقي ابن شرف الدولة أبا عبد الله محمد بن شرف الدولة في الرحبة وحران والخابور وزوجه أخته زليخة (ابن الاثير) .

الرحبة بيد سلاجقة سورية

من بيت تتش بن الب ارسـلان ، ابتـدأت دولتهم سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤)م وانتهت سنــة ٥١١هـ (١١١٧)م في ذي القعـدة من العـام ٤٨٩هـ (١٠٩٦)م . ملك كربوقا مدينة الموصل بعد أن حاصرها تسعة أشهر وضاق الامر بصاحبها علي بن مسلم فسار الى الامير صدقة بن مزيد بالحلة . وكان مع كربوقا أخوه التونتاش الذي عسف البلد واستطال على كربوقا ، ولكن هذا قتله . واحسن كربوقا السيرة في المـوصـل . وســار نحـو الـرحبـة فمنع عنها ، فملكها ونهبها واستناب بها وعاد . وانتقلت بعد موته الى قايماز من قواد السلطان الب ارسلان ومماليكه ومات قايماز في صفر السنة ٤٩٦هـ ، وقام مقامه غلام تركي . اسمه ترك حسن . وخاف من ملك دمشق دقـاق بن تتش ، فقبض على الـذين يخافهم وقتـل جماعة من أعيان البلد ، وخطب لنفســه ، فتـوجـه اليه دقائق وحصره فسلم العامة البلد اليه . واعتصم ترك حسن بالقلعة . فامنه دقاق ، فسلم القلعة اليه فاقطعه اقطاعاً في الشام ، وقرر أمر

الـرحبـة وأحسن الى أهلها، وجعل فيها لحفظها محمد بن السابق الشيباني. واخذ وله رهينة معه الى دمشق ليأمن عصيانه. ولما توفي دقاق، أرسل محمد بن السابق قوماً سرقوا ولده من دمشق وحملوه اليه. فلما وصل الى أبيه، خلع طاعة رضوان بن دقـاق بدمشق. وخطب في الـرحبـة لقلج ارسلان من سلاجقة قونية. وكان يطمع بامتلاك منطقة الموصل.

وفي السنة ٥٠٠هـ، جاء (جاولي سقاد) أحد الأمراء السلجوقين المعروفين بشجـاعتهم من رجـال السلطـان محمد بن ملكشاه السلجوقي الى الرحبة في شهر رجب، وحاصرها وهي بيد محمد بن السابق فامتنعت عليه وقاتلته، فأرسل جاولي الى الملك رضـوان بدمشق يعـرفـه أنه على الاجتماع به ومساعدته ضد الصليبيين وغيرهم، ويشترط عليه أن يمده للاستيلاء على الرحبة، حتى اذا تسلم البلد، سار بمن معه لمحاربة عدوه. فأقبل رضوان وحضر عنده. فاشتد الحصار على أهل الـرحبـة، وضـاقت عليهم الامور وانفق ان جماعة كانوا في أحد الابراج، وراسلوا جاولي على حفظهم وحـراستهم، وأمـروه أن يقصـد الـبرج الـذي هم فيـه عند انتصاف الليل، ففعل ذلك، فرفع من في البرج أصحابه اليهم بالحبال، فضربوا بوقـاتهم وطبـولهم، فخـذل من في البلد. ودخله أصحـاب جاولي في اليـوم الرابع والعشـرين من شهـر رمضـان (التـاسـع عشر من شهر مايو١١٠٧م)، ونهبوه الى الظهـر، ثم أمـر برفـع النهب. ونزل إليه محمد بن السباق الشيباني صاحب الرحبة وأطاعه وصار معه.

وسار جاولي الى الموصل، فحاصرها، وخرج اليه جكرميش من رجال قلج ارسـلان، فاقتتـلا، وانهـزم جيش جكـرميش، فاستدعى جماعة من أهل الموصل الملك قلج ارسلان صاحب قونية ليسلموا اليه البلد، فسار بعسكره نحو الموصل، فرحـل عنهـا جاولي الى الـرحبة كما مر. وملك قلج ارسلان الموصل واسقط خطبة السلطـان محمـد بن ملكشـاه وخطب لنفسـه. ثم سار من المـوصل بخمسة آلاف فارس الى جاولي بالـرحبـة، والتقيـا قريبـاً منهـا على نهر الخـابـور واقتتـلا، فهزم

اصحـاب جاولي أصحـاب قولج ارسلان ، وخاف قلج أن يقع أسيراً فالقى بنفسه في نهر الخـابـور، وغـرق وظهر بعد أيام ، فدفن بالشمسانية (قرية على نهر الخابور) . وسار جاولي الى الموصل وملكها وأعاد خطبة السلطان محمد فيها .

وهكـذا يتكـرر اتخـاذ الـرحبة ملجأ وقاعدة انطلاق لاحتلال بلدان . وذلك لأهميـة موقعهـا وتحكمـه بعـدة طرق وبـالنظـر لخيراتهـا . وقـد سبب لها كثيراً من النكبات والمصائب ، مما ثقل عليها فناءت تحته وجرها الى الخراب .

وفي السنة ٥٠٢هـ سار جاولي والامير ايلغازي بن ارتق من جهات نصيبين نحـو الـرحبـة . ولمـا وصلا الى عربان على الخابور، عاد ايلغازي ليلا من صحبة جاولي . وقصـد نصيبين . وسـار جاولي الى الـرحبـة . فلما وصـل ماكسـين على الخـابـور، أطلق القمص الفـرنجي ، صاحب الـرها الذي كان سجيناً في الموصل متفقاً معه لقاء مال يقدمه وشروط أخرى . وجاء جاولي أبو النجم بدران وأبو كامل المنصور ابنا سيف الدولة صدقة أصحاب الحلة . وكانا بعد مقتل ابيهما بقلعة جعبر على الفـرات عند سالم بن مالك . فتعاهدوا على المساعدة . ووعدهما انه يسير معهما الى الحلة لاستعـادتهـا . وعـزمـوا على ان يقـدمـوا عليهم بكتـماش تتش بن الب ارسلان . فوصل إليهم الاصبهيذ صباود ، وكان قد قصد السلطان فاقطعه الرحبة فاجتمـع بجـاولي ، واشـار عليـه أن يقصـد الشـام فإن بلاده خالية من الأجناد ، والفرنج قد استولوا على الكثير منها ، فقبل قوله ، واصعد عن الرحبة . فبلغ ذلك الملك رضـوان ، فسـار من حلب الى صفـين على الفرات ، فصادف تسعين رجلاً من الفرنج معهم مال من فدية القمص صاحب الرها قد سيره الى جاولي فاخذه ، وأتى الـرقـة فصـالـح بني نمير على مال ورحل عنهم الى حلب ، وكانت الرقة بيد علي بن سالم العقيلي ، فوثب جوشن النميري وقومه وقتلوه وملكوا الرقة . فاستنجد سالم بن مالك بجاولي وسأله أن يرحل الى الرقة ويأخذها ، ووعده بها يحتاج إليه . فقصد الرقة وحصرها سبعين يوماً . فضمن له بنو نمير مالاً وخيلاً فأرسل الى سالم انني في أمـر أهم من هذا . وأنـا عازم على الانحـدار الى العراق ، فإن تم أمري ،

فالرقة وغيرها لك، ولا أشتغل عن هذا الامر بحصار خمسة نفر من بني نمير.
ووصل جاولي الى منبج وعاد الى الرحبة بعد ان انهزم امام عسكر الامير قطب الدين مودود اتابك صاحب الموصل الذين اخذوا الموصل منه.

وفي سنة ٥٠٩هـ (١١١٥)م ولى السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي على الرحبة ابا سعيد آل سنقر البرسفي الغازي، الملقب قسيم الدولة صاحب الموصل والرحبة وتلك النواحي ـ وهو أحد الامراء السلاجقة. وكان حارب الصليبيين قبل نقله الى الرحبة. وكان بها قبله آسبا سلار مودود من جهة محمد بن ملكشاه.

وقتل مودود يوم الجمعة ١٢ ربيع الآخر السنة ٥٠٧هـ قتله الباطنية.

وفي السنة ٥١٢هـ استخلف اقسنقر البرسقي ابنه عز الدين مسعود على الرحبة، وسار الى السلطان ببغداد لزيادة اقطاعه. فبلغه وفاة السلطان محمد، ولما تولى السلطان محمود ولى البرسقي شحنية بغداد.

وولى السلطان محمود عز الدين بن البرسقي ماكان أبوه يتولاه من الموصل وغيرها، وكان شجاعاً شهماً ورتب الامور فكثر جنده، فطمع في التغلب على بلاد الشام، فجمع العساكر وسار يريد دمشق، فابتدأ بالرحبة وكانت خرجت من يده. ونازلها وقام يحاصرها، واستولى عليها بموافقة أهلها العام ١١٢٧م ومرض ومات في نفس اليوم ودفن في الرحبة، واقتتل خلفاؤه على ما كان بيده، فكان الواحد منهم يقتل الآخر، وآلت المدينة الى الأخ الأصغر لعز الدين بن البرسقي واستولى على البلاد وعلى الرحبة مملوك للبرسقي يعرف بالجاولي ودبر أمر الصبي.

الرحبة بيد الزنكيين

لما تولى السلطان عماد الدين زنكي، وهو أول ملوك الدولة الاتابكية. السنة ٥٢١هـ (١١٢٧)م، أقطع الرحبة وأعمالها الى جاولي المذكور. وبقيت الرحبة

وجـوارهـا من أعـمال الدولة الاتابكية من السنة ٥٢١هـ الى السنة ٦٣١هـ واحتل قطب الدين بن زنكي المدينة السنة ٥٤٤هـ (١١٤٩ ـ ١١٥٠م).

وفي الثـاني عشـر من شهـر آب ١١٥٧م خربت هزات أرضية مدينة الرحبة وحمـاة وشيـزر وسلميـة وغـيرهـا. وفي السنـة ١١٦١م نهبت قبيلة خفـاجـة الحلة والكـوفـة، فطـاردتهـا جيـوش حكومة بغداد، فالتجأت الى الرحبة، وقويت فيها بانضـمام أرهـاط من العـرب الـرحـل، وهـزمت جيش حكـومـة بغداد الذي كان يطاردها ويتتبعها.

الرحبة بيد الأيوبيين

ان نور الـدين محمـود بن عماد الـدين زنكي الذي كان يملك الجزيرة وكور الفرات وحلب وحمص وحمـاه أقطـع أسد الدين عم صلاح الدين الايوبي وكان في خدمته الرحبة وحمص في السنـة ٥٦٧هـ (١١٧١م). وبـذلـك دخلت الـرحبـة في طاعـة صلاح الدين الايوبي مؤسس الدولة الايوبية وخلفائه.

ولانشغـال أسـد الـدين شيركـوه مع نور الـدين محمود بن زنكي في حروبه، عهد بإدارة الرحبة الى ضابط يدعى يوسف بن الملاح الحلبي وآخر معه من بعض القرى... وقد أساءا التصرف في الرحبة، ولم يحسنا تدبيرها. وفي أبناء الرحبة جرأة منذ القديم، وما زالت فيهم، اكتسبوها من طول قتال الطامعين بمدينتهم ومن النكبات التي ما فتئت تحل بهم وببلدهم، وما برحوا يثبتون أمامها، وينهضون نافضين عنهم آثار المصائب والمحن.

فكتب يحيى بن النقـاش... أحـد أبنـاء الـرحبة الى أسد الدين شيركوه، ينتقد ادارة هذين الرجلين شعراً، رواه ياقوت الحموي في معجم البلدان تحت مادة الرحبة هو:

كم لك بالـرحـبـة من لائـم ... يا أسـد الـديـن ومـن لاح
دمـرتهـا من حيـث دبـرتهـا ... برأى فلاح ومـلاح

وله اليه:

يا أسـد الـديـن اغـتـنم أجـرنـا ... وخـلص الـرحـبـة من يوسـف

تغــزو الــى الــكــفــر وتــغــزو بـه   الاســلام ما ذاك بهذا يفــي

إن رحبة مالك بن طوق المدينة التي ازدهرت في عهد مالك وكثر سكانها، واتسعت عمارتها وبنيانها، وقد تولى عليها الخراب ولم تعد صالحة للسكن، بسبب كثرة الحصارات التي تعاقبت عليها، وكثرة الايدي التي تداولتها واختلفت عليها وكثرة الطامعين بها لحسن موقعها ووفرة خيراتها، وبسبب الهزات الأرضية وفيضانات الفرات.

ولما كانت منطقتها من أقطاع الامير الايوبي أسد الدين شيركوه ولأهمية الموقع الاستراتيجي لم يفرط به أسد الدين شيركوه، فاستحدثت في جنوبها على بعد أربع كيلو مترات بلدة صغيرة في أسفل القلعة القديمة لتفيد البلدة المستحدثة من قرب هذه القلعة ـ وكان شرب أهل هذ البلدة من نهر قديم خارج من نهر الفرات هي قناة سعيد الخير بن عبد الملك بن مروان. والذي كان يسقي سهل الرحبة على ضفة الفرات الغربية ما بين دير الزور ودالية مالك بن طوق (قرية القرية) اليوم أسفل مدينة الميادين على بعد ١٣ كيلومتراً ويصب في الفرات عند الدالية المذكورة.

جاء في كتاب تقديم البلدان لأبي الفداء صاحب حماة (تحقيق المستشرق رينو والبارون كوكين طبع باريس ١٨٣٠): «. . . والرحبة المذكورة خربت وبقيت قرية وبها آثار المدينة القديمة من المواذين الشاهقة وغيرها. واستحدث شيركوه بن أحمد شيركوه بن شادي صاحب حمص في جنوبها الرحبة الجديدة على نحو فرسخ من الفرات، وهي اليوم محط القوافل من العراق والشام، وهي أحد الثغور الاسلامية في زماننا هذا».

وقد جاء الرحالة الشهير ابن بطوطة الى الرحبة قادماً من بغداد في طريقه الى دمشق في السنة ٧٤٨هـ واليك وصفه الطريق ما بين الانبار والرحبة، في كتابة تحفة النظار ج٢ ص١٧٤ (المطبعة الازهرية) بمصر ١٩٢٨: «ثم رحلت من بغداد، فوصلت الى مدينة الانبار، ثم الى هيت، ثم الى الحديثة ثم الى عانة، وهذه البلاد من أحسن البلاد واخصبها. والطريق فيما بينها كثيرة العمارة كأن الماشي في سوق من الأسواق.

وقد ذكرنا أننا لم نر ما يشبه البلاد التي على نهر الصين، الا هذه البلاد، ثم وصلت الى مدينة الرحبة، وهي التي تنسب الى مالك بن طوق. ومدينة الرحبة آخر بلاد العراق

وأول بلاد الشام، ثم سافرنا منها الى السخنة وهي بلدة حسنة، ثم سافرنا الى تدمر ومنها الى مدينة دمشق».

وبقيت المدينة بيد عائلة شيركوه خلال قرن الى اليوم الذي وضع فيها الملك الظاهر بيبرس البند قداري عام ١٢٦٤ حاكماً مصرياً (ابن الاثير، ابو الفداء).

الرحبة في عهد دولة المماليك

كانت الرحبة في دولة المماليك نيابة من نيابات الدولة، وكان يكتب بنيابتها مرسوم شريف في قطع النصف، وعليها نائب هو مقدم ألف أو (طبلخانة. وكانت نيابتها مساوية لنيابة حمص في صدور المرسوم).

وقد روى القلقشندي في الجزء الثاني عشر من كتابه «صبح الاعشى» ص ١١٠ - ١١٢ نص المرسوم الذي كان يكتب بها. كما روى توقيع بنظر الرحبة من انشاء ابن نباتة لمن لقبه (تاج الدين) في الجزء الثاني عشر من صبح الاعشى ص ٤٠٧ - ٤٠٩.

اهتمت دولة المماليك بالرحبة لوقوعها على الحدود الشرقية لدولتهم ولمواجهتها خطر التتار في العراق كان سلاطين المماليك يوكلون المحافظة على الأمن في طريق الفرات الى آل مهنا أو آل ريشة من رؤساء عشيرة طي. وكان مركزهم الرئيسي في سلمية لقاء رسم سنوي معين، وكانت لهم اقامة في الرحبة. وكانوا يتحاسدون ويتاتلون بسبب هذا المنصب، وكان بعضهم ينهب القوافل التي تسلك طريق الفرات بين الشام والعراق فتتعقبه السلطة وتقتص منه ان هي ادركته.

ان سنقر الاشقر أمير دمشق الذي خرج على السلطان قلاوون في السنة ٦٧٨هـ ١٢٧٩م (التجأ بعد هزيمته الى الرحبة قرب الامير عيسى بن مهنا).

وكان حاكمها ابن الارقش المتوفي بدمشق السنة ٧١٥هـ (١٣١٥ - ١٣١٦م) (ابو الفداء) وفي اثناء حكمه السنة ٧١٢هـ (١٣١٢م) حاصرها المغول

بقيادة خاربندا في اثناء حملتهم على سورية . غير أنه تراجع عنها تاركاً أدوات حصاره، فنقلها المدافعون عن المدينة الى داخل القلعة (أبو الفداء) . وفي ربيع العام ١٣٢٠م طرد فريق من آل مهنا من جهات سلمية وتبعتهم الجيوش السورية الى الرحبة وعانة (أبو الفداء) .

وفي العام ١٣٣٠م سبب فيضان الفرات للمدينة خراباً كبيراً (ابن كثير) وفي السنة ألف وأربعمائة للميلاد، كان السلطان بمصر الناصر زين الدين فرج بن برقوق ونائبه بدمشق سودون . وفي هذه السنة تملك تيمورلنك العجم وطبرستان والعراقين والموصل والجزيرة، وجمع عساكر عديدة وقصد بلاد الشام . وارسل الى السلطان رسلا ومعهم هدية وكتاب، فلما وصلوا رحبة مالك بن طوق وثب عليهم نائب الرحبة كمش بغا، فقتلهم وارسل الى السلطان الهدية والكتاب (تاريخ الازمنة للدويهي الطبعة الكاثوليكية) .

وفي العام ٧٩٥هـ وفد على السلطان برقوق رسول من نائب الرحبة يخبره بأن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد قد وصل الى الرحبة هارباً من بطش تيمورلنك الذي نهب معظم بلاده وصادر املاكه بعد أن خدعه بمعسول الكلام، فثني عزمه عن قتاله . وسار القان من الرحبة الى حلب، فأوفد نائبها رسولاً الى مصر يخبر السلطان بوصول اويس الى حلب وأنه بطريقه الى مصر. فاستعد السلطان للقائه . فالرحبة بحكم انها مدينة حدود، كانت وما زالت تستقبل القادمين اليها على طريقها الرئيسي .

ومما يتصل بتاريخ الرحبة في عهد المماليك ان جماعة من العرب قدموا الى مصر في العام ٦٥٩هـ ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد، زعموا انه ابن الامام الظاهر بالله بن الامام الناصر العباسي . وكان الامراء المسلمون يفكرون باحياء الخلافة العباسية، فشرع السلطان الظاهر بيبرس بتنفيذ الفكرة بوصول احمد بن الامام الظاهر الى مصر. وقد قصد بيبرس من وراء ذلك تقوية عرشه

وتعزيز زعامته الاسلامية. ولذلك احتفل كثيراً بالامام أحمد وانفق الاموال الكثيرة في سبيل ذلك خدمة لاغراضه هو.

عقد السلطان بيبرس مجلساً دعا إليه القضاء والعلماء والامراء. ليشهدوا بإثبات نسب الامام، واستدعى العربان الذين قدموا مع الامام احمد من بغداد فاقروا جميعاً بين يدي قاضي القضاة بأن الامام أحمد بن الخليفة الظاهر بامر الله المتصل النسب بالعباس بن عبد المطلب. فقبل القاضي شهاداتهم، وحكم بصحة نسبه وبايعوه بالخلافة سنة ٦٦١هـ، وبايعه السلطان بيبرس، ولقبوه بالمستنصر بالله. واخذ له البيعة من الناس، وأمر بالدعاء للخليفة وله.

وشرع الظاهر بيبرس بعد ذلك يعد العدة لاعادة الخليفة الى عرشه ببغداد. فرتب له بعض الامراء والعساكر، وهيأ له كل سبل الراحة. وخرج السلطان ومعه الخليفة وأولاد صاحب الموصل، ولما وصلوا الى دمشق قيل للسلطان بيبرس أن تأسيس خلافة قوية في بغداد، قد تكون خطراً عليه، فاوغر ذلك صدره على الخليفة، وتركه يخترق الصحراء برفقة قوة من الاعراب والترك. فتابع الخليفة السير حتى وصل الى الرحبة. وفيها فارقه أولاد صاحب الموصل، وأبوا السير معه، وقالوا له: «ما معنا مرسوم بذلك». وارسلوا معه ستين رجلاً من مماليك والدهم. ثم رحل الخليفة من الرحبة بعد أن أقام بها ثلاثة أيام الى مشهد علي ومنها الى عانة. وانضم اليه اناس، فرحل الى الحديثة، واستولى عليها. وقصد هيت، فامتنعت عليه. فدخلها ونهب أموال اليهود والنصارى فيها. ولما علم التتار بقدومه، خرجوا لقتاله بقيادة قرابغا، فقاتلوه وهزموا جيشه واستشهد في القتال السنة ٦٦١هـ.

لقد ابتدأت هذه الرواية مهزلة وانتهت مأساة.

ولقد مات السلطان بيبرس بطلها في دمشق في شهر المحرم السنة ٦٧٦هـ.

مراكز البريد ومطارات الحمام الرسائلي والمناور في المملكة المملوكية واتصالها بالرحبة

اعتنت الدول الاسلامية بالبريد حرصاً على طلب الاخبار، واقامت لذلك مراكز على الطرق، وكان البريد يحمل على الخيل والبغال والنجب. ولما تولى الملك الظاهر بيبرس واجتمع له ملك مصر والشام الى الفرات، كان يوصي عماله بمواصلته بالاخبار، وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج، وقال لأحد عماله ان قدرت أن لا تبتني كل ليلة الا على خبر ولا تصبحني الا على خبر فافعل. وكان للبريد في عهده معالم ومراكز يقف بها خيل البريد لتغير خيل البريدية ولكل مركز طرق عندها الآبار.

فمن مركز دمشق مراكز موصلة الى حمص وحماه وحلب والرحبة والى طرابلس والى جعبر ومصياف وبيروت وصيدا وبعلبك والكرك.

وأما طريق الرحبة، فمن القطيفة الى العطنة ومنها الى المصنع، ومنها الى القريتين، ثم الى الحير، ثم الى البيضا، ومنها الى تدمر، ثم الى ارك، ثم الى السخنة، ثم الى قباقب، ومنها الى كوائل ومنها الى الرحبة، وهي حدّ هذه المملكة وثغرها على الفرات. كما أن جعبر ثغر الفرات في غربي الرحبة كل هذه المراكز معروفة الى اليوم. وكان في بعضها خانات لتفريق الخبز والاحذية ونعال الدواب (النضوات) وكل هذه المراكز محطات للقوافل بين دمشق والفرات.

وأبراج الحمام الرسائلي من القواعد والطرق في البريد. ولقد اعتنى باقتناء الحمام الرسائلي خلفاء بني العباس ومن جاء بعدهم من ملوك المسلمين. فكان لهم مطارات ومسارح للحمام الرسائلي ربما زادت على مراكز البريد. . وكانت هذه المطارات في القلاع وبين المدن. وكان أهم مراكز لها في المملكة الملوكية مركز قلعة الجبل في اقاهرة، ومنها يتدرج الى سائر الجهات أبراج موصلة فهناك ابراج مثلاً من قلعة الجبل الى غزة، ومن غزة تتفرع الى دمشق. ومن كل مركز الى ماجاوره.

ومن دمشق الى بعلبك، ومن دمشق الى القريتين. ومن دمشق الى بعلبك، ومن دمشق الى القريتين، ومن دمشق الى قارة ثم الى حمص ثم الى حماه ثم الى المعرة ومنها الى حلب، ومن حلب الى البيرة وما جاورها. ثم من القريتين الى تدمر ومنها الى السخنة ومنها الى قباقب، ومنها الى الرحبة، وللحمام مراكز في سائر الممالك الاسلامية.

اما المناور فهي مواضع توقد فيها النار ليلا ويثار الدخان نهاراً للاعلام بحركة العدو واذا قصد دخول البلاد لحرب أو اغارة. وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال، وتارة تكون في أبنية عالية، وهذه المناور مأخوذة عن ملوك الهند، وقد استعملتها الدولة المملوكية للاعلام بحركة التتار اذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو اغارة ومواضع هذه المناور معروفة تعرف بها اكثر السفارة وهي من أقصى ثغور الاسلام كالبيرة وجعبر والرحبة والى السلطان بقلعة الجبل حتى أن المتجدد من الاخبار بالفرات ان كان بكرة علم به عشاء، وان كانت عشاء علم به بكرة.

ولما يرفع من هذه النيران، أويدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها تارة في العدد وتارة في غير ذلك.

وقد أرصد في كل منور الديادب والنظارة لرؤية ما وراءهم وايراء ما أمامهم، ولهم على ذلك جوامك مقررة (رواتب).

وكان ينور بمدينة عانة من مملكة التتار قوم من النصاح النظارة المملوكية وقد ينور قدوم من النصاح في بلاد الروم لنفس الغرض. ترفع النار بخربة الروم وبالجرف على الفرات فترى بالقناطر، ويرفع بالقناطر فيرى بالرحبة وقاها الله، ويرفع بها فيرى في كواثل، ويرفع فيها فيرى في منظرة قباقب، ويرفع فيها فيرى في حفير أسد الدين، ويرفع بها فيرى بالسخنة ويرفع فيها فيرى بمنظرة أرك. ويرفع بها فيرى بمنظرة تدمر، ويرفع فيها بمنظرة البيضاء، وهكذا يرى في الحير ومنها يرى في القريتين، وفيها يرفع فيرى بالعطنة فيرفع فيها فيرى بثنية العقاب فيرفع

فيها فيرى بمئذنة العروس ويرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة. فيرى في دمشق. وهنالك مناور طريق البيرة وطريق الرحبة.

بذلك يرقى بلوغ الاخبار بسرعة الى الغاية القصوى (في ذلك الوقت) ذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره. والحمام يأتي من الخبر بما هو أسرع في البريد. والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام وناهيك أن يظهر عنوان الخبر في الفرات بمصر في مسافة يوم وليلة.

لقد ذكر القلقشندي في صبح الاعشى في الجزء الرابع عشر بتفصيل مراكز البريد ومطارات الحمام ومسارحه والمناور في المملكة المملوكية في الجزء الرابع عشر، وهو مصدر هذا الفصل.

وتذهب من الرحبة القديمة، والميادين الحالية طرق عديدة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً الى دمشق وتدمر والبادية والى العراق على الطريق البري والطريق المائي وهو الفرات. والى الجزيرة عبر الفرات والموصل وسامراء وتكريت وأنحاء الخابور. والى حلب وحمص وحماة.

يصدِّر ابناء الرحبة الاغنام والسمن والصوف والحبوب والقطن والدجاج والبيض. وتصدر قرية العشارة البطيخ، بنوعيه الأحمر والاصفر. وكانت الميادين تصدر البصل. ان حاصلاتها الزراعية ما زالت ضئيلة ومحدودة دون امكاناتها بكثير. وبإمكانها ان تعنى بأشجارْ الفاكهة وبالخضراوات وبالدواجن لتزيد من دخل ابنائها. منطقة الميادين فقيرة ومتخلفة بسبب ضآلة مواردها. لا بد لها من زيادة مواردها والا بقيت فقيرة متخلفة. ان في السهل الممتد بين الميادين ودير الزور، امكانات تجعل منه غوطة كغوطة دمشق، كان ذلك بالامكان منذ ربع قرن على القليل. ان طوله ٤٥ كيلومتراً تجري فيه سواقي المياه بغزارة، وبرغم خصب التربة لا توجد فيه شجرة واحدة. ولا تزرع فيه خضروات، وتقتصر الزراعة فيه على القمح والشعير والقطن مؤخراً.

وهذا دليل من الادلة العديدة على اهمال المسؤولين لهذه المنطقة في العهود

الســابقــة ودليــل تقصـــير السكــان بسبب جهلهم وتفـرق كلمتهم . ان فواكـه وخضروات المنطقة جيدة .

وخضــروات المنطقــة جيــدة فلو أن السكان اهتموا بزراعتها لصدروا أنواعاً طيبة وبكميات كبيرة .

علماء نزلوا الرحبة

وممن نزل الرحبة من العلماء في عهد المماليك صلاح الدين الصفدي ، خليل بن ايبـك بن عبـد الله . ولـد في صفـد بفلسطـين العـام ٦٩٦هـ (١٢٩٦)م تعلم بصغره صناعة الرسم على القماش ، كانت فناً شائعاً في صفد ، وفي العشرين من عمره غادر بلده ليجوب الشام ومصر طالباً للعلم وموظفاً . وكان في دمشق وهو ابن اثنتي وعشـرين يتصـل بابن تيميـة وبـالشهـاب محمـود أحـد المعمـرين في ديـوان الانشاء ، يقرأ عليه مؤلفاته وكتباً في الادب ويدرس التاريخ على الحافظ الذهبي ، ورحل الى حلب ، ثم عاد الى صفد ، أقام فيها العاملين ٧٢٤ ـ ٧٢٦هـ . وسافر الى القـاهـرة وأقـام فيها العامين ٧٢٧ و٧٢٨هـ اتصل الشيخ فتح الدين ابن سيد النـاس ، درس عليـه الحـديث وكـان يتردد الى مجلس النحوي اللغوي أبي حيان الغـرنـاطي ، وكـانت مصـر حكم السلطان المنصور قلاوون . وتعرَّف الصفدي في القـاهـرة الى كثير من العلماء . وعاد الى الشام ليلقى فيها الشاعر ابن نباته السنة ٧٢٩هـ في دمشق ، وليلقى الشـاعـر صفي الدين الحلب في شمال حلب . ثم نقل الى القـاهـرة العـام ٧٣٢ ـ ٧٣٧هـ . وكـان يواصـل تحصيله العلمي الى جانب اشتغاله بوظيفته . ومن مصر نقل كاتباً للسر الى رحبة مالك بن طوق . وكانت نيابه من نيـابـات المملكـة المصـريـة . وبقي فيها نحوا من السنة . وكانت قد نالت من الحروب المتتابعة والنكبات المتكررة وزايلها ازدهارها فلا عجب أن كره مقامه فيها لشدة بردها وحرها . وهجاها في عدة مقطوعات منها قوله

عدمت بالرحبة اكتسابي فلا قريض ولا قراضة
وكل طرفي بها وفكري فلا رياض ولا رياضة

وكان يفضل ان يكون كاتباً للدست بدمشق على ان يكون رئيساً لديوان الانشاء بالرحبة. ولم يكن يترك مناسبة تمر وهو في الرحبة من غير أن يكتب الى استاذه ابي حيان الغرناطي يدلل فيها على وفائه وعرفانه بالجميل. كتب اليه متشوقاً ومحيياً من الرحبة بالابيات التالية:

لو كنت أملك من دهري جناحين لطرت.. لكنه فيكم جنى حيني
يا واحد العصر ماقولي بمتهم ولا أحاشي أمراً بين الفريقين
هذي العلوم بدت من سيبويه كما قالوا وفيك انتهت ياثاني اثنين

وكانت لأبي حيان ابنة اسمها (النضار) من العالمات الفاضلات، توفيت بمصر، فحزن لوفاتها حزناً شديداً. وقد عزى الأدباء والشعراء شيخهم، وبلغ موتها الصفدي في الرحبة، فأرسل الى شيخه قصيدة يعزيه يقول فيها:

بكينا بالجين على نضار فسيل الدمع في الخدين جاري
فيالله جارية تولت فنبكيها بأدمعنا الجواري

ولما خلت احدى وظائف الديوان بدمشق العام ٧٣٩هـ نقل إليها، فأقام فيها مدة لينقل رئيساً للديوان بحلب ثم ليعود الى دمشق، ثم استدعى الى مصر العام ٧٥٣ - ٧٥٤هـ ثم عاد الى دمشق كاتباً للدست ووكيلاً لبيت المال معاً الى آخر حياته. وقد اتسعت ثقافته وامتد صيته، حتى سمي «أديب العصر» كان متواضعاً كريم الخلق سخي اليد حسن المعاشرة. جميل المودة. توفي في الطاعون الذي اجتاح ديار الشام العام ٧٦٩هـ والعاشر من شهر شوال (١٢٦٣/٧/٢٤م). كان جيد الخط صبوراً على النقل والتقييد. مولعاً باقتناء الكتب المحققة.

أولع الناس في زمنه بكتابة التراجم، فكتب الصفدي وصنف عشرات المجلدات في التراجم أشهرها كتابه (الوافي بالوفيات) في ثلاثين مجلدة على

حروف المعجم طبع منه أربعة أجزاء، وصنف في الأدب. ذكر له الاستاذ برو كلمن كتباً موزعة في مكتبات العالم.

رحالون أجانب مروا بالرحبة

١ ـ غسبارو بالبي ـ كان جوهرياً ايطالياً من أهل البندقية ـ بدأ رحلته السنة ١٥٧٩م. كتبها باللغة الايطالية. ونشر ترجمتها الانكليزية في لندن السنة ١٨١١م. وقد وصف فيها حلب ـ الرحبة ـ الفلوجة ـ بغداد ـ البصرة.

وفي السنة ١٨٨٤ نشرت في لندن ترجمة انكليزية لرحلة بالبي في العراق، بعنوان: «غسبارو بالبي، رحلة من بغداد الى البصرة في السنة ١٥٨٠». وان المستشرقة الايطالية أولغابنتو، قد اعادت نشر قسم من رحلة بالبي، وهو القسم الخاص بحلب والعراق مع تعليقات وحواش كثرة لها، وذلك في مجلة الاكاديمية الاهلية في ايطاليا السنة ١٩١٢م.

ومما جاء في هذه الرحلة، أن غسباروا بالبي، غادر حلب في ١٣ كانون الأول سنة ١٥٧٩م، قاصداً بغداد بطريق البيرة (بره جيك) ماخراً نهر الفرات، ومر بالرحبة فروى «رأينا قصر الرحبة الذي بالقرب منه تشاهد مدينة مهدومة، ولكن في بعض أقسامها هي مسكونة من اناس قليلين، يدعون (رحبلاتقة)»، وهي كلمة منحوتة من كلمتين أي الرحبيون القلعيون وبمعنى آخر سكان قلعة الرحبة. ويقصد بالقصر قلعة الرحبة القديمة. والمدينة المهدومة التي شاهدها هي رحبة مالك، كما يقصد بالقسم المسكون فيها بلدة شيركوه المستحدثة. أو بيوتاً مسكونة في الرحبة القديمة.

٢ ـ بترو دلافاله ـ سائح ايطالي، من أشهر الرحالين الاوروبيين الذين أموا بلدان الشرق في أوائل القرن السابع عشر (١٥٨٦ ـ ١٦٥٢م). ساح سياحة واسعة استغرقت خمسة أعوام (١٦١٦ ـ ١٦٢١م). زار خلالها بلاد آشور وبابل وايران. وبعض الاصقاع المجاورة. وكان عالماً آثارياً مطلعاً على ما ورد بشأن

الآثار الشرقية في التوراة وفي المصادر الاغريقية. وحديث رحلاته في الشرق رسائل كتبها باللغة الايطالية، بعث بها الى صديقه شيبانو، استاذ الطب في نابولي.

وقد طبعت بعدئذ في مجلدين سنة ١٦٥٣م، ثم طبعت طبعة حسنة سنة ١٨٤٥ في مجلدين. ونقلت الى الفرنسية وطبعت سنة ١٦٦١ - ١٦٦٣، وقد شاهد دلافاله الرحبة وذكرها في رحلته.

٣ - جان باتست تافرنية (١٦٠٥ - ١٦٨٩) في طليعة الرحالين الفرنسيين الذين رحلوا الى عدة أرجاء من أوربة وبلاد الشرقين الأدنى والاوسط ولد في باريس. ظعن الى آسيا عام ١٦٣٦. سافر اليها ست مرات في ثلاثين سنة، فأثرى ثراء عظيماً بتجارة الالماس والحجارة الكريمة. وكان يتكلم معظم لغات أوربة.

ومن أشهر تأليفه، حديث رحلاته الست المطبوع في باريس السنة ١٦٧٦ في مجلدين، ثم أعيد طبعه فيها السنة ١٧١٣. ونقلت هذه الرحلات الى الانكليزية، فنشرت في لندن السنة ١٦٧٨. ظلت رحلة تافرنية بعيدة عن قراء العربية، حتى نقل الى العربية الاستاذان كوركيس عواد وبشير فرنسيس ما يخص العراق من هذه الرحلة الواسعة في كتاب «العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنيه مطبعة المعارف - بغداد ١٩٤٤، ١٨٤ص.

اجتاز تافرنيه سورية بطريقه الى العراق غير مرة، فقطع كثيراً من البوادي والفيافي ومر بمدن وقرى ومواضع جمة. وقد مر بالرحبة، ويذكر موضعاً يطلق عليه (مشهد الرحبة) وهو على بعد ستة أميال الى الجنوب الغربي من الرحبة. وهو ما يسميه سكان المنطقة اليوم (عين علي) وهي عين ماء جارية تخرج من سفح الاكمة المطلة على سهل الرحبة وتسقي في الشتاء والربيع بضعة هكتارات من القمح والشعير - وقد نسب سكان المنطقة العين الى الخليفة الرابع علي بن أبي طالب. وعلى الاكمة منارة قديمة بنيت بالآجر مثمنة الاضلاع، مازال درجها الداخلي سليماً، يصعد فيه بعض الناس، وكانت على المنارة نقوش جصية بشكل محاريب

وبجوار المنارة مسجد صغير متهدم، وعنده بقايا بيوت، واحسب أن هذه الآيارات بنيت في عهد المماليك لم تدرس دراسة آثارية علمية بعد.

الحركة العلمية في الرحبة

شاركت الرحبة بالحركة الفكرية في العصر العباسي منذ تاريخ تجديد بنائها على يد أميرها مالك بن طوق، الذي كان شاعراً ويروي الشعر الجيد ويتذوق الأدب، وقد قصده شعراء كبار أمثال أبي تمام والبحتري والعتابي وابن الشيص، مدحوه بقصائد جيدة وأثابهم عليها ثواباً غير قليل حتى أرضاهم. ولقد روى ابناء الرحبة هذا الشعر وتأدبوا عليه فيما رووا. ونبغ في الرحبة، ونسب إليها جماعة من الأدباء والعلماء والقضاة والاطباء والساسة، رحل أكثرهم الى الحواضر الإسلامية، بسبب توالي النكبات على الرحبة وأقاموا في تلك الحواضر، يعملون في فنونهم ومجالاتهم وعلومهم، وذاعت لهم شهرة بعيدة. وقد ترجم أصحاب التراجم والطبقات الكثير منهم. فضلاً عمن نزل الرحبة من القضاة والكتاب والعلماء الذين بقوا فيها سنين عديدة. وصاروا يعدون من أبنائها، وقد أفادت الرحبة من علمهم وفنونهم. وإليك أسماء ما تحصل لي من أبناء الرحبة ونزلائها العلماء والقضاة والاطباء فضلاً عن الشعراء.

١ ـ ابو علي الحسن بن قيس الرحبي، كان محدثاً.

٢ ـ ابو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الحسن الرحبي الفقيه الشافعي، المعروف بابن المتفننة، تفقه على أبي منصور الرزاز البغدادي ودرس ببلدة الرحبة وصنف كتبا، ومات بالرحبة السنة ٥٧٧هـ وقد بلغ الثمانين.

وكان ابنه محمود قد ورد الموصل وتولى بها نيابة القضاء، وبقي مدة، ثم صرف عنها، وعاد الى الرحبة، وكان فقيها عالما (ياقوت معجم البلدان).

٣ ـ جاء في كتاب مختصر الدول لابي الفرج الملطي الطبعة الكاثوليكة ص ٣٧٧ في كلامه عن حوادث سنة خمس وسبعين وخمسمائة:

(وكان في هذا الزمان من الحكماء المشهورين بالمشرق الرحبي الطبيب[3]. نزيل دمشق من أهل الرحبة حسن المعالجة لطيف المباشرة، نزه النفس يعاني التجارة، ورزق بها مالاً جماً وأولاداً، مرضي الطريقة، له اشتغال جيد في هذا الفن. وكان كثير التنعم حسن المركب والملبس والمأكل والمنزل، يلزم في أموره قوانين حفظ الصحة الموجودة. قيل له: ما ثمرة هذا؟ قال ان يعيش الانسان العمر الطبيعي. فقيل له: انت قد بلغت من السن مالم يبق بينك وبين العمر الطبيعي إلا القليل، فأي حاجة الى هذا التكلف، فقال لأبقي ذلك القليل فوق الأرض واستنشق الهواء واتجرع الماء. ولا أكون تحت التراب بسوء التدبير.

٤ ـ وقال أبو الفرج الملطي في كتابه المذكور ص ٤٨٠ عن مشاهير الاطباء في أواخر النصف الأول من القرن الهجري:

«منهم شرف الدين الرحبي وأخوه جمال الدين الدمشقيان (ولكنهما ابناء الرحبي المذكور) أما شرف الدين فكان بارعاً بالجزء النظري من الطب. له معرفة تامة به واطلاع على أصوله، تصدر لافادة هذا الشأن وأخذ عنه جماعة من الطلبة. وكان قليل التعرض لمباشرة المرضى. وسمعت وقت تحصيلي بدمشق أن له تعاليق وحواشي على القانون ولم أرها. وأما جمال الدين أخوه، فكان له عناية تامة في الجزء العملي من الطب وتجارب فاضلة فيه ونفوذ مشهور في المعالجة. صحبته مدة أباشر معه المرضي بالبيمرستان النوري بدمشق، وكان حسن الاخلاق، لم أر في الجماعات احسن منه زياً وصمتاً ونطقاً ومبسماً».

٥ ـ عبد الوهاب بن علي بن نصر بن احمد بن الحسن بن هارون بن مالك بن طوق صاحب الرحبة، التغلبي البغدادي، أحد أئمة المالكية ومصنفيهم، له كتاب التلقين يحفظه الطلبة، وله غيره في الفروع، والاصول، وقد أقام ببغداد

---

٣ ـ هو رضي الدين ابو الحجاج يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي كان والده من الرحبة وكان مولده بجزيرة ابن عمر السنة ٥٣٤هـ (١١٣٩م).

دهراً، وولي قضاء دارياً وماكساباً، ثم خرج من بغداد لضيق حاله، فدخل مصر فأكرمه المغاربة (الفاطميون) وأعطوه ذهباً كثيراً. فتحول حاله فأنشأ يقول متشوقاً الى بغداد:

سلام على بغـدا في كل موقـف ... وحـل لها مني السـلام مضاعف

فوالله ما فارقـتـهـا عن ملالـة ... واني بشطي جانبيـهـا لعـارف

ولكنهـا ضاقت علي بأسـرهـا ... ولم تكن الارزاق فيهـا تسـاعف

فكـانت كخل كنت أهـوى دنـوه ... واخـلاقـه تنأى به وتخـالـف

لم ترى المالكية أفقه منه. قال ابن خلكان: وعند وصوله الى مصر، حصل له شيء من المال، وحسن حاله مرض من اكلة اشتهاها، فذكر عنه أنه كان يتغلب ويقول: لا إله الا الله عندما عشنا متنا.

قال وله أشعار رائعة. منها قوله:

ونـائـمـة قبلتهـا فتنبهـت ... فقـالت تعالوا واطلبوا اللص بالحد

فقـلت اني فديـتـك غاصـب ... ومـا حكمـوا في غاصب بسوى الرد

ومما انشده ابن خلكان للقاضي عبد الوهاب:

بغـداد دار لأهـل المـال طيبـة ... وللمفـاليس دار الضنـك والضيق

ظللت حيران أمـضـي في أزقتهـا ... كأنـي مصـحـف في بيت زنـديق

٦ ـ أبو الحسن علي بن محمد بن سلامة الروحاني المقري الرحبي، من قرية رَوْحاً من قرى الرحبة، لا يقول أهلها الا مقصوراً والروحاني نسبة الى روحا. كان موصـوفـاً بجـودة القـراءة والمعـرفـة بوجـودهـا وصحب الصوفية، ورحل في طلب الحـديث، ذكـره السلفي في معجم السفـر واثنى عليـه كثيـراً (يـاقوت الحموي: معجم البلدان).

وممن ولي القضاء برحبة مالك بن طوق الفقيه الشافعي ابو عبد الله بن نصر بن الحسين بن الخميس الكعبي الموصلي الجهيني، الملقب تاج الاسلام مجد الدين الفقيه، أخذ الفقيه عن أبي حامد الغزالي ببغداد وعن غيره، والى القضاء برحبة

مالـك بن طوق، ثم رجـع الى الموصل وسكنها. وصنف كتباً كثيرة ـ ذكره الحافظ أبـو سعيـد السمعاني في تاريخه وأثنى عليه. توفي في شهر ربيع الآخر السنة اثنين وخمسـين وخمسـمائـة. وكـان مولـده بالموصل السنة ٤٦٦هـ، وكان شيخ الموصل في زمانه (ترجم له ابن خلكان في وفيات الأعيان).

في العهـد العثـماني لم نعـرف عن أحد من أبناء قلعة الرحبة حصل علماً عدا أخـوين لأم من البـوخليـل ذهبـا في منتصف القرن الثامن عشر الى الجامع الازهر بمصـر هما الشيـخ ابـراهيم والشيـخ اسماعيل ولكل منهما ذريته: البو ابراهيم والبو اسـماعيـل أعـرف ان لبعض الـرحبيين من سكان دير الزور محاولات أدبية وتاريخية وفقهية مخطوطة[4].

دير حنظلة بناحية رحبة مالك بن طوق

هو حنظلة بن أبي عفراء الطائي من أهل الحيرة، نسك في القرن السادس للميلاد، في عهد ملكها المنذر بن ماء السماء، فارق بلاد قومه ونزل الجزيرة الفراتية مع النصـارى حتى فقـه في دينهم، وبنى ديـراً بالقـرب من شاطىء الفـرات بين الدالية والبهنسة أسفل من رحبة مالك بن طوق.

قال أبـو الفـرج الاصبهـاني: ومـوضعـه حسن لما فيـه من جنينات. رهبانه وأشجـارهم، ومـا يلبسـه الربيع من الرياض. نزل به الامير العباسي عبد الله بن الخليفة محمد الامين، فاستطابه وقال فيه أبياتاً روتها كتب الادب منها:

ألا يا ديـر حنظـلة المـفـدى   لقـد أورثـتـني سقـماً وكـد

---

٤ ـ وهم جعفر الويس ومحمد السلمان (شاعر ومدرس) ورشيد الرحبي وعبد الجبار الرحبي وعبد المنعم الرحبي والمدرس حسن حسني ملاحساني واسماعيل حسني. الأخيران من البوخليل.

أزف من الـفـرات الـيـك دنـا　　　واجـعـل حولـه الـورد المبـدي
وابـدأ بالـصبـوح أمـام صبحي　　　ومـن ينـشـط لها فهـو المـفـدّى

وروى الخالدي فيه لغيره شعراً منه :

يا ديـر حنظلة المهيـج لي الهـوى　　　هل تستطيـع صلاح قلب العـاشق

بئر جمر

بئـر عميقـة في وسط قلعة الرحبة، شاع اسمها منذ القديم في منطقة الميادين دون أن يعرف ماذا يعني اسم (جمر) هذا ويضرب المثل ببئر جمر في المنطقة للحفرة العميقة.

خزف الرحبة :

كانت مع المدن الفراتية الرقة والرصافة وبالس قد اشتهرت بخزفها. وكان أهـالي الميـاذين ينقبـون في آثـارها ويعثرون على آنية خزفية ملونة كانوا يهربونها في العهد العثماني الى حلب ومنها تصدر الى متاحف أوربة وأميركا.

الرحبة في عهد المملكة العثمانية :

كانت دولة المماليك قد قامت في مصر والشام على انقاض المملكة الايوبية السنـة ٦٤٨هـ، ١٢٥٠م وكـانت اكتسبت شهرة بانتصارها على التتار، فصدتهم عن سورية ومصر. وكانوا قد ملأوا افئدة العالم رعباً لما ارتكبوه من تقتيل وتدمير.

وكـانت دولـة المـماليـك قد امتـدت من جبال طوروس الى آخر حدود مصر وشـملت سوريـة والحجـاز والجـزيـرة الفـراتيـة وكيليكـا، وامتدت في الشرق على الفـرات حتى أطـراف عانـة، وكـانت الـرحبـة مركـز نيـابـة أي ولاية من ولايات دولتهم، بالنظر لأهميتها على الحدود الشرقية في مواجهة مملكة التتار.

وكان السلطان قنصوه الغوري (٩٠٦، ٩٢٢هـ ـ ١٥٠٣ ـ ١٥١٦م) اخر سلاطينهم بسورية.

وكانت هذه الدولة تجاور العثمانيين في آسيا الصغرى. ولما أديل من سلاطين المماليك لسلاطين العثمانيين بعد التقاء الجيش المملوكي بقيادة السلطان قنصوه الغوري، والجيش العثماني بقيادة السلطان سليم في مرج دابق شمال مدينة حلب صباح يوم الاحد ٢٥ رجب ٩٢٢هـ الموافق ٢٤ آب ١٩١٦م وانتصار السلطان سليم، فتح هذا النصر أمام العثمانيين أبواب سورية ومصر والحجاز. فتأسست الدولة العثمانية في سورية السنة ٩٢٣هـ. ١٥١٧م.

أما العراق العربي فما دخل نهائياً في حكم العثمانيين الا في عهد السلطان سليمان الأول القانوني في السنة ١٥٣٤م. كانت السلطنة العثمانية قد وصلت الى أوج اتساعها وقمة مجدها في عهده (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م) وكان قد دخل مدينة تبر يز السنة ١٥٣٣م.

كان السلطان سليم قد قسم سورية الى ثلاث أيالات أو ولايات، هي حلب في الشمال وتشمل وادي الفرات ودمشق في الجنوب وتشمل بعض الشواطىء وطرابلس. وفي القرن الثامن عشر قسمت سورية الى خمس باشويات هي الشام وصيدا وفلسطين وطرابلس وحلب، وكانت حلب تشمل سبعة سناجق ويعني السنجق لواء.

كانت الدولة العثمانية في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، وأوائل القرن الحادي عشر الهجري تقسم الى ٣٢ ايالة، (١٤) منها كانت عربية. وكانت بعض المدن العربية تتبع ايالات غير عربية. ومن الايالات العربية: ايالة حلب، وتضم سبعة الوية، منها لواءان فراتيان وهما لواء بالس (مسكنة) ولواء منبج. وإيالة الرقة أو الرها. كانتا ايالة واحدة وتتبعها ستة ألوية هي: لواء الرقة، لواء الجماسة، لواء بيره جك لواء دير رهبة أي لواء دير الزور، لواء ربيعة، لواء سروج. هذه التقسيمات الادارية العثمانية الاولى في وادي الفرات.

وفي سنة ١٢٨٥هـ - ١٨٦٨ جعلت دير الزور سنجقاً تضم أربعة أقضية هي قضاء رأس العين وقضاء العشاري(*) وقضاء أبو كمال وقضاء عربان، وهي قرية عجاجة اليوم. ولقد أراد العثمانيون احياء اسم عربان القديمة قاعدة الخابور كما احيوا اسم لشهرة كل منها. واضافوا اسم الدير الى اسم الرحبة ويكتبونها الرهبة احياء لاسم الرحبة القديمة. فكان اسمها دير الرحبة، واختاروا العشارة وهي في منطقة الرحبة لوجود بيوت فيها، فلم تكن المياذين قد تكونت أو كان فيها بيوت قليلة من بيوت العشارة. حيث لا يزال السكان في القلعة القديمة معتصمين فيها بسبب فقدان الأمن.

وكان العثمانيون منذ أن استولوا على وادي الفرات والعراق العربي في الربع الثاني من القرن السادس عشر الميلادي قد قدروا موقع قلعة الرحبة وأهميتها في حماية طريق وادي الفرات، ولوجود سكان فيها، فعينوا لها حراساً مسؤولين من سكانها براتب، وكان هذا التعيين بناء على قرار يصدره السلطان، وقد رأيت بيد بعض أبناء المياذين ممن أجدادهم في القلعة نماذج من هذه القرارات وصورتها. وقد بقيت القلعة مأهولة الى منتصف القرن التاسع عشر، ولما ضاقت بسكانها وصعب عليها تأمين شربها، واستتب الأمن، ابتدأ سكانها يهجرونها على دفعات، واكثر ما كانت الهجرة بعد التشكيلات الادارية الثانية في السنة ١٨٦٨م، وتأسيس قضاء العشارة، شرع قسم من سكان الرحبة بالهجرة الى قرية العشارة مركز الناحية المحدثة. والتي تقع شرقي موقع الرحبة على بعد عشرين كيلومتراً. وتحولت الهجرة الى موقع الرحبة القديمة لقربها من القلعة ولكي يستعين اللاجئون بآجر المدينة القديمة يستخرجون من انقاضها ومن سورها في بناء بيوتهم. وليكونوا على

---

٥ - وكانت العشائر ناحية في سنة ١٨٥٤ بقيت كذلك مدة ربع قرن. ثم سمى القضاء باسم قضاء المياذين مع بقاء المركز في العشارة، حتى اتسع عمران المياذين فنقل المركز إليها.

نهر الفرات لتأمين شربهم وسقاية ماشيتهم . فلقد خربت الترعة القديمة التي كانت تتفرع من نهر سعيد الذي كان يخرج من نهر الفرات . وخرب نهر سعيد هذا، فصار شرابها من صراة من الفرات ثم من موج على الفرات ينقل الماء بالقرب .

وكانت مآذن شاهقة قد بقيت في الرحبة القديمة الى جانب انقاض المدينة ، وكانت العربان تسمي المكان المواذين أي المآذن ، سمى المكان بابرز ما فيه ، ثم قلبوا الواو ياء فصار اسم المكان المياذين ، اطلق على البلدة المستحدثة . وجميع أهالي المنطقة والديريون ما زالوا ينطقون اسمها بالذال وليس بالدال . ولخبرة سكان القلعة منذ القديم بالبناء ولتحضرهم النسبي ، توسعوا في بناء البيوت على انقاض الرحبة القديمة ، لتستوعب هذه البيوت النازحين من القلعة ، ولم يبق فيها أحد ، ومنذ العهد السوري ، صار موظفو دوائر الحكومة وخاصة الذين من غير أبناء الفرات يكتبون اسم البلدة بالدال ، كما ينطقونها لأنهم يستثقلون لفظ حرف الذال ، فأبدلوه بـ(دال) وشاعت التسمية ، وقبلها أهل المنطقة وحسبوها تعني ميادين الخيل ، وزعموا انها سميت ميادين لوجود ميادين قديمة للخيل أو ميادين قتال . ويجهل الأهلون أن الميادين الحالية انها تقوم على انقاض الرحبة القديمة بالرغم من مشاهدتهم الانقاض القديمة التي استعملوها في بناء بيوتهم ، وبالرغم من أنهم كلما حفروا أساساً لبناء جديد يقعون على جدران بيوت قديمة . ويعتقدون أن رحبة مالك بن طوق هي القلعة القديمة . ويرون في الانقاض التي يبنون فوقها بيوتهم مجرد انقاض أبنية قديمة . ويقول بعضهم أن الرحبة كانت على ضفة الفرات الشرقية . وهم يخلطون بين نهر الفرات ونهر سعيد الاموي . ولما جعلت دير الزور سنجقاً مرتبطاً بالاستانة مباشرة كمتصرفية القدس ومتصرفية بنغازي ، ونقل مركز القضاء في قرية العشارة الى بلدة المياذين لاتساع عمرانها ولتوسطها بين قشلة أبو كمال ودير الزور .

روت لي السيدة فرحة وقاع ميادينية من البوخليل تسكن دير الزور أن

رؤساء العشائر العكيدات في المنطقة وكانوا رحلاً اقنعوا سكان القلعة بالنزول الى ضفة النهر واتفقوا على اختيار موقع انقاض الرحبة، بذلك افادت العكيدات من خبرة الكلعيين الحضارية، وتقوّت بهم. مع أسباب أخرى. واخذت المياذين تنمو. وتقلصت العشارة وما زالت متأخرة. وكانت الرحبة قد احتلت مركز قرقيساء وعادت الميادين الى شأنها القديم محطة للقوافل بين حلب وبغداد فكانت احدى محطات الطريق البرية بين حلب بغداد وميناء نهرياً على الطريق المائية. واجتذبت اناساً من أماكن متعددة ومختلفة اتخذوها سكناً، ومارسوا فيها حرفهم، وقد بنى فيها المدعو عبد العلاوي من أبناء دير الزور خانا في الستينات من القرن التاسع عشر عرف باسمه، ومكانه بقرب مدرسة الزراعة القديمة العثمانية الى الشمال الغربي.

وكان الطريق يمر به. وبنت السلطة العثمانية في السنة ١٩٠٤ داراً للحكومة من طابق واحد على ضفة الفرات بعقود من الجص، ثم شيد الطابق الثاني السنة ١٣٣٨هـ. وأول من سكن الطابق القائمقام تركي المحمود من أبناء دير الزور في السنة ١٣٣٨هـ. وبنت السلطة العثمانية مركزاً للهاتف والبريد من طابقين بالقرب من السرايا القديمة مهجورة اليوم لتصدعها. كما بنت داراً لمسكن القائمقام (مدير المنطقة). هجرت السرايا القديمة في السنة ١٩٦٦ انتقلت الى بناء المجمع الحكومي الجديد. والى السنة ١٩٣٤ كانت المدعوة ريمة الحمادة الهجو تعيش في الميادين وهي من سكان القلعة[٦]. وبنت الحكومة العثمانية مدرسة زراعية في العام ١٩١٦ ما تزال قائمة بالقرب من السرايا القديمة. وتستعمل اليوم مدرسة ابتدائية. وكان في قصبة الميادين مدرسة واحدة ولم تكن نفوس القصبة تزيد على أربعة آلاف.

---

٦ ـ كانت تقص على المتصلين بها من سكان الميادين أخبار سكان القلعة. وكانت قوافل العكيل تبيعهم الكساء وحاجات أخرى مقابل القمح الذي يزرعونه في سهل الرحبة.

وقـد مر بالرحبة رحالون وعلماء عرب وأجانب، وذكروها في كتاباتهم . جاء اليهـا المهنـدس الـزراعي السـوري وصفي زكـريا في العام ١٩١٦ بحكم وظيفته آنـذاك . مكـافح جراد بمديرية الزراعة . ذكرها في مذكراته عن وادي الفرات عام ١٩١٦ والتي نشرها مؤلف هذه الدراسة سنة ١٩٦٨ ، قال في الصفحة ٥٢ :

«اما في الميادين التي زرتها بحكم عملي ومكثت فيها عدة أيام ، فقد صعدت الى قلعـة هنـاك اسمهـا (الـرحبة) رابضة فوق تل شاهق مخروطي صعب الصعود والنزول جداً . احجارها ضخمة ترابية اللون . شامخة صامدة على كل الدهور ولم أعثر فيها على كتابة أو نقش ، أستدل بها على اسم بانيها وتاريخ بنائها .

وفي حضيض هذه القلعـة قبـور قديمة . ومزار باسم (عين علي) رأيت نساء الميـادين يقصدنه ، ويذبحن فيه الذبائح ، ويقرأن الأدعية ، ويمرحن طول النهار ، ثـم يرجعن ، ولم أعرف أي هذا ومتى كان وكيف كان . وزرت وقتئذ قرية البصيرة ، التي عند مصب الخابور ، وقد انتقلت اليها بالسفينة من الميادين» .

تعليق : (عـين علي) ليست في حضيض قلعـة الـرحبة ، أنها تبعد عنها ستة كيلومـترات الى الشـرق والـذبـائـح التي تذبـح عندها هي نذور ، ويقصد سكان المنطقـة من اسم علي : الخليفـة الـرابع علي بن أبي طالب وقد بني في القديم على أكمـة مجاورة للعـين مسجـد ومنـرة ، وتوجد أنقاض دور . وكان هذا المكان يسمى مشهـد الـرحبـة يزوره الكثـيرون من سكـان المنطقة ، ويسبحون في العين للتبرك لنسبتها الى علي بن أبي طالب .

المزارات القديمة في الميادين :

مزارات قديمة ترى على الآكام الواقعة جنوب الميادين والممتدة من الغرب الى الشـرق ، والمـزار عبـارة عن قبـة وقبتـين بنيت على قبـور بعض الصالحين من

سكـان الـرحبـة أو بنيت لمجرد نذر، ولتكون بالقرب من عين علي يزورها السكان وخاصة في فصل الربيع ، وهي معالم المياذين ، هذه هي اسماؤ ها .

١ ـ الشيخ أنس غربي المياذين .

٢ ـ الشيخ شبلي جنوب المياذين .

٣ ـ الشيخ سريج جنوب المياذين .

٤ ـ عين علي شرقي المياذين .

ولا يزال من معـالم الـرحبـة ، بقـايـا من سورها القديم في الجبهة الشرقية ، وأنقاض في مكان (العلوة) في وسط المياذين . وأحسب أن هذه العلوة كانت مكان قصر الامارة ومكان الجامع والمآذن ، وقد جرف نهر الفرات قسماً كبيراً من المدينة في الجبهة الشمالية . وتوجد آثار أبراج غربي القلعة في سهل الرحبة .

ديــر الزور

دير الزور ـ حاضرة وادي الفرات وقلبه النابض

تحقيق اسمها ـ لمحات من تاريخها، دورها الحضاري والوطني، تقاليدها الأصيلة، صناعاتها التقليدية، فنونها الشعبية، تشكيلاتها الادارية، حاجاتها، دير الزور المدينة.

ان بلدة دير الزور عريقة في القدم، بسبب تميز موقعها الجغرافي على الفرات الأعلى. ومثل موقعها، لم يكن يخلو من السكان والعمران. كانت آثارها القديمة تختفي تحت الـديـر العتيق، التـل الاصطناعي الذي كان يتألف من أنقاض مدن الـواحـدة فوق الأخـرى. بنيت كل واحـدة في عهـد بعيـد عن الأخـرى. بسبب الحروب التي تعاقبت على المنطقة. كانت تؤدي الى تقويض المدن. وبسبب تميز الموقع، سرعان ما يعمر ويأهل بالسكان، وأول ما يتميز به موقعها، انه كان معبراً صالحاً على الفرات.

ولقد رفع محافظ دير الزور بصفته رئيساً لبلدية دير الزور بالاضافة لوظيفته ، تل الدير العتيق سنة ١٩٦٩ . وكان من أبرز وأهم معالم دير الزور التاريخية .

وبسبب عراقة قدم دير الزور، وتعاقب الدول على وادي الفرات ، وما نزل به من خراب وقتل سكانه ، لم تحتفظ دير الزور باسم واحد ، وانما تبدل اسمها كثيراً وغابت عنا اسماء قديمة لها بغياب المصادر. فلا بد من أن توضع لمكانها أسماء مختلفة . اختلف في تعيين موقعها وانطباق بعض الأسماء القديمة التي حفظتها المصادر عليها .

١ ـ ذكر الجغرافي اليوناني بطليموس في القرن الثاني الميلادي أسماء عدة مدن على الفرات ، مال ريتر الى تعيين (برته) موضعاً لدير الزور، وقال آخر أنها (ادارة) ويرجح مولر وفليشر، وهو تزفلد أنها كانت (جديرته) واللفظة آرامية ، تعني حظيرة ، مكان التجاء الغنم .

٢ ـ يوافق موقع دير الزور اسم (دير الرمان) الذي ورد في (معجم البلدان) لياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ للهجرة (١٢٢٨)م . وقد روى المعمرون الديريون أنه كان بدير الزور رمان ممتاز انقطع بسبب توالي الخراب الذي كان البدو يلحقونه بالبلدة .

٣ ـ لما انقطع الرمان بقيت لفظة (الدير) مجردة ولعله انشيء فوق انقاض المدينة القديمة ، أفاد مؤسسو هذا الدير من الأنقاض ومن حسن المواقع .

وكانت توجد عدة أديرة على ضفاف الفرات وروافده الخابور والبليخ ، قد درست بسبب الحروب . فلم يبق غير ديرنا ، الذي اجتذب اناساً، شردوا من ديارهم ، فبنوا حوله بيوتاً لهم ، وأخذ عدد البيوت يزداد مع الزمن ومع توالي القادمين الجدد .

ولما كان ديرنا وحده في المنطقة ، لم تكن ثمة حاجة الى تمييزه بالحاق لفظة أخرى به . ولفظة (الدير) مجردة كانت شائعة عند القبائل المجاورة ، فهم يقولون

انهم ذاهبون الى الدير، أو قادمون من الدير، ويعنون دير الزور الحالي، والنسبة الى الدير هي ديري، جمعها ديريون، ولا يقال دير الزوري.

٤ ـ وقيل كان اسم ديرنا (دير بصير). وقيل أن هذا الدير كان في بلدة البصيرة، عند مصب الخابور في الفرات. وروى أن اسم ديرنا في العهد الأموي هو (دير الحتليف) وان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان اجتاز عنده الفرات في تشرين الأول سنة ٦٩١م بطريقه من دمشق الى الجزيرة الفراتية لمحاربة مصعب بن الزبير أخي عبد الله بن الزبير الذي بويع له بالخلافة في الحجاز.

٥ ـ لما شكّل العثمانيون تشكيلاتهم الإدارية في القرن العاشر الهجري، ميزوا ديرنا بأن أضافوا الى الاسم اسم الرحبة ـ القلعة القديمة الواقعة جنوبي بلدة الميادين، وكانت مأهولة بالسكان. وفيها حامية عثمانية لقرب الدير منها ولشهرتها القديمة. فصار اسم ديرنا «دير الرحبة» وتكتب في المواسم العثمانية بالهاء بدلا من الحاء. غير أن هذه التسمية لم تشع، لتضاؤل مكانة الرحبة، ونمو عمران ديرنا. وبقي اسم الدير مجرداً هو الشائع في المنطقة.

٦ ـ وكانت ديرنا في القرن التاسع عشر تعرف في حوران ومنطقة حمص وحماه، ولدى القبائل السورية باسم «دير الشُعّار» بضم الشين وتشديد العين وفتحها. والشعار تعني الشعراء. وهذه صيغة جمع محلية. ومنشأ التسمية هو أن شعراء عاميين من أبناء ديرنا كانوا يقصدون شيوخ العشائر يمدحونهم بشعرهم. ولكي تميز العشائر بلد هؤلاء الشعراء، ألحقوا لفظة الشعراء وشاعت سنين عديدة. وهنا يؤيد أن اسم ديرنا كان مجرد اسم (الدير) وفي أبناء دير الزور استعداد فطري قديم لنظم الشعر بلغتهم ولهجتهم العربية العامة. ومن فرق الزور فرقة تدعى (الشعار). في حين لا يقتصر قول الشعر على هذه الفرقة، وانما هو عام في أبناء دير الزور رجالاً ونساء قديماً وحديثاً. وأخذوا ينظمون الشعر باللغة العربية الفصحى. ونبغ في دير الزور الشاعر محمد الفراتي، شاعر الفرات من

شعـراء سوريـة المعـدودين. وفخـر ديـر الزور، ورائد أدبها ان صار لها أدب. فلم تسبقه ارهاصات تشير الى تكوينه في القريب.

٧ ـ سماهـا بعض الـرحـالـين الأوروبيـين «دير العصافير» لكثرة العصافير فيهـا، وبخـاصـة البلابل. وهذا الاسم قديم سمعه الراحلون من السكان. وفي السنـين الأخـيرة أطلقت عليهـا عدة أسـماء: عروس الفرات، والمدينة الخامسة، وبلدة الخصب، والزمردة الخضراء.

٨ ـ وعنـدمـا شكّل العثمانيون التشكيلات الادارية الثانية في دير الزور سنة ١٨٦٤، جعلوا من الدير مركز سنجق أي لواء، ولم يروا بدأً من تمييز الدير باضافة اسم اليها، فكان لفظة الزور. وهذه اللفظة تحتاج الى تحقيق لأن مفهومها الشائع خطأ.

١ ـ يذهب الظن بالبعض أنهـا من زأرة الأسـد، بمعنى الأجمة ذات الماء والقصب. أو من زئير الأسد، لوجود أسود في الماضي في هذ المكان.

٢ ـ ويحسب البعض أن لفظة الزور متأتية من لفظة الزيارة، لزيارة السكان للدير.

٣ ـ ويوهم آخرون بقولهم ان لفظة الزور تركية، تعني الصعوبة.

٤ ـ وفي عرف العـامـة يعني الـزور الغـابة، كزور شمر وزور البو حمد وزور الغانم، وهي أزوار واقعة على ضفة الفرات الغربية على طريق حلب دير الزور.

٥ ـ ويتبـادر الى الـذهن أن لفظـة الزور، متأتية من فعل زور زورا وأزورارا وزورة، بمعنى مال وأعوج، لازورار الفرات عند موضع دير الزور.

٦ ـ ينطلق البعض من غير أبنـاء ديـر الـزور حرف الـزاي في لفظـة الـزور بضمهـا وأشبـاعها فتصبح بمعنى الكذب والباطل. وبتجنّى البعض على المنطقة فيقول: انها سميت بالزور لشيوع شهادة الزور في أهلها. ويتجنى آخرون بقولهم انها سمي دير الزور بمعنى الدير الباطل، لاستنكارهم لذلك الدير.

٨٧ ـ جاء في كتـاب (الـبراهـين الحسيـة على تقارض السريانية والعربية)

تأليف البطريرك اغناطيوس يعقوب الثالث. جونية. لبنان ١٩٦٩ ص ٣١ : دير الزور: أصلها دير زور أي الدير الصغير، وكان بالقرب منه الدير الكبير.

٨ ـ والزور بفتح الزاي وتسكين الواو، مصدر «وهو أعلى وسط الصدر» فرس عريض الزور، أي عريض الصدر، ويريد السكان في القديم من لفظة الزور: أعلى ضفة النهر، أي صدره، يقابل ذلك عندهم تعبير (بطن النهر) لمجرى النهر الذي تحول عنه الماء. ويطلقون لفظة الزور على ضفة النهر، سواء كان عليها شجر، أو كانت خالية من الشجر. عندما يكون الانسان الفراتي في البادية، ويقدم منها نحو النهر، يقول لمن يسأله عن وجهته انه ذاهب الى الزور، وهذه اللفظة أطلقتها القبائل العربية التي قدمت من الجزيرة العربية الى الفرات منذ عدة قرون على القسم السوري من نهر الفرات، ما بين مسكنة «بالس القديمة» في الشمال، الى بلدة عانة على الفرات في الجنوب، وما زالت هذه التسمية شائعة عند سكان وادي الفرات فهي بمثابة مصطلح جغرافي قديم.

ولما جاء الاتراك الى وادي الفرات، كانت اللفظة شائعة، وعندما شكلوا تنظيماتهم الادارية، جعلوا المنطقة سنجقاً سموه (سنجق الزور) ثم متصرفية الزور، ثم لواء الزور، جعلوا مركزه دير الزور، التي كان اسمها «الدير» وكانت مركز التجارة بين العراق وسورية، ونقطة اجتياز النهر بين الشامية والجزيرة. ومتصرفية ممتازة.

جاء وصف الزور في كتاب (جهان نما) لكاتب حلبي مطبوع في استنبول سنة ١١٤٥هـ بالتركية، وفي قاموس الأعلام لشمس الدين سامي بالتركية مطبوع في استنبول سنة ١٣١١ رومية وفي مجلة صوت الفرات المجلد الأول سنة ١٩٥٨.

وتنسب بعض الحاصلات والصناعات المحلية الى الزور. نقول قمح زوري وبساط زوري. وبلاد الزور.

لمحات من تاريخ المدينة

مرت دير الزور بعدة عهود هي : عهد ما قبل التاريخ العباسي ، لا نعلم من أمره الا ما ورد من أسماء مدن قديمة ، قيل ان بعضها ينطبق على مكان دير الزور وغير آثار أبنية قديمة من الآجر وجدت عندما حفرت أساسات بناية فندق رغدان وأساسات مستشفى الدكتور عبود ، يعود تاريخها الى العهد البيزنطي .

العهد العباسي

وهو عهد استفاضة العمران والازدهار الزراعي ، بفضل الأمن والعناية بالري بشق الجداول والترع من الفرات والخابور . وبفضل «طريق الفرات» التجاري والهام الذي كان يمر فيها . وفي هذا العهد كان اسم المدينة «دير الرمان» . وكانت ترعة سعيد ، وهو سعيد الخير أحد الأمراء الأمويين تمرّ فيها . وكانت المدينة من أعمال رحبة مالك بن طوق . قاعدة طريق الفرات ، وأكبر مدينة على الفرات على العهد العباسي ، بلدة الميادين حالياً . وليست القلعة كما هو شائع خطأ .

العهد العثماني الأول

يمتد من تاريخ استيلاء العثمانيين على سورية سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م الى سنة ١٢٨٠ هـ - ١٨٦٤م ، وجدها العثمانيون بلدة صغيرة على الفرات الأعلى باسم «الدير» . فأختاروها مركزاً لموظفيهم ووضعوا فيها بعض شيوخ العشائر لحماية الطريق ، وأخذ ابناء العشائر يفدون عليها للاتصال برجال السلطة ولشراء بعض الحاجات ولوجود معبر عندها أو مخاضة على الفرات ، كانت محطة للمسافرين بين الشامية والجزيرة الفراتية ، جاء وصفها في هذه الحقبة في كتب الرواد الذين زاروها منذ سنة ١٥٧٤ الى سنة ١٩٢٤ . وقد وصفها بعض الكتاب المعاصرين .

كانت بيوتها متلاصقة فوق تل اصطناعي ، وكان سكانها أقوياء البنية ، وأخلاقهم مهذبة تستأنس بالغريب ، وكانت محصولاتهم الحنطة والشعير والقطن والذرة ، وكانت بساتينهم حافلة بأنواع الفواكه . وفيها شجر النخيل والليمون والبرتقال ، وكان شيوخها يلعبون الشطرنج . وكان عليها سور . تليه ترعة من الجبهة الجنوبية ، تخرج من الفرات . وكنا نسمي مكان تلك الترعة ، بشارع النهر وعلى طرفه الصاغة .

وقد تعرضت البلدة مراراً لهجمات البدو طمعاً بنهبها ، وقد تأثرت كثيراً بهذه الهجمات ، من ذلك هجمات الوهابيين في عام ١٨٠٧ ، نهبت وخربت مراراً من البدو . لأن الدولة العثمانية لم تكن قد اخضعتهم ، كانت مشغولة بحروبها وفساد سلاطينها وجهازها . ولما أتيح للديريين ان يقتنوا البنادق ، وكانت بفتيل وصوانة ، أحسنوا الدفاع عن مدينتهم . وخافتهم العشائر ، كانوا مقاتلين ماهرين وشجعاناً .

هذا الاضطراب جعل الدير تنكمش داخل سورها ، بلا ذكر ، مشغولة برد هجمات البدو عليها ، وافادت العزلة الديرين ، فاعتمدوا على أنفسهم في صنع كثير من حاجاتهم وحاجات العمران المجاورين لهم ، من ذلك الفؤوس وسنان الرماح والسيوف وزراعة القطن وغزله وحياكته ، وصنع البارود ، ونسج البسط والعباءات والثياب القطنية وكانت الدير تابعة بادارتها الى ولاية أورفا . ولما استتب الأمن نسبياً ، اخذت القوافل (الساقات) التجارية تمر بالمنطقة ، وكانت دير الزور محطة لها ، تمدها بالزاد والعلف والحاجات والراحة ، وانشئت خانات فيها ، وأخذ الطريق بين حلب وبغداد ينعشها كما أخذت تخرج من عزلتها . ويطلع ابناؤ ها للتجارة .

ان الغارات التي كانت تستهدف لها الدير من العربان ، جعلت من الديريين رماة ماهرين ويقظين ساهرين على حماية بلدهم . والى سنة ١٩٢٠ ، كانت دير الزور هدفاً لغارات العشائر عليها لنهبها ، حاولت عشيرة أبو سرايا ان تدخل دير الزور لنهبها في سنة ١٩٢٠ ، ولكن الديريين قاتلوها وردوها . وفي

فترات الفوضى، كانت المدينة تؤلف حكومة محلية لها جيش لحماية المدينة وحفظ الأمن فيها. كانت حكومة الحاج فاضل بن الشيخ عبود المنتخبة من الديريين وشيوخ العشائر، حكومة بمعنى الكلمة، حفظت الأمن وحمت المدينة. وهي التي ألحقت لواء الفرات بالدولة السورية ١٩٢١، وقد نفاه الفرنسيون الى جسر الشغور عدة سنوات، وعاد ليمثل دير الزو ويرأس البلدة.

كان عدد نفوس البلدة نحو تسعة آلاف في بداية القرن العشرين. وكان لقسم كبير من الديريين رحلة الى حوران في القرن التاسع عشر في أول الربيع، يعملون صناعاً وباعة عمالا وتجاراً، ثم يعودون في أول الخريف، ورحلة الى الجزيرة الفراتية للعمل والتجارة، وكانوا يذهبون الى حلب وبغداد وماردين وأورفة للتجارة.

ولما استولى القائد المصري ابراهيم باشا بن محمد علي والي مصر على سورية ١٨٣١م. دخلت الدير في حكم المصريين، ووصلت الجنود المصرية الى الدير والرقة والرحبة، بعد انتصار الجيش المصري على العثمانيين في موقعة نزيب سنة ١٨٣٩، ونزيب قرية صغيرة على ضفة الفرات الغربية بالقرب من بلدة براجيك في الحدود التركية ويدعي القائد المصري الذي جاء الى الدير «قفطان» وعين لها حاكماً يدعى «معجون آغا» وربطت الدير بسنجق حماة وظلت تحت الحكم المصري الى عام ١٢٥٥هـ. ثم عاد الحكم العثماني الى سورية، وحصل الديريون على بنادق من سلاح ابراهيم باشا، سميت الابراهيميات، احتفظوا بها واستعملوها، للدفاع عن أنفسهم وعن بلدتهم ضد هجمات البدو والعشائر الطامعة دوما بنهب البلدة.

العهد العثماني الثاني

يمتد من سنة ١٨٦٤ الى سنة ١٩١٨ وهي سنة انسحاب العثمانيين من الفرات وسورية. سيرت الحكومة العثمانية حملة عسكرية بقيادة القائد عمر باشا

الكـرواتي ، خرجت من حلب في ٢ كانـون الثـاني ١٨٥٨ ، تضم ٥٠٠ جندياً مع عتـادهـا لاخضاع العشائر في منطقة الفرات . والتوجه الى بغداد. وصلت الحملة الى ديـر الـزور، وجـرى بين جنـودهـا وبين الديريين الذين قتلوا ١٦ جندياً ، وتم الصلح بين الطـرفـين، واكتفى القائد بأن جند ١٦ رجلاً من الديريين ليحلوا محل الجنـود القتلى . وبلغت اخبـار الفـوضى والى حلب ثريـا باشـا ، فأرسـل حملة عسكـريـة الى ديـر الـزور. وبعد أن استقرت الحملة جاء ثريا باشا الى دير الزور وأعلن تأسيس الحكـومـة ، وجعل دير الزور مركز قائمقامية «منطقة» عهد بشؤ ونها الى عمـر باشـا قائمقـام عسكـرية حلب ، وقفل راجعاً الى حلب ، والحقت الدير بحلب . وعـين خليـل بك ثاقب الأورفـلي سنة ١٨٦٥ قائمقاماً لدير الزور. فأنشأ داراً للحكـومـة . هي السـرايا القديمة ، وثكنة عسكرية ، ومستشفى ، وباشر ببناء سوق الميري ، واستقـدم انـاسـاً من أورفـة من أصحاب المهن والبساتين والكتابة للعمل في دير الزور. ما زال أحفادهم فيها.

وبعـد نصف ساعـة ، جعلت الـدير سنجقـاً (متصـرفيـة) من تشكيـلات حلب . وفي سنة ١٨٦٨م فك ارتباطها بحلب وربطت بالأستانة . ومنح متصرفها صلاحيات واسعة ، وصار لها أقضية ونواحي تمتد بين عانة ومسكنة ، وتضم الجزيرة الفراتية في الشمال ، وتمتد حتى حدود حماة في الغرب . تقطن فيها عشائر عنزة وشمر والجبور، وطي ، والبو شعبان ، وعقيدات ، وبقارة وموالي وحديديون ولهيب وكيار، وبوخميس ، وبنو سعد وغيرهم . وقد توطد الأمن ، وخاصة بعهد المتصرف أرسلان باشـا . جاء متصـرفـون ، اهتمـوا بتنظيم وتخطيـط البلدة ، فانشأوا المدارس وشقوا الشوارع ، وبنوا الأبنية ، وأحدثوا حديقة عامة في البلدة ، وأصلحوا نظام الضرائب نسبياً ، وبنيت عدة مسـاجـد ، وبنـوا جسـراً من الحجـر على الفـرات في المـدينة هوالمسمى اليـوم الجسـر الصغـير ، وآخر من السفن ، وشجعوا التشجير ، وأدخلوا الزي الأوروبي في اللباس وان لم يعمموه ولم يؤ كده .

كانت مدة ذلك العهد ٥٤ سنة ، تعاقب فيها ٢٩ حاكماً أو متصرفاً ولم تكن

ظروف الدولة العثمانية ولا ظروف دير الزور مواتية. لكي تخطو دير الزور اكثر مما خطته. تلف الجسر الخشبي سنة ١٩١٦ وازالت البلدية الحديقة العامة وكان ينبغي بقاؤها.

ان تغير الحكام المتواصل، يضاف الى ذلك قلة الامكانات واضطراب الأحوال في الدولة العثمانية حرمت دير الزور من نشاط الحكام الصالحين، وجمد الدير عمرانياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً. وقد ساءت فيها الحالة مدة الحرب العالمية الأولى بما جند من أبنائها، وبسبب المجاعة والأمراض والمصادرات وتوقف التجارة وبوار الزراعة وبعد المدينة وعدم وجود سكة حديدية فيها يربطها بالداخل السوري.

ان دير الزور مدينة بحضارتها للحكام العثمانيين على علاتهم، فقد تركوا عليها آثار بصماتهم.

ان النتيجة التي نخرج بها من القاء نظرة نافذة على ذلك العهد الذي مر بسرعة هي قابلية دير الزور للتحضر السريع عندما تتهيأ لها الأسباب، ويؤخذ بيدها بالرغم من بداوتها، أخذاً جدياً مقروناً بالعمل الهادف والمدروس.

فترة الفلت ـ أو الفوضى الأولى

من ٦ تشرين الثاني ١٩١٨، وهو انسحاب العثمانيين من دير الزور الى ١١ كانون الثاني ١٩١٩ كانت المدينة بلا حكومة، وتسلح السكان بالبنادق التي أبقاها الأتراك، فحافظوا على كيانهم تجاه بعضهم بعض. وتجاه العشائر المحيطة بهم. وفي هذه الفترة، تأسست حكومة أهلية مؤقتة برئاسة حاج فاضل العبود، الذي كان رئيساً لبلدية دير الزور. وفي كانون الأول ١٩١٨ قدم مرعي باشا الملاح من حلب موفداً من الحكومة الفيصلية ـ العربية، متصرفاً للواء دير الزور، فشكل دوائر الحكومة، وعين قوام مقام للأقضية، وكان النفوذ في المدينة لزعماء أنحاء البلدة. وفي ١١ كانون الثاني ١٩١٩، دخلت قوة بريطانية دير الزور، عن طريق

الحدود العراقية، وتسلمت ادارة لواء دير الزور بناء على كتاب شكري باشا الأيوبي حاكم حلب بعهد الحكومة العربية استناداً الى اتفاقية بين الملك فيصل وبريطانيا.

الفترة البريطانية

من ١١/ ١/ ١٩١٩ الى ٢١/ ١٢/ ١٩١٩، عنيت السلطة البريطانية بالأمن وبنظافة البلدة واختصرت الجهاز الحكومي وعنيت بالمدرسة الصناعية التي تأسست في العهد العثماني. وأنشأت مدرسة ابتدائية، أخذت تعلم اللغات الانكليزية. وكان الطبيب الأمير رئيف أبي اللمع اللبناني المعروف بدير الزور منذ العهد الفيصلي. وكان فاضل العبود رئيساً للبلدية. وسعى الديريون للتخلص من الحكم البريطاني، وكتبوا برغبتهم الى الحكومة العربية بدمشق، وكان الضباط العراقيون من حزب العهد العراقي بدمشق يرغبون باحتلال دير الزور، وجعلها قاعدة لتحرير العراق من الاحتلال البريطاني فعينوا رمضان الشلاش حاكماً للرقة. ليكون ذلك خطوة لتحرير دير الزور، جاء الضابط رمضان الشلاش. واحتل دير الزور بمساعدة أبنائها، وعشيرته ابو سرايا، وانسحبت القوة البريطانية في ٢٧/ ١٢/ ١٩١٩ الى الحدود العراقية، تسلم رمضان الشلاش ادارة دير الزور بصفته حاكماً عسكرياً، وكانت سلطته اسمية، والنفوذ الحقيقي لوجوه البلدة. وما كانوا راضين عن تصرفاته. فأخرجوه من البلدة بعد شهرين. وخلفه مولود مخلص العراقي ممثلاً للحكومة العربية. جاء مع عدد من الضباط العراقيين في ١٧/ كانون الثاني ١٩٢٠. وفي ٣/ شباط/ ١٩٢٠، جاء مظهر بك في عهد الاحتلال البريطاني مرتبطاً بحلب. وتقررت حدود اللواء بعد المفاوضة مع السلطة البريطانية بواسطة ومرابطة الديريين والعشائر الفراتية في بلدة المياذين نحواً من شهر. ولهذه المرابطة أهمية كبيرة وهي حدث هام في تاريخ دير الزور ومنطقة الفرات بالنسبة لأبناء دير الزور في تلك الأوقات، ولم تثنهم قوة بريطانيا العظمى.

اشترك الحاج فاضل العبود وشيوخ العقيدات وشيخ البقارة وشيوخ عشائر فراتية أخرى في حفل تتويج الملك فيصل على سورية بدمشق . وقد استقبل الحاج فاضل بحرارة من الملك فيصل .

كانت فترة الحكم الفيصلي أو العربي في دير الزور امتداداً لفترة الفلت او الفوضى الأولى المذكورة . وفي أيار / ١٩٢٠ / . حضر من دمشق مصطفى بك القنواتي متصرفاً الى ٩/ تشرين الأول/ ١٩٢٠ . وكان آخر حاكم للفترة العربية بدير الزور.

عهد الانتداب الفرنسي

من ١٠ / تشرين الأول/ ١٩٢٠ الى ١٧ / نيسان/ ١٩٤٦ ، كان الحاج فاضل العبود حاكماً ادارياً الى تاريخ ٢٣ / ١٠ / ١٩٢٠ ، وكان حكمه امتداداً للفوضى واضطراب الأمن في منطقة دير الزور بسبب الفراغ الذي تركه الحكم العربي ، وضعف الحكومة المحلية ، وهذه الحكومة الأهلية الثانية للحاج فاضل العبود ، وقد أدت خدمات كبيرة الى البلدة بالنسبة الى أهليتها وضعف امكاناتها . ووجود العشائر حولها .

كان لواء دير الزور من سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٤ أحد ألوية حكومة حلب ، وكان اللواء يتألف من أقضية أبو كمال والمياذين والرقة والحسكة والحمدي .

ولما تشكلت الوحدة السورية ١٩٢٤ ، انفك لواء دير الزور من حلب وألحق بدمشق بسعي الوطنيين من أبناء دير الزور، لتمثل النضال العربي في دمشق .

في عهد الانتداب ، تعاقب على ادارة بشؤون محافظة دير الزور خمسة عشر محافظاً ، كانوا جميعاً من صنائع المستعمر . وقد التفت الطبقة البورجوازية حولهم . تسندهم على فسادهم ويسندونها . وكان دير الزور مهملة . ومنفى للموظفين الفاسدين فعاثوا فساداً . وكانت الروح الوطنية ضعيفة جداً . ولذا لم تعن دير الزور بأمر الثورة السورية ١٩٢٥ ، باستثناء اسرة واحدة هي أسرة عياش الحاج التي

تجاوبت مع الثورة، وضحت أبنائها وأموالها ونفى المستعمر أفرادها الى جبلة أربع سنوات أغفلها من أرخوا للثورة، لأن عائلة عياش آثرت الصمت الطويل.

بقي الديريون سادرين في جمودهم الى سنة ١٩٣٦، فشاركوا بالاضراب الستيني وتظاهروا عدة مرات، وكان أروع تلك المظاهرات مظاهرة يوم ١٠/ شباط/ ١٩٣٦. يشهد بعنف الديريين اذا ما تحركوا. وكان للسيد بشير فاضل العبود دور كبير في النضال الوطني وفي مظاهرات سنة ١٩٣٦، سجن كثيراً واضطهد كثيراً.

كان لدير الزور في سنة ١٩٣٦ ثلاثة نواب في المجلس النيابي. ومن هذا التاريخ، بدأ الاهتمام بمحافظة دير الزور اهتماماً نسبياً وبخاصة بالمدارس. وكان لبلدية دير الزور رئيس ومجلس. وكانت أصوات الديريين ما تفتأ تطالب بالمدارس وبالطرق.

ومنذ سنة ١٩٣٢، أخذ الشباب الديري، وهم طليعة المحافظة، يحصلون أول مرة في تاريخ دير الزور على شهادات في الطب والحقوق والزراعة. لكن عددهم بقي ضئيلاً، لا يذكر بالنسبة لعدد سكان المحافظة ولم تكن حكومة دمشق تشرك أبناء الفرات في البعثات الى الخارج. وكان للسيد ثابت عزاوي شأن كبير في تقديم طلبات البلدة.

لم تكن في دير الزور ثانوية للذكور فكان التلاميذ يذهبون الى دمشق وحلب لاتمام تحصيلهم الثانوي وكثيراً ما طالب الديريون الحكومة لكي تحدث ثانوية للذكور.

وفي ٣٠ ايلول ١٩٣٠، فكت الحكومة المركزية قضاء الحسكة عن لواء دير الزور جاعلة منه محافظة الجزيرة، مركزها بلدة الحسكة. ثم أصبحت محافظة الحسكة.

وكان اقتصاد محافظة دير الزور يعتمد في الدرجة الأولى على تربية الماشية بشكل بدائي، وفي الدرجة الثانية على الزراعة، بشكل بدائي كذلك ـ وكان

الـربـا متفشيـاً يشكل معدل الفائدة ٥٠٪ ويقرض بعضهم المحتاجين بفائدة تزيد على مائـة بالمـائـة . ومـا زال الـربـا الفاحش متفشياً وهو آفة المنطقة وسبب تدهور اقتصادها . ارتفعت للمرابين القصور وهم وجهاء البلدة أطلقت عليها مجلة صوت الفرات اسم «بلدة الـربا» . وكـانت الأميـة متفشيـة بنسبة ٩٥٪ خاصة بالقرى . والأمراض كثيرة ، وعدد الأطباء لا يكاد يذكر، كل هذه الأسباب مع رداءة طرق المواصلات والبعد وضآلة الوعي الاجتماعي ، أخرت المحافظة عن بقية المحافظات السورية وعن الركب الحضاري .

وبـين سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٣٣ ، أنشأت الحكومة بعض الأبنية : الجسر المعلق والمستشفى ودار القضاء وأنشأت بلدية دير الزور مسلخاً صغيراً وحديقة صغيرة في حي الحميدية .

وأسس شاب ديـري هو احمـد المصطفى مطبعـة صغـيرة في سنـة ١٩٣٦ (مطبعـة الفـرات) . ظلّت الى عام ١٩٥٨ الوحيدة في المدينة ، طبعت خلال هذه المـدة ديـوان شعـر صغـير للشـاعـر محمد الفراتي (النفحات) وفي سنة ١٩٤٥ ، صدرت مجلة ثقافية أول مرة في دير الزور هي (صوت الفرات) بعد سعي طويل ، وكانت السلطة غير راغبة بوجود صحيفة ولا مجلة بدير الزور، حتى لا تساعد على نشر الثقافة والوعي فيها .

وأسس كبـار تجار ديـر الـزور (شركة الفرات للكهرباء والمشاريع العامة) في عام ١٩٣٧ ، لكنهـا لم تقم بغـير تمديـد الكهـربـاء . وهي الشـركـة الوحيدة ذات الامتيـاز في كل المحـافظـة ووادي الفرات . استبد مؤسسوها بإدارتها . فلم يشجع ذلك على تأسيس شركات بالبلدة .

وفي سنة ١٩٣٠ تأسس فرع لمصرف سورية ولبنان بدير الزور، ولم يكن فيها غيره باستثناء المصرف الزراعي الحكومي .

كانت الفـوضى تعم دوائـر الحكـومـة في المحافظة . وكان التنابذ سائداً بين سكـان المـدينـة . وفي العشـائـر وكـان مراسلو الصحف الـديـريـون يصفون هذه

الأوضاع في صحف دمشق وحلب وبيروت لخلو دير الزور من الصحافة المحلية. كانت الحكومة ترفض اعطاء ترخيص بصحيفة في دير الزور. فكان مراسلوا الصحف لسان البلدة وكانوا متطوعين.

ورخصت السلطة بتأسيس نادي أدبي بدير الزور ١٩٣٠ كان رئيسه السيد ثابت عزاوي وسرعان ما أغلقت السلطة النادي وسجنت رئيسه وقدمته الى المحكمة في حلب.

عرفت دير الزور معرض الربيع مدة عدة سنوات. توقف في سنة ١٩٤٣، وكانت المحافظة تفيد منه، ما فتئنا نطالب السلطات باعادته. لكن مطالبنا تذهب مع الريح. وقامت في دير الزور ثلاثة أندية رياضية هي نادي الأخوة ونادي الفرات ونادي غازي ما زالت عائشة بموارد ضئيلة. نادي غازي أكثرها نشاطاً تأسس سنة ١٩٤٠ يشغل مكانه الحالي بالايجار ومورده ضئيل.

وفي سنة ١٩٤١ ـ ١٩٤٣، استوزرت الحكومة السورية محمد العايش من كبار تجار دير الزور، فكان أول وزير ديري في الحكومة السورية وبعده صار من التقليد الوزاري ضم أحد أبناء دير الزور من الطبقة البورجوازية الى الوزارة. وقليلاً ما أفادت المنطقة من الوزراء الديريين، أفادوا هم من توزيرهم.

خطا التعليم خطوات في هذه الفترة، وكانت ترد دير الزور الصحف السورية والمجلات المصرية. تأسست فيها مكتبة استوردت كتب المطالعة، ولكن المدينة لم تعرف حركة أدبية، فلم ينبغ فيها الا شاعر واحد هو محمد الفراتي، دون أن يفيد منه مواطنوه، فقد أضاعوه، وخلت المدينة من صحيفة، في حين عرفت في سنة ١٩١٦ صحيفة (جول) بمعنى البادية، كانت تصدر بأربع صفحات باللغة التركية والعربية. وتطبع في دير الزور بمطبعة جلبت من حلب لمدرسة الصنائع بدير الزور توجد نسخة منها بمتحف دير الزور.

وأخذ عدد المقاهي يزداد زيادة تلفت الانظار، حتى قالوا ان في دير الزور بين كل مقهى ومقهى مقهى. فزاد في خمول أبناء دير الزور وركودهم وتبلد الحس

أي حس . وبخاصة الحس الثقافي والأدبي ، فلم تكن لهم مشاركة في أدب أو فن .
تعاقب على حكم المحافظة خلال عهد الانتداب ، أي فترة ربع قرن تسعة عشر محافظاً ، لم يكن لأحد منهم يد بيضاء عند دير الزور ولا عند المنطقة . كان سجلهم على العموم مخازي . ولهذه المهمة أرادهم المستعمر الذي كان من وراء تعيينهم ، كانوا على حد المثل الفراتي : (كأحجار مرحاض) .

عهد الاستقلال ١٧ نيسان ١٩٤٦ - ٢ شباط ١٩٥٨

تعاقب على المحافظة ١٣ محافظاً ، بمعدل محافظ كل سنة . في هذا العهد بنيت دار البلدية في سنة ١٩٤٨ بقلة ذوق ، سماها الأهلون (قهوة معدان) واستقرضت البلدية مليون ليرة سورية ، أساءت التصرف بها ، وفي سنة ١٩٤٧ جرى احصاء للسكان ، ظهر منها أن نفوس دير الزور لا تتجاوز الثلاثين ألفا وكانت تقدر تقديراً بـ٧٦ ألف خطأ . وهو عدد ضئيل بالنسبة الى مكانة دير الزور. وفي سنة ١٩٤٧ حدثت فيها (انتفاضة القمح) في عهد محافظ دير الزور مكرم الأتاسي ، بسبب استئثار السلطة بالقمح الجيد الذي كانت تصدره مؤسسة الميرة . وقد نجحت الانتفاضة ، ونالت مطاليبها ، بفضل تنظيمها ، ووجود موجه واعٍ على رأسها ، ورئيس شجاع في تاريخ دير الزور الحديث ، دللت على مقدار ما يمكن للجماعة المنظمة ذات الهدف العام ان تحقق مطاليب عامة ، اذا هي صمدت ، وكانت جرئية متلاحمة واعية .

كانت رئاسة البلدية مناطة بالمحافظ ، مما أضر كثيراً بالبلدة ، وكان هذا التدبير من ايعاز المتنفذين في البلدة ، وإلا لما كان .

وفي انتخابات ١٩٤٧ و١٩٤٩ و١٩٥٢ و١٩٥٤ مثل دير الزور ومناطقها نواب من المدينة ومناطقها ، حرصوا على منافعهم الخاصة ، ولم تفد المحافظة من تمثيلهم لها شيئاً جديراً بالذكر. وقد امتهنوا الأخلاق أسوأ امتهان في أثناء التحضير

للانتخابات. من هذا الامتهان شراء أصوات الناخبين. وبذلك جعلوا من المواطنين سلعة رخيصة. واستردوا الثمن أضعافاً بأبخس السبل.

لم تكن للحكومة خطة في تعيين المحافظين فلم يكونوا يلمون بقضايا المحافظة، ولا يتحمسون لها، ولم يكن للمحافظة مجلس يهتم بقضاياها، فكان المحافظ يتخبط في تصرفاته، وكثيراً ما كانت صبيانية، فكان ذلك من أسباب تأخر المحافظة.

عرفت دير الزور في كل عهودها فروعاً لكل الأحزاب والمنظمات السياسية التي عرفتها المدن السورية، دون أن تترك أثراً ثقافياً أو أدبياً أو فنياً أو وعياً اجتماعياً.

لقد ازداد عدد المدارس الابتدائية في المحافظة، وأحدثت ثانوية للذكور وانشيء جسر عين أبو جمعة بعد أن بحت أصوات الأهلين مطالبة بانشائه، حيث سبب القديم حوادث كثيرة وضحايا عديدة. واكمل تعبيد طريق المياذين وطريق دير الزور حلب، وأممت شركة كهرباء دير الزور. وفي سنة ١٩٥٧ تأسس متحف دير الزور للتقاليد الشعبية، أول مرة في دير الزور، وما زال الوحيد في كل وادي الفرات، وهو متحف خاص مسبل على الزوار. والحكومة مقصرة بحق المنطقة لاغفالها تأسيس متحف التقاليد في دير الزور حتى اليوم[1] للضياع، وهي من صميم تاريخ الشعب، ومطلوب من الدولة.

وفي هذه الفترة تاسس ناديان أدبيان هما البيت الثقافي في سنة ١٩٤٤ وكان يحتوي على مسرح صيفي وآخر شتوي وعلى مكتبة ومتحف صغير، وكان يقوم بتعليم الأميين، والنادي الثقافي تأسس سنة ١٩٤٦ أغلقهما حسني الزعيم فيما أغلق من النوادي في سورة. وكانت تلقى فيها المحاضرات.

وتأسست مجلتان ثقافيتان هما مجلة «صوت الفرات» صاحبها المحامي عبد

---

(١) تأسس المتحف وتحققت أمنية الباحث.

القادر عياش، تأسست سنة ١٩٤٥، و«مجلة الثقافة» صاحبها السيد جلال السيد تأسست ١٩٤٦، عاشت بضعة أشهر أوقفها صاحبها، وكان يصدرها النادي الثقافي بدير الزور.

ووجدت مطبعة ثانية عام ١٩٤٨، هي مطبعة مجلة صوت الفرات، باعها صاحبها ونقلت الى حلب بسبب اغلاق السلطة لمجلة صوت الفرات بسعي المرابين لفضحها أعمالهم، وكان صاحبها اعتمدها اساساً لدار نشر أعلن قيامها وأعلن أسماء المصنفات التي تباشر طبعها.

وتأسست دار كتب وطنية عام ١٩٤٨ في مديرية الأوقاف عين لها الشاعر محمد الفراتي قيماً مع شيخوخته براتب شهري قدره مائة وخمسون ل. س. هو راتب عامل يقبضه من بلدية دير الزور. وقد تم هذا التعيين بعد سعي حثيث، بذله أصدقاء الشاعر. ان هذا الراتب على ضآلته وما انفق من جهد للحصول عليه هو العمل الحسن الوحيد الذي يذكر للمجلس البلدي بدير الزور، وقد بقي الراتب جارياً حتى سنة ١٩٥٩، انتقل فيها الشاعر الى دمشق لمباشرة عمله في وزارة الثقافة.

وفي عام ١٩٥٢ أقبل أبناء دير الزور على شراء محركات الضخ ونصبها على الفرات والخابور لزراعة القطن. وضعوا فيها كل ثرواتهم بصورة مرتجلة، دون أن يكون للحكومة تدخل للحد من هذا الاقبال الجنوني الذي كان فيه دمار الاقتصاد الفراتي. واستمرت بلدية دير الزور كل هذه المدة دون أن يكون لها رئيس مناطة بالمحافظ. وفي ذلك العهد أقبل كثير من الشباب على تعلم الميكانيك بالممارسة في ورش الميكانيك لسد حاجة محركات الضخ والجرارات واصلاحها، وازداد الاقبال على كليات جامعة دمشق من أبناء دير الزور يدرسون في مختلف الكليات، وتخرج عدد كبير مدرسين في ثانويات دير الزور ومحافظتها. وأول مرة يتوفر المال لدى مديرية أوقاف دير الزور وتشييد عدة أبنية تدر عليها المال، فتنفق في خدمة المساجد وموظفيها.

عهد الوحدة ٢٢ شباط ١٩٥٨ ـ ٢٨ ايلول ١٩٦١

عين الاستاذ طه حداد من أبناء دير الزور رئيساً لبلديتها، وكان مديراً للتربية بدير الزور. وقد أخذ ينهض بوظيفته، ومما يذكر له انشاء الحديقة العامة عند مدخل المدينة من الغرب، لكنه ما لبث ان غادرها الى مجلس الأمة في القاهرة. فعادت الى المحافظ حتى ١٩٧٢. مما يضر بدير الزور، ولم يطلب الاهولن بتعيين رئيسهم لبلديتهم.

واحدثت مدرسة ثانوية للبنات أول مرة في دير الزور بسعي عبد القادر عياش وبشير فاصل عبود. وأستأنفت مجلة صوت الفرات صدورها في بداية عام ١٩٥٨ بشكل جديد، وجلب السيد عدنان سليم مطبعة أوتوماتيكية هي المطبقة السليمية في بداية عام ١٩٥٨، تولت طبع مجلة صوت الفرات عدة سنوات وانشيء بناء الهاتف الالي، ومدرسة زراعية ثانوية، وجمعية العاديات، ومركز للدراسات التاريخية والجغرافية أول مرة بدير الزور، أسسهما المحامي عبد القادر عياش ما زالت الجمعية والمركز قائمين. وتأسس فرع لمصرف مصر هو مصرف التسليف الشعبي حالياً. وبناء جديد لمصرف سورية والمهجر. وتأسس المركز الثقافي العربي شغل مكاناً بالآجار ولذلك هو ينتقل من مكان الى آخر. وتأسست ثانوية صناعية، وصارت وزارة التربية توفد بعض التلاميذ الديريين في بعثات الى الخارج. وانتسب جملة طلاب فراتيين الى الجامعات المصرية، وكانوا جميعاً يتلقون اعانات من الحكومة المصرية، وأنشيء مطار دير الزور والاستاذ الرياضي أول مرة بدير الزور.

وجدد الديريون بناء الجامع الحميدي وجامع الرفاعي وبنوا الميتم الاسلامي وبنى كل من السادة هزاع الطعمة ـ ومحمد نوري السليم ـ ومحمد العايش مسجدا باسمه، وبنت السيدة خديجة فرحان من أهالي دير الزور مسجدا بمحلة علي بك.

وبدأت في دير الزور أول حركة نسائية، تمثلت في جمعية المرأة العربية

تأسست في عام ١٩٥٩ وجمعية يقظة المرأة العربية تأسست عام ١٩٦٠ . وكلا الجمعيتان تتلقيان مؤازرة من السلطة . واشتركت وتخرجت طبيبة هي عائدة عزاوي . أول فتاة ديرية تخرجت طبيبة في الخارج . وكانت الآنسة لمياء الجوهري أول طبيبة ديرية تتخرج من جامعة دمشق . وعملت اختصاصاً في طب الأطفال في باريس مدة سنتين تشغل اليوم وظيفة طبيبة بمستشفى الولادة بحلب ولها عيادة خاصة .

العهد الاشتراكي ٨ آذار ١٩٦٣

أممت المشاريع الزراعية الفردية في سائر أنحاء المحافظة ، وتأسست جمعيات تعاونية زراعية في كثير من قرى المحافظة أول مرة في تاريخها ، كما تأسست شعب حكومية كثيرة كشعبة الاصلاح الزراعي ، وشعبة الشؤون الاجتماعية والعمل ، وشعبة الاقتصاد الوطني ، ودائرة التخطيط ، وشعبة الاحصاء .

وعبدت طرق عديدة ربطت القرى بالطرق العامة ، أول مرة في تاريخ المحافظة ، وتأسست محطة الابقار في دير الزور بدأت بأبقار قليلة وبلغ عددها اليوم نحو أربعمائة بقرة يوزع حليبها الى مئات المشتركين في المدينة . وانشئت ثانوية صناعية حديثة ، في محلة الشيخ ياسين بدلاً من القديمة وهي ثكنة عسكرية غير ملائمة واتسعت حركة العمران في دير الزور اتساعاً ملحوظاً وشقت طرق كثيرة وعبدت في المدينة قامت عليها احياء للعمال والموظفين ساعدت البلدية والمصارف في تمويلها . وتكونت أحياء جميلة البنيان مثل حي القصور. وبنيت عدة مساجد جديدة في الاحياء الحديثة هي مسجد الروضة ومسجد الفردوس ومسجد الإمام علي ، بناه محمود ورشيد ميلم . وبنت السيدة صالحة كردوش مسجداً بمحلة الشيخ ياسين واقيمت ثلاثة جسور على الفرات ، بدير الزور وبنيت محلجة كبيرة في دير الزور ودار للضيافة . وبنت وزارة التربية مدارس ابتدائية واعدادية وثانوية في دير الزور والقصبات والقرى . وبنت الدولة سدوداً في بادية الفرات لشرب

المواشي، أول مردة في المحافظة. وتتسع مساحة الأراضي الزراعية، وحركة العمران في الريف بشكل ظاهر يلفت النظر. ويزداد عدد الجرارات الزراعية من سنة الى أخرى، وتتحسن حالة سكان الريف باضطراد التعليمية والصحية والاجتماعية.

وقد هجرت القبور في دير الزور وحلَّ محلها طرق وحدائق عامة. وقد انشيء في دير الزور سوق هال وبراد عام، كانت المدينة تطالب بهما منذ مدة طويلة. وبني مركز لاتحاد نقابات العمال بدير الزور. ويدرس عدد كبير من أبناء دير الزور في جامعات أوروبا.

ينتشر التعليم بين النساء، وقد عم السفور في دير الزور. وتسهم المرأة بوظائف حكومية وفي المؤسسات الى جانب الرجل فضلا عن قيامها بالتعليم، وتحضر الاجتماعات العامة، وتأسس اتحاد نسائي بدير الزور له فروع في المدينة وفي المحافظة، وقد قام بتأسيس روضات أطفال. وله نشاط في تعليم الاميات وميادين أخرى. ودخلت الفتاة الديرية مختلف فروع جامعة دمشق وجامعة حلب. ومنهن اليوم طبيبات ومدرسات في ثانويات دير الزور. ليس فيهن شاعرة أو كاتبة.

ويجري استثمار الملح في قرية البويطية غربي دير الزور. وهو أول استثمار فني لثروة ثروات محافظة الفرات الدفينة. ويجري نقل الركاب بين دمشق ودير الزور على الطائرة خمسة أيام في الاسبوع بساعة وعشرة دقائق والخط ناجح. تستكمل الطائرة ركابها في الذهاب والاياب. وقد قربت هذه الوسيلة بين دير الزور والعاصمة. ويوجد بجامعة دمشق خمسة مدرسين من دير الزور أول مرة بتاريخها. ومدرسان بجامعة حلب. لقد حل الالتفات الى محافظة دير الزور من قبل المسؤولين والعناية بها محل الاهمال في العهود السابقة. وهذه البادرة نقطة تحول في تاريخ المحافظة. آمل ان يمهد لهذا التحول أدب فراتي واقعي يصاحبها، ينير لها الطريق، ويؤرخ لها، فلا تمضي المحافظة على سيرها السابق دون أن يصدر عنها انتاج ادبي يعرف بها. ويثبت خطاها ويقومها، ويساعد على نشر الثقافة والوعي

ويسهم بالحركة الفكرية والأدبية. **يأخذ الفراتيون منها ويعطونها**، آن لركودهم الفكري أن ينجلي.

دور دير الزور الحضاري والوطني في تاريخ وادي الفرات

تتمتع دير الزور بموقع متميز، لوقوعها على شاطىء الفرات الأعلى، بين بادية الشام والجزيرة الفراتية، وهي ملتقى طرق تجارية قديمة، ومحطة للقوافل بين العراق وسورية، يمر بها الطريق بين دمشق والموصل، والطريق بين حلب وبغداد. وهي ميناء على نهر الفرات، ومعبر قديم بين الجزيرة والشامية، ووسط عشائري منذ عدة قرون، وسوق تجارية لعشائر كثيرة تضرب في باديتها. ومركز اداري لها، ومنارة اشعاع حضاري ليس على الفرات بكل طوله الألفين والأربعمائة كيلومتر، بين منابعه ومصبه في الخليج العربي لمدة تضاهيها لابعدد سكانها ولا بحضارتها وعمرانها ومساحة رقعتها وشأنها. لقد صمدت في وسط البادية أمام القبائل الطامعة بها، دافعت عن نفسها، وتعرضت للمحن بسبب غارات البدو عليها وبعدها. ومضت في تحضرها واداء رسالتها، كان وادي الفرات يتأثر بها. ومـا زال يتأثر بها. انها حاضرته بحق، كان وجودها وكفاحها ونضالها الوطني قدرة للسكان في وادي الفرات وموضع اعجابهم وتقديرهم، وحافزاً لهم. وكان وجودها وحيوية أهلها سببا في عمران الرقة والمياذين وأبوكمال والسبخة والحسكة ومعدان والبصيرة وعمران الجزيرة الفراتية، كان دور الديريين كبيراً في الجزيرة.

لقد نشرت دير الزور في أرجاء وادي الفرات والجزيرة الفراتية الحضارة والوعي الوطني والروح القومية والادراك السياسي. انها قلب الفرات النابض وحصن الوطنية فيه، وزمردة وادي الفرات. لم ينصفها الكتاب السوريون فلم يكتبوا عنها، جهلوها.

أدرك العثمانيون موقعها وأهميتها، فاهتموا بها، وجعلوها سنجقا مرتبطا بالأستانة مباشرة. وقدرها الفرنسيون فسموها «بابل الحديثة» وأحبوها.

كان دور أبناء دير الزور الحضاري والوطني كبيرا في تاريخ وادي الفرات. كافحوا الانكليز في الفرات وكان لوطنيتهم الفضل في اقرار حدود الدولة السورية من جهة الشرق سنة ١٩٢٠، وأحبطوا مؤامرات الفرنسيين المتعددة بفصل الجزيرة الفراتية عن أمها سورية في سنة ١٩٣٦، ١٩٣٧، لم يستطع بعدها وتأخرها وتسلط المستعمر عليها وفقرها وغلبة الامية على المنطقة أن يحول دون مشاركة أبنائها بالاحداث السورية ودون تقديمها التضحيات بالنفوس والأموال، ولكي تقوم بدورها الحديث تحتاج الى اعداد والى حقنها بروح المدنية وبالصناعة لتصبح مدينة عصرية بحق.

ليست دير الزور بلا تاريخ كما يتوهم ابناؤ ها والآخرون. وانما هي ذات تاريخ قديم، لكنه لم يكتب بعد. أن لكل مدينة حقها الصريح على ابنائها بأن يعنوا بتاريخها ويصونوه، ويبرزوه ويتعهدوه. ولقد عني أبناء المدن السورية بواجبهم نحو مدنهم، وقصر الديريون بحق مدينتهم وبحق التاريخ. ان ثمة أناس يرغبون بالاطلاع على تاريخ دير الزور، ويقدرون أهميتها، لقد رشحت عام ١٩٢٠ عاصمة لسورية والعراق من قبل الضباط العراقيين بدمشق. يجهل ابناؤ ها قدرها ودورها الخطير.

ويزهد أبناء دير الزور وخاصة المتعلمين منهم في تاريخ مدينتهم، لأنهم يجهلونه (المرء عدو ما جهل)، لم يعن أحد من متعلميها بمحاولة كتابة فصول في تاريخها البعيد أو القريب. تنعدم الرغبة في نفوسهم بمعرفة تاريخ بلدهم ومنطقتهم. ولذلك لا توجد كتب في تاريخ دير الزور وأحداثها على أهميتها، لقد هزت ثورة دير الزور ١٩٢٠ المستر تشرشل واعتبرها من الاحداث الكبرى في الشرق. لم يتصد لها أحد من أبناء دير الزور.

لظاهرة زهد المتعلمين من أبناء دير الزور بتاريخ مدينتهم أسبابها، وهي في

رأيي نقص في نظام التعليم الثانوي والجامعي في سورية، وعوامل تربوية خاصة في بيئتهم وتربيتهم المنزلية والمدرسية في دير الزور، وحداثة عهد متعلميها بالتعليم وبالثروة فأولوها كل همهم.

ان لم تعلم المدارس عندنا تاريخ المدن السورية فأي شيء تعلم من التاريخ؟

لئن لم يكتب أبناء الفرات تاريخ منطقتهم وواديهم، فهم معذورون لغلبة البداوة حتى على المتعلمين منهم بحكم الوراثة. فما عذر وزارة التربية ووزارة الثقافة ومجمع اللغة العربية والمجلس الأعلى للآداب والعلوم الاجتماعية والجامعات السورية ووزارة الاعلام؟ والمؤرخين السوريين؟ أم خلت سورية من المؤرخين في عصرنا؟

تعاقب على محافظة دير الزور محافظون عديدون، لم يهتم أحد منهم بتاريخ المحافظة. ولا غرفة التجارة ولا غرفة الزراعة، ولا المجلس البلدي ولا أحد من أغنياء المدينة او منظماتها، رصدت مبلغاً ما لمن يكتب في تاريخ دير الزور ومحافظتها.

إن من شأن هذا التاريخ ان يساعد كثيراً في ادراك الديريين لدورهم الخطير. وفي تكوين شخصية لهم. عاشوا كل هذه السنين بدونها، ليس لديهم حس بتاريخهم. لا شك أن المتعلمين منهم يقرأون فصولاً من التاريخ الا تاريخهم، ثم لا تثير هذه القراءة في نفوسهم رغبة في تاريخهم وتحري مصادره، وتشجيع ما يكتب ويظهر من محاولات فيه. لا يشعر الجامعيون في دير الزور بالظمأ الى المعرفة والفن. يرويهم الخمول.

لئن كنت كثيراً ما أنقد تقصير الديريين بحق منطقتهم وتاريخهم، فلأني أحبهم بكل تأكيد، فهم أهلي وقومي ولا أقصد التشهير بهم. وانما ايقاظهم وحثهم، أني أرتب عليهم مهمة كبيرة حضارية وفكرية لواديهم وحاضرته بلدهم. اني أحب منطقتي حباً زائداً، أعيشها وأعيش لها. وقفت جهودي ووقتي ومالي

وتفكـير ي على خدمتهـا منـذ أربعـين سنـة الى اليـوم ومدى حياتي ، حسبي أني (مجنـون وادي الفـرات) كما أطلق علي بعضهـا أصـدقائي . وأطلقت زوجي على (شهيد وادي الفرات) أعيش وأموت وفي نفسي أشياء من وادي الفرات .

الصناعات التقليدية والفنون الشعبية في دير الزور

ان بعـد ديـر الـزور وعـزلتهـا في العهود السابقة ، جعلها تعتمد على نفسها مستغلة قدم حضارتها ومعرفتها ومواردها المحلية ، فلم تكن الدير بلا صنـاعـات ولا فنـون تسـد حاجاتها وحاجات العشائر ، التي كانت تحيط بها وتعتمـد عليهـا عرفت البلدة في تاريخهـا صنـاعـات كثيرة ، انقرض بعضها بحكم التطور وحلول صناعات نافستها ، وبقي بعضها ، عرفت البلدة غزل القطن الـذي كانت تزرعـه وحيـاكـة بعض أنواع النسيج ثياباً ولحفاً وحياكة العبـاءات والبسـط والسجـوف أو الشفـوف من خيطـان الصـوف الملونـة ، وصنـاعـة محاميس القهـوة من الحـديـد وتكفيتهـا وتزيينها بصفائح النحاس الاصفر بشكل نجوم ، وصنع السيوف والخناجر والسكاكين والحراب وسنان الـرمـاح وصيـاغـة الحـلي الفضية والذهبية ، وصنع أنواع الفؤوس والشص وآلات الـزراعـة ، وصنـع البـارود واصـلاح البنادق الحربية والسلاح وصنع الانيـة النحـاسية والفخارية والخشبية ، وصنع عدة الخيل من سروج وألجمة وركـاب وأعنـة . وصنـع العقـال والخـرج واللبـاد وصنـع الاحـذيـة المحلية (الكـلاش) وصنـع الفـرواة من جلد الخراف وصنع دلاء الماء من جلد البقر لسقـايـة المـزروعـات . وصنـع الـدولاب من الخشب والحـديـد لسقـايـة المزروعـات ، وصنـع الـدمى للأولاد ، وأنواع السلال من العيدان ، وصنع الجص الابيض بشي الحجر الكلسي في النامورة ، ثم سحقه وغربلته لطلاء جدران غرف البيـوت من الـداخـل والخـارج ، وصنع الجص الأسود بحرق

تراب الكفـان بالـزبل على وجه الأرض في ضواحي المدينة واستعماله ملاطاً لبنـاء الجـدران وتغطية أسطحة المنازل وصناعة نقر الرحى والمدار والدنج من الحجـر البـازلتي يجلبـونـه من غربي دير الزور. وصناعة الفخار لصنع الجرار والصحـون والمـزامـل والـدنـان والقـواقـة . وكان فتل الشعير ية وما زال من الصنـاعـات التقليـدية المشهورة في دير الزور. وثمة صناعة تطريز العباءات والثياب النسائية، وصنع دلال القهوة.

وقـد تمثلت الفنـون الشعبيـة في فنـون الغنـاء الشعبي وفي المـوسيقـا وأدواتها الربابة والدف والمزمار المفرد والمزمار المجوز والطبل. وفن العمارة ونقر ونقش الـرخـام، وللديـريـين أنـواع من الألعـاب الشعبيـة يدخـل ضمنهـا الشطرنج والمنقلة والنرد والدامة ولعبة الطبق.

التشكيلات الادارية الحالية لمحافظة دير الزور[1]

١ ـ ديـر الـزور مركـز المحـافظـة على الفرات ترتبط بها بعض القرى القـريبـة وثـلاث نواحي هي: ناحيـة الكسـرة غربي ديـر الـزور على ضفة الفـرات الشـرقيـة. ونـاحية البصيرة عند مصب الخابور في الفرات. وناحية الصور على الخابور وكل ناحية تتألف من عدة قرى على ضفة الفرات الشرقية.

٢ ـ منطقـة الميـاذين، قصبتهـا بلدة الميـاذين على ضفـة الفـرات الغربية، تتبعهـا ناحيتـان: ناحيـة العشـارة على ضفة الفرات الغربية، وناحية ذيبان على ضفة الفرات الشرقية.

٣ ـ منطقـــة أبـو كمال، قصبتهـا بلدة أبـو كمال، على ضفـة الفـرات

(١) لقد توسعت هذه التشكيلات منذ وفاة الباحث حتى الآن

الغـربيـة على الحـدود العـراقيـة . تتبعهـا ناحيـة هجين على ضفة الفرات الشرقية ولها عدة قرى .

تقاليد الفروسية في دير الزور

لأبنـاء ديـر الـزور ولـع بالفروسية كبير منذ القديم أصيل في نفوسهم ورثـوه عن قبـائلهم العـربيـة . يحرصـون على ممارستهـا والاحتفـاظ بها . يكرمون الضيف ويغيثـون المستجـير ويحـامـون عن الجـار . واقتنـاء الخيـل وركوبها والطرد عليهـا والاتجـار بها والالمـام بما يتصل بها من تقاليدهم المتوارثة ولهم ولع زائد باقتناء السلاح من سيوف وخناجر وبنادق حربية وبنادق صيد . ومسدسات لا يستكثـرون ثمنـا لشرائها يزينونها بالفضة والذهب ، وكانوا الى مدة قريبة رمـاة ماهـرين . ولهم اهتـمام كبـير بالصيـد والقنص والكلاب وطيور الصيد والأشـراك ، يمارسـون أنواعاً عديدة من الألعاب الرياضية المحلية منها القفز والعـدو والمهـارة واليقظـة . ولهم ولـع بصيـد السمك في نهر الفرات والخابور بالشص (النتـالـة) والشبـك والفـالـة . طالبت المسؤولـين في ديـر الـزور إقـرار مهرجان سنوي ولي فيها مخطوط . ما زال ذكرها يبعث في نفسي الغبطة . وما زلت أحن الى زمنها الجميل . يا رعى الله ذات الزمن .

دير الزور المدينة

ان ديـر الـزور حتى في عهودها الأخيرة ، وبرغم ما قطعته من مراحل الحضـارة حتى اليـوم ، وعلى ما أدت من خدمات كبيرة الى وادي الفرات ، ومـا نهضت به من مهـام وطنية وعمرانية ، ما تزال بلدة . ولما تصبح مدينة الا بالاسم . واني حين أطلق عليها اسم مدينة تفاؤلا . على أني اعود فاسميها بصفتهـا الحقيقية بلدة : وسـط بين القـريـة والمـدينة ، بين البداوة والحضارة

الصريحة بمعنى المدنية، والديريون أقرب الى البداوة منهم الى المدنية. »اني أثير مفهوم التسميتين بمناسبة العدد الخاص الذي تصدره مجلة العمران عن دير الزور، ولأن دير الزور مقبلة على عهد جديد من تاريخها. ولن تتعرض مقالات العدد الا لأقل جوانب البلدة».

ان ايراد تعريفات للمدينة، يكشف عن وضع دير الزور، فيتضح منه مواطن الضعف والنقص في تكوينها، فيتبين لأبنائها ان كانت مدينة ام شيئا آخر.

ما هي المدينة؟ لم يسبق أن كان هذا السؤال موضوع نقاش في دير الزور. مع أهميته. المدينة هي الاطار الذي تتجمع داخله قوة مجتمع وثقافة، خلال عصور متتابعة. وما أبناؤها الا ماصنعته منهم مدنيتهم، انها تاريخ حتى صنعه تاريخ الحجارة التي يعيشون بينها، والمدينة الحقة هي التي توفر لأبنائها الحرية والأمن والعمل والصحة الجسدية والنفسية والثقافية والرفاه والتحابب والاخاء والتجدد والتقدم.

ما المدن الجميلة سوى خلاصة جهود أبنائها وعمليات تجميل مستمرة قام بها مهندسون أكفاء، آزرهم أبناء تلك المدن وأطلقوا أيديهم.

المدينة كائن حي يرتبط جمالها بصحة جسمها الذي يتألف من خلايا هي أحياؤها، فلا بد من ان تكون جميع هذه الخلايا صحيحة، وللمدينة شرايينها هي طرقها. ينبغي أن تكون سليمة، وللمدينة رئتاها وهي حدائقها العامة وساحاتها الجميلة وميادينها الفسحة البهيجة. كما لها أنظمتها وقوانينها وتقاليدها النابعة من ارادة أهلها.

ان جمال مدينة في أهم أشكاله هو تعبيره عن تاريخ المدينة وكفاحها.

على أن جمال المدن لا ينحصر في أمور معينة، مدن جمالها البارز في تخطيطها، وأخرى في روحها وجاذبيتها ومدن جمالها في مؤسساتها العملية

وأبنيتهـا ، وأخـرى جمالهـا في قدمهـا وآثـارهـا ومدن جمالها اسطوري تغنّى به التاريخ كمدينة بابل الحاضرة الفراتية .

وراء المدينة مجلس بلدي مستنير حازم يسهر على جميع شؤونها مادق منهـا ومـا جل . وفـوق كل ذلـك تتميـز المـدينة الجميلة بسمو أخلاق أبنائها وحلاوة طباعهم وسلامة ذوقهم ، وبحبهم لمدينتهم وتعاونهم من أجل نفعها وتقدمها وتجميلها . وابداع روح فيها .

للمدن الجميلة مفاهيمها العصرية ، ولا نتصور مدناً حديثة بغير توفر هذه المفاهيم مجتمعة فيها ، يكمل بعضها بعضاً . ان جمال المدن عنوان لتقدم الشعوب .

بفضـل حسن موقـع ديـر الزور الجغرافي وأهميته ، وحضارتها القديمة النسبيـة ، وخلو وادي الفـرات من العمـران ، ولحيـويـة أهلهـا وتمـرسهم بالخطوب ، استطاعت دير الزور ان يكون لها شأن غير قليل . ودور خطير في وادي الفـرات . الا انهـا قد استنفـدت دورها ، على ان وادي الفرات برغم تقـدمـه الحضـاري في السنوات الأخيرة بالنسبة للعهود السابقة ، لا غنى له عن دور ديـر الـزور القيـادي الجـديـد ، وعلى دير الزور أن تبقى أمينة على رسـالتهـا بعـد أن تستعـد لها أتم الاستعداد ، فلقد تغيرت الظروف وجدت أحـداث . على ديـر الـزور أن تأخـذ دور المعلمـة لوادي الفـرات في عهـده الجـديـد . ولكي تقـوم بهذه المهمـة بجـدارة ، ينبغي لها أن تبلغ مرتبة المدينة الجميلة . على بنيهـا ان يتخلوا عن صفـاتهم البدوية ، وان يكتسبوا خصائل أبنـاء المـدينة الجميلة والعصرية ، وأهمها حب العلم وتحصيله وعشق النظافة وهواية الفنون الجميلة وممارستها .

لدير الزور قابلية بلوغ مرتبة المدينة واستئناف دورها . ان لها امكاناتها لحيـويـة أهلهـا وجـرأتهم وتمـرسهم بمختلف ضروب الكفـاح في عهـودهم

السـابقـة ، وبفضــل نهرهـا العظيم وأهميـة موقعهـا وخصب تربتهـا واتساع مساحة أراضيها وذكرى حضارات الفرات القديمة والشهيرة .

ان المجتمع الديري في صميمه ، قبلي لا مدني ، برغم مظاهر العمران واللبـاس والتعليم . انهـا صبغة خارجية سرعان ما تنكشف عن بداوة أصيلة هي السبب الهام في تخلف البلدة .

انهـا مجتمـع متحضر نسبياً . الرابطة الاجتماعية بين سكانها هي رابطة العشـيرة ، وليس رابطـة المـدينـة . يفكـر ابن دير الزور بعشيرته وبعقليتها ، ويعيش تقـاليـدهـا . كل هدفه ان يسود عشيرته ، لا أن يبرز في بلده بفضله وخدماته له . لا يحس الديري برابطة المدينة .

ان تزايـد عدد السكـان في ديـر الزور لم يأت من داخلها وإنما جاء من الريف والبادية فرفد فيها البداوة وزاد الطين بلة والعقد عقدة . فلا عجب أن كانت البداوة متغلبة .

ان مظـاهـر تخلف ديـر الزور كثيرة ، يشاهدها البصير الغريب الذي يمر فيها ، ويشعر بها الأعمى ، ويسمع بها البعيد ، فقد تحدثت بها الصحب السورية . فلا داع لسرد شواهد عليها . ولكن ما هي أسباب هذا التخلف؟ والـذي يبـدو عجيباً في عصر الذرة وغزو الفضاء؟ انها أسباب كثيرة تراكمت مع مرور الزمن ، فكونت تركة ثقيلة بغيضة ، انها صخرة عظيمة سدت منافذ الطريق على دير الزور. فلم تبلغ مرتبة المدينة .

حلبية وزلبية

المدينتان التدمريتان على الفرات

تقع منطقة حلبية وزلبية شمال غربي دير الزور على بعد ٥٨ كم في أراضي قرية التبني شرق طريق دير الزور حلب على شاطىء الفرات، وشرق شمال تدمر على بعد ١٦٥ كم.

المنطقة هضبة ترتفع عن النهر أكثر من مائة متر، تغطيها حجارة بركانية بسمك ٣ ـ ٦ أمتار يشقها الفرات قسمين، يسمى الأهلون القسم الغربي حمّة الشامية حيث توجد مدينة حلبية أي مدينة زنوبيا أو الزباء على ضفة الفرات الغربية في الشمال، والقسم الشرقي حمّة الجزيرة حيث توجد مدينة زلبية أو زلوبيا على ضفة الفرات الشرقية في الجنوب بين المدينتين ثلاثة كم. اسم الحمة بفتح الحاء مأخوذ من الحمم البركانية والهضبة امتداد لسلسلة جبال البشري انفصلت عنها في العصور الجيولوجية.

كان لمضيق حلبيـة الضيق أهميـة كبرى في التاريخ القديم ، لسهولة تحصينه بالصخور الشاهقة الموجودة على سفح الهضبة والتي تسيطر على مدخل الممر وعلى مخرجه تشكل أبواباً ضيقة ، وهذا المضيق أو الممر مكان نادر من نهر الفرات ، ومعنى الاستيلاء عليه السيطرة والتحكّم بالطريق النهري وطريق القوافل التجارية التي كانت تسلكه وهو موقع عسكري ممتاز. وفي العصور الاسلامية نشأت فيه مدينة اسلامية هي الخانوقة لأن النهر وهو يمر من تحتها كأنه مخنوق ، ولأهمية هذا الممر كان عامراً بالسكان والمدن منذ العصر الحجري كما تشهد بذلك الآثار على جانبي النهر.

ذكر الموقع في أخبار الملك الآشوري (آشور ناصر بال) باسم (نينقوشابورات) كانت عنده عدة مدن آشورية منها (دور كرباني) بنيت بأمر ملك آشور (ناصر بال الثالث) عام ٨٧٧ قبل الميلاد. يرى موسل أنها هي حلبية «زنوبية» .

كان كثير من سكان وادي الفرات السوري في العصور البابلية والآشورية آراميين أسسوا عدة امارات في وادي الفرات منها إمارة زوحي في منطقة زلبية ، وامارة لاقي في منطقة حلبية بين نهر الخابور ونهر البليخ ، والى الآن يسمى الآهلون منطقة حلبية (لايجة) أي لاقى القديمة . كانت هذه الامارات تحت نفوذ مملكة بابل ثم مملكة آشور، ولم تكن الحال فيها تستقر فتارة كانت تدفع الجزية الى آشور وتارة تثور عليها . وكان سلوك بابل وآشور يجتازونها في طريقهم الى سورية ومصر فأصاب هذه البلاد خراب كثير ، وأكثر ما كان ذلك من ملك آشور ناصر بال الثالث (٨٨٥ ـ ٨٦٠) قدم له ملك لاقي فضة وذهباً ونحاساً وحجارة كريمة وارجواناً وجمالاً ، ونصب تمثال آشور ناصر بال في وسط قطره علامة لعبوديته . وذهب ملك زوحي الى نينوى وقدم مثل ذلك وثارت زوحي على آشور ناصر بال الثالث أكثر من مرة ، فأتى إليها في سنة ٨٧٨ق . م ونكل بأهلها وخربها وبنى قلعتين في ممر حلبية واحدة على الضفة الغربية سماها (نيبارت اسور) والاخرى

على الضفة كرخ آسور ناصر بال) وكذا فعل شلمناصر الثالث (٨٦٠ ـ ٨٢٥) وخلفاؤه من بعده الى ان انقرضت دولة آشور سنة ٦٦٨ .

وقبل الآراميين بقرون سكن مضيق حلبية سكان غير معروفين . وفي عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر الكبير الذين آلت إليهم هذه البلاد وجدت عدة مدن في ممر حلبية ، اندرست وبقيت اسماؤها منها (تلدا) يرى دوسو أنها زلبية نفسها (وماسيليا) يرى بوادبار أنها بجوار زلبية الى الشمال وترى الآنسة بل ان تلدا في تل حميضة شمال زلبية . ومدينة أنوكاس في قبور ابي عتيق في الممر.

ولما نمت تدمر ذلك النمو المفاجيء الذي جعلها من أكبر مدن الشرق بفضل السياسة الرشيدة التي سار عليها رجالها الاذكياء الشجعان الذين عرفوا الاستفادة من موقع مدينتهم واختاروا الحياد تجاه الدولتين المتنازعتين الفرس والروم وجعلوا بلدهم مركزاً تجارياً تمر بها قوافل التجارة تحمل البضائع بين أسواق العراق وما يتصل بها من بلاد ايران والهند والخليج ، وبين أسواق الشام وحوض البحر المتوسط ، وعرف رجال تدمر كيف يحافظون على الأمن في بادية الشام ، وكانوا خبراء بالطرق فصارت القوافل تعبر بادية الشام مارة بتدمر يتجرون لحسابهم ويربحون من قيادة القوافل .

كان وادي الفرات الاوسط تحت نفوذ الفرثيين الفرس شجعوا التدمريين على القيام بالتجارة فأسس التدمريون مراكز تجارية لهم في مضيق حلبة وفي صالحية أبوكمال (دورا) التي مازالت تحتفظ بباب ضخم في سورها الغربي يسمى باب تدمر. وكانت توجد طرق بين تدمر ودورا وتدمر وحلبية تسلكها القوافل التجارية .

صارت تدمر بغناها مطمح أنظار الطامعين ، فتوجه اليها القائد الروماني مرقس انطونيوس سنة ٣٦ ق . م بعد أن حارب الفرثيين في الشام وحاول الاغارة عليها ونهبها ، فبادر التدمريون الى نقل أموالهم وعيالهم وعبروا الفرات وأقاموا عند زلبية ، فتعقبهم انطونيوس واقتتلوا قتالاً شديداً كانت الغلبة فيه لأهل تدمر،

ولكنها خربت في سنة ٤١ ق . م . قدر التدمريون أهمية مضيق حلبية لتجارتهم فجعلوا فيه ميناء نهرياً ومستودعات للبضاعة بموافقة الفرثيين وأقاموا عنده السدود على النهر ما تزال آثارها .

اغتنت تدمر في أوائل القرن الثاني الميلادي وبلغت بعمرانها درجة سامية فطمع الرومان بها وأخضعوها لحكمهم ، ولما قويت تجارتها ازدادت قوتها الحربية ، فخلعت طاعة روما في سنة ٢٥٠ وحمل ملك تدمر أذينة الثاني على شابور ملك فارس وكسره وغنم أمواله فرفع الامبراطور الروماني غاليانوس منزلة أذينة ، ودعاه قائداً عاماً على جميع عساكر المشرق . واستولى أذينة على الجزية الفراتية سنة ٢٦١م وشدد الحصار على ساليق على دجلة ، واتخذ التدمريون من مضيق حلبية قاعدة استراتيجية لتموين جيوشهم لغزو الامبراطورية الفارسية ، ولكن أذينة الثاني اغتيل في حمص فنودي بابنه الصغير وهب اللات ملكاً على تدمر، فتولت أمه زنوبية زوجة أذينة تدبير الأمور. كانت تصحب زوجها الى ساحات الحروب ، نشأت في الآداب ، وكانت تتكلم عدة لغات منها الاغريقية واللاتينية ، وكان لها بلاط جمعت فيه الفلاسفة . واعتنت بتحسين عاصمتها وتزيينها ، وامتدت حدود مملكتها الى قسم من آسيا الصغرى والى النيل سنة ٢٦٩[1].

وقد بنت مدينة على الفرات لحماية حدود مملكتها من الشرق ولتجعل من المدينة ميناء نهرياً تزاحم به ميناء مدينة الكفل (الجيشا) بلواء الحلة في العراق، اسمت المدينة (زنوبية) وهو اسمها باليونانية سماها العرب زينب ، وهي نفسها مدينة الزباء كما اسماها الطبري . وبنت مدينة مقابلة هي زلبية فوق انقاص المدن الآشورية في الممر الذي يمتد سبعة كيلومترات على الفرات بين قريتي التبني والقصبي من قرى دير الزور. ولا تذكر المدينتان الا مقرونتين معاً ، وتوجد لوحة

---

[1] ـ كانت تدمر العاصمة الأولى لوحدة سوريا ومصر آنذاك .

تحمل اسم حلبية وزلبية على الطريق العام بين حلب ـ دير الزور عند قريتي التبني بجوار طرف الحمة الغربي .

رأى الـرومـان في تدمـر منـافسـاً خطيراً لروما فحارب الامبراطور الروماني اورليـانـوس جيوش زنوبية وحاصر تدمر سنة ٢٧٢م وقاتل التدمريون قتالاً شديداً عنـد مدينتهم ، وانطلقت زنـوبيـة من عاصمتهـا تدمـر الى مدينتها على شاطىء الفـرات لتـذهب منها الى الجزيرة الفراتية تهيء مقاومة الى احلاف ، ولكن مفرزة من الجنـود الـرومـان كانت ارسلت لتقطـع عليهـا الطـريق ، فاتجهت الملكـة الى الشـرق ، ووصلت ديـر الزور كما يقول المؤرخ العراقي الدكتور جواد علي في كتابه (تاريخ العرب قبل الاسلام ج٣) وفي دير الزور ادركتها المفرزة الرومانية بينما كانت تتأهب لأخذ قارب ينقلها الى الضفة الثانية من النهر عادت بها المفرزة أسيرة الى اورليـانـوس في خريف سنـة ٢٧٢ اصطحبها معه مع بناتها الى روما أسيرة وخرب تدمر، واستولى الرومان على مدينة زنوبية على الفرات وكانت من قلاعهم على الحدود الشرقية لامبراطوريتهم .

استـولى خسـرو الأول ملك فارس على زنـوبيـة حوالي سنة ٥٤٠ ودمرها . وقـد استـرجعهـا الامـبراطـور جوستنيـان (٥٣٧ ـ ٥٦٥) فاعاد بناء ما تهدم منها واسكن فيهـا انـاسـاً وحـاميـة عسكرية ، وقد عثر على المباني التي تعود الى ايامه ، وبعضهـا من عمـل معمارية (يوحنا البيزنطي) و(ازيدوروس الملطي) . وفي ٦١٠م في أيـام القيصـر فوقـاس هاجمهـا خسـرو الثاني وانزل بها الخراب وأخذ نجمها منذ ذلـك الحـين في الأفول ، فلم يسمع عنها شيء في أخبار (الفتوح) ويدل هذا على انهـا لم تكن شيئـاً يذكـر في ذلـك الحـين . وانفـرد الـواقـدي في كتابه (فتوح الشام بتخصيص فصل ذكر فيه فتح القلعتين زبا وزلوبيا ، غير أن رواية الواقدي لا تخرج عن اقـاصيص الاخبـاريـين عن الـزبـاء ، واسمهـا عنـدهم نائلة بنت عمـرو بن الظرب ، وعلى زعم آخر اسمها ليلى ، وزعموا ان لها اختا اسمها زبية . وان الزباء بنت قصـراً لاختهـا على الفـرات وكانت تشتو عندها وتصيف في تدمر . واخذ ابن

منظر لمدينة حلابية (توأم آثار زلابية)

خلدون رواية الطبري وتصرف ببعضها. ذكر المسعودي في كتابه (مروج الذهب ج٢) ان مدائن الزباء على شاطىء الفرات من الجانب الشرقي والغربي، وكانت فيما ذكر قد سقفت الفرات وجعلت من فوقه أبنية رومية، وجعلت نفقاً ما بين مدائنها، وذكر انها حفرت سرباً من تحت سريرها وبنته حتى خرج من تحت الفرات الى سرير اختها. ان وجود مدينة زنوبية على الفرات ومدن أخرى على الجانب الآخر من النهر لا يعرف الأخباريون شيئاً عنه هو الذي خلق قصة النفق في مخيلتهم. وترجع قصة النفق الى الاخباري ابن الكلبي رواها الطبري. أما الأصل فخبر من أخبار الاخباريين. وقصة النفق بين المدينتين شائعة عند سكان المنطقة تلقنوها من ألسنة قراء كتاب الواقدي وغيره، وقد تكون قديمة في المنطقة.

ذكر البكري أن المدينة التي بنتها الزباء على شاطىء الفرات هي الخانوقة وزعم أن الزباء عمدت الى الفرات عند قلة مائه فسُكِّر ثم بنت في بطنه ازجا جعلت فيه نفقاً الى البرية وأجرت عليه الماء، فكانت اذا خافت عدوا دخلت في النفق وخرجت الى مدينة اختها الزبية. ولعل أصل النفق بين المدينتين يعود الى وجود جسر كان على الفرات لربط الجانبين من النهر، وكان الجسر من طابقين اعتنوا به ليجيء متفقاً مع أهمية الموقع وأهمية المدينتين وما زالت آثار ركائز الجسر باقية تشاهد في ايلول وقت نزول مستوى النهر. وذكر ياقوت ان الزباء مدينة على شاطىء الفرات سميت باسم الزباء صاحبة جذيمة الابرش، وروى عن أبي بكر عبد الله بن عثمان المقري الدمشقي خطيب الزباء أنه قال: «الزباء معقل في عنان السماء ومدينة قديمة حسنة الآثار»، فتكون في عهد ياقوت المتوفي سنة ٦٢٦هـ مسكونة ولا بد أنه كان فيها مسجد يصلي فيه ما دام لها خطيب وذكر فيه مادام لها خطيب. وذكر ياقوت أن الخانوقة مدينة على قرب الرقة ينسب إليها أبو عبد الله محمد بن محمد الخانوقي محدث. فهي عند ياقوت غير الزباء. في حين أن البكري يسمى الخانوقة مدينة الزباء، وهو الأرجح. ويذكر اليعقوبي بقة على شاطىء الفرات وانها كانت لامرأة يقال لها الزباء ولكنه جعل بقة قرب الأنبار، وبما أن بقة

هذه جاءت مقترنة بالزباء وبجذيمة الأبرش فتكون هي حلبية ويذكر الميداني النيسابوري في كتابه (مجمع الأمثال) في تفسير المثل (خطب يسير في خطب كبير) قصة جذيمة والزباء محشية بالامثال. ويذكر ياقوت في موضع آخر من معجم البلدان: بلدة عدان على شاطىء الفرات لاخت الزباء ومقابلها أخرى يقال لها (عزان) وهو يقصد حلبية وزلبية، اذ لا توجد على الفرات مدينتان متقابلتان لهما علاقة بالزباء غيرهما. وهذا الاسمان بعض ما سميت به المدينتان بسبب ما أصابهما من خراب وما توالى عليهما من السكان.

ان لفظة حلبية متأخرة لا أعلم مصدرها، ومما لا جدال فيه انها هي الزباء أو زنوبية. وان بقاء لفظة الزباء وزنوبية وزلبية تعني أن المنطقة كانت من أعمال مملكة زنوبية ملكة تدمر بل ملكة الشرق في ذلك الوقت.

منطقة حلبية وزلبية من الأماكن الاثرية بمحافظة دير الزور، اهتم بدراستها بعض العلماء والرواد الغربيين: سار، وهرتزفلد، وتشسني، وساخو، والانسة بل. وفي سنة ١٩٣٦ درست جامعة ييل الامريكية التي كانت تعمل في الصالحية (دورا اوروبس) بعض أبراج المدافن في مقبرة حلبية، وفي سنة ١٩٤٥ أجرى الاثري الفرنسي ج. لوفري حفريات في حلبية، وساعده الجيش الفرنسي بدير الزور بأن شق له طريقا للسيارة على سفح الهضبة من بين النهر والهضبة ليصل الى حلبية قسم من هذا الطريق وسط سهل وهو معظمه والقسم الثاني على سفح الهضبة.

ان موقع مدينة حلبية عبارة عن مرتفع بارز منفصل عن الحمة، يحيط به واديان، ولكن المرتفع الذي يصله بالحمة منخفض. وعلى قمة المرتفع قلعة يتفرع عنها سوران جصيان ينحدران باتجاهين متعاكسين الى الفرات، اما الضلع الثالث للمثلث المواجه للنهر فقد ذهبت به مياه الفرات، وأعيد بناؤه خلف البناء القديم، وأقيم سد في النهر يحاذي الشاطيء لكي لا يلاحق النهر السور الشرقي المواجه له. وتشرف القلعة من فوق المرتفع على الأراضي المجاورة وعلى الجزيرة. وللسور من

جهـة النهـر بابـان أو ثلاثـة . ولكل ضلع من الضلعين الآخرين من المثلث باب ، وعلى كل ضلع عدد من الأبـراج المـربعـة المتشـابهـة ذات طوابق وأدراج ومداخل ومـزاغـل ، والأسـوار مبنية بالأحجار الجصية التي يكثر وجودها في منطقة الفرات ، ومتأثـرة في طراز بنـائهـا بالعمارة العسكرية البيزنطية ، وبرغم وجود البازلت حولها لم يدخـل في بنـائهـا وعلى الضلع الشـمالي قصـر يرجح انه عربي ، كان قصر الحاكم مؤلف من ثلاث طبقات ، عقوده من القرميد فوق أقواس من الحجر .

يجتـاز المـدينـة شارع ذو أعمـدة رخامية على الجانبين يتجه من الجنوب الى الشمال ويمر ببابي المدينة الجنوبي والشمالي ، وللأعمدة تيجان مزخرفة من الرخام ما تزال آثارها ، وفي وسط المثلث آثار كنيسة وبعض أبنية مخربة تخريباً تاماً . وكشف لوفري عن أسوار ثانية وعن المحكمة وأبراج المدافن وعن حمام ومطابخ ووجد أواني خزفيـة ونقـوش كتـابيـة ومجمـوعة عظيمة من الأقمشة وضعت في متحف دمشق ، ووضـع ومعـاونـاه مخطـط الشـوارع الـرئيسية ووضع المباني وقدم تقريراً بذلك الى مديرية الآثار السورية .

تظهر مقبرة وراء الباب الجنوبي . وهناك حي خارجي يمتد بين سور المثلث وبين سور آخر للدفاع يقع على بعد أربعمائة متر . وآثار السور الثاني لا تزال ويبلغ طولـه ثلاثـة كيلومـترات ونصف ويقـع كله ضمن حلبيـة ويتجـه من الشمال الى الجنـوب . ويبـدو أنه يقطع الحمة بعرضها ، وهذا السور مبني بالحجر البازلتي ومعه برج يشكـل خطـاً أوليـاً للدفـاع يحمي مؤخـرة المدينة ، وعلى بعد كيلومتر جنوب السـور برج جنـائـزي تنتهي عنـده المقـبرة وحـول البرج اكتشفت كنيسة صغيرة وبعض التوابيت .

ان قسـماً من السـور فقـط يمكن نسبتـه الى جوستنيـان ، أما القسم الآخر فيعـود الى عهـد أقـدم ، والاختلافات بين هذين القسمين ظاهرة في أسلوب البناء وفي مادته . وتوجد كنيسة في الجهة الغربية هي من عهد جوستنيان وأخرى في الجهة

الشرقية أقدم . ان أسلوب البناء في هذه المدينة موضعي خاص بمناطق الفرات ، والمواد هي الاعتيادية المستعمل فيها الجص .

لم يبق من آثار تدمر في حلبية الا أبراج جنائزية تتألف من طابقين أو ثلاثة وأهرام تدمرية للقبور دون الاهارم الموجودة في تدمر في الصنعة والفن .

ولا تعرف بلدة اسلامية عند زلبية التدمرية . وزلبية هذه التي تقع على ضفة الفرات الشرقية جنوب حلبية على بعد ثلاث كيلومترات مرتفع من الحجر الجصي كان عليه قلعة ذات أسوار وأبراج مبنية بالحجر الجصي وقد جرف النهر هذا المرتفع لأنه يمر من تحته مسرعاً لوجود آثار سد شماله وذهب بمعظم القلعة . والى شمالها في السهل على سفح هضبة حمة الجزيرة آثار رسوم أبنية من الحجر البازلتي هي زلبية القديمة الآشورية التدمرية يذهب إليها من دير الزور عبر الجزيرة على بعد ٦٥ كيلو متراً في أراضي قرية الكبر من قرى ناحية الكسرة التابعة لدير الزور.

قرقيسيا
(البصيرة)

نهر الخابور عبر التاريخ

الجزيرة الفراتية او الجزيرة السورية عبارة عن نهر الخابور

كان حتى العشرينات من قرننا يبدو وكان لا شأن له ولا خطر.

ومؤخراً تبرز أهميته الاقتصادية والوطنية بروزاً ظاهراً، يلفت إليه الانظار، ويسترعي الاهتمام بفضل جهود ابنائه والتفات الحكومة السورية اليه اكثر من قبل، يشهد تدفق النفط والسكك الحديدية - تفتحت العيون والأذهان على أهمية حوض الخابور لا في حياة الجزيرة الفراتية حيث يجري النهر فحسب، بل في حياة سورية واقتصادها.

كان للخـابـور اهميـة كبـيرة في العصور القديمة، فقد شهد حوضه الأعلى حضـارات تعـاقبت، وشهـدت ضفافه بين منابعه ومصبه في الفرات عمراناً وقرى ومدناً منذ عصور قديمة، طوله ٤٥٠ كيلومترا، يشكل واديه ولاية واسعة، حفلت ببلدان جمة.

اجتـذبت تلول الخـابـور الاصطنـاعيـة القديمة ومواقع مدنه الاثرية علماء وبـاحثـين ومنقبـين آثـاريـين منـذ منتصف القـرن التاسع عشر، كتبوا عنها بحوثا ومؤلفـات، من أشهـرهم هنـري لا يريد الانكليزي، وارنست هرتزفلد الالماني، والبارون ماكس فون اوبنهايم الألماني، والذي قام بحفريات في تل حلف بالقرب من مدينـة رأس العـين في أعـالي الخـابـور، في الـربـع الأول من القـرن الحـالي، استمـرت عشـرين سنـة، أسفرت عن الكشف عن حضارة متميزة، اطلقوا عليها تل حلف او الحضـارة الميتـانيـة نسبـة إلى الشعب الميتـاني، الـذس أسسها، وقد عاصرت حضارات مصر وآشور وكان لها معهما علاقات.

نقلت الآثـار الميتـانيـة المكتشفـة في تل حلف إلى المتحف الوطني بحلب، وإلى متحف أسسـه البـارون أوبنهايم في برلين، كان واجهته تحمل عبارة «متحف تل حلف» دمـر في أثنـاء الحـرب العـالمية الثانية. ونشر أوبنهايم عدة مؤلفات عن جغرافية المنطقة وتاريخها وعن تنقيباته وضمَّنها رسوماً ومخططات عديدة.

ما زال موقع تل حلف وتل الفخيرية يجتذبان بعثات آثارية اميركية والمانية.

ليس عدد المصـادر التـاريخيـة التي ذكـرت الخـابـور بأقـل من التي ذكـرت الفرات. ولقد ذكر الجغرافيون المسلمون من بلدان الخابور واوصافها اكثر مما ذكروا من بلدان الفـرات. وزار حوض الخـابـور علماء آثاريون ومنقبون بقدر ما زار منهم وادي الفـرات. وسبق التنقيب الأثـاري بتل حلف، التنقيب في الحريري ـ مدينة ماري ـ على الفرات بمنطقة ابو كمال بمحافظة دير الزور.

عاصـرت حضـارة ماري التي ازدهرت في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد

حضـارة تل حلف، وكـان بين المدينتين صلات ودية وثيقة، اقتضتها وحدة المنطقة والمصالح الاقتصادية والدفاعية.

كان الخـابـور منـذ القـديم بغـزارة ميـاهه وخصوبة سهوله، واعتدال هوائه أسـاس قيـام حضـارات قديمة أقدم ما نعرفه هي الحضارة السوبارية التي اوجدها الشعب السـوبـاري في أعـالي الخابور. وسميت البلاد التي عاش عليها: سوبارتو، لم تكن تقل حضارة عن حضارة بابل ومصر. وقد خلفتها الحضارة الميتانية. وجاء الآراميـون بعـد عشـرة قرون من خراب تل حلف، وبعثـوا العمـران في المنطقة، وشادوا المساكن والقصور فوق تل حلف، واحاطوه بأسوار حصينة، واقتبسوا فنون السكـان الأصليـين، وظهر نشاطهم في مجالات البناء والتجارة وتأسيس الامارات والممـاليـك في بلاد ما بين النهـرين وفي سوريـة، منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ونشروا لغتهم الآرامية وآدابهم في سورية والعراق وبلاد ما بين النهرين وفلسطين.

ولما جاء الآشوريون أخضعوا الممالك الآرامية ودمروا قواعدها، والتفتوا إلى أهميـة الخابور، وأنشأوا على ضفافه القلاع والمراكز. وكان بعض ملوكهم يأتي من نينوى حاضرة الآشوريين على دجلة في الشمال لصيد الفيلة في غابات الخابور الممتدة.

ولما استولى الفرس على الجزيرة الفراتية عنوا بشؤون الري، فحفروا الترع واقاموا السدود على نهر الخابور، فكانت الحقول المسقية تمتد مسافات بعيدة على جانبي النهـر وفي سهول الجزيرة الفراتية، وكانت أقنية الخابور ونهر دورين، احدى الـترع القـديمـة، وهي خربة اليوم، كانت تخرج من الخابور وتجري مسافة ثمانين كيلومترا في السهل على ضفة الخابور الشرقية تسقي هذا السهل، ويرجع تاريخها إلى عهد دار الثالث العاهل الفارسي. وتحمل اسمه، وما تزال اثارها بادية للعيان.

وعنـدمـا استولى الاغريق على هذه البلاد بقيادة الاسكندر الكبير، أفادوا

من مراكز حضارات الخابور فبنوا مراكز جديدة على بعضها، فقد اظهرت الطبقة العائدة للعصر الاغريقي في تل حلف مساكن يونانية.

وفي اثناء الحكم الروماني لهذه البلاد اهتموا بها، واتخذوا من ضفاف النهر خط دفاع ضد الفرس المجاورين لهم والطامعين بمد حدودهم إلى الغرب، وازداد عمران حوض الخابور، برغم الحروب بين الدولتين الفارسية والرومانية ووقع بلدان الخابور تارة بين الفرس وأخرى بيد الرومان، مما عرضها للنكبات.

في العهد العربي ازدهر حوض الخابور، حيث تمتع بالأمن افاد السكان من اتساع رقعة المملكة العربية في العصرين الأموي والعباسي، وافاد وادي الخابور من الطريقين الكبيرين في المملكة العباسية: طريق الموصل حلب، وطريق الفرات بين الانبار وحلب، فضلاً عن الطريق المائية نهر الفرات، فازدادت اهمية مدينة رأس العين عند منابع الخابور لوقوعها على الطريق الأول، وأصبحت مركزاً تجارياً كبيراً، تفيد منها مدن الخابور، وازدهرت عليه مدينة الحربة.

وكان الخابور طريقاً مائية، نقل عليها سكانه القدماء الغلال الزراعية من فواكه وقطن في مراكب نهرية خشبية منذ العصور القديمة. ونشطت الملاحة في الخابور في العهد العربي وخاصة في العصر العباسي. كانت السفن تحمل القطن الفواكه إلى العراق منحدرة في الفرات. وكانت مدينة قرقيسيا ـ بلدة البصيرة حالياً ـ مرفأ تجارياً في أسفل الخابور ومرفأ تجارياً على الفرات بنفس الوقت على ضفته الشرقية، ترسو فيها السفن من أعالي الفرات وتغادرها بطريق الفرات إلى العراق.

كان حوض الخابور عامراً بالمدن والقرى والمزارع والحصون التي بقيت إلى تاريخ اجتياح التتار للجزيرة الفراتية وقتلهم السكان وتخريبهم العمران في القرن الثالث عشر للميلاد. وأعقب ذلك اجتياح تيمورلنك وتتابع مجيء العشائر العربية البدوية من الجزيرة العربية إلى الجزيرة الفراتية ذات المراعي الخصبة لأغنامها، واستوطنت براري الخابور، وكانت حرباً على ما تبقى من عمران وادي الخابور

الـذي ظل قفـراً حتى الفترة الأخيرة من العهد العثماني. حيث ساد الأمن نسبياً، فأفاد أشخاص من بلدتي ماردين ودير الزور من وجود السدود القديمة، ومن ركائز دواليب الماء القديمة، وصنعوا دواليب خشب جديدة لسقاية مساحات قليلة قريبة من ضفـاف الخـابـور إلى جانب السقـايـة بالدلو على البكرة. واجتذبت الزراعة الصغيرة المستجدة قسماً من أبناء عشائر براري الخابور الرحَّل.

وبذلك بعثت الحياة على ضفاف الخابور بعد بوار دام قروناً أعقب ازدهاراً.

كانت العشائر العربية التي تعيش في براري الخابور على ماشيتها في صراع دائم مع بعضهـا البعض سواء منهـا السورية او العراقية، ولم يتوقف الغزو لبعضها البعض إلا في السنـة ١٩٤٦، وكـانت كل من السلطـة الفـرنسيـة في سوريـة والانكليزية في العراق تشجع الغزو بين العشائر لاغراض استعمارية.

ذكـرت المصـادر السـريـانيـة وذكر الرحالون المسلمون والأجانب في العصر العباسي وما تلاه مدن الخابور، ووصفوا عمرانها باعجاب وهذه اهمها:

١ ـ رأس العين: من أمهات مدن الجزيرة الفراتية، عريقة في القدم، يرجع تاريخها إلى العهدين البابلي والآشوري، شاد الرحالون بعيون الماء الكثيرة فيها، وبعمرانها وسعتها واتصال الضياع الكثيرة بها. وكان يغلب على زراعتها القطن. أصـابهـا خراب بسبب الحـروب، وخـرج فيهـا كثـير من العلماء والأدبـاء، نسب بعضهم إليها.

٢ ـ المجدل: كانت مدينة حسنة في أسفل رأس العين، تتصل بها قرى عديدة.

٣ ـ ماكسـين، كانت مدينـة صغـيرة، كثـيرة الخيرات. وكان عندها جسر على الخابور. وكان يرتفع منها ومن المجدل قطن إلى خلاط والموصل.

وكـان فيهـا معاصر للزيت، ومركز للمكس ومنه اشتق اسمها. ونسب إلى بعضها الأدباء والعلماء.

٤ ـ عربان، وهي موقع عجاجة اليوم، كانت مزدهرة بالعهدين البابلي والآشوري. وكان لها أهمية استراتيجية كبيرة في عهد الروماني، حيث كانت المركز الرئيسي في خط الحدود بين المملكة الرومانية والمملكة الفارسية. وكانت في العهد العربي قاعدة الخابور، يصدر منها القطن إلى العراق وأرمينية. وتحمل منها ثياب القطن إلى الشام وغيرها. وتخرج منها طرق عديدة. وفي نواحيها مدن كثيرة غلبت عليها البادية. وبين عربان وقرقيسيا التي عند مصب نهر الخابور في الفرات، كانت توجد مدن صغيرة هي: الشماخية الحصين، والدارة، والشمسانية، والفدين، والصور، وتنينير، وسكير العباس، والعبدية، والجحشية، ومرقدة، وتل شدادي، والفدغمي، وتل الشيخ حمد، وتل طابان.

ودلت المراقبة الجوية لطريق رأس العين الحسكة على وجود آثار مدن حصينة، مكانها اليوم تلول كانت منشآت دفاعية، وكذلك التلول الموجودة حول الحسكة مركز محافظة الحسكة على الخابور الاوسط.

٥ ـ قرقيسيا عند مصب الخابور في الفرات، وهي أقدم مدن الخابور ومن أهمها بالنظر لتميز موقعها ولكونها ميناء على نهري الفرات والخابور. وكانت محطة للقوافل بين العراق والرقة ورأس العين وبادية الشام. سيأتي الكلام عنها بشيء من تفصيل بحكم انها عنوان هذه الدراسة وهدفها.

كانت مدن الخابور مراكز أدب وعلم منذ القديم، أسهمت بالحركة العلمية في العصور الآرامية والعصور العربية وبخاصة في العصر العباسي بما أخرجت من علماء وفقهاء، وأدباء وكتاب سريان وعرب، نسب بعضهم إلى مدائنهم فقيل الرسعني نسبة إلى رأس العين والمجدلي نسبة إلى المجدل والماكسيني نسبة إلى ماكسين، والقرقساني نسبة إلى قرقيسيا.

ونسب بعض ادباء الخابور إلى قبيلته كالعتابي نسبة إلى بني عتاب من قبيلة تغلب وهو من رأس العين، والنمري وهو منصور التمري نسبة إلى عشيرته نمير من قيس موطنه رأس العين ونسب أدباء آخرون إلى المنطقة فقيل الخابوري

وثمـة أدبـاء وشعراء فحول موطنهم بين الخابور والفرات هم من أبناء الجزيرة الفراتية امثال عمرو بن كلثوم والاخطل القطامي . والاسهان الاخيران ألقاب .

ولشعـرائـه القدامى وآخرين شعر في احداثه التاريخية وفي اسماء اماكنه روته كتب تاريخ الأدب وكتب التاريخ بصورة عامة .

وكـان النتـاج الأدبي الخـابوري رافداً غزيراً نميراً، رفد نهر الأدب العربي حقبة طويلة . سنتعرف على بعض شعر القطامي التغلبي والذي قاله في مدح أمير قرقيسيـا الشـاعر الفارس الجواد، زفر بن الحارث الكلابي المتوفي عام ٧٥هـ وعلى قصيـدة رثـائيـة قالتهـا احـدى نساء الخوارج في الجزيرة الفراتية الفارعة ليلى بنت طريف الشـاري ، ترثي بها أخـاهـا الـوليـد بن طريف الشـاري الشيباني ، القائد الخارجي الكبير والذي نازل جيش الرشيد بالقرب من الخابور، وقتل في المعركة . في سنـة ١٧٨هـ . جاء في هذه المـرثيـة بيت مشهـور، يذكـر كلما ذكـر نهر الخـابور وواديه ، يستشهدون به على كثرة الاشجار بوادي الخابور في العصور القديمة . في حين انه يكاد يخلو اليوم من الاشجار برغم العمران الذي اخذ يدب فيه مؤخراً . ثم لا يعلم معظم رواة بيت الفارعة من أمر قائلته ، ولا من امر ظروف قوله وتاريخها شيئاً . واكثـر ما يستشهـد المستشهـدون على شجر الخابور بالشطر الأول من بيت الفارعة ، ويظلمون هذا البيت بعدم روايته بشطريه وهما :

فيـا شجـر الخـابـور مالـك مورقـاً　　كأنـك لم تجزع على ابـن طريـف
فتـى لا يحب الـزاد إلّا من التقى　　ولا المـال إلا من قنـاً وسـيـوف

جاء اسم الخابور في مصادر عبرية ويونانية وفارسية ورومانية وآرامية وعربية وافرنجية بصيغ مختلفة .

وسميت منطقـة الخـابـور في بعض المصـادر العربية بـ «خابوراء» نسبة إلى الخـابـور. قال ياقـوت في معجم البلدان : «فهـو اسم لنهـر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ولاية واسعة وبلدان جمة ، غلب عليها اسمه ، فنسبت اليـه من البـلاد قرقيسيا ، وماكسين والمجدل وعربان ، واصل هذا النهر من العيون

التي برأس عين، وينضاف اليه فاصل الهرماس ومد، وهو من نهر نصيبين، فيصير نهراً كبيراً، ويمتد فيسقي هذه البلاد ثم ينتهي إلى قرقيسياء فيصب عندها في الفرات».

ذكر الخابور في سفر الملوك وسفر حزقيال من اسفار العهد القديم (التوراة) وسفر حزقيال كتب على الخابور في أثناء السبي اليهودي، فهو من الأدب الخابوري القديم. ان الجزيرة الفراتية على شهرتها واتساعها تكاد ان تكون وادي الخابور.

ذكر الاخطل الخابور بقوله:

اراعتك بالخابور نوق وأجمال ... ورسم عفته الريح بعدي باذيال

وقال الربيع بن ابي الحقيق اليهودي من بني قريظة:

دور عفت بقرى الخابور غيرها ... بعد الأنيس سوافي الريح والمطر

ان تُمسِ دارك ممن كان يسكنها ... وحشا فذاك صروف الدهر والغير

وتعصب بعضهم لماء الخابور وفضله على ماء الفرات العذب، انشد ابن الاعرابي:

رأت ناقتي ماء الفرات وطيبه ... أمر من الدفلى الذعاف وأمقرا

وحنت إلى الخابور لما رأت به ... صياح النبيط والسفين المقيرا

فقلت لها: بعض الحنين فان بي ... كوجدك إلا أنني كنت أصبرا

ولما كان الأدب من ابرز سمات الأقوام واكثرها دلالة عليها، ولما كان لوادي الخابور أدبه عبر القرون وبخاصة أدبه العربي، اقتضى ان اذكر نموذجاً في قصيدة الفارعة ليلى بنت طريف الشيباني، رثت بها أخاها الوليد بن طريف الشيباني الذي خرَج في سنة ١٧٨هـ. بالجزيرة الفراتية وآرمينية. واتسع امره وجبى الأموال، فسير الرشيد اليه يزيد بن مزيد الشيباني، فقاتله. فقتله، بالقرب من موقع الصور على الخابور الأوسط حيث لا يزال قبره. ومرثية الفارعة هذه تعد من الطف الرثاء وفاخر الشعر العربي:

بتل نهاكا رسم قبر كأنه … على جبل فوق الجبال منيف
تضمن مجداً عد مليا وسؤددا … وهمة مقدام ورأس حصيف
فيا شجر الخابور مالك مورقا … كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى … ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم … معاودة للكرّ بين صفوف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم … مقاماً على الأعداء غير خفيف
حليف الندى ماعاش يرضى به الندى … فان مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الربيع وليتنا … فديناك من فتياتنا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه … شجاً لعدو او نجا لضعيف
ألا يا لقوم للحمام وللبلى … وللأرض همت بعده برجوف
ألا يا لقومي للنوائب والردى … ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى … وللشمس لما أزمعت لكسوف
ولليث كل الليث إذ يحملونه … إلى حفرة ملحودة وسقيف
الا قاتل الله الحشى حيث اضمرت … فتى كان للمعروف غير عيوف
فان يك اوداه يزيد بن مزيد … فرب زحوف لفها بزحوف
عليه سلام الله وقفا فاني … ارى الموت وقاعا بكل شريف

موقع قرقيسيا (البصيرة):

ان مكاناً يقع في رأس المثلث الذي يؤلفه الفرات والخابور عند التقائهما خصب التربة. وملتقى طرق برية ومائة كموقع قرقيسيا من المؤكد انه كان مأهولاً بالناس منذ عصور قديمة، ومن المؤكد انه كان من الناحية الاستراتيجية هاماً. فأولاه العسكريون اهتمامهم وعنايتهم لأهميته الجغرافية والاقتصادية.

ان موقع قرقيسيا هو القسم الأسفل من نهر الخابور، ومنطقة قرقيسيا هي في

القسم الجنوبي من الجزيرة الفراتية اوبلاد ما بين النهرين ـ مهد الحضارات الزاهية في التاريخ. والتي عرفها الاغريق باسم (ميزوبوتاميا) أي بلاد الأنهر، وغلب عليها اسم الجزيرة، وخصوها باضافة الفرات وقالوا الجزيرة الفراتية، نسبت إلى اخص نهريها الفرات. وسماها بعض السوريين: الجزيرة السورية.

تقع قرقيسيا على خط طول (٢٥ , ٤٠) درجة شرق غرينويتش، وعلى درجة عرض (١٠ , ٣٥) شمال خط الاستواء، وترتفع عن سطح البحر ٢٣١م، وهي واقعة على الضفة اليمنى لنهر الخابور، على تل اصطناعي مرتفع عن أرض الدلتا. وهي بالنسبة إلى الفرات تقع على ضفته الشرقية. وهي نقطة اتصال بين حوض الخابور الأعلى وحوضه الأسفل، وصلة الوصل بين القسم الجنوبي من الجزيرة الفراتية والقسم الشمالي والغربي من العراق، لا تبعد عن الحدود العراقية سوى ١١٠ كيلومترات. وتقع شرقي مدينة دير الزور على بعد ٤٣ كيلومترا. وعن بلدة الحسكة الواقعة على الخابور الأوسط ١٧٥ كيلومتراً، وعن بلدة المياذين التي تقع شرقيها ٦ كيلومترات، وتبعد عن نهر الفرات ٢٠٠م، ويجري الخابور في شماليها. احتار السكان موقع التل في القديم والحديث تحسباً لفيضان كل من نهر الفرات ونهر الخابور وطغيان مياه الفيض على الضفاف في فترة الفيضان، فيبدو التل كأنه قلعة حصينة، وفعلاً كان التل حصناً عسكرياً في العهود القديمة، ثم صار يجمع بين الحصن والمدينة فكان لها اسوار منيعة من الآجر ما زالت آثارها.

اسم المدينة:

كان في موقع البصيرة الحالية مدينة منذ اقدم العصور بالنظر لأهميته الجغرافية والاقتصادية والاستراتيجية، ضاع اسمها القديم بسبب القدم الموغل في التاريخ، كما يحدث في اسماء مدن الشرق الأدنى القديمة بسبب الحروب وتغير الأقوام التي تحتل المكان، وكل قوم يطلق على المكان اسماً ما يلبث ان يتناساه السكان، او يذهب مع الذاهبين من سكان المكان.

قيل ان اقدم ما عرف من اسم المدينة هو (ناباكاث)، ثم (شوبورا) أي المدينة الواقعة على الخابور وسميت ميلدا، اوميلد، وفي عهد الملك سرغون الأول ملك آشور في القرن التاسع قبل الميلاد، صار اسم المدينة (سركي)، وكانت من مملكة آشور، وفي السنة ٨٧٨ قبل الميلاد، امتنعت سركي وغيرها من مدن الخابور عن أدية الخراج إلى ملك آشور (ناصربال)، فاجتاحها، وضرب كل البلاد الواقعة على طول مجرى الخابور والفرات الأوسط، احرق المدن وذبح السكان.

وبعد ثلاثمائة سنة، ادخل دارا الأول العاهل الفارسي المنطقة في ولاياته الـ ٢٣، وعنى بريها واصبحت منطقة غنية بخيراتها الزراعية. أنشأ ترعاً تصل ما بين الفرات والخابور. وصارت منطقة الخابور أهراء لدولة الفرس وكانت حاصلاتها الزراعية الفائضة تنقل بالسفن على الفرات إلى فارس. وكانت قرقيسيا ميناء نهرياً على الفرات والخابور معاً، وإلى ذلك ترجع اهميتها فضلاً عن خصب دلتا النهر حيث موقعها الممتاز.

وكانت منطقة الخابور نقطة حدود بارزة بين الحدود الفارسية والحدود الرومانية، ثم البيزنطية، ولذا قامت الحصون على ضفاف الخابور مراكز دفاعية وقرقيسيا نفسها كانت حصناً عسكرياً لحماية الطريق التجارية والعسكرية النهرية، ولحماية الحدود والسكان.

وفي العهد اليوناني سميت المدينة: «كيركسيون» او، «كيركيسون كاسترون»، وكاسترون، تعني في اليونانية قلعة، وكاركا في الآرامية تعني مدينة.

جاء في كتاب (مختصر الدول) لأبي الفرج الملطي ص ١٠٠ «وفي زمان بطليموس اورغاطيس الملك اليوناني من خلفاء اسكندر الكبير، بنيت قرقيسيا، وقالوا نيقوس (الرقة) وهذا يدل على قدم قرقيسيا، مع ان تاريخها يرجع إلى زمن اقدم بكثير مما ذكر ابن الملطي.

وفي الاحتلال الروماني لمنطقة الخابور بعد احتلال سورية، اطلقوا على

سركي القديمة اسم (سيرسيوم) ومعناها القصر المحتوي على حلبة للخيل واسم سيرسيوم مشتق من الاسم الآشوري سركي .

ان هذه الاسماء تدل على ان الموقع ، كان منذ القديم قلعة أوحصناً اومخفراً للجند ، ويضم حلبة ، وكيركيس في اليونانية معناها حلبة ، وكل حصن عسكري قديم او محطة عسكرية قديمة لا بد من ان تضم خيولاً لجنودها .

اولى الامبراطور الروماني دقلسيان مدينة قرقيسيا اهتماماً خاصاً لأهميتها وحسن موقعها . فجعل منها حصناً قوياً على الحدود الأكثر تقدماً للإمبراطورية الرومانية في بلاد ما بين النهرين الجنوبية .

اجتازت بمنطقة قرقيسيا جيوش كثيرة رومانية وفارسية وعربية وتترية وفرنسية لتلتقي في معارك كبيرة ، ولتؤول المدينة إلى المنتصر وهي في كل ذلك بين المطرقة والسندان .

كان سيرسيوم في العهد البيزنطي مركز أسقفية ، وكان عدد سكانها ستين الفاً ، وبنتيجة المعاهدة الخجلة التي وقعها الامبراطور الروماني جوفيان في سنة ٣٦٣ بعد الميلاد، وقعت المدينة بيد الفرس في أثناء استيلائهم على الجزيرة الفراتية .

في أواخر القرن التاسع عشر قامت بعثة (البارون فون أبنهايم) الألمانية والبعثة الانكليزية (فوكس تالبت) ببعض الحفريات ، التي اسفرت عن ان وادي الخابور ووادي الفرات ، كانا أيام ابراهيم الخليل السنة (١٠٥٠) قبل الميلاد مقسمين إلى امارات صغيرة عديدة ، لكل امارة ملك لا تتعدى مملكته بعض الضياع ، وكانوا في نزاع شديد وقتال مستمر فيما بينهم . لعل موقع قرقيسيا كان مركز احدى تلك الامارات .

وفي مطلع السنة الثالثة عشرة للهجرة الموافق شهر آذار السنة ٦٣٤م في اواخر عهد الخليفة ابي بكر الصديق ، توجه القائد العربي خالد بن الوليد ، الذي كان يحارب في العراق بناء على كتاب ابي بكر يأمره فيه بالتوجه إلى الشام مدداً

للقائد ابي عبيدة بن الجراح الذي كان على أطراف الشام من الجهة الجنوبية. قال الـواقـدي: «خـرج خالـد من سوى إلى الكـواثـل، ثم اتى قرقيسيا، فخرج اليه صاحبها في خلق، فتركه وانحاز إلى البر ومضى لوجهه، واتى أرك. . ».

وفي كتـاب الخـراج لأبي يوسف، ان خالـداً توجه من الحيرة واتى عانات، ثم مضى إلى بلاد قرقيسيـا، فأغـار على ما حولهـا، وأخـذ الأموال وحاصر أهلها أيـامـاً، حتى أجـابـوه إلى الصلح» ومن منطقـة ديـر الزور توجه إلى اليرموك ماراً بتدمر، ولم يكن ذلك فتحاً لقرقيسيا.

ان تاريخ قرقيسيا قبل الاسلام غامض، وليس تاريخها في العهد الاسلامي بأكثر وضوحاً، قلَّ ان ذكرتها المصادر العربية بأكثر من كلمة او عبارة.

عرَّب العـرب الـذين كانـوا يقيمون في الجزيرة الفراتية وفي بادية الشام قبل الاسـلام اسمهـا القديم اليوناني كركيسوم، الذي كان يغلب على المدينة اكثر من اسمهـا الـروماني (سيرسيوم) ذي الأصل الآشوري فصار قرقيسيا معرب كركيسيا وهـو اسم لحلبـة الخيـل يجيء بالألف الممـدودة والهمـزة. وكثيراً ما يجيء في الشعر مقصوراً والنسبة العربية اليها قرقساني وجاء بياء واحدة لضرورة شعرية: قرقيساء.

فتح العرب لقرقيسيا:

فتحت قرقيسيـا اول فتـح سنـة ١٦هـ، وكـانـت اسقفيـة بيد الروم في عهد فتوحات الخليفة عمر بن الخطاب، وكان سبب فتحها ان اهل الجزيرة الفراتية من تغلب وغـيرهـم أمـدوا جيش هرقل في حمص التي كان يحاصرها القائد العربي ابو عبيـدة الجـراح، وبعث الـروم جنـداً إلى أهل هيت، لصد الجيش العربي عنها، فكتب الخليفـة عمـر بن الخطـاب إلى قائـده في العـراق سعد بن ابي وقاص، ان يهاجم الجـزيـرة الفراتية لاشغال اهلها عن إمداد هرقل في حمص، وليلحق المقاتلة العـرب في جيش هرقـل ببـلادهم في الجزيرة الفراتية، فأرسل سعد بن أبي وقاص إلى الجزيرة عمرو بن مالك الزهري في جند، وجعل على مقدمته الحارث بن يزيد

العـامـري ، فخـرج عمـرو بن مالك واتى هيت فنازلها ، وخلف عليها الحارث بن يزيد يحاصرها وخرج في نصف الناس ، فجاء قرقيسيا على عرة ، فأخذها عنوة سنة ١٦ للهجرة . ونزل أهلها على حكمه ، فقال عند ذلك :

ونحن جمعنـا جمعهم في حفـيرهم	بهيت ، ولم نحفـل لاهـل الحفـائـر
وسـرنـا على عمـد نريـد مدينـة	بقـرقيسيـا سير الكـماة المسـاعـر
فجئنـاهم في دارهم بغتـ[ـة]ضحى	فطـاروا وخلوا أهـل تلك المحـاجر
فنـادوا إلـينـا من بعيـد بأننـا	نديـن بديـن الجـزيـة المتـواتـر
قبـلنـا ولم نردد عليـهـم جزاءهـم	وحطنـاهم بعـد الجـزا بالبـواتـر

لم يطـل الاستيـلاء على قرقيسيا ، وتركها العرب موقتاً ليتفرغوا لمعاركهم مع الفرس والروم ، على ان حملة الجزيرة هذه قد حققت غرضها الذي قصده الخليفة عمر بن الخطاب ، وفتح ابو عبيدة الجراح حمص .

وبعـد فتـح العـرب لحلب سير أبو عبيدة قائده عياض بن غنم إلى فتح بلدان الفـرات والجـزيـرة الفـراتيـة ففتح بالس (مسكنة) وسار إلى الرقة ، وعسكر فيها ، لينطلق منهـا إلى رأس عين والـرهـا وقـرقيسيـا . وسار جيش المسلمين إلى قرقيسيا بقيادة عبد الله بن غسان وسهل بن عدي ، ولما نزل المسلمون على قرقيسيا ، وقتل عدد من متقـدميهـا ، وضـايقهـا المسلمون ، وفتحوا ثغرة في سورها دخلوا منها إلى المـدينـة ، ووضعـوا السيف في اهلهـا ، واحتـووا على ما كان فيهـا من الأمـوال والـذخـائـر . فأمنهم القـائدان عبد الله بن غسان وسهل بن عدي . وعرضا عليهم الاسلام ، فمنهم من اسلم فوهبوا له أهله وماله ، ومن ابى وضعت عليه الجزية ، وكـان فتحهـا في أول ليلة من شهـر رمضـان سنـة اثنتـين وعشرين للهجرة ، وبنوا الكنيسة العظمى وهي بيعة جرجيس جامعا ، ولم يبرحوا حتى صلوا فيه ، واطلقوا الـرهـائن ، وتسلَّم ولايتهـا حبيـل بن كعب في مائة وخمسين رجلاً ، واتخذت قاعدة لفتـح بلدان الخـابور. فارتحل عبد الله بن غسان عن قرقيسيا ، ونزل على ماكسين صلحـاً على اربعـة آلاف درهـم من نقـد بلادهـم وألف حمل طعام حنطة وشعير ،

فقلقوا من ذلك، فترك لهم النصف، وكذلك أهل الشمسانية، ثم نزل على عربان، فصالحوه بما صالح به أهل مكسين، ثم ارتحل إلى المجدل.

ولما فتح عبد الله بن غسان ارض الخابور صلحاً وأقام بالمجدل، أنشد قيس بن أبي تحازم البجلي هذه الأبيات:

أقمنا منار الدين في كل جانب — وصلنا على أعدائنا بالقواضب
ودان لنا الخابور مع كل اهله — بفتيان صدق من كرام العرائب
هزمناهم لما التقينا بماسح — وثار عجاج النقع مثل السحائب
وجندل وفد الروم في كل جانب — تركناهمو في القاع نهباً لناهب
فلله حمد في المساء وبكرة — وما لاح نجم في سدول الغياهب

قال الزهري: لم يبق بالجزيرة موضع قدم إلا فتح على عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على يد عياض بن غنم: فتح حران والرها والرقة وقرقيسيا ونصيبين وسنجار.

وحدث ابو عبد الله القرقساني عن أشياخه: ان عمير بن سعد، لما فتح رأس العين سلك الخابور وما يليه حتى قرقيسيا، وقد نقض أهلها. فصالحهم على مثل صلحهم الأول، ثم اتى حصون الفرات حصناً حصناً ففتحها على ما فتحت عليه قرقيسيا، ولم يلق في شيء منها كثير قتال.

واصبحت قرقيسيا قاعدة عربية اسلامية لادارة بلاد الخابور.

ولما عبر الخليفة الرابع علي بن ابي طالب الفرات من الكوفة إلى الجزيرة متوجها نحو الرقة لمحاربة معاوية في سهل صفين، أرسل قسماً من جيشه ليسير على ضفة الفرات الغربية، ولكن هذا القسم من الجيش خاف جيش معاوية الذي كان أكثر عدداً وعدة، فأراد ان يعبر الفرات من عانات ليلحق بالجيش العام، فمنعهم أهلها، وحبسوا عنهم السفن، فرجعوا وعبر وا من هيت ثم لحقوا علياً بقرية دون قرقيسيا.

قرقيسيا في العهد الأموي :

مركز للقيسيين ولزعيمهم زفر بن الحارث الكلابي .

كان على قرقيسيا عياض الحرسي ولاه اياها يزيد بن معاوية .

ان اهم حادث اقترن بتاريخ قرقيسيا في العصر الأموي هو التجاء زفر بن الحارث الكلابي ، ابو الهذيل زعيم قيس مع رهط من قومه اليها ، واستيلائهم عليها واعتصامهم بها بعد وقعة مرج راهط شمالي دمشق سنة ٦٥ هـ و ٦٨٤ م وانتصار مروان بن الحكم على أنصار عبد الله بن الزبير الذي بويع له بالخلافة في مكة بالحجاز وفي أمصار أخرى . كان زفر والياً على قنسرين ، من انصار عبد الله بن الزبير ، ولما بلغته هزيمة قيس الموالية لابن الزبير ، ومقتل زعيمها الضحاك بن قيس الفهري ، الذي كان عاملاً للأمويين في دمشق ، غير ان هواه كان في ابن الزبير ، وما لبث ان بايعه ، وأخذت قيس كلها في الشام تدعو إلى نصرة ابن الزبير ، وكلب تدعو إلى بني أمية .

وسار الضحاك ومن معه من قيس والناس ، حتى نزل مرج راهط ، وأظهر البيعة لابن الزبير ، وبايعه على ذلك جلّ أهل دمشق . واجتمع بنو أمية وكلب بالجابية بحوران ، واستخلفوا مروان بن الحكم ، وبايعوه في /٣/ ذي القعدة سنة ٦٤ هـ . فسار مروان إلى مرج راهط ، ومعه كلب وغسان والسكاسك والسكون في سبعة آلاف رجل وكان الضحاك في نحو عشرين ألفاً ، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً استمر عشرين يوماً . وأسفرت اليمانية في قتل قيس ، قتل منها عدة آلاف . فهزم دعاة بان الزبير وانتصر مروان ابن الحعكم .

وكان زفر يوم وقعة مرج راهط في قنسرين والياً لعبد الله بن الزبير وكان يبعث بالمدد إلى الضحاك بن قيس .

ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين ، سار إلى قرقيسيا ، واجتمعت عليه قيس ، وصحبه في هزيمته إلى قرقيسيا شابان من بني سليم

فجاءت خيل مروان تطلبهم، فقال الشابان لزفر: انج بنفسك فانا نحن نقتل، فمضى زفر وتركهما، فقتلا، وقال زفر في ذلك:

أريني سلاحي لا أبا لك انني ... ارى الحرب لا تزداد إلاّ تماديا
أتاني عن مروان بالغيب انه ... مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الأرض مهرب ... إذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبوني ان تغيبت غافلا ... ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا
لعمري لقد أبقيت وقيعة راهط ... لحسان صدعا بيننا متنائيا
اتذهب كلب لم تنلها رماحنا ... وتترك قتلى راهط هي ماهيا
أيذهب يوم واحد ان أسأته ... بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا
الا ليت شعري هل تصيبن غارتي ... تنوخا وحيي طيء من شقائيا

فأجابه حواس بن القعطلي بمقطوعة منها:

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط ... على زفر مراً من الداء باقيا
مقيماً ثوى بين الضلوع محله ... وبين الحشا أعيا الطبيب المداويا
وتبكي على قتلى سليم وعامر ... وذبيان معذوراً وتبكي البواكيا
دعا بالسلاح ثم أحجم إذْ رأى ... سيوف جناب والطوال المذاكيا

وقال عمرو بن الجلي الكلبي يجيب زفراً من قصيدة:

بكى زفر القيسي من هلك قومه ... بعبرة عين ما يجف سجومها
ويبكي على قتلى أصيبت براهط ... تجاوبها هام القفار وبومها
فمت كمدا أو عش ذليلاً مهضما ... بحسرة نفس لا تنام همومها

لحق زفر بن الحارث بقرقيسيا، وكان عليها عياض الحرسي عاملاً ليزيد بن معاوية، فدخلها زفر، وتغلب عليها وأخرج عاملها وتحصن بها، وجعلها قاعدة لقيس الذين خرجوا من أرض الشام بعد وقعة مرج راهط، إلى الجزيرة الفراتية،

ونفوسهم تغلي بالحقد، وتحصنوا بديار مضر، وأمروا عليهم زفرا، وعقدوا العزم على الانتقام لأنفسهم من كلب.

كانت قيس تشن من قرقيسيا غاراتها على كلب، وانضم إليها عمير بن الحباب السلمي، وقد استطاع زفر ان يضم اليه أيضاً تغلب، التي تسكن ديار ربيعة بالجزيرة الفراتية، وهي أعظم قبائل ربيعة، وهي وقيس من عدنان. والعداء قديم بين عدنان وقحطان (اليمن)، فشاركت تغلب في الاغارات التي كانت قيس تشنها على كلب في مواطنها.

وكان شعراء كلب ينددون بتغلب، فكان الأخطل شاعر تغلب يهجو (كلب)، ويتغنى بأمجاد نزار بن معد بن عدنان.

كان من الممكن ان يطول الاتحاد بين قيس وتغلب، لولو تقم قيس بعد أخذها بثأرها لقتلى راهط بالتغلغل في الجزيرة الفراتية، والدعوى لالابن الزبير، ونزول عمير بن الحباب السلمي بالخابور، وهومنازل تغلب. وأخذت فروع قيس تعتدي على تغلب، وتستلب أموالها، فضاق بنو تغلب بذلك، وطلبوا من زفر أن يجلي سليماً قوم عمير بن الحباب عن أراضيهم، فرفض، ودعت قيس تغلب إلى الدخول في طاعة ابن الزبير، وطالبتها بالصدقات التي كانت تدفعها إلى عمال بني أمية، فرفضت تغلب، وتمسكت بولائها للأمويين، لارتباط حياتها الاقتصادية بالشام، وصممت على طرد القيسية من ديارها، فوقعت بين القبيلتين عدة وقعات. منها وقعة (ماكسين) على الخابور، انهزمت فيها تغلب. وقتل كثير من رجالها، وبقرت بطون نساء منهم.

فحشدت تغلب أنصارها، والتقت بقيس على (الثرثار) واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت قيس، وقتلت تغلب ومن معها مقتلة عظيمة، وبقروا بطون ثلاثين امرأة من بني سليم. وتعددت الوقعات بين قيس وتغلب، فكان يوم الثرثار الثاني، ويوم الفدين، ويوم السكير، ويوم الشرعبية، ويوم البليخ، ويوم الكحيل، ويوم البشر، وغيرها، وقد أرّخ لها ابن الأثير في الكامل، وكلها في السنة ٧٠ هـ

وكانت الحرب بينهما سجالاً، وقد اشترك زفر بن الحارث في اكثر هذه الحروب وشارك فيها كل من الشاعرين التغلبيين الأخطل والقطامي ووصفاها في شعرهما.

واستمرت الحرب بين قيس وتغلب، حتى تدخل الخليفة عبد الملك بن مروان فأوقفها، لأنه يريد ان يتفرغ إلى حرب مصعب بن الزبير في العراق.

وفي يوم من الأيام بين تغلب وقيس، هزمت تغلب، واسرت قيس القطامي الشاعر التغلبي، وأخذ ماله، فقام زفر بن الحارث الكلابي بأمره حتى رد عليه ماله ووصله، فمدحه القطامي بشعره.

ولاتصال حياة هذا الشاعر الفراتي بحياة زفر بن الحارث الكلابي وبتاريخ قرقيسيا اقف عنده وقفة قصيرة، نتعرف على ملامحه وشعره ومنزلته:

قال عبد الملك بن مروان للأخطل ذات يوم: اللهملا، إلا شاعر مغدف القناع، خامل الذكر، حديث السن، إن يكن في احد خير، فسيكون فيه، ولوددت اني سبقته إلى قوله:

يقتلننا بحديث ليس يعلمنه	من يتقين ولا مكنونه بادي
فهن ينبذن من قول يصبن به	مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

وكان ذلك الشاعر الخامل الذكر: عمير بن شييم بن حبيب، ولقبه القطامي من الأراقام، والأراقم أحياء من تغلب، والقطامي من اسماء الشاهين ومن القاب السادة الأشراف، وله لقب ثان: صريع الغواني لقوله:

صريع غوانٍ راقهن ورقنه	لدن شب حتى شاب سود الذوائب

ولقد لقب مسلم بن الوليد الشاعر العباسي بصريع الغواني بعد ذلك، لقبه الخليفة هارون الرشيد لقوله:

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا	وتغدو صريع الراح والأعين النجل

لم تذكر المصادر تاريخ ميلاد القطامي، ومكان ولادته، ومكان ترعرعه بل اكتفت بذكر نتف قليلة من اخباره، والروايات مختلفة في تاريخ وفاته وأصحها انه توفي سنة ١٠١هـ، الموافقة ٧١٩م.

كان قد مدح عبد الواحد بن سليمان، وزفر بن الحارث الكلابي، واسماء بن خارجة الغزاري.

روى المؤرخون أنه شاعر فحل رقيق الحواشي حلو الشعر حسن التشبيب وقد عده ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية الاسلاميين. غلب على شعره الوصف والمدح والغزل.

وقد عدّه رواة كثيرون احسن الاسلاميين ابتداء قصيد، حيث يقول:

إنّا محيوك فاسلم أيها الطلل	وان بليت وان طالت بك الطيل

القطامي شاعر مقل، استحسنوا شعره لرقة حواشيه وكثرة الامثال فيه ولحسن تشبيبه وحلاوة تعبيره.

ذكر ديوانه الحاج خليفة في كتابه كشف الظنون. وكان شرح ديوانه أبو سعيد الحسن السكري. وطبعه المستشرق برت اول مرة سنة **١٩٠٢** وهو في **٩٢** ص من الحجم الكبير في ليدن، ونقل إلى الألمانية، وعلق عليه عدة ملحوظات مع روايات شتى، وكتب له مقدمة باللغة الألمانية في (١٧ ص) وقد اخرج الدكتور ابراهيم السامرائي واحمد مطلوب طبعة جديدة للديوان محققة، لأن طبعة اوربا غير متيسرة، طبعت في بيروت في دار الثقافة سنة **١٩٦٠**، **١٩٦** ص من الحجم الكبير جيد الطبع مشكول.

قال القطامي يمدح زفر بن الحارث الكلابي من قصيدة في اثنين وسبعين بيتا يخاطب في مطلعها ضباعة ابنة زفر:

قفي قبل التفرق يا ضباعا	ولا يك موقف منك الوداعا
قفي داوي اسيرك ان قومي	وقومك لا أرى لهم اجتماعا
وكيف تجامع مع ما استحلا	من الحرم العظام وما أضاعا
ألم يحزنك ان حبال قيس	وتغلب قد تباينت انقطاعا
يطيعون الغواة وكان شراً	لمؤتمر الغواية ان يطاعا
الم يحزنك ان ابني نزار	أسالا من دمائهما التلاعا

فلا تبعد دماء ابني نار ... ولا تقر عيونك يا قضاعا
امور لو تدبرها حليم ... اذن لنهى وهيب ما استطاعا

ومنها في شكر زفر على إطلاقه وإنعامه عليه بمائة ناقة:

اكفرا بعد رد الموت عني ... وبعد عطائك المائة الرتاعا
فلو بيدي سواك غداة زلَّت ... بي القدمان لم أرج اطلاعا
إذن لهلكت لو كانت صغارا ... من الأخلاق تبتدع ابتداعا
فلم أر منعمين أقل منا ... وأكرم عندما اصطنعوا اصطناعا
من البيض الوجوه بني نفيل ... أبت اخلاقهم اتساعا
بني القرْمِ الذي علمت معد ... تفضل فوقها سعة وباعا

وقال بمدحه من قصيدة في ستة وستين بيتاً:

من مبلغ «زفر القيسي» مدحته ... عن القطامي قولاً غير افناد
إني وإن كان قومي ليس بينهم ... وبين قومك إلا ضربة الهادي
مثنٍ عليك بما استبقيت معرفتي ... وقد تعرض مني مقتل باد
فلن أثيبك بالنعماء مشتمة ... ولن أكافىء إصلاحاً بإفساد
وان هجوتك ما تمت مكارمتي ... وان مدحت فقد أحسنت اصفادي

وقال بمدحه من مقطوعة:

يا زفر بن الحارث بن الأكرم ... قد كنتَ في الحرب كريم المقدم
إذ أحجم القوم ولما تحجم ... انك وابنيك حفظتم محرمي
انقذتني من خطر معمم ... والخيل تحت العارض المسوم

وله قصائد ومقطوعات اخرى في مدح زفر بن الحارث الكلابي.

وفي السنة سبعين، سار الخليفة عبد الملك بن مروان من دمشق إلى الفرات وعبره بالقرب من دير الزور متوجهاً إلى قرقيسيا، قاصداً زفر فحاصره حصاراً طويلاً، ونصب المجانيق على أسوار قرقيسيا، فقال زفر لعبد الملك:

انا لا نقاتلكم من وراء الحيطان، ولكننا نخرج اليكم، ودعا بابنه الهذيل،

وبـه يكنى ، وأمـره أن يخرج بخيله على القـوم ، فحمـل عليهم وانكشفـوا ، ووطأ الهذيل ورهطه فسطاط عبد الملك . وقطعوا بعضها، ثم رجعوا فقال زفر:

ألا لا أنـالي من أتـاه حمامـه إذا ما المنـايـا عن هذيـل تجلت
تراه أمـام الخيـل أول فارس ويضـرب في إعجـازهـا ان تولت

وكـان عبـد الملك يقاتل بقضاعة ، ومعه روح بن زنباع ، وسعت الرسل بين عبد الملك وزفر بالصلح ، فتم على الامان لزفر ومن معه وأموالهم . وان يعطى زفر ما أحب ، واشترط زفر ألا يقاتل مع عبد الملك وابن الزبير حي لبيعة له في عنقه ، ولم يدخـل الهـذيـل في شرط أبيه ، ولما دخل زفر على عبد الملك بعد ان اتم الصلح أجلسه معه على سريره ، ولما رأى قلة من مع زفر من الرجال ، قال : لو علمت انه في هذه القلة لحاصـرتـه ، حتى ينـزل على حكمي ، فقـال زفـر ان شئت رجعنـا ورجعت ، فقال عبد الملك : بل نفى لك يا أبا الهذيل .

ولـما سار عبـد الملك بعـد ذلـك إلى مصعب بطـريق الجزيرة الفراتية ، سار الهذيل معه ، حتى إذا قرب من مصعب تحول اليه ، وقاتل مع ابراهيم بن الاشتر قائـد مصعب ، فلما قتـل مصعب ، اختفى الهـذيـل ، حتى استؤمن له من عبـد الملك ، فأمنه ، ثم عفى عنه لشجاعته .

وكـان الأخطـل ما يزال يحقد على زفر ، واشتد عليه أن يعفو عبد الملك عنه بعد انتصاره على مصعب ، فكان زفر أول هدف للأخطل من زعماء قيس يحرض عليه عبد الملك ، عندما يكون زفر في مجلس عبد الملك ، فمن قوله في ذلك :

بني أمـيـة أني ناصـح لكـم فلا يتـبـين فيـكـم آمنـا زفـر
ان الضغينـة تلقـاهـا وان قدمت كالـعـريـكـمن حينـا ثم ينتشـر

ولكن عبد الملك وفى بعهده لزفر ، وتزوج مسلمة بن عبد الملك الرباب بنت زفر فكان يؤذن لاخويها الهذيل والكوثر في أول الناس إلى مجالس الخليفة .

زفر هذا الذي يفي الخليفة الأموي عبد الملك له بعهده ويقره على قرقيسيا ويحـترم شروطـه هو من التـابعـين وكبـير قيس في زمانه ، قال ابن سلام في طبقات

الشعـراء : «زفـر من بني نفيـل بن عمـرو بن كلاب من ولد يزيد بن الصعق، وهو سيـد شريف» شهـد وقعـة صفـين مع معـاويـة أمـيراً على اهـل قنسرين، سمع الحـديث من السيـدة عائشـة ام المؤمنـين ومن معـاويـة، وروى عنـه ثابت بن الحجاج، سكن البصرة، وانتقل إلى الشام، وكان في جيش البصرة، الذي خرج لاغـاثـة الخليفـة المحصـور عثمان بن عفان في المدينة. وكان في وقعة صفين رسول معاوية إلى عائشة وكانت تسأله عمن قُتل في صفين.

ظل زفر اميراً على قرقيسيا، حتى مات في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٧٥ هـ - ٦٩٥م، وكـان شاعـراً جزل الألفاظ، متين النسج، مقل بحكم انشغاله بولايتـه في ظروف سيـاسية صعبة، يتمثل في حياته الصراع بين القبائل العربية في وادي الفرات وفي الجزيرة الفراتية، ينتهي نسبه إلى قبيلة قيس عيلان بن مضر بن نزار من عدنان. وهي قبائل كثيرة، وإذا قيل قيس دخلت العدنانية كلها في قيس نسبـ وعصبيـة ذكـرت قيس عنـد النبي (ص) فترحم عليهـا، وقـال: ان قيسـا فرسـان الله في الأرض، يا قيس حي يمنـا، يا يمن حي قيسـا (الحديث) وقحطان جد القبائل اليمنية.

اتصلت احـداث اسـلامية بارزة كحدث التوابين بقرقيسيا وبأميرها زفر بن الحـارث الكـلابي. لما قتـل الحسـين بن علي، رأت الشيعـة أنها قد اخطأت خطأ كبـيراً بتركهـا نصـرتـه واجـابته حتى قتل إلى جانبهم، ورأوا انه لا يغسل عارهم والاثم عليهم إلا قتـل من قتله، فاجتمـع رؤ سـائهم في منـزل سليـمان بن صرد الخـزاعي، وهـو المقـدم عليهم، باشـروا حركتهم بعـد هلك يزيد بن معاوية سنة اربـع وستـين، وبـايـع أهل الكوفة لابن الزبير، وخرج سليمان بن صرد الخزاعي سنـة خمس وستـين في اربعـة آلاف بطـريق الجـزيـرة الفراتية قاصدين عين الوردة (رأس العين) عند منابع نهر الخابور، ساروا حتى انتهوا إلى قرقيسيا على تعبية، وبهـا زفـر بن الحـارث الكـلابي قد تحصن بها منهم، ولم يخرج اليهم، فأرسـل اليه المسيب بن نجبة من رؤ سائهم يطلب اليه أن يخرج اليه سوقاً فأمر زفر ابنه فأخرج

اليهم سوقاً، وأمر لمسيب بألف درهم وفرس، فأخذ الفرس ورد المال. وبعث زفر اليهم بخبز كثير وعلف ودقيق، حتى استغنى الناس عن السوق، إلا ان كان الرجل يشتري سوطاً او ثوباً ثم ارتحلوا من الغد، وخرج اليهم زفر يشيعهم، وزودهم بنصائحه ومعلوماته الاعلامية. ولما وصلوا إلى عين الوردة اقتتلوا مع جيش عبد الله بن زياد - جيش الشام الذي يفوقهم عدداً قتل من التوابين معظمهم وقتل سليمان بن صرد الخزاعي في شهر ربيع الآخر وسارت بقيتهم حتى أتوا قرقيسيا، فعرض عليهم زفر الاقامة ثلاثاً فأضافهم ثم زودهم، وساروا إلى الكوفة، ولما سمع عبد الملك بن مروان بقتل سليمان وانهزام اصحابه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وأعلن مقتل سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة.

حظيت قرقيسيا في العهد الأموي بحظوة كبيرة بنزول الخليفة عبد الملك فيها ومصالحته أميرها زفر وقبول شروطه ووفاته بها، وبزواج اخي عبد الملك بابنة زفر الرباب، وبتردد اخويها الهذيل والكوثر على مجلس الخليفة عبد الملك.

قرقيسيا في العهد العباسي وما تلاه من العهود:

ان اخبارها في هذه الحقبة غامضة، وان كانت حتى اوائل القرن الثالث الهجري تدخل في حكم الوالي الذي تعينه بغداد لطريق الفرات والجزيرة الفراتية، وكان الذي يستولي على الرحبة من العسكريين المغامرين او الامراء، يستولي على قرقيسيا من الأمراء الحمدانيين والطولونيين والسلجوقيين والأتابكية والايوبيين والمرادسيين والعقيليين والمماليك.

وقد امتد نفوذ حكام مصر الطولونيين إلى قرقيسيا. غير ان الموفق أخا الخليفة المعتمد ببغداد أخذ المدينة منهم سنة ٢٦٨هـ.

اتصل تاريخها في العصر العباسي بتاريخ أختها وجارتها رحبة مالك بن طوق الواقعة على ضفة الفرات الغربية، والتي جدد بنائها في النصف الأول من القرن الثالث هجري، وجعلها قاعدة طريق الفرات، فازدهرت في عهده لحسن موقعها

على طريق الفرات البرية والمائية وبفضل وفرة مياهها وخصب سهولها، فانتقلت اليها مكانة قرقيسيا، وكانتا تشكلان ناحية واحدة. وظلت كذلك مدى قرون وكان يفصل بينهما الفرات، وتحملتا نفس المصير وهو الخراب الذي آلتا اليه.

مر بقرقيسيا الشاعر العباسي ربيعة الرقي، المتوفى سنة ١٩٨هـ - ٨١٢م في عودته من العراق إلى بلدة الرقة وكان قد مدح الخليفة المهدي وبعض الأمراء العباسيين وكان ربيعة يلقب بالغاوي. وكان له مع شعر المديح شعر في الغزل حسن سلس حلو، وشعره كله مليح عذب مطبوع جيد.

وفي نزوله بقرقيسيا تشبَّب بجارية يقال لها عشمة، كانت لرجل من أهل قرقيسيا، يقال له ابن مرار. قال:

اعتاد قلبك من حبيبك عيده	شوق عراك فانت عنه تذوده
والشوق قد غلب الفواد فقاده	والشوق يغلب ذا الهوى فيقوده
في دار مرار غزال كنيسة	عطر عليه خزوزه وبروده
ريم أغر كأنه من حسنه	ضم يحج ببيعة معبوده
ماضر عشمة أن تلم بعاشق	دنف الفؤاد متيم فتعوده
وتلده من ريقها فلربما	نفع السقيم من السقام لدوده

وجاءته امرأة من منزل هذه الجارية، فقالت تقول لك فلانة ان بنت مولاتي محمومة فان كنت تعرف لها عوذة فافعل، فأمر من كتب هذه العوذة:

ثقوا ثقوا باسم الإله الذي	لا يعرض السقم لمن قد شفى
أعيذ مولاتي ومولاتها	وابنتها بعوذة المصطفى
من شر ما يعرض من علة	في الصبح والليل إذا أسدفا

فقال له الكاتب: أبا ثابت. لست احسن أن اكتب ثقوا ثقوا، فكيف اكتبها؟ قال انضح المداد من رأس القلم في موضعين، حتى يكون الكنفث، وادفع العوذة اليها، فانها نافعة. ففعل. فلم تلبث ان جاءت الجارية وهي لا

تتمالك ضحكاً، فقالت له: يا مجنون ما فعلت بنا، كدنا نفتضح، بما صنعت. قال فما اصنع، أشاعر أنا أم صاحب تعاويذ؟

ومن تشبيهه بعشمة المذكورة قوله من قصيدة تستملح له وهو اطبع ما يكون من الشعر واسهل ما يكون الكلام:

أعشمة أطلقي العلق الرهينا بعيشك وارحمي الصب الحزينا
ربيعة مغرم بك مستهام يحن اليك من شوق حنينا
ترعض زائراً لك فارحميه فلقد أورثت زائرك الجنونا
رآك وانت مقبلة فلما رأتك العين هجت لنا فتونا
وقمت تأودين وعهد عيني بحسنك في الحزن تأوّدينا
فلما ان رآك الناس قالوا تعالى الله رب العالمينا
وقد أعطاك ربك فاشكريه جمالاً فوق وصف العالمينا
إذا أقبلت زُعت الناس حسناً وان أدبرت قيدت العيونا

كان أمر تعيين الولاة على الرحبة وقرقيسيا، يصد تارة من بغداد، وتارة من دمشق وأخرى من حلب ومرة من الموصل، وأحياناً يغتصب بعض القواد والأمراء هذه الناحية اغتصاباً من يد عاملها باغتياله، وبذلك لقيت كل من الرحبة وقرقيسيا كثيراً من المصائب والكوارث مدى قرون متتابعة، وتميزت الرحبة بأنها كانت وما زالت اكثر وابعد شهرة من قرقيسيا، جاء اليها القرامطة من الرحبة سنة ٣١٥هـ بقيادة ابي طاهر سليمان بن سعيد، ومنها بعث السوادي إلى النواحي في الجزيرة الفراتية.

كانت الرحبة اقطاعاً إلى ابي محمد بن رائق الذي ولاه الراضي ولاية بغداد مع طريق الفرات ومضر وحران وكان في الرحبة من جهة ابن رائق في السنة ٣٣٠هـ رجل يدعى مسافر بن الحسن، فلما قتل ناصر الدولة الحمداني ابن رائق استولى مسافر على الناحية وجبى خراجها، فأرسل ناصر الدولة جيشاً لاخراج مسافر من الرحبة، ففارقها مسافر من غير قتال وسار إلى قرقيسيا وملكها، وبقي في

الخابور ستة أشهر فجبى الأموال العظيمة، وقوى وعاد إلى الرحبة. ما لبث الحمدانيون ان قتلوه.

هذه عينة من تاريخ قرقيسيا في ذلك العهد.

في عمران قرقيسيا يقول ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الذي تجول في البلاد سنة ٣٣١ هـ ووضع كتاب (المسالك والممالك) ص ١٥٥ : «قرقيسيا مدينة على الخابور، ويجلب من فواكهها وفواكه الخابور إلى العراق في الشتاء الكثير، وان كان الاختلال قد شابها، وبينها وبين الخانوقة يومان» والخانوقة هي حلبية الحالية على ضفة الفرات الغربية تبعد ٥٤ كم شمالي غربي دير الزور - قريبة التبني.

وروى بنجامان ثوديل الرحالة انه وجد في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي خمسين عائلة يهودية بين سكان قرقيسيا.

كانت قرقيسيا إلى نور الدين محمود بن زنكي بن مودود المتوفى سنة ٦٢٤ هـ ١٢٢٧م ودفن فيها ابنه عثمان المتوفى سنة ٦٣٥هـ، وكانت مع الخابور في حكم شرف الدولة مسلم العقيلي، ولما قتل في سنة ٤٧٨هـ و١٠٨٥م رتب السلطان ملكشاه السلجوقي في محله أبا عبد الله محمود بن شرف الدولة.

وكانت تحت امرة جاولي سقاو من امراء السلجوقيين. وتولى عليها سيف الدولة اقسنقر البرسقي احد الامراء السلجوقيين سنة ٥٠٩هـ ١١١٥م ولاه اياها السلطان محمد بن ملكشاه.

أحسبها قد خربت بكاملها في أواخر القرن السادس الهجري بدليل شاهد البيت التالي الذي رواه ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان والمتوفى سنة ٦٢٦هـ.

لعن سخطة من خالقي اولشقوة   تبدلت قرقيساء من دارة الروم

وكان ابن حوقل الذي تجول في البلاد سنة ٣٣١هـ قد أشار إلى الاختلال الذي شابها.

كان هولاكـو في زحفـه على الشام سنة ٦٥٨هـ، تقدم في الجزيرة الفراتية، فنصب جسـراً على الفـرات قريبـاً من ملطـة وآخـر عنـد قلعـة الروم، وثالثاً عند قرقيسيا، عبرت عليها عساكره إلى الضفة الغربية، وقتلوا عند منبج مقتلة عظيمة (تاريخ مختصر الدول، لابن العبري).

واستولى عليها المغول، واسترجعها سلطان مصر والشام الظاهر بيبرس في سنة ٦٣٦ هـ ١٢٦٤م، وكان وسع حدود مملكته إلى الخابور.

وكـانت اقطـاعاً إلى الخوارزمية، وبعد التتار آلت إلى تيمورلنك الذي قتل السكان ودمر البلاد.

وملك الـتركـمان البـلاد بعـد انقراض التتار سنة ٩١٤هـ ١٥٠٨م على يد الشـاه اسـماعيـل الصفـوي. ولمـا استـولى العثـمانيـون على العراق سنة ٩٤١هـ ١٥٣٤م كانت قرقيسيا خراباً.

وفي العهد العثماني (القرن العاشر الهجري) كانت قرقيسيا المخربة والرحبة المـدمـرة وديـر الـزور الصغيرة من التشكيلات الادارية لولاية الرقة، وكان مركزها مدينة أورفا (الرها) لخراب الرقة.

تـنـوسي اسـم قرقيسيا بانقراض السكان القدماء، ومجيء سكان طارئين من جهات متعددة إلى المكان القديم، وهو التل الأثري الذي يخفي قرقيسيا القديمة في داخله. وحلت محلهـا منـذ نيف ومـائـة عام قريـة فقيرة حملت اسم «البصيرة» تشكل سكانها من قلعيين أتوا إليها من قلعة الرحبة، ومن ديريين اتوا اليها من ير الـزور، ومن راويين اتوا اليها من راوة في العراق، ومن عكيدات جاؤوا من عشائر العكيدات والمجاورين والقاطنين على ضفة الفرات الشرقية.

ولازم المكان سوء الحظ فنهبت حملة ديبوفر الفرنسية عام ١٩٢٢ القرية على فقرها.

لا يعلم مصدر تسميتها باسم البصيرة، ولا تاريخ اطلاق هذا الاسم على

مكـان قرقيسيـا الـذي تنـوسي في العصـور الأخيرة. ويجهل السكان اسم قرقيسيا وتاريخها جهلاً تاماً بسبب طروئهم على المكان وعشائريتهم وغلبة الأمية عليهم.

وقـد لفتت التسميـة الأخيرة نظر العالم الألماني (هرتزفلد) الذي زار المنطقة في أوائل القرن العشرين وقال ان هذه التسمية أتت من اسم دير قديم كان بقربها، يسمى بدير البصير، كانت له شهرة في الناحية فسميت البلدة المخربة باسمه.

لا صحـة لهذا الـزعم، فلم يكن في النـاحية دير بهذا الاسم، وليس له ذكر بين السكـان، فضـلاً عن أن تكون له شهرة. والناحية منذ عدة قرون مجال عشائر عربية، لا ذكر بينها لهذا الدير. ولم تذكره المصادر العربية ولا السريانية.

بنـاحيـة قرقيسيـا تمر قوافـل بين العراق وسورية على ضفة الفرات الشرقية ولعـل أحـد المسـافـرين في هذه القـوافـل لاحظ الشبه بين موقع البصرة على شط العـرب، المؤلف من الفـرات ودجلة، ومـوقـع مكان قرقيسيا حيث يلتقي الخابور بالفـرات ويؤلفـان نهراً واحداً فسمي المكان البصيرة تصغيراً لاسم ثغرهم البصرة وبقي الاسم غير متـداول لغلبـة الاسم القـديم، أو ان بعض ابنـاء البصـرة من جيش علي بن ابي طالب سكن في قرقيسيـا عقب وقعـة صفـين ولعـل هؤلاء هم الذين أطلقوا على المكان اسم البصيرة تصغيراً لاسم ثغرهم البصرة وبقي الاسم غير متـداول لغلبـة الاسم القـديم، ثم شاع الاسم الجـديـد بعد خراب قرقيسيا واندثار عمرانها.

ولقـد سألت بعض ابنـاء البصيرة ان كانوا يعرفون سبب تسمية المكان بهذا الاسم فردوا ذلـك إلى ان بدويـاً كان يعتـلي قمـة التل، وينظر إلى الجهة الشمالية ويخـبر جماعتـه بأنـه يبصر جبال ماردين وبيوت قراها. فسمى السكان المكان باسم البصيرة أي المكان الذي يبصر منه. رواية لا اثبتها ولا انفيها.

عاشت البصـيرة منـذ مائـة سنة إلى اليوم قريبة فقيرة، لم تحقق خلال هذه المدة الطويلة إلاّ تقدماً ضئيلاً وازداد عدد سكانها أضعافاً.

وكـانت مركـز قضـاء في أواخـر العهـد العثماني، يمتـد حتى تل حميضة في

الجزيرة مقابل القصبي على الفرات في الغرب ويمتد في الشمال حتى موقع الشدادي على الخابور الأوسط، وكان فيها قاض وكان نجم الطلحة الراوي يصنع قواقه لدواليب الخابور وصحوناً ومزامل وجراراً وقدور فخار من طين البصيرة. وكان حمدان اللولح وآخرون يصنعون البارود من تراب نقرة احمد الحماد بالقرب من جامع البصيرة وكان السكان يستخرجون طباق الآجر من البيوت القديمة يصدرونه إلى دير الزور.

وقبل الحرب العالمية الأولى كان لبعض سكان البصيرة دواوين يسمرون فيها على غرار الدواوين بدير الزور، اصحابها عبد الله الاحمد الخالد، العبيد الذيب، وعبود الشاهر الكسار، وفرحان الخلف الهوش، وخلف النايف، ومحمد النايف، وغدو اللجي.

وكان بعض ابناء البصيرة يشتركون مع العكيدات بغزو عنزة وشمر والدليم، ويغنمون إبلاً كانوا يفتخرون بها.

البصيرة (قرقيسيا) في العهد السوري:

في التشكيلات الادارية السورية، أي منذ عام ١٩٢٠، جعلت ناحية ألحقت بقضاء الميادين أحد أقضية متصرفية دير الزور، وفكتها الحكومة من منطقة الميادين في ١٩٦٣/١١/٩، والحقتها بمركز دير الزور، بسبب تعبيد الطريق بين البصيرة ودير الزور، والتي كانت ترابية في كل العهود الماضية على اهميتها حتى سنة ١٩٦٣ وكانت نفقات تعبيدها من أموال العمل الشعبي.

فئات سكان قرية البصيرة:

١ ـ قلعيون من البو مسطفى، مصدرهم قلعة رحبة مالك بن طوق على ضفة الفرات الغربية، في اسفل البصيرة وجارتها، يفصل بينهما نهر الفرات هذه

بيوتهم : خلف النايف وأولاده، محمد النايف وأولاده، جار الله النايف، فرج الزيد، كريد الزيد، سليمان الزيد وأولاده، علي الزيد وأولاده.

٢ ـ الراويون، مصدرهم بلدة راوة في العراق على ضفة الفرات الشرقية : هذه بيوتهم : اسماعي السطم الراوي وأولاده. جاء جده عبد الحسين إلى البصيرة، حمادة السطم وأولاده، فرج المحمد العبد وأولاده. عكوش المحمد العبد وأولاده، احمد السلامة وأولاده، حاج محمد السلامة وأولاده، حسان السلامة وأولاده، حمادي الحاج محمد السلامة رحيم المحمد العبد.

٣ ـ ديريون، بو شلهوم مصدرهم دير الزور، هذه بيوتهم : ملحم اللجي وأولاده وأحفاده، غدو اللجي وأولاده، حمادي اللجي وأولاده، علي اللجي واولاده، حناش اللجي وأولاده، بنية اللجي وأولاده، هويدي اللجي وأولاده، شيخ الحسن وأولاده، دلي صالح الحسن العلي وأولاده حنيف الحسن وأولاده، عواجي مظهور الحسن وأولاده، ظاهر الحسن وأولاده، سليمان الحسن وأولاده، خالد العي وأولاده، حسن العلي وأولاده، عبد الله العلي، فرحان الخلف الهوش الشبلي واخوته حساني ووحيد.

٤ ـ ديريون، جواشنة، مصدرهم دير الزور، هذه بيوتهم : عبد الملحم العزاوي، كانوا أكثر لكنهم نزحوا عن البصيرة. الياسات، محمد، حسين، علي، حمزة وأولادهم وأحفادهم.

٥ ـ عكيدات، مصدرهم عشيرة العكيدات المحيطة بالبصيرة، بيوتهم : رافع المطر ومنصور المطر.

٦ ـ ديريون، بوفيريو، مصدرهم دير الزور، هذه بيوتهم : عبد الرحمن النجم واولاده، أحمد النجم وأولاده، محمد النجم وأولاده، حناش النجم.

٧ ـ سخاني، مصدرهم قرية السخنة أما مباشرة منها واما من سخاني دير الزور: بيوتهم : محمد التدمري، عوض التدمري.

٨ ـ مشاهدة، مصدرهم قرية مشهد في العراق، بيوتهم : عبود الحميد وابنه عبيد، صالح الدخيل وأولاده .

٩ ـ الربيعيون، هنادة، اصلهم من بقايا جيوش ابراهيم باشا المصري التي جاءت إلى وادي الفرات في حملة ابراهيم باشا على سورية، بقي بعضهم بعد وقعة نزب ١٨٣٩، هذه بيوتهم : حسين الجاسم عبد الله المحمد الربيع، ملا حمادي الجاسم، ملا بنية الجاسم، صالح الدودة، ابراهيم الخليف الربيع، محمد الخليف الربيع، احمد الدودة، رجب العبد الربيع، حسن العبيد الربيع، حمادي العبيد، ملحم العبيد الربيع .

١٠ ـ قلعيون، من البوخليل، مصدرهم قلعة رحبة مالك بن طوق بيوتهم : علاوي الخلف المنصور وأولاده ، محمد خلف المنصور، زهدي الخلف المنصور (خلف المنصور الملقب الاشكر) .

نصيبين

رئيسة بلاد ما بين النهرين وقاعدة ديار ربيعة

تقـع في أول سهـل الجـزيـرة الفـراتية عند اتصاله بسفوح جبل الطور على ضفـة نهر جغجـغ وكـان يسمى نهر مكـدونيـوس. أسماه العرب نهر الهرمس وعند السريان نهر ماش، يمر ببلدة القامشلي السورية، ويصب في نهر الخابور عند مدينة الحسكة، وهي اليوم في حدود الجمهورية التركية، مجاورة لبلدة القامشلي السورية مركـز منطقـة القـامشـلي بمحـافظة الحسكة، وتقع البلدتان على الخط الحديدي الذاهب من حلب إلى الموصل ويفصل بينهما وهما متقابلتان، البعد بينهما كيلومتر واحد، ونصيبين اليوم تابعة لولاية ماردين التركية. لها أهمية عسكرية وتجارية منذ القـديم مدينـة بها إلى الطـريق الرئيسية للمواصلات بين سورية وبلاد ما وراء نهر دجلة، وهـذه الطـريق قديمـة يعـود عهدها إلى البابليين، وكانت أشهر طريق في المملكة العباسية وصلة الوصل بين المناطق الجبلية شمالاً والسهول الخصبة جنوباً.

اشتهرت نصيبين قبل التاريخ المسيحي بقرون. وأطلق عليها حلال التاريخ اسماء كثيرة وأقدم نص ورد فيها اسمها لوحة مسمارية قديمة محفوظة في متحف لندن في سياق البحث عن حروب دارت سنة ٦١٢ قبل الميلاد، بين الاشوريين من جهة والبابليين والماديين من جهة اخرى فكانت في العصر الأشوري نصيبينا، وكان الهها يسمى: أبنيل ووجد على عمله صيغ: نصيبي.

وتسمى المنطقة التي بين نصيبين وبين نهر دجلة عند السريان: (بيت ارابيا) وعند الأرمن: (أرواستان). وفي سنة ٩٠٠ ق.م كانت تذكر باسم: (أداد نيراري).

أسكن فيها سلوقس الأول من خلفاء الاسكندر المقدوني الكبير جالية يونانية واتضح من احدى الكتابات الأثرية أن نيكاتور احد الحكام المقدونيين جدد بنائها. وكان فيها مقدونيون مع سكانها القدماء. وفي النصوص الرومانية في عهد الامبراطور أوغسطوس ورد اسمها بصيغة (نيتيبي) و (نينيبوني) و (نيزيبي) وغير ذلك.

وفي النصوص الأرمنية يرد اسمها غالبا بصيغة: (مكبين او نصبن). ولسهولها الخصبة وأهمية موقعها كانت على الدوام مطمع أنظار الفاتحين فاستولى عليها اليونان والرومان والفرس والأرمن والبارثيون والعرب والترك وغيرهم.

استولى عليها البارثيون الفرس، وانتزعها منهم (ديكران الأول) ملك أرمينيا. وفي سنة ٣٧ بعد الميلاد استولى عليها ارتبان الثالث ملك البارثيين. ثم تنقلت بين أيدي الرومان والبارثيين. وكانت بيد الفرس بعهد عاهلهم (أزدشير) أول الملوك الساسانيين ثم جاء أذينات ملك تدمر فانتزعها من الفرس ودمرها سنة ٢٦١م.

ويزعم المؤرخون الأرمن ان المدينة كانت منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد إلى ابتداء التاريخ المسيحي عاصمة ملوك الأرشقونيين ثم لملوك ستاتروك. وعادت المدينة إلى الرومان في عهد الامبراطور «دوكلسيان» منذ صلح سنة ٢٩٧

بعـد الميـلاد . وهـذا جعلهـا مركـزا للتجـارة بين امـبر اطـوريـة الرومانية والمملكة الفـارسيـة ، واحـدى الحصون المهمة على خطوط الدفاع في بلاد ما بين النهرين ، فكانت بذلك مدينة التخوم ورئيسة بلاد ما بين النهرين مما غناها كثيراً .

دخلتها النصرانية في القرن الأول بتبشير مارادي ، ثم مارماري وبنيت فيها الكنائس الكثيرة الفاخرة ، وانشئت بضواحيها أديرة وصوامع عديدة . وقامت فيها المـدارس النصـرانية ، تأسست فيها مدرستها الشهيرة في النصف الأول من القرن الـرابـع أنشأها مار يعقوب اسقف نصيبين ، وكانت ارثوذكسية . أمّها الطلاب من انحـاء البـلاد الشـرقيـة أشهـر أسـاتذتها كان مار أفرام السرياني تلميذ مار يعقوب النصيبي الـذي فتـح المدرسة سنة **٣٢٥** ، مكث فيها مار أفرام **٣٨** سنة معلماً حتى سنـة **٣٦٣** ، غادرهـا لوقـوع المـدينـة بيـد الفرس ، وكانت اللغة الارامية هي لغة التدريس في هذه المدرسة .

بقيت نصيبـين قرونـاً مركـزاً روحياً للنسطوريين ، وكان بها كنيسة للقديس سرجيـوس ، تقصـدها القبائل العربية الضاربة في الجزيرة الفراتية من ربيعة . وقد سميت منطقة نصيبين لهذا السبب ديار ربيعة ، إلى جانب القسمين الأخرين من الجـزيـرة الفـراتيـة وهما ديـار بكـر في أعـالي الجزيرة ، وديار مضر وهي منطقة الرقة وحران ، وكانت جامعتها الشهيرة منارة للعلم والعرفان في بلاد الشرق مدى قرون وخاصة في القرن الرابع ولتحصين الرومان لها سميت ترس المدن ، ودعيت أنطاكية مقدونيا ولكثرة المتخرجين في مدرستها من العلماء والكتاب سميت ام العلوم ومدينة المعارف وام الملافنة ، ولأهميتها سميت رئيسة بلاد ما بين النهرين .

وفي سنـة **٥٢٩**م توغل المنذر بن النعمان ملك الحيرة في بلاد الشام استولى على أرضـين واسعـة شملت كل منطقـة الحـدود ، ومنهـا أرض الخابور ونصيبين ، حتى بلغ حمص وانطـاكيـة . وزعم ابن العـبر ي ان المنـذر قتـل عدداً كبـيراً من السكان وخرب اكثر تلك الأرضين واستاق اسرى عديدين ، واختار من بينهم اربع

مئة راهبة اخذهن لنفسه لكثرة ما كان فيها وفي ضواحيها من اديرة للرهبان واديرة للراهبات اشتهرت راهبات منهن بتأليفهن.

ولقد تعرضت نصيبين ومدارسها وأديرتها لكوارث الحروب الكثيرة التي تتابع وقوعها بين الروم والفرس. فكانت نصيبين بين المطرقة والسندان، وكانت تقع تارة بيد هؤلاء واخرى بيد اولئك، بعد ان يصيبها الخراب وبعد ان تنهب ويسبى أبناؤها. كل ذلك طمعاً بخيراتها، وكثيراً ما قاومت الطامعين بها ولكنها كانت تغلب على أمرها.

فتحها العرب على يد عياض بن غنم فاتح الجزيرة الفراتية بعهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب سنة ١٨هـ =٦٣٩م، بعد فتح الرقة والرها وحران، سار إلى نصيبين فقاتله أهلها، وأقام عليها شهراً ثم صالحوه على مثل صلح الرها، وفتح طور عابدين وماردين وسار ونزل على آمد. استعمل علي بن ابي طالب الخليفة الرابع على نصيبين في سنة ٣٩هـ شبيب بن عامر، وكان معاوية بن ابي سفيان والي الشام يسير قواتاً إلى بلاد الجزيرة الفراتية لاستخلاصها من عمال علي بن ابي طالب، ولكن شبيب كان يهزمها، ويلاحقها إلى الفرات ويعود إلى نصيبين، وكان يغير على الرقة الموالية لمعاوية وينهب ماشيه العثمانية بها فنهاه الخليفة علي عن ذلك.

وفي عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حدثت ثورة في نصيبين. ولما خرج الوليد بن طريف الشاري احد زعماء الخوارج في الجزيرة الفراتية على الرشيد في سنة ١٧٨هـ استولى على نصيبين وفتك بعامل الرشيد فيها وقويت شوكته في الجزيرة. فسير اليه الرشيد قائده يزيد بن مزيد الشيباني، فاقتتلا في رمضان سنة ١٧٩، فقتل الوليد، ولو كان انتصر لجعل من نصيبين عاصمة لدولته.

وفي سنة ٧١٧م حدثت هزة ارضية فيها خربت قسماً من دورها وعاث فيها القرامطة سنة ٣١٥هـ.

وكانت من املاك سيف الدولة الحمداني ملك حلب، وكان يتردد عليها، وفي سنة ٣٢٨هـ سافر منها في حملة إلى أرمينيا.

وفي سنـة ٣٣١ هـ حمل الصليبيـون على بلاد ما بين النهرين واستولوا على ميـافـارقـين وعلى نصيبين، وفي ذلك الوقت كانت نصيبين في املاك ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل وبعده صار ابنه ابو المظفر حاكماً عليها سنة ٣٥٨هـ.

ولما هرب الخليفة العباسي المتقي لله بن المعتمد (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) (٩٤٠ - ٩٤٤م) من بغـداد خوفـاً من امـير الأمـراء توزن التركي جاء مع الحمدانيين إلى الموصل ومنها سار إلى نصيبين حيث بقيَ فيها مدة ثم رحل عنها إلى الرقة.

قال بن خالـويـه «كبس العـدل بن مهـدي بعسـاكـره نصيبين وفيها خزائن سيف الـدولـة وامـوالـه، فاحتـوى عليهـا واستفحـل امره، فسار إليه ابو عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان في غلمانه وجماعته من ديار ربيعة، فانكشف الناس عنه وثبت في غلمانه فأظفره الله به واسره وصدره إلى ناصر الدولة ببغداد فسمل عينيه».

وفي سنة ٣٥٥ هـ هرب اناس من نصيبين خوفاً من الروم الذين قصدوا آمد وقتلوا اهلها.

وففي سنة ٣٤٧ سار اليها معز الدولة احمد بن بويه السلطان ببغداد ملاحقاً لناصر الدولة الذي التجأ إلى نصيبين وخرج منها ثم تصالحا سنة ٣٤٨هـ.

وفي سنة ٣٦١ اغار ملك الروم نيقوفورس على الرها وسار في الجزيرة حتى بلغ نصيبـين فغنم وسبى واحـرق وخـرب البـلاد وقتل الكثير ين من الأهلين. ولم يكن من ابي تغلب بن حمدان في ذلك حركة ولا سعي في دفع ملك الروم، ولكنه حمل اليـه مالاً كفَّـه به عن نفسـه وسـار جماعـة من اهـل تلك البـلاد إلى بغـداد مستنصرين الخليفة والعراقيين وقاموا في الجوامع يستنفرون المسلمين.

كانت نصيبـين إلى ابي الـذواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل، ومنها سار إلى المـوصـل فملكهـا سنـة ٣٨٠ من الحمـدانيـين، وكـان نصر الدولة بن مروان

صاحب ديار بكر ينازع العقيليين على نصيبين، وكانت تتنقل بينهم ويقتل من اهلها اناس بسبب ذلك وينالها الضرر.

وفي سنة ٤٣٥هـ (١٠٤٣م) نهب طفرلبك ضواحي المدينة. وكان الفرنج يهددونها فارسل السلطان غياث الدين ابو شجاع محمود (٥١١ ـ ٥٢٢هـ) منصور الجوالي حاكم الموصل إلى نصيبين ضد الفرنج سنة ١١٠٦م، وقبل ذلك استولى عليها نجم الدين غازي بن أرتق التركماني احد مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي وقائد من قواده، وفي سنة ٥١٥ اقطعها السلطان محمود السلجوقي إلى الأمير البرسقي.

وفي سنة ٥٢٣هـ = ١١٢٨م وصل الفرنج إلى آمد ونصيبين ورأس العين، وفي سنة ١١٣٤ قمع عماد الدين زنكي ثورة في نصيبين واقام بابك حاكماً عليها.

وفي سنة ٥٦٣ هـ = ١١٧١م احتل نور الدين المدينة ونكل بالنسطوريين وخرب ابنيتهم ونهب اموالهم لمعاونتهم للفرنج.

وفي سنة ٥٧٨هـ = ١١٨٢م دخلت في املاك السلطان صلاح الدين الأيوبي وتنقلت من بعده بين ايدي الأيوبيين، فكانت إلى الملك العادل سنة ٦٠٦هـ وإلى الملك الأشرف سنة ٦١٥هـ.

وبالرغم من تتابع الخطوب عليها في القرون الوسطى قاومت ما استطاعت وبقيت مقراً لحياة فكرية ناشطة في العهد الإسلامي، ولو أن سلاماً طوياً أتيح لها لبلغت ذروة من الحضارة ولاستمرت تلك الحضارة نامية مزدهرة إلى اليوم، ولكنها الحروب لا تبقي ولا تذر، ليت الانسانية تتخلص منها إلى الأبد.

ولكي نتعرف على شؤون نصيبين واحوالها في العهد الاسلامي نورد فقرات مما كتبه المؤرخون والرحالون والجغرافيون العرب عنها في مختلف الأزمنة تؤلف صورة لها:

قال احمد اليعقوبي المؤرخ والجغرافي العباسي المتوفي سنة ٨٩٧م صاحب كتاب (البلدان) و(التاريخ):

«هي مدينـة عظيمـة كثيرة الأنهـار والجنات والبساتين، ولها نهر عليه قناطر روميـة وأهلهـا قوم من ربيعـة من بني تغلب، فتحها عياض بن غنم سنة ١٨ هـ. شهيرة العتاقة والقدم، ظاهرها شباب وباطنها هرم، جميلة المنظر، امامها وخلفها بسيط أخضر، تحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار يانعة الثمار».

وزارها ابو القسام محمد بن حوقل البغدادي سنة ٣٥٨هـ (٩٦٨م) والمتوفي عام ٩٩٠م ووضع كتاب (المسالك والممالك)، قال: «وكان من أجل بقاع الجزيرة واحسن مدنها واكثرها فواكه ومياها ومنتزهات، وخضرة ونضرة إلى سعة غلات من قمح وشعير، نصيبين وهي مدينة كبيرة في مستواة من الأرض، ومخرج مائها على شعب جبل يعرف بيالوسا، وهو انزه مكان بها حتى ينبسط في بساتينها ومزارعها ويدخل إلى الكثير من دورها ويغدق البرك في قصورها، وكان لهم ضياع كثيرة عظيمـة السائمة دارة الغلات والنتاج، معروفة الفرسان مشهورة الشجعان. إلى ديارات النصارى وبيع وقلايات، ولم تزل على ما ذكرته من أول الإسلام معروفة بكثرة الأثمار ورخص الأسعار إلى سنة ٣٦٠هـ - ٩٧٠م فأكب عليها بنو حمدان بصنوف الجور وتجديد الكلف بصروف الظلم والعدوان إلى المطالبة ببيع الضياع والمسقف من العقار إلى ان حمل ذلك بن حبيب وهم بنو عم بني حمدان إلى ان خرجوا بذراريهم ومواشيهم وثقلهم في اثني عشر الف فارس وعبيدهم ومن ساعدهم من جيرانهم وشاركهم في ما قصدوا به ونزلوا على بلد الروم وتنصروا باجمعهم، وأخذوا يغيرون على المنطقة التي جلوا منها، ويذكر ابن حوقل ان الحمدانيين عمدوا أخيراً إلى وضع أيديهم على اموال النازحين واجبروا من بقي على استبدال زراعة الأشجار، وهي المورد الأساسي للمنطقة بزراعة الحبوب فقضى ذلك على عمران نصيبين وازدهارها، وعادت المنطقة كلها برية جرداء وعدمت من يرد عنها غزوات العشائر الرحالة.

وتكلم شمس الدين ابو عبد الله محمد المقدسي البشاري الذي كان في سنة ٣٧٥هـ = ٩٨٥م عن نصيبين في كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) عن

بيـوتهـا الجميلة وحماماتها العجيبة وسوقها، الجامع الجمعة والقلعة وذكر ان نصيبين كانت تصـدر البلوط والثـمار المجففة ومصنوعات كثرة، منها عربات النقل وأدوات الكتابة كالمحابر وغيرها.

وزارهـا الـرحالة الأندلسي محمد بن جبير في مستهل ربيع الأول سنة **٥٨٠** المـوافق **١٢** من شهـر حزيـران ووصفهـا في كتـابه (رحلة ابن جبير) قال: «شهيرة العتـاقـة والقـدم ظاهـرهـا شبـاب وبـاطنهـا هرم جميلة المنظر، متوسطة بين الكبر والصغر، يمتد امهامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر، قد أجرى الله فيه مذانب من المـاء تسقيـه وتطـرد في نواحيه وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار يانعـة الثـمار، ينسـاب بين يديهـا نهر قد انعطف عليهـا السـوار، والحـدائق تنتظم بحـافتيـه وتفيء ظلالهـا الوارفة عليه، فخارجها رياضي الشمائل اندلسي الخمائل يرف غضـارة ونضـارة ويتألق عليه رونق الحضارة وداخلها شعث البادية باد عليه، فلا مطمح للبصر اليه، لا تجد العين فيه فسحة مجال ولا مسحة جمال، وهذا النهر يتسـرب اليهـا من عين معينـة منبعها بجبل قريب منّها، تنقسم منها مذانب تخترق بسـائطهـا وعـمائـرها ويتخلل البلد منها جزء فيتفرق على شوارعها ويلج في بعض ديـارهـا ويصـل إلى جامعهـا، منـه سرب يخترق صحعنه، وينصب في سهريجين أحـدهما وسـط الصحن والآخـر عند الباب الشرقي منه، وعلى النهر المذكور جسر معقـود من صم الحجـارة، يتصـل ببـاب المدينة القبلي، وفيها مدرستان ومارستان واحـد، وصـاحبهـا معين الدين اخو معز الدين صاحب الموصل ابناء بابك ولمعين الدين أيضا مدينة سنجار، ويسكن في احدى الزوايا الجوفية من جامعها الشيخ ابو اليقظـان الأسـود الجسـد الأبيض الكبـد، أحـد الأوليـاء الذين نوَّر الله بصائرهم بالايـمان.. قد اكتفى بنسـج يده.. وكـان نزولنا بها في خان خارجها وبتنا بها ليلة الأربعـاء الثـاني من ربيـع الأول، ودخلنـا في صبيحتـه في قافلة كبـيرة من البغال والحمـير حرانيـين وحلبيـين وسواهم من أهل البلاد وبلاد ديار بكر وما يليها وتركنا حاج هذه الجهـات وراء ظهـورنـا على الجـمال فتمادى سيرنا إلى اول الظهر ونحن

على أهبـة وحـذرون اغـارة الأكـراد الـذين هم آفة هذه الجهات من الموصل إلى نصيبين إلى مدية دنيصر، يقطعون السبيل ويسعون فساداً في الأرض وسكناهم في جبـال منيعـة على قرب من هذه البـلاد، ولم يعن الله سلاطينها على قمعهم وكف عاديتهم، فهم ربـما وصلوا في بعض الأحيـان إلى باب نصيبـين ولا دافـع لهم ولا مانع الا الله».

لم يكف تلك المدن ما أصابها بسبب الحروب حتى ابتليت بقطاعي الطرق يغـيرون عليهـا ويسلبـونها أمنها وأموالها ويحولون بينها وبين تجارتها وزراعتها، ومع كل ذلك صمدت قروناً تقارع الخطوب، حتى نالت الخطوب منها وخربتها.

وقـال ياقـوت بن عبـد الله الرومي الحموي المتوفي سنة ٦٢٦هـ = ١٢٢٨م صاحب كتاب (معجم البلدان):

«نصيبـين بالفتـح ثم بالكسـر، مدينـة عامـرة من بلاد الجـزيـرة على جادة القـوافـل من المـوصـل إلى الشـام، وفيها، وفي قراها على ما يذكر اهلها اربعون بستاناً، عليها سور كانت الروم بنته، وأتمه انو شروان الملك عند فتحه اياها، بعد حصار. ونصيبين مدينة وبئة لكثرة بساتينها ومياهها، وقد روى في بعض الأثار ان النبي محمـد صلى الله عليـه وسلم قال: رفعت ليلة أسـرى بي، فرأيت مدينـة أعجبتني، فقلت ياجبرائيـل ماهـذه المدينة فقال هذه نصيبين، فقلت اللهم عجل في فتحها، واجعل فيها بركة للمسلمين».

ذكـرهـا ابو الفداء عماد الدين اسماعيل المؤيد (١٢٧٢ - ١٣٣١م) صاحب حماه ومصنف كتـاب (تقـويم البلدان) وكتـاب (المختصر في تاريخ البشر) فأوجز:

«قـال ابن سعيـد: ونصيبـين قاعدة ديار ربيعة وهي مخصوصة بالورد الأبيض، ولا يوجد فيها وردة حمراء، وفي شمالها جبل كبير منه ينزل نهرها ويمر على سور نصيبين والبساتين عليه».

وزارهـا الـرحالة الشهير ابو عبد الله محمد ابن ابراهيم المعروف بابن بطوطة

٧٠٢ ـ ٧٧٧هـ = ١٣٠٤ ـ ١٣٨٥م حوالي سنة ٧٢٢ قال يصفها في كتابه (تحفة النار في غرائب الأمصار):

«وصلنا إلى مدينة نصيبين وهي مدينة عتيقة متوسطة، قد خرب اكثرها، وهي في بسيط أفيح فسيح، فيه المياه الجارية، والبساتين الملتفة والأشجار المنتظمة، والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة والطيب، ويدور بها نهر ينعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون في جبل قريب منها، وينقسم انقساماً فيتخلل بساتينها ويدخل إلى المدينة فيجري في شوارعها ودورها، ويخترق صحن مسجدها الأعظم، وينصب في صهريجين احدهما في وسط الصحن والأخر عند الباب الشرقي، وبهذه المدينة مارستان ومدرستان، وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة».

شاركت نصيبين في الحركة الفكرية والأدبية في التاريخ العباسي بما نبغ فيها وانسب اليها من العلماء والادباء منهم:

١ ـ الحسن بن علي بن الوثاق النصيبي الحافظ قدم دمشق وحدث بها في سنة ٣٤٤هـ.

٢ ـ بشر بن يحيى بن علي القيني النصيبي، شاعر مقل واديب كثير الأدب، ذكره له ابن النديم في فهرسه عدة مؤلفات.

٣ ـ الحسين بن علي بن احمد النصيبي النديم، نديم المستنجد بالله، ولد سنة ٥٠٠ وتوفي سنة ٥٨٠، كان اديباً شاعراً كاتباً مشهوراً يحل الألغاز، ترجم له ياقوت في معجم الأدباء ج١٠ ١٢٦ ـ ١٣٠.

٤ ـ ابو الفرج بن عبد الواحد اليغابن نصر المخزومي من أهل نصيبين قال الثعالبي عنه في (يتيمة الدهر): شهامة الشام والعراق وظرف الظرف وينبوع اللطف، واحد افراد الدهر في النظم والنثر، اتصل في عنفوان شبابه بسيف الدولة الحمداني ثم تنقل بين دمشق والموصل وبغداد واتصل بالرؤساء وله رسائل مشهورة

إلى سيف الدولة والمهلبي الوزير، اختار له الثعالبي في (يتيمة الدهر) شعرا كثيراً حسناً.

وممن نزل بنصيبين من الأدباء المشهورين الشاعر العباسي ابو نواس الحسن بن هاني ١٤٥ ـ ١٩٨هـ = ٧٦٠ ـ ٨١٣م، بعد عودته من مصر عن طريق الرقة عبر الجزيرة الفراتية متوجهاً إلى بغداد، وكان غادرها إلى مصر لمدح اميرها الخصيب، ويؤثر له في نصيبين البيت التالي استشهد به الرحالون العرب القدامى عند كلامهم على نصيبين:

طابت نصيبين لي يوماً وطبت لها ... ياليت حظي من الدينا نصيبين

قد يكون ابو نواس استطاب خمرها وافتتن بوردها واعجب ببساتينها وكان يألف ذلك ببغداد.

وممن نزلها من الأدباء المشهورين الشاعر ابو عبيدة الوليد بن يحيى البحتري ٢٠٦ ـ ٢٨٤هـ = ٨٢٠ ـ ٩٨٧م حوالي سنة ٢٧٢هـ وعمره ٦٦٥ سنة وفيها نهبت امواله الكثيرة وكان يرجي الأعيان لاعادة امواله اليه فما نفع الرجاء ومما قال في ذلك:

مع الدهر ظلم ليس يقلع راتبه ... وحكم أبت الا اعوجاجاً جوانبه

أبيت وليلي في نصيبين ساهر ... لهم عناني في نصيبين ناصبه

وتزداد آلامه في نصيبين فيشكوها في قصيدة قالها لرجل من أهل نصيبين:

عدتني من نصيبين العوادي ... فقلبي أبله فيها بليد

أرى الحرمان أبعده قريبها والنجع ... اقربه بعيد

تقاذف بي بلاد عن بلاد ... كأني بينها جبل شرود

وخلفني الزمان على اناس ... وجوههم وأيديهم حديد

لهم حلل حسن فهن بيض ... وأخلاق سمجن فهن سود

لقد ذم البحتري مقامه بنصيبين لانتهاب امواله وضياع قدره، وقال قصيدة لرجل من أهل بلدة رأس العين كان صديقاً له بنصيبين فتغير عليه وجفاه منها:

يا سعيد والأمر فيك عجيب — أين ذاك التأهيل والترحيب
ما نصيبين لي بدار ومالي — من نصيبين غير عرضي نصيب
فتجمل لنا قليلاً كما كنت — فان الرحيل عنك قريب

وقال بعضهم يذكر نصيبين :

وظاهرها مليح المخبر — وباطنها قبيح المنظر

وقال آخر يذم ولاتها :

نصيب نصيبين من ربها — ولاية كل ظلوم غشوم
فباطنها منهم في لظىً — وظاهرها من جنان النعيم

استولى الغازي التتري هولاكو على المدينة في سنة ٦٥٧هـ ١٢٥٩م وخربها، وعندما زحف الغازي التتري الآخر تيمورلنك في سنة ١٣٩٥م على طور عبدين، اختبأ أهل نصيبين وملحقاتها في الكهوف والمغر، فلاحقهم جنود التتر بالدخان فاختنق الكثيرون.

وخرب الأكراد نصيبين بكثرة غاراتهم عليها، ووقعت المدينة بيد الأتراك العثمانيين بعد استيلائهم على سورية سنة ١٥١٧ وقضائهم على دولة المماليك بسورية ومصر، وما زالت بيد الأتراك مع انها عربية سورية، وكانوا جعلوا منها مركز سنجق في باشوية آمد، ثم الحقت بسنجق ماردين الذي كان تابعاً لباشوية بغداد.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت قضاء تابعة لمتصرفية الفرات (دير الزور) وهي الآن تابعة لولاية ماردين، تعد نفوسها ٥٠٠٠٠ متأخرة العمران فقيرة فيها جامع قديم مهجور شاهدته عند زيارتي لها سنة ١٩٣٢. واهلها فقراء فيها حامية تركية باعتبارها من مدن الحدود.

حران

مدينة الفلسفة والعلم الأدب

في العصور القديمة

تقع شمال شرقي بلدة تل أبيض السورية على بعد نحو ٣٠ كيلومتراً في الحدود التركية، في منتصف الطريق بين بلدة تل أبيض ومدينة اورفة التركية.
وهي اليوم قرية حقيرة فقيرة من قرى ولاية أورفة حولها تلال احتوت أنقاض وآثار مدينة حران التي كانت احدى المراكز التجارية في بلاد الفرات الأعلى انشأتها الأسفار التجارية البابلية والآشورية، اطلقواعليها اسم هران اوخران وهو مشتق من الكلمة البالية (خرانو) ومعناها رحلة.

لقد كانت الأسفار امراً عادياً في بلاد الفرات الأعلى فنشأت مراكز عدة للتجارة على الطرق العامة كانت حران احداها فهي مدينة عريقة في القدم،

ذكرت في كتاب التوراة في سفر التكوين، وعرفت بانها مسقط رأس ابراهيم الخليل (عليه السلام) هاجر منها إلى الحجاز، جاءت صيغة اسمها في الكتابات المسمارية باسم «حارانو» ومعناها الطريق او الرحلة. ويرجع تاريخ هذه الكتابات إلى عهد ملوك آشور تغلات ـ فلاصر الأول، وسرجون الثاني (١١٠٠ق . م) ذلك انها تقع على أهم ملتقى طرق في العالم القديم وهو طريق الموصل والشام والروم وهي في نظر الأخباريين أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، **نسبوها إلى «هاران اخي ابراهيم الخليل، لأنه بزعمهم اول من بناها فعربت فقيل حران، وعرفت** عند المسلمين بانها منازل الصابئة الحرانيين وكان فيها معبد كبير لعبادة الاله سين (القمر)، ويعرف ببعل حران، ومنذ أيام الاسكندر الكبير سكنتها جالية كبيرة من المقدونيين، وقد ادخل المؤرخ الروماني بلينيوس (٢٤ ـ ٧٩ب . م) حران واورفة في جملة المدن العربية وسمى حران: كارهاً وذكر ان قسماً من عرب الجزيرة الفراتية نقلوا إلى حران، نقلهم نكرانه الكبير، وان قسماً منهم هاجر اليها واستوطن فيها، ذلك ان العرب كانوا في الجزيرة الفراتية قبل الميلاد. وقد انتهزت القبائل العربية في البادية الفراتية الفرص فأخذت تتقدم نحو الشمال كلما وجدت حالة مواتية.

وسماها آباء الكنيسة (نبولس) أي مدينة الوثنيين لأن سكانها الوثنيين بقوا فيها محافظين على ديانتهم الوثنية رغم انتشار النصرانية في الرها ونصيبين وتلك الجهات، ووفد على حران الوثنية وثنيون آراميون من بلاد الجزيرة الفراتية ورغم ضغط النصرانية على وثنيي حران لكي يتنصروا، فإنهم بقوا محافظين على ديانتهم القديمة. ومع ان آباء الكنيسة عينوا لحران اساقفة وبنوا فيها كنائس بقيت المدينة مركزا للوثنية إلى ما بعد الفتح العربي بعدة قرون، وكان سكان حران خليطاً من البابليين والآشوريين والمقدونيين والأرمن والنصارى والعرب، والتقت ديانات وثقافات هذه الأقوام في حران وامتزجت ببعضها البعض. وفي بدء القرن السادس الميلادي كانت مركز أسقفية، وكانت لها علاقات تجارية واسعة، وبرغم

وجود كرسي اسقفية فيها كان كثير من سكانها وثنيين، وفي حران هاجم البارثيون حملة القائد الروماني كراسوس ابادوها وقتلوا قائدها.

كانت حران قبل الإسلام قصبة ديار مضر، احدى أقسام الجزيرة الفراتية، وقد سميت هذه الأقسام (ديار ربيعة وديار بكر وديار مضر) باسماء قبائل عربية عدنانية نزلتها منذ القديم. وكانت حران في معظم عهودها التاريخية من اعمال الرقة، وديار مضر جميعها تقع على الفرات ان حران فراتية محضة، فتحها القائد العربي عياض بن غنم سنة ١٨هـ صلحاً بعهد الخليفة عمر بن الخطاب.

كانت حران المقام المفضل للخليفة الأموي مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في المشرق بويع بالخلافة سنة ١٢٧هـ - ٧٤٤م وقتل سنة ١٣٢هـ - ٧٥٠م وكان الناس يلقبونه بالجعدي لأنه تعلم على يد الجعدي بن درهم، وكان مروان والياً على الجزيرة الفراتية وارمينية قبل ان يولي الخلافة، وكانت مدة خلافته مملوءة بالفتن والاضطرابات، وكان قد قبض على ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس موجه الدعوة العباسية وكان يقيم بالحميمة في الشام وحبسه بحران مع جماعة آخرين حتى مات في سجنه ميتة غامضة. وقد التقى جيش العباسيين بجيش مروان بن محمد على نهر الزاب الأعلى من أرض الموصل وجرت موقعة عظمى في جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ انتهت بهزيمة مروان بن محمد وقتله في مصر ومبايعة ابي العباس السفاح اول خلفاء بين العباس، وهذا ولى أخاه أبا جعفر المنصور الجزيرة وارمينية فاتخذ من حران مركزاً له لتوسطها ولحسن مركزها العسكري. ووجه منها جيوشه لقمع فتن قامت ضد بني العباس فقمعها ووطّد ركن الدولة العباسية، ولم يزل والياً على الجزيرة وارمينية حتى استخلف.

وفي سنة ١٤١/هـ خرج بحلب وحران قوم يقال لهم الراوندية من اهل خراسان يقولون بتناسخ الأرواح من انصار ابي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية الذي قتله ابو جعفر المنصور.

تسامح الخلفاء الأمويون والخلفاء العباسيون مع وثنية اهل حران غير انه

ابتـدأ اضطهـادهم بعهـد المأمـون. فعندما مر المأمون بحران سنة ٢١٥هـ ٨٣٠م أجبرهم بان يعتنقوا الاسلام او اية ديانة اخرى يعترف بها الإسلام، والا يبادوا، ودفعاً للإبـادة تسمـوا إذ ذاك بالصـابئـة احتماء بما يفهم من القرآن الكريم من عد الصابئة من اهل الكتاب، وكان اسم الصابئة يطلق على قوم لهم ديانة مزيج من اليهودية والنصرانية كانوا يسكنون بين واسطن والبصرة في العراق.

كان دين الحـرانيـين الأصليـين: الاعتقاد في الكواكب والأفلاك وان كل ما يحدث في العـالم الأرضي هومن تأثـيرهـا، وعندهم أن فعل النجوم وأدلتها صحيحة وان اخطأ بعض المنجمين فلا تبطل صناعة النجوم ولهم نبي هو هرمس. ان ديانة الحرانيين هي ديانة البابليين والآشوريين لجأت إلى حران مع ما اصابها من تطور.
ان عبادة الكواكب أوجدت عندهم ميلاً إلى الأبحاث الفلكية والرياضية كان لهم على الثقـافـة العـربيـة فضل غير منكر، فعلى ايديهم نقل عدد كبير من مؤلفات اليونان في هذه العلوم إلى العربية، وفي طليعتهم ثابت بن قرة (٢٢١ ـ ٢٨٨هـ) الرياضي الحكيم الحراني، برع في علم الطب والفلسفة وله مؤلفات كثيرة كانت له مكانة عالية عند المعتضد، وسنان بن ثابت بن قرة ابنه، ثم ولدا سنان بن ثابت وابراهيم حفيدا ثابت بن قره، فتابعا الأعمال العلمية الكبيرة التي قام بها جدهما، ومن كبـار باحثيهم، هلال بن المحسن (٣٥٩ ـ ٤٤٨ هـ) وهو حفيد ابي اسحـاق الصابئي كان اديباً فاضلاً صنف في الأخبار والحكايات، وابوجعفر الخازن والبتاني الفلكي المشهور (٢٣٥ ـ ٣١٧هـ) امضى حياته في الرصد بمدينة الرقة الفراتية.

تمسـك الحـرانيون الوثنيون بديانتهم القديمة ابقاء على قوميتهم. ولا تزال طائفـة الصـابئـة موجـودة اليـوم في العـراق يعملون في صياغة الفضة واحياناً يأتي بعضهم إلى سوريـا للعمـل فيهـا. ولقـد انتقـل التعليم الأفلاطوني الحديث من الاسكنـدريـة إلى انطـاكية ومنها إلى حران ليختلط بمذهب التنجيم. ومن مدرة حران اقتبس بعض مفكـري الإسـلام اركان مذهبهم فيما وراء الطبيعة وأفادوا من العلوم التي رافقت هذه المـدرسـة كعلم الهيئة وعلم التنجيم وعلم الحساب والجبر

والهندسة، وقد اخذ اخوان الصفا عن مدرسة حران، وتردد عليها الفيلسوف الفارابي الذي اتصل بيوحنا بن حيلان بحران، ورحل الطبيب ابو الحكم القرطبي الأندلسي إلى حران وهو ناقل رسائل اخوان الصفا إلى الاندلس ثم عاد إلى مدينة سرقسطة، وقد عقد المسعودي في كتابه (مروج الذهب) فصلاً عن معتقدات صابئة حران. وجاء اليها الشاعر العباسي الكبير بشار بن برد حيث مدح اميرها سليمان بن هشام الأموي.

كانت حران من بلدان سيف الدولة الحمداني (٣٣٣ ـ ٣٥٦هـ) ولي امارتها مع منبج وبالس ابا فراس الحمداني الشاعر المشهور ابن عمه. ثم أمر عليها ابن اخيه هبة الله بن ناصر الدولة صاحب الموصل وانتفضت عليهْ لأنه عسفها. وبعد موت سيف الدولة دخلت حران في املاك ابنه سعد الدولة، ثم آلت إلى شبيب بن وثاب النميري ع الرقة وخطب على منابرها للمستنصر بالله العلوي حاكم مصر، ولما تأسست الدولة العقيلية بالموصل (٣٨٦ ـ ٤٨٩هـ) كانت حران من املاكها، وثارت على العقيليين فأخضعوها وخربوا قسماً منها، ثم آلت إلى السلجوقيين وتنقلت من يد امير إلى يد امير منهم، هاجمها صليبيوا أورفة سنة ١١٠٤م وهدموا اسوارها وكادوا يستولون عليها ولكن المسلمين هزموهم وتعقب اهالي حران الفارين وقتلوهم، واستولى عليها جكرميش الأمير السلجوقي. ودعيت هزيمة الصليبيين هذه هزيمة حران، وفي سنة ١١٤٣ تملَّكها عماد الدين زنكي ثم آلت إلى ابنه محمود نور الدين الشهيد، ثم آلت إلى سيف الدين غازي بن قطب الدين بن زنكي ثم ملكها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٧هـ ١١٨١م وبقيت بيد الأيوبيين إلى سنة ٦٥٨هـ ١٢٥٩م حيث استولى عليها هولاكو دون ان يقتل اهلها وفي نهاية القرن العاشر وصفها المقدسي بانها مدينة جميلة وان لها حصناً من حجر مصقول، وفي سنة ٥٨٠هـ ١١٨٤م زارها الرحالة المغربي ابن جبير ووصفها في رحلته ومما قاله «وبهذه البلدة كثير من اهل الخير وأهلها محبون للغرباء مؤثرون للفقراء ولهذه البلدة اسواق حفيلة الانتظام عجيبة الترتيب

مسقفة كلها بالخشب فلا يزال اهلها في ظل ممدود . . » وذكرها ياقوت في كتابه معجم البلدان قال انها مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة آقور. وهي قصبة ديار مضر» وذكرها الرحالة الاصطخري «المسالك والممالك» وهي مدينة الصابئين فيها سدنتهم السبعة عشر، وبها تل عليه مصلى يعظمه الصابئون وهي قليلة الماء والشجر ولها مباخس. وفي زمن ابي الفداء «٦٧٢ ـ ٧٣٢هـ» (١٢٧٥ ـ ١٣٣١م) كانت حران قد خمد سناها وسقطت اذ لم تزل عامرة إلى ان خربها تيمورلنك فجلا عنها اهلها، وهي اليوم كومة من الأنقاض. إلى جانب شهرتها بالفلسفة كانت مشهورة بعسلها وبلغتها النقية الآرامية ومنذ القديم اشتهرت بخيراتها الوفيرة ذلك ان لها سهولاً غنية بمحصول الذرة والتبغ والقطن.

على ان مجد حران هو بالسلسة الطويلة من الفلاسفة والعلماء والكتاب والشعراء الأدباء والمترجمين والصناع والفقهاء الذين اخرجتهم في شتى عصورها، وعلى الأخص في العصر العباسي المتوسط كانوا أداة لنشر الثقافة الحرانية واليونانية، لهم فضل كبير على الفكر العربي واللغة العربية، والثقافة العربية، كانت حران جامعة يتخرج فيها الفلاسفة والعلماء ولم تخرج مدينة من النابهين على صغرها كما اخرجت حران، فكانت مركزاً من مراكز العلم اسهمت في الثقافة العربية بنصيب غير قليل، وما من بلدة في الشرق العربي انتسب علماؤ ها اليها كما انتسب علماء حران اليها، فكأن هذه النسبة وحدها شرف عظيم ودليل نباهة وتفوق، هذه النسبة هي الحراني تساوي الصابئي والمسلم العربي.

ومن أدبائها سعد بن الحسن بين سليمان الشاعر وكلاب بن حمزة العقيلي اللغوي المحدث. وابراهيم بن هلال بن زهرون أوحد العرب في انشاء الرسائل، والمحسن بن ابراهيم بن زهرون ونصر بن الحسين الفقيه وعوف بن محلم الخزاعي العالم الأديب الراوية الظريف. وأبو عروبة الحافظ صاحب تاريخ الجزيرة. والامام ابن تيمية مفتي الامة وشيخ الاسلام ولد بحران سنة ٦٦١هـ خرج مع

والـده وعمـره سبـع سنـوات إلى دمشق بسبب جور التـتر ، انتهت اليه الامامة في العلم والعمل والورع والشجاعة والكرم . ترجم له كثيرون قدماء ومحدثون .

الرقة

قلب الجزيرة الفراتية

يقسم جغرافيو العرب الجزيرة الفراتية (بلاد ما بين النهرين) إلى ثلاثة ديار: ديار ربيعة قاعدتها الموصل، وديار بكر قاعدتها آمد، وديار مضر قاعدتها الرقة. ومضر من عرب الشمال عدنانيون نزحوا إلى الجزيرة الفراتية قبل الإسلام بعدة قرون واستوطنوها، فالرقة من صميم الجزيرة بل هي قلبها النابض منذ أقدم العصور إلى اليوم. وتاريخها هو تاريخ الرقة ولذا ألممنا بلمحات عنها في التمهيد لهذه الرسالة. وفي تاريخ الرقة يتمثل تاريخ الجزيرة وصلة الرقة بالعرب وصلة العرب بها قديمة تعود إلى قرون قبل الإسلام وكان الكثيرون من قبيلة طي العربية من صميم سكان الرقة كالشاعر الأموي أبي زبيد الطائي الذي عاصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان وحضر مجالسه.

تقع مدينة الرقة على ضفة نهر الفرات الشرقية، وسط زاوية التقاء نهر البليخ

بنهر الفرات (أسفل الرقة) على بعد ١٣ كيلومتراً. إلى غربي نقطة التقاء النهرين. في بقعة تاريخية ملأى بآثار الحضارات القديمة آرامية وهيلانية ورومانية واسلامية.

إلى شرقي مدينة حلب على بعد ١٨٠ كيلومتراً، وشمال غربي مدينة دير الزور على بعد ١٤٠ كيلومتراً. في منتصف الطريق العام بين دير الزور وحلب. وعند نقطة من هذا الطريق تسمى المقص، يذهب طريق بطول ستة كيلومترات إلى الشرق نحو الفرات ليتصل بجسر حديث يؤدي مباشرة إلى مدينة الرقة. يهب عليها نسيم النهر من الغرب والجنوب يعدل من الحرارة في فصل الصيف واقليمها على كل حال مقبول.

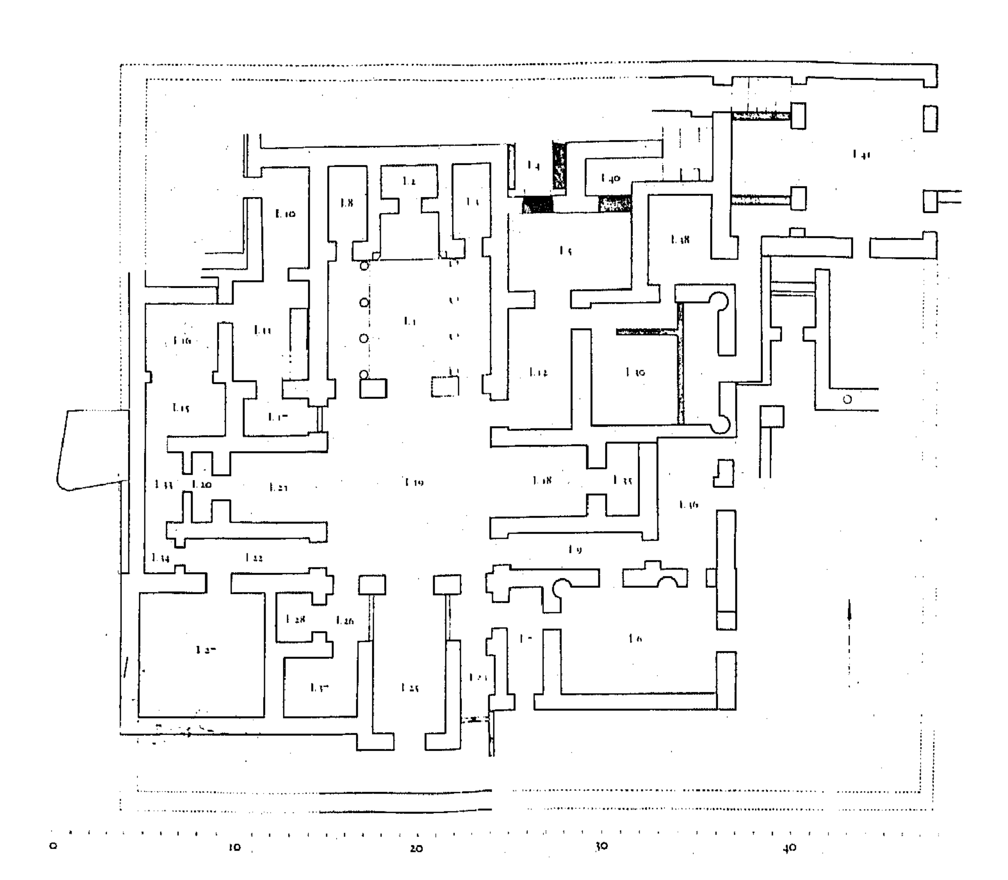
كانت الرقة من أهم مدن الجزيرة الفراتية، واحدى المدن الهامة الشهيرة في وادي الفرات. والقاعدة القديمة أو العاصمة لديار مضر، أحرزت منذ القديم أهمية تدين بها إلى حسن موقعها الجغرافي على النهر العظيم، في نقطة متوسطة منه، وموضع تقاطع الطرق التجارية المتجهة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب. جعل منها محطة تجارية هامة بين الجزيرة الفراتية والشام والعراق وأرمينية وآسيا الصغرى والبحر الأبيض المتوسط. وتدين بأهميتها أيضاً إلى امتداد أراضيها الخصبة، وسهولة اروائها، ووفرة مياهها. بمرور نهر الفرات وجريان البليخ، وإلى انظمة الري التي كانت متبعة في سقي أراضيها منذ العصور القديمة، وخاصة في العصرين العربيين الأموي والعباسي ولا تزال آثارها بادية للعيان، ولكنها معطلة. واتساع مراعيها التي كانت تغذي أنعامها العديدة. تبلغ مساحة أراضي الرقة خمسة وعشرين الف كيلومتر مربع. من أجود الأراضي. من هذه المساحة ما يسقى بالري ومنها ما يسقى بالمطر. وقد كانت هذه الأراضي تدر المحاصيل الزراعية المتنوعة والوفيرة من حبوب وثمار. وتربي مختلف الحيوانات الأهلية العديدة.

كانت الرقة لهذه الأسباب مركزاً لتجمع البشر منذ العصور الحجرية

القديمة (٦٠٠٠ سنة ق.م) وموطناً لتقدم الحضارة، ومركزاً لتبادل السلع وتجميع الحاصلات والمؤن وتصديرها إلى بلاد كثيرة عن الطريق المائي الذي هو الفرات والذي كان صالحاً للملاحة استخدمه الحثيون ونقلوا فيه سلعهم إلى بابل والخليج العربي وإلى الهند. واستخدمه من جاء بعدهم من الشعوب. وعن الطريق البري على ضفاف الفرات الذي كانت تسلكه القوافل. وذات حركة تجارية ناشطة وازدهار زراعي وعمراني. تراكمت في موقعها الحالي وضواحيها آثار سكانها القدماء بعضها فوق بعض، فمن آثار العصر الحجري القديم إلى آثار عصر البرونز فآثار الأغريق والرومان فالعرب على اختلاف دولهم وعصورهم.

لا يزال تاريخ الرقة في العصور القديمة مجهولاً. وأهم ما يتميز به تاريخها انها كانت مركزاً عسكرياً ممتازاً غنياً بخيراته، وبعدد سكانه وبطرقه البرية والمائية. وتوسطه من أصقاع عدة، وقربه من البحر الأبيض المتوسط. وهي بالنظر لوفرة خيراتها تستطيع أن تمون الجيوش التي تمر بها. لقد اكتسبت أهميتها العسكرية من أهميتها الاقتصادية والجغرافية. فهي قاعدة لتجمع الجيوش وتوجيهها، أي نقطة انطلاق الى الشرق والغرب. ولذا كانت مطمع أنظار الطامعين من الملوك والقواد. ولذا تعاقبت عليها الأيدي الكثيرة وذاقت ألواناً من النهب والتقتيل والتخريب بسبب الحروب والفتن في فترات كثيرة من تاريخها. فضلاً عما أصابها بازلازل والطاعون والفتن. وإلى جانب ذلك عرفت فترات رخاء وغنى ورفاهية وازدهار استمرَّ قروناً رغم الكوارث

كانت منطقة الرقة امارة آرامية تدعى بيت آدين (عدن) التي قامت بين البليخ والفرات وكانت عاصمتها تل برسيب. كانت احدى امارات الآرامية التي كانت للآراميين على الفرات في سورية مثل امارة رحبوت النهر (الرحبة ـ الميادين) وامارة زوحي ولوقي (منطقة حلبية وزلبية) وكانت هذه الامارات على اتصال دائم مع بعضها تشكل حلفاً ضد الدول المجاورة والطامعة بها، وذلك في القرن الحادي عشر العاشر والتاسع قبل الميلاد بزعامة آراميي دمشق.



مخطط رقم (١٠) قصر البنات بالرقة

وحوالي منتصف القرن التاسع قبل الميلاد اكتسحت آشور الامارات الآرامية وسيطرت على بلاد ما بين النهرين إلى حدود بابل وفرضت عليها الجزية.

وهاجم ملك آشور ناصر بال بيت آدين واستولى عليها وأخذ منها الجزية ونقل من سكانها الآراميين (٢٤٠٠) نسمة إلى مدينة كالح احدى عواصم الآشوريين على نهر دجلة، كما كان شأن ملوك آشور ليأمنوا انتفاضات البلاد التي يخضعونها. ولكن بيت آدين انتفضت على آشور فاخضعوها وخربوها. تندر المصادر عن تلك الحقبة من تاريخ الرقة.

الرقة في العهد الاغريقي:

جاء في موسوعة لاروس الجديدة المصورة الافرنسية:

«عرفت الرقة باسم نيكفوريوم. بناها الاسكندر الكبير حين اجتاز الفرات قبل اربيل وذكر الاستاذ سوفاجه أن بانيها الاسكندر الكبير. ولكن الاستاذ هوليغمان في الموسوعة الاسلامية يستبعد مجيء الاسكندر إلى هذه النقطة. وقيل ان الذي بنى نيكفوريوم هو سلوقس الأول وهي تحت أنقاض المدينة الرومانية البيزنطية.

وسميت (قالينيقوس) باسم سلوقس الثاني قالينيقوس، الذي أسس مدينة جديدة أو جدد المدينة القديمة في سنة ٢٤٤ ـ ٢٤٢ق.م وهو أحد قواد الاسكندر المقدوني واحد خلفائه، اكد هذه الرواية المؤرخون السريان. وقيل ان سلوقس هذا قتل فيها.

والواقع أن المؤرخين لم يتفقوا على اسم باني المدينة الأول، ولا على تاريخ بنائها نظراً لقدم هذا التاريخ. وندرة من أرخ للمدن الفراتية. ومن المحتمل ان موقع الرقة لفت نظر خلفاء الاسكندر السلوقيين. فأسسوا فيه مركزاً على طريق مواصلاتهم بين بابل وآسيا الصغرى أو سورية.

ويقول ابن العبري بكتابه (مختصر الدول): «ان بطليموس من ملوك

الـدولـة اليـونـانيـة ملك ستا وعشرين سنة، وفي زمانه بنيت قالينيوس وهي مدينة الرقة». وكانت الثقافة اليونانية موجودة في الرقة إلى جانب السريانية والعربية.

الرقة في العهد الروماني:

يعطي الاستاذ كرزويل اسماً للمدينة في العهد الروماني: كالينيكيوم نسبها إلى الامبراطور غلينوس المتوفي سنة ٢٦٦ب.م. ويرجح الاستاذ دونان ان تكون المدينة بيزنطية. بينما يعتبرها الاستاذ هونيغمان هيلينية وينسبها إلى سلوقس الثاني قالينيقـوس. ويأتي الاستـاذ هونيغـمان برأي آخـر اعتـماداً على الكاتب ليبانيوس المـدينـة إلى صوفي مدينة البتراء الوثني المسمس كالينيكوس. ثم يستبعد هونيغمان هذا الرأي.

وتقع المدينة الرومانية شرقي باب بغداد القائم حالياً في الرقة. ولم يبق لها أثر.

وفي عهـد الامـبراطور جوليان كانت قالينيقوس حصناً منيعاً في وجه الفرس ومركزاً تجارياً هاماً.

وفي سنـة ٣٩٣ احـترق فيهـا كنيس يهودي. فأمر الامبراطور ثيودس على الأثـر أسقف المـدينـة بأن يعيـد بنـاءه. ويشـير ذلك إلى وجود جالية يهودية فيها.

وكـانت الجـاليـات اليهـوديـة توجـد في مدينـة الصـالحيـة على الفـرات (دورا أوروبوس).

وكان الرومان أطلقو عليها اسم قسطنطينيو بوليس نسبة إلى الامبراطور قسطنطين.

وخربتها هزة أرضية فجددها الامبراطور ليون الثاني الذي حكم الشرق في سنـة ٤٧٣ ـ ٤٧٤م وسـماهـا باسمـه ليونتوبوليس وجعل منها مدينة متروبوليتية، ونصب فيها أسقفاً.

وفي سنة ٥٠٣ دافع تيموستر اتوس بحماسة عن المدينة ضد الفرس.

وفي سنة ٥٢٩ منحها الامبراطور جوستنيان منحة تجارية تربح منها عندما قرر حصر التجارة في مدن الحدود مع الفرس بمدينة نصيبين وقالينيقوس وارثكساتا.

وقد استولى كسرى الأول عاهل الفرس على المدينة بسهولة، لأن أسوارها كانت في حالة التصليح وخرب اسوارها ودمرها. ولكن جوستنيان أنهضها من خرابها بعد ذهاب الفرس وشيد فيها أسواراً منيعة قوية بسبب توالي الحروب بين الروم والفرس. وكانت تؤول تارة إلى هؤلاء وأخرى إلى أولئك. واستقرت بيد الروم بعد انتصارهم الأخير على الفرس قبل ظهور الاسلام. وأخذت الرقة دوراً هاماً في هذه الحروب.

وقد غلب اسمها القديم قالينيقوس على بقية الأسماء الاخرى. وعرفت به في المصادر السريانية وبعض المصادر العربية.

كان أهلها مسيحيين يعقوبيين أي من القائلين أن للمسيح طبيعة واحدة واقنوماً واحداً. فقيل لهم من أجل ذلك اصحاب الطبيعة الواحدة، أحد مذاهب الكنيسة الشرقية نسبوا إلى يعقوب البرادعي المولود في حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد في مدينة الأجمة من أعمال نصيبين من مدن الجزيرة الفراتية من أخوات الرقة. والمتوفي في سنة ٥٧٨ للميلاد. ذهب الى القسطنطينية في حوالي سنة ٥٢٨ لحمل القيصرة تيودورة على التأثير في الكنيسة ولتكف عن اضطهاد اخوانه القائلين برأيه في طبيعة المسيح. ومكث في القسطنطينية ١٥ عاماً.

كانت الرقة مركز أسقفية. وكان بجوارها دير عظيم مشهور هو دير زكى. كان مكانه على الراجح شرقي باب بغداد الموجود حالياً في الرقة على بعد نحو ثلاثة كيلومترات. في موقع يعرف اليوم بتل البيعة. وقد تكون البيعة هذه كنيسة الدير. وقد جاء ذكر التل بشعر الشاعر الصنوبري من شعراء سيف الدولة الحمداني مقروناً بذكر دير زكي. وكان الدير عامراً في زمن الصنوبري الذي تفنن في ذكره ووصف طبيعته ورياضه أبدع وألطف وصف، وكان ينعم بقربه. وكان

المسيحيون يقصدون دير زكى من أنحاء الجزيرة الفراتية للزيارة ونظراً لشهرة هذا الدير وأهميته وكونه ضاحية من ضواحي الرقة، لا بد لنا من أن نلم ببعض ما وصلنا من أخباره وهي جزء من تاريخ الرقة.

هو من أديار السريان الكبرى المشهورة. شيد على الأرجح في القرن الخامس للميلاد. قريباً من نهر الفرات. وعلى جنبيه نهر البليخ وكان شرب الدير منه. وقيل كان يقع في الطريق بين الرقة وحران وتقع شمال غربي تل أبيض ذاع صيته في بلاد الجزيرة الفراتية.

كان فيه مدرسة لاهوتية مشهورة يقصدها الرهبان للتعلم، بدأ التعليم فيها في صدر القرن السادس الميلادي. ودام حتى القرن العاشر. من مشاهير رهبانه مار يوحنا ابن قورسوس الرقي المشهور بيوحنا التلي لأنه سيم مطرانا على مدينة تلا (ويران) شهر) قرب مدينة رأس العين. ولد بالرقة سنة ٤٨٣ من أسرة نبيلة ثرية. وترهب سنة ٥٠٦ كان جندياً وبعد الجندية ترهب في دير زكى، واجتهد حتى تضلّع باللغتين السريانية واليونانية وأصاب حظاً كبيراً من العلوم اللاهوتية ورسم قسيساً. ورقي إلى أسقفية تلا سنة ٥١٩. كان من كبار الاحبار زار القدس ورحل إلى القسطنطينية ثم عاد إلى الجزيرة وتمكن خصومه في الرأي من القبض عليه بواسطة حاكم نصيبين الفارسي. والمجوسي. وعقد له افريم الآمدي البطريرك. الملكي مجلساً في رأس العين سنة ٥٣٧ واعتقله في دير على باب انطاكية مات سنة ٥٣٨ جعلت له الكنيسة عيداً وله تأليف كتبها لرهبان ديره.

وذكر دير زكى في التاريخ الكنسي في احداث القرن السادس. وكان رهبانه يدرسون اللاهوت. ومن أشهر اساتذته الملقان الربان تادورا. وفيه سيم قسس عديدون. وتخرج فيه البطريرك الانطاكي يوحنا الرابع (٨٤٧ - ٨٧٨). وفيه سيم البطريرك الانطاكي اغناطيوس الثاني (٨٧٨ - ٨٨٧) ولم يحفظ التاريخ أسماء جميع الاساقفة الذين نشأوا فيه في عصوره الأولى. وانما ذكر ميخائيل الكبير في تاريخه السرياني عشرين مطراناً وأسقفاً ظهروا منه منذ سنة ٧٩٣ حتى سنة ٩٥٤. أورد

«آثار قصر البنات في الرقة»

بعض أسمائهم: منهم ثلاثة جلسوا على كرسي مطرانية الرقة. ولم يعرف له ذكر بعد سنة ٩٥٤م.

ومن مشاهير رهبان دير زكى مار قرقياقس مطران آمد (٥٧٨ - ٦٢٣) وكان عامراً بزمن أبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي صاحب كتاب (الديارات) المتوفى سنة ٣٨٨هـ = ٩٩٨م على رواية وفي زمن ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦هـ = ١٢٢٦م فتكون مدة ازدهاره نحو خمسة قرون وجملة مدته زهاء ثمانية قرون.

وكانت الملوك إذا اجتازت به نزلته أياماً لما اجتمع فيه من حسن العمارة وطيب الموقع ووفر الشراب الجيد والمأكل المتقن والراحة والخدمة.

ومن أجل من نزله أيام مجده هارون الرشيد الخليفة العباسي فاستطابه وبر أهله.

قال البكري في صدد وصفه لدير زكي بكتابه (معجم ما استعجم): «ومر بهذا الدير عبد الله بن طاهر، ومعه أخ له فنزلا فيه وشربا أياماً، وخرجا إلى مصر، فمات أخوه بمصر، وعاد فنزل بهذا الدير فقال:

أيا سروتي بستان زكى سلمتما ومن لكما أن تسلما بضمان

ويا سروتي بستان زكى سلمتما وغال ابن أمي نائب الحدثان

قال الشابشتي في كتابه (الديارات) نزلته، وأقمت فيه، لأنه يجتمع فيه كل ما يريدونه من عمارة ونفاسة أبنيته وطيب المواضع التي به، ونزهة ظاهرة، لأن له بقايا عجيبة وبناحيته من الغزلان والأرانب وما شاكل ذلك. مما يصطاد بالجارح من طير الماء والحباري وأصناف الطير وفي الفرات بين يديه مطارح الشباك للسمك فهو جامع لكل ما تريده الملوك والسوقة. وليس يخلو من المتطربين لطيبه، سيما ايام الربيع. فان له في ذلك الوقت منظراً عجيباً».

قال الشاعر أبو الهيذام يصف خروج الزائرين إلى دير زكى ومهرجاناتهم التي يقيمونها حول الدير في مواسم أعيادهم، واقبال المسلمين على الدير يشهدون

هذه المهرجانات ويصف الشاعر عبثه في ذلك اليوم الذي أتيح له فيه ذلك المشهد.
وكان اقبال الزائرين الموصوفين من مدينة حران ومن ديار مضر:

سقيا لحران انه بلد ... أصبح للهو وهو مضمار
في يوم باعوثهم وقد نشروا ... الصلبان والمسلمون نظار
فمن مهاة هناك مقبلة ... ومن غزال عليه زنار
أزحم هذه وتلك تزحمني ... وفي الحشا والفؤاد أسعار
فعارضتني هناك شاطرة ... منهم بها في الذراع أسوار
تقول لي، والدلال يصرعها ... أنحن يا مسلمون كفار
فقلت يا غايتي ويا أملي ... بل انتم المؤمنون اخيار
اطلب منها بذاك تقربة ... والشعراء الخبات فجار
فرق لي قلبها وملت بها ... في دير زكى ونعمت الدار
تقول لي عند وقت منصرفي ... انك من بعدها لغدار
حللت عقد الأمان منك لنا ... فما لعقد لديك أمرار
فقلت قد كان ذاك عن خطأ ... لا قود عندنا ولا ثار
استغفر الله ثم أسأله التوب ... فلي بالذنوب اقرار

وحكى الشاعر الصنوبري الذي أقام ببلدان الجزيرة قصة طريفة بل مأساة حول دير زكى أوردها ياقوت الحموي في معجم الأدباء ج ١١ ملخصها:

«انه كان بالرها وراق يقال له سعد شاعر رقيق. كانت دكانه مجلس كل أديب فما كنا نفارق دكانه أنا وأبو بكر المعوج الشاعر الشامي وغيرنا من شعراء الشام وديار مضر وكان لتاجر نصراني بالرها ابن اسمه عيسى من أحسن الناس وجهاً وأحلاهم قداً، وأظرفهم طبعاً ومنطقاً. وكان يجلس الينا ويكتب من أشعارنا وجميعنا يحبه ويميل اليه، فعشقه سعد الوراق عشقاً مبرحاً وكان يعمل فيه الأشعار فخرج به أهله إلى دير زكى بنواحي الرقة، وهو في نهاية الحسن حيث ترهب عيسى. وجاء سعد الوراق ولزم الدير. وهو في ذلك يعمل الأشعار في عيسى.

والرهبان ينكرون منه ذلك ويغلقون باب الدير في وجهه. ومر الصنوبري به في ظل الـديـر فسلم عليـه وعذله وعنفه. فقال له سعد أترى ذل الطائر الذي على هيكل الـديـر وأومأ بيـده إلى طائـر هناك فقال نعم فقال أنا وحقك أناشده منذ الغداة أن يسقــط فاحمله رســالـة إلى عيسى ثـم إلتفت إليَّ وقـال يا صنـوبـري؟ أمعـك الواحك؟ قلت نعم. قال اكتب:

بحــقــك يا حمامــة ديــر زكــي	وبـالانـجيــل عنــدك والصليب
قفــي وتحــمـلي مني سلامـا	إلــى قمـر على غصــن رطيـب
عليـه مسـوحـة وأضـاء فيـهـا	فكـان الـبـدر في حال المغيـب
حماه جماعــة الـرهــبـان عني	فقـلبـي ما يقـر من الـوجـيب
وقــالــوا رابـنــا المـام سعــد	ولا والله ما أنـا بالمـريـب
وقــولي سعــدك المسكــين يشكـو	لهيـب جوى أحــر من الـلهـيب
فصــلْه بنظـرة لك من بعـيــد	إذا ما كنـت تمنـع من قريـب
وان أنــا مت فاكـتـب حول قبري	محب مات من هجـر الحـبـيـب
رقـيـب واحــد تنـغـيص عيشـي	فكـيــف بمــن له مئـتي رقـيـب

ثم وجد في بعض الأيام إلى جانب الدير ميتاً. وقال أهل الرها ما قتله غير الـرهبـان وتصعب أمير الرها الياس بن كيغلغ مع الرهبان فافتدوا أنفسهم وديرهم بمائـة الف درهم. وكـان عيسى إذا دخل الرها لزيارة أهله، صاح به الصبيان: يا قاتل سعد الوراق وشدوا عليه بالحجارة يرجمونه، فانتقل إلى دير سمعان.

ووثيقـة أخـرى تصف حيـاة سكـان منطقة الرقة وتصف هيئة زوار الدير في النص الآتي رواه ابن الفضـل الله العمـري بكتابه «مسالك الأبصار» ص ٢٦٥ قال: حكى الحسن بن يعقــوب (يصف موكب نصـارى بطـريقهم إلى عيـد ديـر زكى): «صـرت إلى الـرها فبت فيها وخرجت قبل عيد الصليب بيوم. فإذا الدنيا وجوه حسان من نصرانيات خرجن لعيدهن، عليهن جيد الثياب وفاخر الجواهر. وإذا روائح المسك والعنبر قد طيب الهواء منها. وقد فرش لهن على العجل، وهي

تجري بهن وأخريات على الشهاري الخراسانية والبغلات المصرية والحمر الفره ومشاة. وفي خلال ذلك صبيان مارأيت أحسن وجوها وقدوداً وثياباً منهم. فتأملت منظراً لم أر أحسن منه قط. وإذا هم يطلبون دير زكى ليعيّدوا فيه».

وللشاعر أبو بكر أحمد الصنوبري من شعراء سيف الدولة الحمداني ملك حلب عدة قصائد ومقطوعات في دير زكى أوحت بها اليه مفاتن هذا الدير ورياضه وبساتينه وأنهاره وأدب أهله وكان الصنوبري يقضي وقتاً طويلاً في الرقة ينعم بمباهجها وخيراتها ويتردد على الدير منها:

حبّذا المرج حبذا العمر لا بل ... حبذا الدير حبذا السروتان
قد تجلى الربيع من حلل الزهر ... وصاغ الحمام طيب الأغاني
زينت أوجه الرياض فاضحت ... وهي تزهى على الوجوه الحسان
سقياني بكل لون من الرا ... ح على كل هذه الألوان

ويقول فيه:

أراق سجاله بالرقتين ... جنوبي صخوب الجانبين
تضاحكها الفرات بكل فج ... فتضحك عن نضار أو لجين
كأن عناق نهري دير زكى ... إذا اعتنقا عناق متيمين
أقاما كالسوارين استدارا ... على كفيه او كالدملجين
ويا سفن الفرات بحيث تهوى ... هوى الطير بين الجلهتين
تطارد مقبلات مدبرات ... على عجل تطارد عسكرين

وقال فيه من مقطوعة:

كم غدا نحو دير زكى من قلب صحيح فعاد وهو حزين
لو على الدير عجت يوما ... لألهتك فنون وأطربتك فنون
لائمي في صبابتي قدك مهلاً ... لا تلمني ان الملام جنون

ولأبي بكر المعوج فيه من قصيدة:

ما ترى الدير؟ ما ترى اسفل الدير وقد صار وردة كالدهان

لو رآه النعمان شق عليه ما يرى من شقائق النعمان

وإلى جانب دير زكى كانت قرية تعرف بالصالحية ذات قصور ودور. وفيها يقول بعض الشعراء:

قصور الصالحية كالعذارى لبسن حليهن ليوم عرس
تقنعها الرياض بكل نور وتضحكها مطالع كل شمس

وفي الصالحية هذه يقول الصنوبري:

اني طربت إلى زيتون بطياس فالصالحية ذات الورد والآس
وصف الرياض كفاني أن أقيم على وصف الطلول فهل في ذاك من باس
وقائل لي: أفق يوماً فقلت له من سكرة الحب أومن سكرة الكاس
قل للذي لام فيه هل ترى كلفاً بأملح الروض إلا أملح الناس

وقال فيها:

الصالحية موطني ابدا وبطياس قراري
من فوق غدران تفيض وبين انهار جواري
ومدامة بزلت فأشبه فتلها فتل السوار
يا لائمي ما العار عا رك فامض عني العار عاري
لهفي على ملوية الأصـ داغ مسبلة الأزار
قد فضّضت بالياسمين وذهّبت بالجلنار

فتح العرب لمدينة الرقة:

اختلف المؤرخون في تعيين تاريخ فتح الرقة. وأكثر من مال إلى أن الفتح تم في سنة ١٨هـ اعتمد على الواقدي صاحب فتوح الشام ومنهم البلاذري صاحب فتوح البلدان، إلا أن الطبري صاحب كتاب (تاريخ الرسل والملوك) وياقوت الحموي صاحب معجم البلدان يؤكد ان الفتح تم سنة ١٧هـ ويبين الطبري السبب المباشر لفتح الرقة وهو أن أهل الجزيرة المسيحيين استثاروا الروم

على أهل حمص بعد أن فتحها ابو عبيدة بن الجراح ، فتجمع الروم لاستعادتها من المسلمين وتحرج الموقف على ابن الجراح فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالأمر. فكتب عمر إلى والي الكوفة سعد بن مالك يقول له سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند. وليأت الرقة وسرح عياضاً فان كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم». وجهز ابن الخطاب جيشاً قاده بنفسه واتجه نحو الشام حتى وصل إلى الجابية وقد أراد بذلك أن يقعد عرب الشمال النصارى عن مؤازرة الروم لاستخلاص حمص ثم ذهب بنفسه لنجدة أبي عبيدة.

انتهى سهيل بن عدي إلى الرقة، وقد أرفض أهل الجزيرة عن حمص إلى كورهم حين سمعوا بمقبل أهل الكوفة فنزل عليهم فأقام محاصرهم حتى صالحوه، فبعثوا بذلك إلى عياض وهو في منزل واسط من الجزيرة هذه هي الرواية التي يرجحها الطبري.

أما البلاذري فقد ذكر عن الواقدي: « . . . سار عياض إلى الجزيرة سنة ١٨هـ انتهت طليعته إلى الرقة فأغاروا على حاضر كان حولها للعرب، وعلى قوم الفلاحين، فأصابوا مغنماً، وهرب من نجا من أولئك فدخلوا مدينة الرقة. وأقبل عياض في عسكره حتى نزل باب الرها (وهو أحد أبوابها) في تعبئة. فرمى المسلمون حتى جرح بعضهم ثم انه تأخر عنهم لئلا تبلغه حجارتهم وسهامهم. وركب فطاف حول المدينة، ووضع على أبوابها روابط، وبث السرايا فجعلوا يأتون بالأسرى من القرى وبالأطعمة الكثيرة. وكانت الزروع مستحصدة، فلما مضت خمسة أيام وهم على ذلك أرسل بطريق المدينة إلى عياض بطلب الأمان. فصالحه عياض على أن يأمن جميع أهلها على أنفسهم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم. وقال عياض: الأرض لنا قد وطئناها، وأحرزناها، فأقرها في أيديهم على الخراج. ووضع الجزية على رقابهم فالزم كل رجل منهم ديناراً في كل سنة وأخرج النساء والصبيان، ووظف عليهم مع الدينار أقفزة من قمح وشيئاً من زيت

وخـل وعسـل (فلما ولي معـاويـة جعل ذلك جزية عليهم). ثم انهم فتحوا أبواب المدينة وأقاموا للمسلمين سوقاً على باب الرها».

وكتب عيـاض لأهـل الـرقـة عهـداً هو: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عيـاض بن غنم أهـل الـرقـة يوم دخلهـا: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنـائسهم لا تخرب ولا تسكن، إذا اعطـوا الجزية التي عليهم، ولم يحدث مغيلة، وعلى أن لا يحدثـوا كنيسـة ولا بيعـة، ولا يظهـروا ناقـوسـاً ولا باعـوثاً (الاحتفال الديني) ولا صليباً. شهد الله ـ وكفى بالله شهيداً ـ وختم عياض بخاتمه».

وقـد سجـل سهيـل بن عدي القـائد الذي كان في جيش عياض فتح الرقة بهذه الأبيات:

وصـادفنـا الفـرات غداة سرنـا ... إلـى أهـل الجـزيـرة بالـعـوالي
أخـذنـا الـرقـة الـبـيضـاء لما ... رأينـا الـشـهـر لوح بالهـلال
وازعجت الجـزيـرة بعـد خفض ... وقـد كانـت تخوف بالـزوال
وصـار الخـرج ضاحيـة الـينـا ... بأكـنـاف الجـزيـرة عن تقـال

وكـان مجيىء عيـاض إلى الـرقـة في جيشـه على الأرجـح عن طريق بالس (مسكنة)، ونزل عياض على بالس وكان القائد خالد بن الوليد قد فتحها صلحاً بعـد فتحـه لقنسـرين. فأقام عياض على بالس، وسرح سهيل بن عدي كطليعة إلى الـرقـة. فنـزل على حصـارهـا وكان عليها بطريق اسمه يوحنا، كان من قبل صاحب رأس العين. وكان قد استعد للحرب وعبأ آلة الحصار.

ولقد اتخذ عياض من الرقة قاعدة لفتوحاته في الجزيرة الفراتية.

قال الـواقـدي: «ولـما فتـح عياض الرقة صلحا عول على السير إلى رأس العين» وكانت سراياه فتحت قرقيسيا ليكون ظهره آمنا إذا سار إلى رأس العين من الرقة. وقال البلاذري: ان عياض فتح الرقة ثم الرها ثم حران ثم سيمساط على صلح واحد. وأتى من الرها ففتح منبج ثم عين الوردة وهي رأس العين. وبعد أن

أتم عياض فتوحات الجزيرة سنة ١٩ رجع إلى الرقة ومنها سار إلى حمص وكان الخليفة عمر بن الخطاب ولاه اياها فمات سنة عشرين .

وقد سهل فتوح الجزيرة على المسلمين وجود الجيوش الاسلامية في العراق . ومناوشاتها لأهل الجزيرة حسب ما كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى والي الكوفة سعد بن مالك . وفي رواية إلى سعد بن أبي وقاص فاتح العراق لتحويل أهل الجزيرة الذين كانوا يحاربون مع جيوش هرقل في حمص إلى بلادهم للتخفيف عن جيش ابي عبيدة في حمص . ونجحت خطة الخليفة عمر وعززها بمجيئه بنفسه إلى الجابية نجدة لأبي عبيدة في حمص .

كانت الرقة عند فتح العرب المسلمين لها ذات سور وأبواب وغلات متنوعة وسوق عامة . ولم يؤذها العرب وأبقوا لها الحرية بالاعتقاد ، وأبقوا الأراضي بيد أهلها ورتبوا عليهم تكاليف الأمن فقط (الخراج والجزية) . واستمرت الرقة في حياتها الاعتيادية تفيد من خصوبة أرضها ووفرة مياهها وموقعها الجغرافي بين الجزيرة والشام مما أعطاها أهميتها التجارية .

وبعد وفاة عياض بن غنم فاتح الرقة وولي الجزيرة ، ولى عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن خديم سنة ٢٠هـ فبنى بها جامعاً من الآجر، استعمل في بنائه أنقاض الرخام القديم في المدينة القديمة التي كانت شرقي الرافقة والتي ضاعت معالمها منذ ربع قرن وهي الرقة البيضاء المذكورة في الكتب التاريخية والجغرافية القديمة . ويعين المقدسي بكتابه (أحسن التقاسيم) جامعها في محلة البزازين ويقول انه كان فيه شجرتا عنب وشجرتا توت وبالقرب مسجد معلق على عامود . انفرد المقدسي بذكر هذا المسجد ، ويبدو انه هو دير العواميد الذي ذكرته المصادر السريانية واحترق سنة ١٩٧هـ أثناء ثورة نصر بن شث بعهد المأمون .

ولم يلبث سعيد بن عامر إلا قليلاً حتى مات . فولى عمر بن الخطاب على الرقة عمير بن سعيد الأنصاري ، ففتح عين الوردة (رأس العين) بعد قتال شديد وقيل أن عياض هو الذي وجه عمير بن سعيد إلى عين الوردة .

لا نعـرف سبب تسميـة العرب للمدينة بالرقة البيضاء منذ الفتح الاسلامي كما جاء في أبيـات سهيـل بن عدي الـذي سجـل بها فتـح الـرقة ومر ذكرها . ومن المؤكـد ان العـرب عرفـوهـا بهذا الاسم الـرقيق اللطيف قبـل الفتـح . والعـرب يستثقلون أسماء المدن الرومانية القديمة فيحورونها ويختصرونها ، كما فعلوا في اسم مدينـة بار باليـوس ، فأسمـوها بالس بكل اختصار . وقد يسمون المدينة الأعجمية باحـدى صفـاتهـا . أمـا البيضـاء فقد تكون للون جدران بيوتها الخارجي ، ولعلها كانت تطلى بالكلس أو الجص الأبيض ، كما هو شأن بيوت مدن الجزيرة .

أمـا تخريجـات ياقـوت الحمـوي في معجم البلدان من انهـا (كل أرض إلى جانب واد ينبسـط عليهـا المـاء وجمعها رقاق . وان الرقاق الأرض اللينة . .) فلست أراها مقبولة .

وكـانت الـرقة منذ أن فتحها العرب عدة رقات متقاربة ، هي الرقة البيضاء وهي أكـبرهـا والمقصودة بهذه الرسالة . والرقة السوداء على فرسخ منها إلى الشرق وتسمى الرقة المحترقة والرقة المعوجة ، وتوجد محلها اليوم قرية رقة سمرا على ضفة الفرات الشرقية .

وقد ذكر الشاعر الأموي عبيد الله بن قيس الرقيات الذي كان ينزل الرقة في سنـة ٧٠هـ الـرقتـين في بيت له من قصيـدة يمـدح بها عبـد الله بن جعفر بن أبي طالب في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان .

ذكـرتـك ان فاض الفـرات بأرضنا وجـاش بأعلى الـرقتـين بحـارهـا

وعلى الضفـة الغـربيـة مقـابـل الرقة توجد رقة واسط بناها الخليفة الأموي هشـام بن عبـد الملك المتـوفي سنـة ١٢٥هـ والذي أقام بالخلافة تسع عشرة سنة . واستحدث فيها قصرين كان ينزلها في طريقه إلى مدينة الرصافة قادماً من الجزيرة الفـراتيـة . وقد يكون لرقة واسط وجود قديم ، ونسبت إلى هشام لأنه كان ينزلها أو لمجـرد انـه بني فيهـا قصـرين . كما نسبت اليـه الرصافة التي سميت باسمه رصافة هشام مع تقدم وجودها في الزمن . وكان ينزلها .

وفي الشاهنامة ملحمة أبي القاسم الفردوسي الشاعر الفارسي والتي ترجمها الفتح بن علي البنداري ونشرها الدكتور عبد الوهاب عزام ج٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧ رواية طويلة تحكي هروب كسرى برويز (٥٩٠م ـ ٦٢٨م) من المدائن وسيره على ضفة الفرات الشرقية متوجهاً نحو الحدود الرومانية قاصداً قيصر ليلتجىء عنده، وانه وصل مدينة وريغ. فاستقبله رسول قيصر مرحباً به ثم سار إلى الرها.

ويظهر مما في الترجمة الفارسية لتاريخ الطبري ان وريغ هي الرقة. وقد تكون وريغ هي التسمية الفارسية للمدينة فقد كان الفرس يستولون على المدينة. ولعل لفظة الرقة التي عرفها العرب قبل الفتح مأخوذة من وريغ أووريق الفارسية.

الخليفة الرابع علي بن أبي طالب في الرقة:

اتصل ذكر الرقة بالأحداث الاسلامية منذ العصور الأولى للإسلام ولقد صاحبت بصورة خاصة أحداثاً عسكرية طوال الأزمنة الاسلامية، لقربها من بلاد الروم ومتاخمتها لحدود الشام وتوالي نشوء الدول الاسلامية، لقربها من بلاد الروم ومتاخمتها لحدود الشام وتوالي نشوء الدول الاسلامية والعربية وبسبب طمع القواد والأمراء والطامعين بموقعها وخيراتها.

هذا هو الخليفة الرابع علي بن أبي طالب بعد انتصاره على خصومه بموقعة الجمل في البصرة، اعتبر معاوية بن أبي سفيان والي الشام بعد مفاوضات منشقاً متمرداً على حكمه، فأراد أن يحاربه ويخضعه وينتزع منه الشام ليضمها إلى بلاد خلافته. وكانت الرقة بحكم انها جزء من بلاد الشام تحت نفوذ معاوية ابن أبي سفيان. وكانت مشايعة للخليفة المقتول عثمان. نزلها كثير ون من وجهاء العراق كزفر بن الحارث الكلابي والجحاف بن حكيم، وعبد الله بن الحر ومالك بن مسمع، هجروا البصرة بعد وقعة الجمل ونزلوا الرقة لأنهم لايريدون أن يقيموا في بلد يشتم فيه عثمان، ولأنهم كانوا من خصوم علي فأثروا في أهلها ونشروا فيها «العثمانية» وكان أميرها قبل قدوم علي، سماك بن مخرمة الأسدي في طاعة معاوية،

وكان قد فارق علياً في نحو مائة رجل من بني آسد ثم أخذ يكاتب قومه حتى لحق بهم منهم سبعمائة رجل فكان الأمر في الرقة إلى شيعة معاوية . سار علي إلى الشام من الكوفة بطريق الجزيرة الفراتية وأتى إلى قرقيسيا على الخابور سنة ٣٦هـ = ٦٥٧م وفي طريقه إلى الرقة أتاه وفد من بني تغلب فصالحوه على أن يقرهم على دينهم ، وكانوا نصارى قبل منهم الخليفة عمر أن يدفعوا الجزية وأن تعتبر زكاة . وأسلم بعضهم . ولما دخل علي بلاد تغلب في الجزيرة الفراتية استقبلته مسلمة لهم كثيرة فسرّ بما رأى من ذلك . ثم سار حتى أتى الرقة . ونزل بمكان على البليخ على جانب الفرات وعلي يعلم أن جل أهل الرقة مشايعة لعثمان ومواليه لمعاوية فروا اليها من الكوفة فضلاً عمن فيها من أبناء الشام من قبل وانها جزء من الشام . فطلب علي من أهلها أن يجسروا له جسراً على الفرات من السفن لكي يعبر من هذا المكان إلى الشام فأبوا ، وقد كانوا ضموا السفن عندهم ، ولم يشأ علي أن يستعمل القوة معهم ويبطش بهم وآثر أن يتجاوزهم ، ونهض من عندهم ليعبر على جسر منبج ، وخلف الاشتر النخعي مدير شرطته على مؤخرته فعز عليه موقف أهل الرقة من الخليفة علي بن أبي طالب . فنادى أهل الرقة قائلاً : يا أهل هذا الحصن اني اقسم بالله لئن مضى أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم حتى يعبر منها لا جردن فيكم السيف ولأقتلن مقاتلتكم ولاخربن أرضكم ولاخذن أموالكم فلقي بعضهم بعضاً فقالوا ان الأشتر يفي بما يقول، وان عليا خلفه علينا ليأتينا منه الشر، فبعثوا اليه : إنا ناصبون لكم جسراً فأقبلوا . فأرسل الاشتر إلى علي فجاء ونصبوا له الجسر فعبر ثم أمر الأشتر فوقف في ثلاثة آلاف فارس حتى لم يبق أحد من الناس إلا عبر . وان الخيل ازدحمت حين عبرت ، وزحم بعضها بعضاً وهي تعبر ، وبعد أن عبر علي الفرات بجيشه من الرقة التقى بمعاوية وجيشه في سهل صفين (مقابل الرقة بين قرية العكيرشي وقرية الحمام) حيث جرت وقعات صفين واستمرت ١١٠ يوماً . سميت جميع وقعات صفين بموقعة صفين . أرخ لها نصر بن مزاحم المنقري المتوفي سنة ٢١٢ بكتابه (وقعة صفين) حققه ونشره عبد

السلام محمد هارون طبع الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٣٦٥هـ. وكانت أعظم تلك الوقعات ليلة الهرير في ٢٨ تموز سنة ٦٥٧م حمل فيها الاشتر النخعي فزعزع جيوش الشام عن مراكزها، وكانت الفئتان قد ملت القتال وكرهه الكثيرون في المعسكرين وخاصة القراء، وإذا بالمصاحف ترفع على رؤوس الرماح في جيش معاوية، فلا يقرها علي وترتفع الأصوات في معسكره بوقف القتال والنزول على حكم القرآن فيذعن علي بتهديد رؤساء جيشه له ويسقط بيده، ويقر التحكيم، ويوقف القتال ويعتبر وقف القتال نصراً حاسماً لمعاوية واقرار ملكه وأساساً لاقامة الدولة الأموية. ومن وقعة صفين نبدأ نلاحظ الدور العظيم الذي قامت به بلدان وادي الفرات السوري في الأحداث الاسلامية والتاريخ الاسلامي والعربي. فمن فتح الرقة إلى وقعة صفين إلى قدوم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى قرقيسيا على الفرات ومصالحته أميرها زفر بن الحارث الكلابي ومسيره منها إلى العراق وانتصاره على مصعب بن الزبير، وإلى اتخاذ هشام بن عبد الملك الرصافة مقراً له ثانياً بعد دمشق. واتخاذ الخليفة الأموي مروان بن محمد حران مقراً له واتخاذ الرشيد الرقة مقراً له. واتخاذ البساسيري مدينة الرحبة «الميادين» قاعدة انطلاق لاحتلال العراق واستيلائه على بغداد فعلاً في سنة ٤٥٠ للهجرة.

الرقة في العهد الأموي:

يبدأ العهد الأموي من اليوم الذي بويع فيه معاوية بن أبي سفيان في ٢٥ ربيع الأول سنة ٤١هـ وينتهي بمقتل مروان الثاني بن محمد سنة ١٣٢هـ لثلاث بقين من ذي الحجة، وهو ٩١ سنة وتسعة أشهر.

ترجع علاقة الرقة بالأمويين إلى أيام ولاية معاوية على الشام فقد ولاه إياها الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي بويع في سنة ٢٤هـ = ٦٤٤م وقتل في سنة ٣٥هـ = ٦٥٦م. وكان عمر بن الخطاب ولى معاوية على دمشق. وفي عهد عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكان ولاة أمصارها تحت أمره. وكانت لمعاوية وهو وال

على الشام غزوات مع الروم فبلغ عمورية، وأسكن الحصون التي في طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة، وسير حبيب بن مسلمة بأمر عثمان إلى أرمينية فسار حتى أتى قاليقيا فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى وصل تفليس وكان معاوية قد بويع بالخلافة سنة ٤١هـ وتوفي سنة ٦٠هـ = ٦٨٠م.

عني الأمويون بالرقة واتصل تاريخهم بها كل مدة عهدهم في الشرق. فقد كانت محطتهم إلى ارمينية التي اهتموا بها اهتماماً زائداً، وكان منهم بعض ولاتها. وكانت الرقة محطتهم إلى غزو حدود الروم فكانت الرقة تمون جيوشهم إلى أرمينية وحدود الروم. وكانت تشرف على القبائل العربية في الجزيرة الفراتية والتي كانت مركزاً من مراكز الخوارج منذ تاريخ خروجهم على عليّ في صفين. وكانت تشرف على الجزيرة الفراتية كلها التي كانت درعاً للشام، وقاعدة لانطلاق الجيوش إلى الشمال والشرق فنرى الخليفة الأموي مروان بن الحكم في سنة ٦٥ للهجرة قد جهز جيشاً في ثلاثين ألفاً يقوده عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة لغرضين الأول محاربة زفر بن الحارث الكلابي الذي كان فر من موقعه من مرج راهط والتجأ إلى قرقيسيا على الخابور (البصيرة اليوم) مع قومه قيس أعداء الأمويين وأنصار ابن الزبير والثاني لمحاربة التوابين وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين بن علي. ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذاك الجرم إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره وقتلوا قتلته. وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن صدر الخزاعي فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس سراً إلى ما عزموا عليه حتى تم لهم ما أرادوا سنة ٦٥ فخرجوا من الكوفة، وساروا بطريق الجزيرة الفراتية، فانتهوا إلى قرقيسيا وبها زفر بن الحارث الكلابي فأخرج اليهم الانزال وساروا من قرقيسيا ليسبقوا إلى عين الوردة (رأس العين) ليقصدوا منها الشام لينتقموا من أهلها ومن الأمويين الذين قتلوا الحسين وكان عبيد الله بن زياد قائد مروان بن الحكم قد توجه من الشام إلى حربهم في ثلاثين ألفاً ووصل الرقة وانفصل على مقدمة من الرقة خمسة امراء، منهم الحصين بن نمير السلولي وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري، وأدهم بن

محرز الباهلي وربيعة بن المخرق الفنوي، وجبلة بن عبد الله الختعمي حتى إذا صاروا إلى عين الوردة وقعت موقعة عظيمة بين الفريقين قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من معه. ولما كان عبيد الله بالجزيرة بطريقه إلى عين الوردة بلغه موت مروان بن الحكم. وأتاه كتاب عبد الملك بن مروان بن الحكم يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على المسير إلى العراق لمحاربة مصعب. وقيل ان وقعة عين الوردة كانت في سنة ست وستين.

كان عدة أمراء من الأمويين يغزون الحدود البيزنطية منطلقين من الرقة التي كانت تمون جيوشهم ومن هؤلاء عبد الله بن عبد الملك غزا حدود الروم سنة ٨٣هـ وأسكن جنداً من الجزيرة في ملطية وطرندة ومنهم أخوه مسلمة بن عبد الملك غزا حدود الروم مراراً. وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي تولى الخلافة سنة ٩٩هـ ومات سنة ١٠١هـ موّنت الرقة جيش مسلمة بن عبد الملك في طريقه لمحاربة الخوارج الحرورية في العراق. وكان ولاة الجزيرة ينزلون الرقة.

عين الأمويين على الرقة الولاة ـ وصار كثير من رجال بني أمية ينزلون فيها. وكان لبعضهم قصور في ضواحيها، ومزارع على البليخ وفي نواحي اخرى، وكانت عامرة مزدهرة في عهدهم، ونزلها بعض الصحابة وبعض التابعين وكثير من المحدثين. فكانت حركة الحديث في الرقة ناشطة لهذا السبب، يضاف إلى هذا السبب سبب آخر هو ملائمة بيئة الرقة لحياة العلماء والفقهاء والأدباء بسبب وفرة خيراتها ورخص اسعارها وطيب مناخها، وأخذ الطابع العربي يغلب عليها لكثرة من نزل فيها من العرب في ذلك العهد. بالإضافة إلى من كان فيها من العرب وفي ضواحيها وسهولها.

فممن نزلها من التابعين زفر بن الحارث الكلابي. جاء عنه في تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٧٦: «زفر بن الحارث بن معاوية، واسمه خويلد بن نفيل ينتهي نسبه إلى هوازن الكلابي سمع الحديث من عائشة أم المؤمنين ومن معاوية، وروى عنه ثابت بن الحجاج؛ وسكن البصرة وانتقل إلى الشام، وكان في جيش

البصرة الذي خرج لاغاثة عثمان بن عفان لما كان في الحصر، وشهد وقعة صفين، فلما قدم على عائشة قالت له: من قتل من الناس؟ فقال: عمار بن ياسر. فقالت ذاك الرجل يتبعه الناس في دينه، ثم قالت ومن؟ فقال لها: هاشم الأعور، فقالت ذاك الرجل ما كادت أن ترد رايته. أهـ.» وزفر من التابعين.

وبجانب دير زكى كان يوجد تل سمي تل زفر بن الحارث الكلابي، لأن زفر نزل عليه. وكانت عنده ضيعة يقال لها الصالحية، اختطها عبد الملك بن صالح الهاشمي.

وكان زفر والياً على قنسرين لابن الزبير واشترك بموقعة مرج راهط الذي انتصر فيها مروان بن الحكم على أنصار ابن الزبير. وفر زفر إلى قرقيسيا واعتصم بها مع رهطه، وكان سيدها وشاعراً جزل الألفاظ متين النسج، صالحه عبد الملك بن مروان في قرقيسيا ليتفرغ لمحاربة مصعب في العراق.

وممن نزل الرقة الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرون بن أمية بن عبد الشمس ويكنى أبا وهب وأمه أروى بنت كريز من عبد شمس وهي أم عثمان بن عفان. عينه الخليفة عمر بن الخطاب على عرب الجزيرة عاملاً وهو من فتيان قريش وشعرائها وشجعانها وأجوادها. وكان عثمان جعله والياً على الكوفة. ولكنه كان مدمناً لشرب الخمر، فجلده عثمان، ثم عزله، وصار إلى الرقة، معتزلاً لا لعلي لا لمعاوية. ولكنه في خلافة معاوية كان يذهب إلى دمشق يطلب رفد معاوية. وكانت للوليد عين الرومية من أراضي الرقة وهي اليوم عين عيسى على بعد ٤٠ كم شمال الرقة، ومياهها غزيرة تسقى نحو ٩٠ هكتاراً أعطاها إلى صديقه الشاعر أبي زبيد الطائي ثم آلت فيما بعد للرشيد وورثته كما أفاد ياقوت الحموي. والوليد بن عقبة من الصحابة.

كان أبو زبيد الطائي الشاعر من أهل الرقة ينادم الوليد عندما كان والياً على الكوفة. ولما عزل وصار إلى الرقة لحق به أبو زبيد. ولم يزل ينادمه في الرقة. وكان

الوليد يجل أبا زبيد ولا يقدم عليه أحداً. ولأبي زبيد في مدح الوليد بن عقبة شعر كثير لاحسانه اليه. منه:

ان الـوليـد له عنـدي وحـق له ... ود الخليـل ونصـح غير مذخـور

لقـد رعـاني وأدنـاني وأظـهـرني ... على الأعـادي بنصـر غير تقـديـر

فشـذب القـوم عني غير مكـترث ... حتـى تنـاءوا على رغم وتصغـير

نفسـي فداء أبـي وهـب وقـل له ... يا أم عمـر فحـلي اليـوم أو سيري

وفي الأغـاني: أوصى الـوليد بن عقبة أن يدفن على البليخ إلى جانب أبي زبيد الشاعر النصراني المعمر.

وذكر القشيري ان الوليد «مات في ضيعة له في السبخة وقبره بها» والسبخة هي السبخـة الحـاليـة على طريق دير الزور ـ حلب شرقي الرقة تبعد عنها ٤٠ كم ومن قراها.

الشاعر أبو زبيد الطائي:

لهذا الشاعر العربي المولد بالرقة والمتوفى فيها أهمية خاصة لفهم صلة العرب بالرقة قبل فتحهم لها ولادراك تاريخ الأدب العربي في الرقة والجزيرة الفراتية. فهو أول شاعـر عربي من أبنـاء الـرقـة يطـالعنـا في صدر الاسلام ويطالعنا منه اتصاله بالبيئـات العـربيـة. اتصـل بالخليفـة عثمان بن عفان بالمدينة في الحجاز وبالخليفة معاوية بن أبي سفيان بدمشق وبالوليد ابن عقبة أمير الكوفة. وأبو زبيد نصراني لم ير في اقتحام هذه البيئات أية صعوبة ولم يرها غريبة عليه، وانما كان يرى فيها بيئة، يفهمهـا وتفهمـه يحبهـا وتقـدره ولـذا اعترفت بموهبته وأدبه وقربته وعاش في هذه البيئات وفي مدينة الرقة مكرماً كل عمره المديد.

واعترف تاريخ الأدب العربي بقيمته فروى أخباره، وأسلكه بين أدباء العربية.

وهـو حرملة بين المنـذر بن معـدي كرب من قبيلة طي الـراقيـة إلى زيد بن

كهلان من عرب اليمن شاعر أدرك الجاهلية والاسلام فعد في المخضرمين. كان نصرانياً وعلى دينه مات، كان مقامه بالرقة وبها مات. كان أخواله بني تغلب وكان يقيم فيهم أكثر أيامه. وكان من زوار الملوك. وكان عالماً بسيرها. أتى النعمان بن المنذر ملك الحيرة وجالسه ونال صلته.

كان عثمان بن عفان يدني مجلسه لمعرفته بسير الملوك الأعاجم.

ومما اشتهر به أبو زبيد وصفه للأسد، قيل انه لقيه في بعض أسفاره بالنجف. أنشد عثمان قصيدته العينية التي يصف بها الأسد، وأخذ يصفه نثراً. وكان عند عثمان المهاجرون والأنصار. فقال له: اسكت قطع الله لسانك فقد أرعبت قلوب المسلمين.

وأنشد معاوية وابنه يزيد شعره ونال جوائزهما.

وكان ينادم الوليد بن عقبة أيام ولايته في الكوفة وفي الرقة بعد أن عزل وله في الوليد عدة مدائح وكان الوليد يجله ويجزل له العطاء.

مات أبو زبيد فجأة ودفن على نهر البليخ قرب الرقة، وجد عليه الوليد وجداً شديداً. ولما حضرت الوفاة الوليد أوصى أن يدفن إلى جانب أبي زبيد.

وهو ممن يحتج أهل اللغة بكلامه لفصاحته. جعله ابن سلام في الطبقة الخامسة من الشعراء الاسلاميين. واختار له البحتري أبياتاً كثيرة في حماسته. وهو جزل اللفظ بدوي الطبع.

ان شخصية مثل شخصية أبي زبيد وشاعرية عربية متمكنة مثل شاعرية ابي زبيد لا تتكون وتنمو وتقوى إلا في وسط عربي ذي جذور ممتدة في تاريخ الوسط الذي نشأ فيه: وسط الرقة.

ومما لا شك فيه أن وسط أبي زبيد في الرقة أو في منطقتها كان وسطاً عربياً عريقاً له أدبه العربي الذي نشأ فيه وصاحبه. إلى جانب ما عرفت الرقة من أوساط: الوسط السرياني والوسط اليوناني والوسط الفارسي والوسط البيزنطي.

الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات :

ابن شريح بن مالك بن ربيعة . قريشي ولد في المدينة أومكة في السنة الرابعة عشرة للهجرة وتوفي سنة ٧٥ . عاش في مرحلة من أعظم مراحل التاريخ للأمة العربية واحفلها بالحوادث . من شعراء السياسة والغزل المشهورين . وغلب عليه لقب الرقيات لأنه كان يشبب برقية وسلمة ابنتي عبد الواحد بن أبي سعد .

أقام مدة في الجزيرة الفراتية ونزل الرقة ، وكان فيها حين وقعت وقعة الحرة في المدينة بالحجاز لليلتين من ذي الحجة سنة ٦٣هـ حيث اقتتل أهل المدينة الذين كانوا خلعوا ابن معاوية ، وجيش يزيد الذي يقوده مسلم بن عقبة المري . فانهزم أهل المدينة بعد أن قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثاً لجنده يقتلون ويأخذون المتاع . وقتل في الحرة نفر من أهل الشاعر فرثاهم وبكاهم بقصيدة محزنة ، ونقم على بني أمية ، ووالى بني الزبير ، ولزم مصعب بن الزبير ، وقال فيه مدائح ومراثي سنية .

وبعد زوال دولة بني الزبير استشفع بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب عند عبد الملك بن مروان فأمنه فقال وهو بالرقة يخاطب عبد الله بن جعفر ويمدحه من قصيدة :

أتيانساك نثني بالذي أنت أهله	عليك كما أثنى على الروض جارها
تقدت بي الشهباء نحو ابن جعفر	سواء عليها ليلها ونهارها
تزور فتى قد يعلم الله أنه	تجود له كف بعيد غرارها
ذكرتك ان فاض الفرات بأرضنا	وجاش بأعلى الرقتين بحارها
وعندي مما خول الله هجمة	عطاؤك منها شولها وعشارها
مباركة كانت عطاء مبارك	تمانح كبراها وتنمي صغارها

ومدح عبد العزيز بن مروان بقصيدة جاء فيها :

لم يصح هذا الفؤاد من طربه	وميله في الهوى وفي لعبه

اهـلاً وسهـلاً بمن أتـاك من الـرقة يســري الـيــك في سخـبــه

والسخاب : ضرب من الثياب ومن الحلي جميعا

وجـاء اسم الـرقـة والبليـخ وأماكن أخرى من الجزيرة الفراتية في شعره ومن ذلك قوله :

أقــفــرت الــرقــتــان فالـقـلس فهـو كأن لم يكـن به أنس
فالــديــر أقــوى إلى البليــخ كما أقــوت محاريــب أمــة درســوا
أمسى بحــومــاتهــا العــدو وفي أعــلى أعــالي حصــونهــا حرس

حصن مسلمة بن عبد الملك :

ومن كان لهم من الأمـويـين قصـور وحصون في ضواحي الرقة وعلى البليخ مسلمـة بن عبـد الملك بن مروان بن الحكم ، عظيم بني أميـة . واحـد أربعـة قواد عظـام اشتهـروا في عهـد الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة سنة ٨٦ هـ = ٧٠٥م وتـوفي سنـة ٩٦ هـ = ٧١٥م وهؤلاء القـواد هم : محمـد بن القاسم الثقفي وقتيبـة بن مسلم البـاهـلي وموسى بن نصير ومسلمة بن عبد الملك كان لهم أجل الأثر في الفتح الاسلامي .

وأمـا مسلمـة فان عزيمتـه ظهرت في حروب الروم ، فكان في كل سنة يسير اليهم الجنـود ، فيفتـح ما أمـامـه من الحصـون العظيمـة التي أقامها الروم ، لحفظ بلادهم ، وربما كان يغزو معه العباس بن الوليد بن عبد الملك .

توفي مسلمـة بمـوضـع يقـال له الحـانـوت في سنـة احدى وعشرين وماية . وكانت له دار في دمشق عند الجامع الأموي . وكان قد حاصر القسطنطينة سنة ٩٨ هـ يقول ياقوت في معجم البلدان : «حصن مسلمة بالجزيرة بين رأس العين والرقة بناه مسلمة بن عبد الملك بن مروان بينه وبين البليخ ميل ونصف وشرب أهله من مصنـع فيـه طولـه مائتـا ذراع في عرض مثله ، وعمقـه نحـو عشـرين ذراعاً معقوداً بالحجارة ، وكان مسلمة قد أصلحه ، والماء يجري فيه من البليخ في نهر مفرد في كل

سنة ومرة، حتى يمتلىء فيكفي أهله عامهم ويسقي هذا النهر بساتين مسلمة، وفوهته من البليخ على خمسة أميال، وبين حصن مسلمة وحران تسعة فراسخ، وهو على طريق القاصد للرقة من حران».

وكان حصن مسلمة فيما يظهر قرية فيها برج شاهق لمسلمة كان يستريح فيه بطريق ذهابه إلى حدود الروم وبطريق عودته منها هو وجيشه الذي كان يسير من الرقة. وروى القشيري عن عدة أشخاص من أهل حصن مسلمة.

وروى أحمد بن يوسف الكاتب المتوفي سنة ٣٤٠ بكتاب المكافأة ما يلي: «أقام أبو عبد الله محمد ابن علي ـ أبو الخلفاء العباسيين برصافة هشام ثلاثة أشهر، لا يأذن له هشام عليه. إلى أن بلغ أبا عبد الله اجماع مسلمة القدوم على هشام، فتلقاه على أميال من الرصافة. وشكا اليه جفوة هشام، وتأخيره الاذن عليه. فقال له مسلمة: أرجو أن يزول هذا بقدومي، وأمره أن يقيم بباب هشام إذا دخل عليه مسلمة. ولا يريم ما أقام مسلمة عنده: فأقام أبو عبد الله إلى زوال الشمس، فخرج مسلمة اليه، فقال له: قوض رحالك أبا عبد الله فمالك عند الرجل من خير لأني خاطبته في أمرك ـ بعدما تقضي سلامي عليه ثم عانق مسلمة أبا عبد الله، وقال: رسولي اليك صائر، فرجع أبو عبد الله إلى رحله فقوضه وبقي في حيرة لعجزه عما ينهضه، ووافاه رسول مسلمة يقول: «لم أقدر في سفري هذا طول اللبث وأشهد الله أني ما حملت معي إلا ألفاً وثلاثمائة دينار، وقد وجهت اليك بالألف وخلفت الثلاثمائة لنفقتي».

فحدث بهذا الحديث الرشيد في حديثه الموصل، فبكى وقال: «وصلت أبا سعيد «كنية مسلمة رحم، والله لا دخلت الرقة حتى أقضي عارفته عندنا» فلما وافى حصن مسلمة، أحصى من فيه من ولده الذكور والإناث فوجد أربعين، فأمر بأربعين الف دينار». اهـ.

وقد تهدم حصن مسلمة ويبعد عن البليخ ٦ كم. كان يجري اليه الماء من البليخ ويسمى أهالي قرية التركمان المجاورين للحصن مكانه اليوم «مدينة الغار».

آثار الخليفة هشام بن عبد الملك في الرقة:

هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الخلفاء الأمويين ولد سنة ٩٢ هـ بويع بالخلافة في ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ هـ وتوفي ٦ ربيع الأول ١٢٥ هـ فكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر واحد عشر يوماً.

كان مشهوراً بالحلم والعفة

قال القائد العباسي عبد الله بن علي الذي انتصر على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في الشرق سنة ١٣٢هـ: «جمعت دواوين بني أمية فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة السلطان من ديوان هشام» والمراد بالديوان هنا هو ميزانية الدولة التي تعرف بها وارداتها ونفقاتها. وصلاح الميزانية من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض. ولعل نظمه للميزانية هو الذي جعل الناس يصمونه بوصمة البخل، وكان ادارياً حازماً، يعمر الأرض ويجمع الأموال. وكان يستجيد الكسي والفراش وعدد الحرب ولأمتها، واصطنع الرجال وقوى الثغور واتخذ القنى والبرك بطريق مكة غير ذلك من الآثار التي أتى عليها داود بن علي الوالي العباسي في صدر الدولة العباسية.

عني هشام بالرقة فوصلها بمجموعة من الحصون والقصور لتأمين الأمن ولتكون محطات لراحته وراحة حاشيته في تنقله بين الشام والجزيرة والحدود البيزنطية التي كان يغزوها بنفسه، وعني بزراعة الرقة. وبري أراضيها، بما فجّر من الترع من نهر الفرات لسقي الأراضي. وتوفير الغلات لتأمين حاجة جيوشه إلى الغذاء ولتأمين قوت سكان المنطقة. بنى في الجانب الغربي من الفرات مقابل الرقة، في مكان يسمى رقة واسط أسفل من الرقة بفرسخ على طريق الرصافة قصرين كان ينزلهما عندما يأتي من الرقة في طريقه إلى الرصافة جنوبي الرقة. كانت رقة واسط ضاحية تحيط بها قناتان هما المري والمهني فجّرهما هشام من الفرات. وقد كانتا تسقيان بساتين وأشجاراً مثمرة كثير متنوعة. وإلى مدة قريبة

كانت تبدو آثار المهني والمري في الفضاء الممتد بين نقطة المقص على الطريق العام بين دير الزور حلب وبين الطرف الغربي لجسر الرقة على الفرات.

وقد سجل الشاعر الأموي جرير عناية هشام بالري وبالأعمال الزراعية بعدة قصائد يمدح بها هشاماً وهو مقيم في الرصافة جاء في احداها:

شققت من الفرات مباركات ... جواري قد بلغن كما تريد
بها الزيتون في غلل ومالت ... عناقيد الكروم فهن سود
فتمت في المهني جنان دنيا ... فقال الحاسدون هي الخلود
يعضون الأنامل ان رأوها ... بساتيناً يؤازرها الحصيد
ومن أزواج فاكهة ونخل ... يكون بحمله طلع نضيد

وجاء في ثانية:

ملكوا البلاد فسخرت أنهارها ... في غير مظلمة ولا تبع الريا
اوتيت من جذب الفرات جواريا ... فيها الهني وسابح في قرقري

أحدث هشام في الرقة كثيراً من الاصلاحات والانشاءات، واستزاد في أسواقها، وبنى فيها سوقها الأكبر الذي سمي بسوق العطارين.

وقد أشار الشاعر الأموي الكبير الأخطل إلى كثرة العطارين في زمانه بسوق الرقة بقوله:

إذا الرقة البيضاء لاحت بروجها ... فدى كل عطار بها أم مريم

وقد أصبحت لهذه السوق في العصر العباسي أهمية كبرى وصارت تسمى سوق هشام العتيق.

وكان من أسواقها في العهد الأموي سوق تسمى سوق الأحد ذكرها القشيري. ولربط الشام بالجزيرة وتسهيلاً لمرور الجيوش بينهما بنى هشام جسراً على الفرات عند الرقة من السفن. وكان هشام يستجيد الخيل ولا يفتر عن بعث روح الفروسية في العرب. فكان يقيم من حين لحين الحلبة (مسابقات الخيل)

ويقتني كرائم الخيل، وأقام مرة الحلبة في الرقة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس. ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا اسلام لاحد من الناس.

الزهري محدث الشام والجزيرة الفراتية:

هو أبو سليمان وقيل أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب بن زهرة القرشي. أحد الفقهاء والمحدثين والأعلام التابعين، رأى عشرة من الصحابة جمع نحو ألفي حديث عنهم، وعن الكثير من كبار وصغار من رجال ونساء من أشراف وموالي. قيل انه أول من دون الحديث، كان مشهوراً عند الجميع في التقدم والعلم بالسنة. وكان إذا قعد في بيته وضع كتبه حوله واشتغل بها عن كل أمر من أمور الدنيا. وكان يشرب العسل ويقول انه يورث الذكاء.

ولد سنة ٥٣ للهجرة في الحجاز «٦٧٠م» وسكن الشام وحدث برصافة الشام أي رصافة هشام بن عبد الملك وأقام فيها عشر سنين في زمن هشام وحمل الشاميون والجزريون عن الزهري برصافة هشام، وكان علمه بدواوين بني أمية. ومشهور عنه أنه كان من مذهب الإمام، وذكروا أن الزهري لما قدم الرصافة واليا على الرقة حدث عنه من أهلها جعفر بن برقان وآخرون. هو معروف بابن شهاب، توفي سنة ١٢٤هـ وعمره ٧٢ سنة (٧٤١م).

بعض من نزل الرقة من الصحابة والتابعين:

١ ـ وابصة بن معبد الأسدي. سكن الكوفة، ثم تحول عنها فأقام بالرقة إلى أن توفي فيها. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث، وقبره معروف بالرقة في وسط الجامع المتهدم في الرقة القديمة يزوره الناس.

٢ ـ ومن التابعين يزيد بن الأدهم أبو عوف سكن الرقة، وهو ابن أخت ميمونة زوج النبي. كان ثقة كثير الحديث.

٣ ـ ومن التابعين سالم بن وابصة بن معبد الأسدي الرقي.

كان من أهل الحديث. وكان يخطب بالرقة على المنبر سكن الكوفة وولي أمرة الرقة ثلاثين سنة. وكان امام مسجد الرقة، وقاضي أهلها، وكان رجلاً حليماً، مات في آخر خلافة هشام. وكان شاباً في خلافة عثمان». ولسالم بن وابصة شعر جيد.

٤ ـ ميمون بن مهران أبو أيوب نزل الرقة، كان كثير الحديث.

٥ ـ جعفر بن يرقان من رواة الحديث الموثوق بروايتهم توفي في الرقة سنة ١٥٤.

بعض من نشأ في الرقة من الكتاب:

عبد الحميد بن يحيى بن سعد، وفي رواية أن جده من سبى القادسية، وكان له في بني أمية ولاء ينسب اليهم. وقيل انه من أهل الأنبار سكن الرقة الكاتب البليغ يضرب به المثل بالبلاغة. أطلق عليه ابن عبد ربه: اسم عبد الحميد الأكبر، وعده ممن نبل بالكتابة، تخرج في الكتابة بسالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه في الرصافة. وكان سالم زوج اخت عبد الحميد. وسالم هذا أحد الفصحاء البلغاء. قال ابن هلال العسكري ان عبد الحميد كان يحسن الفارسية وبأدب هذه اللغة تأدب والف تطويل الرسائل واختصارها بحسب الحال.

كتب عبد الحميد قليلاً عن هشام بن عبد الملك في الرصافة. وقيل كان معلماً للصبيان في الكوفة ثم انتقل إلى الرقة يعلم الصبيان.

جاء في كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري: «كان أهل وأقارب عبد الحميد الكاتب ينزلون بالقرب من الرقة بموضع يعرف بالحمراء» اهـ. فهوشامي جزري. وتوجد اليوم شرقي الرقة على شاطىء الفرات عدة قرى. تدعى كل منها

حمراً باضافة ميزة هي : حمرا بلاسم، حمرا جماسة، حمرا غنام، حمرا بواقة حمرا ناصر تسكنها عشيرة العفادلة من عشائر الرقة.

اتصل عبد الحميد بمروان بن محمد وهو وال على ارمينية، فكتب عنه وحظي عنده، ولعل مكان اتصاله بمروان كان بالرقة. وكتب عن مروان بن محمد وهو خليفة في حران ولازمه إلى أن انهزم مروان إلى مصر وقتل فيها سنة ١٣٢ .

جاء عبد الحميد بطريقة جديدة في الكتابة شرعها للكتاب. تعد رسائله من الأدب الفراتي.

وفي آخر العهد الأموي مشى على الرقة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الصفري غلب على العراق، ولم يغلب أحد من الخوارج قبله ولا بعده عليها. وسار للقاء مروان بن محمد في جيوش عظيمة ومعه سليمان بن هشام ابن عبد الملك في جمع مواليه ورجاله سنة ١٢٨ ، فأرسل مروان بن محمد عسكراً لمحاربته. فالتقى العسكران بكفر توتا من بلاد الجزيرة وأقاموا أياماً يقتتلون إلى أن قتل الضحاك، وتفرق الخوارج ورحلوا عن الرقة، ولكن بعد أن تضررت بهذا القتال بسبب وصول فرق من جيش الضحاك اليها. ولما استمرت الهزيمة بمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في الشرق أقام عبد الله بن علي القائد العباسي بالرقة. وأنفذ أخاه عبد الصمد في طلب مروان الذي سار إلى دمشق ومنها إلى مصر، وفيها قبض عليه وقطع رأسه وأرسل إلى عبد الله بن علي في الرقة. وأرسله عبد الله بن علي بدوره إلى أبي العباس السفاح في العراق أول الخلفاء العباسيين. وعندما ألقي أمامه تمثل في هذا البيت.

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم   ولا دماؤهم للغيظ ترويني

الرقة في العهد العباسي :

يبرز تاريخ الرقة في العصر العباسي أكثر مما كان في العهد الأموي بتقدم الحضارة وانتشار الكتابة والتدوين وظهور المؤلفين ، فتتوافر فيه مادة صالحة للكتابة

والتأريخ. ولكنه مع ذلك غير واضح المعالم ولا متسلسل الحلقات وما تزال فيه ثغرات غامضة وحلقات مفقودة كثيرة وذلك بسبب كثرة ما نزل بالرقة من الكوارث، وما أصابها من النكبات بفعل الحروب والثورات والفتن، وبسبب تخريب التتر لها تخريباً تاماً استمر قروناً، وقد ضاعت بسبب مداهمة التتر للشرق العربي وتخريبه كثير من المصادر التي كان بامكان المؤرخ أن يفيد منها في التاريخ للرقة. وما بقي من المصادر متفرق في بطون الكتب. ولم يظهر إلى اليوم في العالم العربي كتاب في تاريخ الرقة. على ما كان لها من الأهمية الكبرى في التاريخ السياسي العربي.

أعرض بنو العباس في بدء عهدهم عن الرقة بعض الوقت فتأخرت بهذه الأعراض وانحطت.

وكان أول حاكم عسكري للرقة في العهد العباسي عبد الله بن علي العباس هازم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في الشرق. جاء بعد معركة الزاب الفاصلة متعقباً مروان بن محمد المنهزم وأقام بالرقة. وكان أكبر الرجال في عهده الذين لهم سلطان ونفوذ وشدة عزيمة ثلاثة رجال هم أبو مسلم الخراساني بالمشرق، وأبو جعفر المنصور في الجزيرة وارمينيا والعراق وعبد الله بن علي بالشام ومصر، فهؤلاء كانوا مؤسسي دولة أول الخلفاء العباسيين السفاح أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بويع بالخلافة بالكوفة ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢ (٣٠ تشرين الأول سنة ٧٤٩). وكان مروان بن محمد لا يزال حياً وقتل لثلاثة بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢ (٥ آب سنة ٧٥٠). ومن هذا اليوم يبتدىء تاريخ خلافة أبي العباس الذي توفي بمدينة الأنبار يوم الأحد لثلاثة عشر خلت من ذي الحجة سنة ١٣٦ (٨ حزيران سنة ٧٥٤). فتكون خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر.

تبع عبد الله بن علي من كان بالشام من الأمويين من أولاد الخلفاء وغيرهم

فقتلهم وعمد إلى قبور بني أمية فنبشها حتى يمحو آثارهم وكذلك فعل بقية رجالات بني العباس بالبصرة وبمكة وبالمدينة .

وعبد الله بن علي كان يطمع في أن تكون الخلافة له بعد السفاح لما له من سابق الخدمة في تأسيس الدولة وانه الذي قام بهزيمة مروان ، وكان يخاف أن يفوز بها أبو جعفر فكانت مطامعه هذه سبباً في حوادث جسام وفي قتله بخلافة المنصور، وهكذا كانت خاتمة حياة هذا البطل الذي اتصلت فترة من حياته بتاريخ الرقة .

الرقة في عهد المنصور:

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد علي ولد بالحميمة سنة ١٠١ /هـ . ولما تولى أبو العباس الخلافة كان ساعده الأشد في تدبير الخلافة . وكان يلي الجزيرة وارمينية والعراق . وكان من قبله على الرقة مقاتل بن حكيم ولما عصى العباس بن محمد السفياني في جهات منبج وجه أبو جعفر مقاتل بن حكيم من الرقة في خيل عظيمة لقتال السفياني فهزمه . وافتتح حلب عنوة وجمع الغنائم وسار بها إلى أبي جعفر وهو بحران وكانت من أعمال الرقة .

وفي السنة التي توفي فيها أبو العباس . عقد لأخيه أبي جعفر المنصور ولاية العهد بويع بالحجاز سنة ١٣٦ /هـ (حزيران ٧٥٤/م) واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة ١١٥٨ /هـ ٨ تشرين الأول سنة ٧٧٥/م) فكانت خلافته ٢٢ سنة هلالية .

تولى المنصور ولم تكن الخلافة قد توطدت دعائمها . وكان يخاف منافسة عمه عبد الله بن علي لما كان معه من جيوش الدولة من أهل خراسان والشام والجزيرة الذين أمر عليهم السفاح . وكان يخاف أبا مسلم الخراساني وخوفه من بني آل علي بن أبي طالب .

وكان المنصور يجمع إلى الجرأة وبعد الهمة الدهاء فضرب أعداؤه بعضهم

ببعض. فعزا الطائفة عمه صالح بن علي سنة ١٣٨/هـ. ولم تزل الصوائف تتوالى إلى سنة ١٥٥/هـ أدى فيها صاحب الروم الجزية.

كان المنصور أعظم رجل من العباسيين شدة وبأسا ويقظة وثباتاً، شحن الثغور الأطراف وأمن السبل وعرف بميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت خزائنه. ولذلك ترك لابنه المهدي ثروة جعلته ينفق عن سعة. والمنصور هو الذي أسس مدينة بغداد. شرع في عمارتها سنة ١٤٥/هـ ونزلها سنة ١٤٩هـ. وكان ينزل في الهاشمية انتقل منها إلى بغداد، حاضرة بني العباس الكبرى ومظهر مدينتهم وفخرهم. وجه المنصوري حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط. وهي مدورة الشكل وجعل لها سورين وابتنى قصره الذي يسمى الخلد على دجلة. وفي سنة ١٥١ بنى الرصافة (القسم الشرقي ن بغداد) للمهدي ابنه وعمل لها سوراً وخندقاً وميداناً وبستاناً وأجرى لها الماء. ولما تم بناؤ ها حشد اليها المنصور العلماء من كل بلد واقليم، فأمّها الناس ولم تزل تتعاظم. قال الخطيب البغدادي لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها.

ذكرت كل ذلك من حياة المنصور لأنه هو الذي أمر ببناء الرقة العربية على طراز خطة بغداد.

كان المنصور قد ولي الجزيرة، وكان قد مر بمدينة الرقة فأعجبه موقعها وطيب هوائها وعذوبة مائها وأقام فيها مدة وقدَّر أهميتها وتوسطها من مملكته وقربها من التخوم الشمالية حيث الخطر الرومي يتربص بالعرب المسلمين وكان قد بنى بغداد. وتمرس ببناء المدن وأراد أن يبني مدناً أخرى، وكان يستحسن سياسة هشام بن عبد الملك وادارته، وإذا كان لم ينفذ فكرته إلا في أواخر خلافته قبل ثلاث سنوات من موته فلأن الاهتمام ببغداد والاحداث قد شغلته.

أرسل ابنه المهدي ولي عهده إلى الرقة سنة ١٥٥هـ = ٧٧٢م وأمره بأن يبني الرافقة على طراز بناء بغداد إلى جانب الرقة البيزنطية على ٣٠٠ ذراع إلى الشمال

الغربي. فبنيت أسوارها على هيئة أسوار بغداد، سور داخلي وسور خارجي بينهما فصيل، وحفر حول السور الخارجي خندقاً سمك السور الرئيسي ٥/٨ وعرض الفصيل ٢٠/٨٠م وسمك السور الخارجي ٤/٥٠م وعرض أعلى الخندق ١٥/٩٠م وأسفله ٩/٥٠م. وأساس السور من الحجر الكلسي. وشابهت بغداد في بيوتها وأبوابها وجعل للمدينة بابين الأول في الزاوية الجنوبية الشرقية، لا يزال ماثلاً ويسمى باب بغداد، حفظته مديرية الآثار بمسانيد حجرية. والثاني في الزاوية الجنوبية الغربية يسميه ياقوت باب الجنان، وكان البابان من الآجر، وكان بجانب كل منهما برج مستدير نصف قطره (٧/٨٠م) لا يزال برج الباب الأول، وقد زال برج الباب الثاني وكان قد رآه الاستاذ هرتز فلد سنة ١٩٠٨.

وكان لها باب ثالث في الجهة الشمالية يسمى باب أورفة.

يذكر الرحالة ابن حوقل الذي تجول في البلاد في سنة ٣٣١هـ في كتابه (المسالك والممالك عندما يصف مدينة المهدية بتونس «ولها بابان ليس لهما فيما رأيته من الأرض شبه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرافقة، وعلى مثالهما عملاً».

وجاء في تاريخ أبي الفرج الملطي في السنة ٧٧٢م: «شاد ابو جعفر مدينة بناحية الرقة دعاها الرافقة. ولم يشاهد أحد مثل أبوابها. ولما كنت أنا الحقير متولياً أبرشية حلب (في القرن الثالث عشر) نقلوا منها مصراعين ضخمين من الرصاص وركبوها على باب قنسرين، ومصراعين آخرين أصغر منهما لم يتيسر لهم وضعهما، لأن المغول باغتوا المدينة وقوضوا أسوارها وحطموا أبوابها».

يقدر الاستاذ كرزويل أبعاد الرافقة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب بنحو ١٥٠٠ متر ويقدر السيد نسيب صليبي المساعد الفني بمديرية الآثار السورية والذي يتولى أعمال التنقيب في الرقة مساحتها بـ ٥٠كم مربع.

وبعد بناء المدينة أقر فيها المنصور جند خراسان، وعهد بادارتها إلى ولي عهده ابنه المهدي، ورأى هذا أن يعزز النفوذ العباسي على حدود سورية الموالية

للأمويين خلفاء الأمس، فعني بالرافقة ولم يلبث البناء أن اتصل بينها وبين الرقة، وكان المكان الذي انشئت عليه الرافقة يسمى الربض، وهو المكان التي تربض فيه الغنم أي تقيم. وكان سوقاً لبيع الغنم، ولكثير من المدن في الجزيرة وغيرها ربض خارج المدينة تتجمع فيه الغنم.

ولما ولي على الجزيرة علي بن سليمان في النصف الثاني للقرن الثاني الهجري أقام في الرافقة ونقل اليها أسواق الرقة وفيها سوق هشام، وكان يعرف بسوق هشام العتيق وأثرت الرافقة في الرقة وهو ما كان يخشاه أهلها عندما عرفوا بعزم المنصور على بناء الرافقة فعارضوه في البدء ثم رضخوا.

واستصلحت الأراضي حول الرافقة واصبحت حدائق بساتين تجري فيها جداول المياه من الفرات والبليخ. وبعد أن تم المهدي الرافقة عاد إلى بغداد.

الرقة في عهد المهدي بن المنصور:

ولد المهدي سنة ١٢٦ بالحميمية من أرض الشراة. جاء إلى الجزيرة مع أبيه سنة ١٤٤ لمراقبة ثغورها وفي سنة ١٤٧ ولاه أبوه العهد. وفي سنة ١٥٥ أسس مدينة الرافقة وأشرف على بنائها بنفسه حيث أقام في الرقة مدة بويع بالخلافة سنة ١٥٨هـ = ٧٧٥م ومكث في خلافته إلى أن توفي سنة ١٦٩هـ = ٧٨٥م كانت مدته عشر سنين.

كانت خلافته مرفهة عن الناس لما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور. وفي أول ولايته أمر باطلاق كثيرين ممن كانوا في سجن المنصور. وكان يجلس للمظالم وبين يديه القضاة، ويميل إلى السنة ويحب ألاّ يخالفها. وله أعمال عمرانية وعناية بالمجذوميين وأهل السجون في جميع أنحاء مملكته.

وكانت الصوائف من طرف المسلمين لا تبطل، كما كانت الغارات من الروم لا تبطل. وفي سنة ١٦٣ احتفل المهدي بأمر الصائفة وولى أمرها ابنه هارون أيضاً.

وكان والي الرقة في عهده علي بن سليمان الذي وجه يزيد بن بدر البطال في سورية إلى الروم في سنة ١٦٨ لأنهم نقضوا الصلح وغدروا فردوا الروم وغنموا.

الرقة في عهد هارون الرشيد:

هارون الرشيد بن محمد المهدي ولد بالرى سنة ١٤٥هـ، ولما شب كان ابوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الأمور. جعله أمير الصائفة سنة ١٦٣. وفي سنة ١٦٤ ولاه المغرب كله من الانبار إلى اطراف افريقية فكانت الولاة ترسل من قبله. وفي سنة ١٦٦ جعله أبوه ولي عهده بعد الهادي.

بويع الرشيد بالخلافة في ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ (١٤ أيلول سنة ٧٨٦) وسنه ٢٥ سنة. ولم يزل خليفة إلى أن توفي في ثالث جمادي الآخرة سنة ١٩٣/هـ (٢٤ آذار ٨٠٨/م) فكانت مدته ٢٣ سنة وشهرين وكانت سنه إذ توفي ٤٨ سنة.

وصلت الخلافة في عهد الرشيد إلى أفخم درجاتها صولة وسلطاناً وثروة وعلما وأدباً وارتقت فيه حضارة الدولة العلمية والادبية والمادية إلى أرقى درجاتها. وكان في عهده من كبار ممّن تزدان بهم الممالك من رجال الادارة والحرب فعظمت الهيبة في الداخل والخارج. كما كان فيه من كبار العلماء والأدباء. ساعد على هذا الرقي أخلاق الرشيد وبذله حتى ازدهرت الحضارة العربية. وكانت حضارة الرقة جزءاً من هذه الحضارة الراقية في عصر الرشيد رعاها وغذاها حتى ازدهرت وأثمرت علماً وأدباً وعمراناً وثراء. بالرغم من أن عهده لم يكن يخلو من المتاعب والمشاكل والمشاغل. فكان الطالبيون شغل بني العباس الشاغل. فانهم كانوا لا يزالون متطلعين إلى الخلافة. وتأسست أول دولة للعلويين في المغرب الأقصى وهي دولة الأدارسة كان مؤسسها ادريس بن عبد الله هرب من الشرق أسس دولته سنة ١٧٢هـ. فكان الرشيد بسبب ذلك يخاف الطالبيين. وكان يخشى الخوارج الذين لم يستطع الأمويون والعباسيون افناء روحهم الثورية برغم ما كانوا يجردون لهم من الجيوش فكان لا يزال يخرج منهم خارجة حتى يظهر فيهم ذو مقدرة. وقد

اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولي بأس أعظمهم اثراً الوليد بن طريف الشاري واتصل أمر الوليد هذا بالرقة ومنطقتها ولذا نخصه بكلمة مفردة من هذا الفصل.

وهناك الأخطار في المشرق في خراسان، وهناك حادثة البرامكة وغير ذلك من المتاعب والمشاغل التي شغلت الرشيد واتصلت بالرقة.

قال الجاحظ: «كان أشد الخلفاء بحثاً عن أسرار رعيته، وأكثرهم عناية بها، وأحزمهم أمراً».

وقال الطبري: «غزا الروم سبع مرات، وجهز عشرين حملة لجهادهم في البر والبحر».

وقال ابن خلكان: «حج في خلافته تسع حجج، وكان يصلي في اليوم مائة ركعة».

وقال الطقطقي: «كان من أرق الخلفاء وجهاً، وأكثرهم حياء، وأغزرهم دمعاً عند الموعظة الحسنة.

وقال ابن عبد ربه: «يحب العلم ويطلبه، ويجالس العلماء، ويقربهم ويتواضع أمامهم».

وقال الأصمعي: «يحفظ الشعر الجزل، ويجيد نظمه، ويحسن فهمه ونقده ويناقش الشعراء فيه».

وقال الخطيب البغدادي: «اسخى الخلفاء عطية، ابتداء وسؤلا، ولا تضيع عنده يد ولا عارفة».

وقال ابن خلدون: «يجتنب المنكر، ويبتعد عن الحرام، ويتمتع بما أحلَّ الله».

وقال ابن قتيبة: «يسمع الغناء من وراء ستار، ويتذوقه، ويشرب النبيذ الذي أحله فقهاء العراق».

كان اتصال هارون بالرقة في صدر شبابه حيث كان أبوه المهدي يوليه بعض مهام الأمور عندما عقد له بالعهد بعد أخيه موسى الهادي، وكان يغزو بالصائفة

عن طريق الرقة وهوولي عهد. واتصل بها اتصالاً وثيقاً بعهد خلافته. وكان يحب من المنازه الهني والمري نهري واسطة الرقة. ويعلق بهما وهوولي العهد، وكان للخليفة موسى الهادي. تعلّق هارون بهذين النهرين من أماكن الرقة. وكان موسى الهادي طلب من أخيه هارون الرشيد أن يتنازل طائعاً عن ولاية العهد لابنه جعفر بن موسى الهادي ووعده بخير كثير وعطاء جزيل فعزم هارون على اجابته، ولكن يحيى البرمكي مستشاره منعه وشجعه على التمسك بحقه. وكان موسى يشدد على هارون ليتنازل. قيل ان هارون ضاق ذات يوم ذرعاً بالحصار الذي فرضه عليه الهادي بعد أن عرض عليه (الهني والمري) أن يتنازل عن حقه في البيعة، فجاء إلى يحيى وقال له: أريد أن أتنازل عن حقي فيها لاستريح من هذا العناء، فقال له يحي: لا تفعل. قال الرشيد: اذا حصلت على (الهني والمري) وخلوت بابنة عمي - يعني زبيدة - فلا أريد شيئاً قال يحي: «وأين هذا من الخلافة؟ ولعل ما تقدر انه يبقى لك لا يبقى» وما زال به حتى أقنعه وثبت قدمه وعندما آلت اليه الخلافة آل اليه الهني والمري.

اعتنى الرشيد الخليفة بأمر الزراعة وتوسيع نطاقها فبنت حكومته جسوراً وقناطر كثيرة، وحفرت الترع والجداول الموصلة بين الأنهار. ووضع ديواناً خاصاً لتلك الأعمال الاصلاحية. واعتنى بتشجيع الصناعات في الأقاليم المختلفة وحرست طرق التجارة بين المدن وبنى قصوراً في عدة أماكن ولكن الرشيد اكتفى أخيراً بمدينة الرافقة التي بناها أبوه فعمر فيها قصراً عظيماً جديراً به سماه (قصر السلام) وأسموه القصر الأبيض بناه خارج سور الرقة. أنشد الشعراء في قاعاته وأبهائه أجمل الشعر وأجزله وأفخمه وأسنى المدائح في العاهل العربي العظيم الرشيد.

قال أحمد بن يسار الجرجاني الشاعر: دخلنا يوماً على الرشيد بالرقة وقد فرغ من قصره الأبيض أنا والتيمي بن محمد وابن رزين وأشجع (السلمي) فأنشده

التيمي قصيدة يذكر فيها نقفور ووقعته ببلاد الروم فكان كأنما ينثر به درا. ثم أنشده أشجع :

قصر عليه تحية وسلام	نشرت عليه جمالها الأيام
فيه اجتلى الدنيا الخليفة والتفت	للملك فيه سلامة ودوام
قصر سقوف المزن دون سقوفه	فيه لاعلام الهدى اعلام
نشرت عليه الأرض كسوتها التي	نسج الربيع وزخرف الأوهام
أدنتك من ظل النبي وصية	وقرابة وشجت بها الأرحام
وعلى عدوك يا بن عم محمد	رصدان ضوء الصبح والأظلام
فإذا تنبه رعته وإذا غفا	سلّت عليه سيوفك الأحلام

وكان الرشيد متكئاً فاستوى جالساً ودنوت أنا فأنشدته بعد أشجع :

زمن بأعلى الرقتين قصير	لم يثنه للحادثات غرير
لا تبعد الأيام إذ زمن الصبا	غض وإذ غصن الشباب نضير

فأعجب بشعري وقال : قل للمغنين يعملوا ألحاناً في غزل هذه القصيدة وخرجت لنا صلة فاقتسمناها .

وأوعز لبعض رجال دولته أن يبنوا قصورهم بجانب قصره، فبنوا وأمر بانشاء كل ما يلزم فيها من وسائل الراحة والترف : كميادين سباق الخيل وملاعب الصولجان وحقول الصيد وموانى السفن والحراقات، والحدائق المزدهرة على ضفتي الفرات، فأصبحت من المدن الجميلة .

قال أبو الفرج الملطي بتاريخ الدول السرياني وفي القابل سنة ٧٩٠م «ارتحل هارون من بغداد إلى الرقة يريد الاقامة فيها فزاد في عمارتها وغرس في ضواحيها جنائن كثيرة وجلب لها نهراً من الفرات ونهراً ثانياً من سروج وقد اشترى مياه قرى سروج من أصحابها واحتفر لها نهراً جديداً». وسمي النهر الآتي من سروج بنهر النيل، وتتفرع منه جداول ـ لا تزال آثار مجراه وآثار مجاري جداوله باقية شمال غربي الرقة في عدة أماكن .

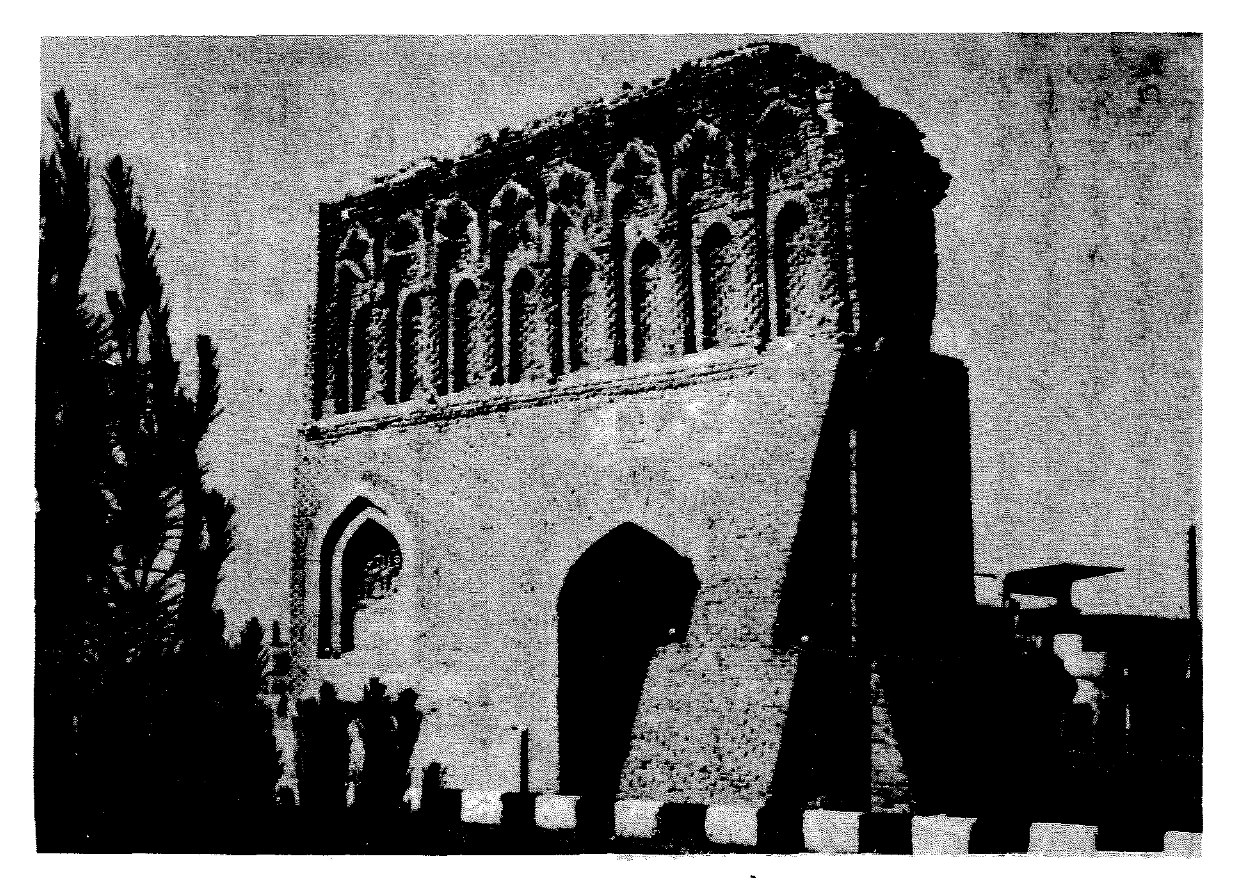
كان الرشيد يستعذب هواء الرقة في الصيف. وهي الطف مناخاً من بغداد وأقل حراً. فكان يحب الاستراحة في الرقة في طريقه إلى غزوة أو حجة.

كان مجييء الرشيد منذ البدء إلى الرقة لأغراض عسكرية وسياسية ودينية وقومية، وكان يريح فيها جيشه ويمونه منها. ومن الرقة كان يشرف على الجزيرة احدى مراكز الخوارج منذ أن خرجوا على علي بن أبي طالب، وكان الرشيد يخافهم، وهدد فعلاً أحدهم الوليد بن طريف ملكه. وجاء بطش الرشيد بالبرامكة عاملاً أخيراً في ايثاره للإقامة بالرقة نهائياً، لولا أن تضطره ثورة رافع بن الليث بخراسان للخروج اليه لقمعها. وموته هناك.

الرقة في عهد الأمين:

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور ولد سنة ١٧٠ هـ ولاه أبوه العهد سنة ١٧٥هـ. بويع بالخلافة بعد موت أبيه سنة ١٩٣ واستمر بالخلافة إلى ٢٥ محرم سنة ١٩٨ ـ ٥ أيلول ٨١٣ فكانت مدته أربع سنوات. وقد حمل اليه ما كان في الرقة من الخزائن والجواهر والسلاح مما خلفه الرشيد.

ولى الأمين حلب والجزيرة عبد الملك بن صالح بن علي عبد الله بن عباس وهو في درجة السفاح والمنصور نسباً، وكان يعمل للرشيد والياً على الثغور وكان مقرّه منبج، ورفع إلى الرشيد انه يطلب الخلافة ويطمع فيها وان البرامكة كانوا له عوناً، سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قمامة. وحبسه الرشيد بالرقة، فلما توفي الرشيد واستخلف الأمين أطلقه وولاه حلب والجزيرة وكان الخلاف على أشده بين الأمين وأخيه المأمون. وشمّر عبد الملك يساعد الأمين بالعرب الموجودين بمحيط الرقة. وأنفذ كتبه من الرقة إلى رؤ ساء الأجناد بالشام ووجوه الجزيرة فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس وجماعة بعد جماعة، وأتاه أهل الشام والاعراب من كل فج واجتمعوا عنده في الرقة ولكن حصلت مشكلة تافهة بين جندي خراساني وجندي



آثار باب بغداد في الرقة

من أهـل الشـام فتعصب لكـل جماعـة مما أدى إلى التلاحم، وكان عبد الملك بن صالح إذ ذاك مريضاً ويقيم بالرقة مركز ولايته وأدى التلاحم إلى قتل أشخاص من الطرفين ففشل عبد الملك بن صالح ولم يستطع المضي لنجدة الأمين. واستمر عبد الملك في ولاية الرقة إلى أن مات سنة ١٩٦ بالرقة ودفن في دار من دور الخلافة.

وكان عبد الملك حلف ان مات الأمين لا يعطي المأمون طاعته، فمات قبل الأمـين. فبقيت بنفس المأمـون إلى أن خرج إلى الغـزاة، فوجد قبر عبد الملك في دار الامـارة، فأرسـل إلى ابن عبـد الملك وقـال له «حول أباك عن داري» فنبشت عظامه وحول.

وكان عبد الملك بن صالح أفصح ولد بني العباس.

الرقة في عهد المأمون:

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، أمه أم ولد اسمها مراجل. ولد سنة ١٧٠ بويـع بالخـلافة سنة ١٩٨هـ ـ ٨١٣م وتوفي غازياً بطرسوس بكيليكيا في ١٩ رجب سنـة ٢١٨هـ ـ ١٠ آب سنـة ٨٣٣م فكـانت خلافتـه عشـرين سنـة وخمسة أشهـر. تم الأمـر للمأمون على يد القائدين طاهر بن الحسين، وهرثمة بن أعين. وكـان الـذي يدبـر أمر المأمون محل اقامة المأمون بفارس الفضل بن سهل الفارسي الـذي كتب على لسـان المأمون إلى طاهر بأن يشخص إلى الرقة لمحاربة نصر بن سيـار بن شبث من بني عقيـل يسكن يكسـوم وهي قريـة من أعمال سميساط على الفرات شمال حلب وفيها حصن كبير على تلعة كان نصر يحتلها، وكان نصر عربياً شهماً له في محمد الأمين هوى وفي عنقه له بيعة، فلما قتل، وكان الفضل بن سهل هو المتغلب على دولة المأمون. ولما رأى نصر أن العنصر العربي في دولة المأمون قد انحـط شأنـه وصـار معظم القواد والأمراء من غيرهم. غضب وثار وتغلب على ما جاوره من البـلاد وملك سميسـاط واجتمـع عليـه خلق كثير من الأعراب وقويت نفسـه وعـبر الفـرات إلى الجـانب الشرقي، وكثرت جموعه، سار اليه طاهر فالتقيا

بنواحي يكسوم فاقتتلا هناك قتالاً عظيماً أبلى فيه نصر بلاء حسناً فكان له النصر. وعاد طاهر إلى الرقة منهزماً، وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحي وقوي أمر نصر وكثرت جموعه.

وكان جيش طاهر الذي جاء إلى الرقة أربعة آلاف من العجم. وقد ضاعف طاهر الضرائب وأساء إلى أهل سرج والرها وكانت ولاية طاهر تشمل الموصل والجزيرة والشام والمغرب عندما قدم إلى الرقة. التي كانت مركزاً لكل هذه الأمصار.

جاء في تاريخ الدول السرياني لأبي الفرج الملطي «وشد نصر على العجم أصحاب طاهر وجعل جنوده يقبضون على خمسين فخمسين وعلى مائة فمائة فينحرونهم نحر الخراف» وقال أما نصر فكتب (بتشديد التاء) العرب القيسيين كافة وأقبل بهم إلى الرقة وحلوا في دور النصارى وضايقوهم في استنزاف ما يقوم بنفقاتهم الوافرة. ثم زحفوا إلى الرافقة وحاصروها. وكان مقيماً هناك يومئذ البطريرك قرياقس (٧٩٣ ـ ٨١٧) وثنوتوسيوس مطران الرها. واشتد الغلاء حتى أكل الناس خبز الرز والبقول ثم عقد نصر الصلح كيفما كان لأن عساكر الكوفة احتلوا الرقة واستولى العجم على الرافقة».

وقال: «وابتنى طاهر سوراً ما بين الرقة والرافقة وتحصن فيه وانقطع إلى المطالعة والتفسير والتحدث مع الفلاسفة».

وحاصر نصر حران وهي من أعمال الرقة بديار مضر واستولى على قلعة بالس وزحف بجنوده الى نهر الهنيء بواسط الرقة وفتك برؤ سائها وغزا القرى وسبى أهلها، فوجه اليه المأمون شبيباً القائد في سبعة آلاف عجمي من الممتازين هزموا في البدء سرية من أصحاب نصر ونهبوا البيوت غير أن نصر كسرهم وفر شبيب إلى بغداد.

وفي اثناء اشتداد أمر نصر أتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له: وترت بني العباس، وقتلت رجالهم فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك. فقال من أي

الناس ـ فقالوا تبايع لبعض آل علي بن أبي طالب. فقال: أبايع بعض أولاد السوداوات، فيقول أنه خلقني ورزقني. قالوا فتبايع لبعض بني أمية. قال: أولئك قوم قد أدبر أمرهم، والمدبر لا يقبل أبداً، فلو سلم على رجل مدبر لاعداني أدباره، وانما هواي في بني العباس، وانما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم.

كانت ثورة نصر هذه لاعزاز العنصر العربي ومحاولة جريئة لتأسيس دولة عربية صرفة تكون الرقة عاصمتها، وكان نصر متأثراً بالخليفة العربي هارون الرشيد الذي هجر بغداد لتغلب الفرس على أمورها وفتك بالبرامكة القابضين على أمور الدولة واتخذ الرقة عاصمة منذ سنة ١٨٥ ـ ١٩٣ مدة تسع سنوات فجاء نصر لينهض مرة ثانية بها ويعيدها عاصمة لمملكته لو تم له الأمر. ولم يمض على الرقة غير خمس سنوات ونيف منذ أعفاها المأمون من مهمة العاصمة إلى ثورة مصر. وكان المأمون نائباً فيها عهد والده الرشيد.

وفي سنة ١٩٩ قوى أمر نصر بالجزيرة ولما قدم المأمون إلى بغداد من مرو طلب من طاهر بن الحسين والي الرقة أن يلقاه ببغداد فترك طاهر الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبد الله وأمره بقتال نصر فلما قدم طاهر إلى بغداد ولاه المأمون خراسان وولى ابنه عبد الله من الرقة إلى مصر في سنة ٢٠٦ وأمره بالجد في محاربة نصر.

وحين ذاك كتب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله وهو في الرقة ذلك الكتاب المشهور الذي جمع فيه كل ما يحتاج اليه الأمراء من الأدب والسياسة والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم. مما لا يستغني عنه أحد من ملك وسوقة. وقد تناقل الناس هذا الكتاب وشاع أمره وبلغ المأمون خبره فدعى به وقرىء عليه، فقال ما أبقى أبو الطيب (يعني طاهراً) شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكم وأوصى به وأمر فكتب به إلى جميع العمال والنواحي. جدُّ عبد الله بن طاهر

في محاربة نصر عدة سنوات فلم يقو عليه وندب المأمون رسولاً خاصاً هو جعفر بن محمد العامري ليؤدي إلى نصر رسالة، فذهب اليه وهو بكفر عزون بسروج، فأبلغه رسالة المأمون. وبالطرق الدبلوماسية أجاب إلى التسليم، وكتب له المأمون كتاب أمان، وخرج إلى عبد الله بن طاهر فوجه به إلى المأمون فدخل في صفر سنة ٢١٠ بعد حرب مع عبد الله بن طاهر خمس سنوات ومن قبله سبع سنوات أي ١٢ سنة، وأنزل مدينة أبي جعفر.

لقد تضررت الرقة بثورة نصر بن شبث واحترق ربضها وبعض أبنيتها. وكان المأمون أمرَّ طاهر بن الحسين سنة ٢٠١هـ ببناء جدار بين الرقة والرافقة لكي لا يقتتل الفرس وعرب الشام الذين كانوا يسكنونها.

ولى المأمون بعد عبد الله بن طاهر، ابنه العباس بن المأمون، الجزيرة والثغور والعواصم سنة ٢١٣ ثم ولاها اسحق بن ابراهيم بن مصعب الخزاعي. ثم عزل اسحق وأعاد العباس بن المأمون ثم ولى ورقة الطريفي مع العباس. وولى عيسى بن علي الهاشمي نيابة عن ولده العباس فوجد عنده من الكفاية والضبط وحسن السيرة ما أراد فقدمه. وكان المأمون كلما غزا الصائفة لقيه عيسى بن علي بالرقة، ولا يزال معه حتى يدخل الثغور ثم يرد عيسى إلى عمله.

وممن ولي الرقة بعهد المأمون عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح لما غزا الصائفة في سنة ٢١٨ العواصم. وفيها مات المأمون في أرض طرطوس سنة ٢١٨ وفي ولاية عبد الله بن طاهر على الرقة ذهب إلى مصر سنة ٢١١ هـ = ٨٢٧م سيره إليها المأمون لاخماد فتنة عبد الله بن السري وفتنة الاندلسيين بالاسكندرية فذل ابن السري وأجلي الاندلسيين وأرسل منهم خمسين أسرة إلى الرقة وسرح البقية إلى بلادهم.

وممن انجد المأمون في بغداد القائد الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان قدم من الرقة إلى بغداد قبل وصول طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين في جيش كثيف، وكان مع عبد الملك بن صالح بن علي في الرقة فلما مات عبد الملك في الرقة

سنة ١٩٦ سار إلى مدينة السلام لثلاث خلون من رجب من هذه السنة ودعا إلى المأمون.

اتصال محنة خلق القرآن بالرقة:

ومن الأحداث التي اتصلت بالرقة في أواخر حياة المأمون مسألة خلق القرآن الذي أدى إلى أن يمتحن الناس به في عهد المأمون وخلفائه فقد بينه أبو الفرج بن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧هـ فيما يلي: «لم يزل الناس على قانون السلف وقولهم ان القرآن كلام الله غير مخلوق حتى نبغت المعتزلة فقالوا بخلق القرآن. وكانوا يتسترون بذلك إلى زمن الرشيد، حتى أن الرشيد قال يوماً: بلغني أن بشر المريسي (من أعلام المرجئة) يقول: القرآن مخلوق والله علي، أن أظفرني الله به لاقتلنه قتلة ما قتلتها أحداً. ولما علم بشر بذلك ظل متوارياً أيام الرشيد نحواً من عشرين سنة. فلما ولى المأمون خالطه قوم المعتزلة فحسنوا له القول بخلق القرآن» واجمع المؤرخون على عناية المأمون بدراسة المسائل المتعلقة بعلم الكلام. وأراد المأمون انصياع الناس بالتسليم بخلق القرآن. وبينما كان متوجهاً إلى طرسوس لغزو بلاد الروم أرسل كتاباً إلى عامله على بغداد اسحاق بن ابراهيم وهو ابن عم طاهر بن الحسين وقد أمره فيه أن يشخص اليه القضاة والمحدثين بموضوع خلق القرآن. وقد روت كتب التاريخ نص الكتاب. كتبه المأمون في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ وقبل وفاته بأربعة شهور. وكتب المأمون كتاباً ثانياً إلى اسحق بن ابراهيم يأمره فيه بأن يشخص اليه سبعة من وجوه المحدثين ببغداد حتى يتولى امتحانهم بنفسه. وقد نفذ اسحاق بن ابراهيم الأوامر التي تلقاها في كتاب المأمون، فأحضر جماعة من الفقهاء والمحدثين، فممن أحضرهم، أحمد بن حنبل وبشر بن الوليد الكندي، وأبو حسان الزيادي، وعلي بن أبي مقاتل والحسن بن حماد السجادة والذيال بن الهيثم وقتيبة بن سعيد، وشيخ من ولد عمر بن الخطاب كان قاضي الرقة وأرسلهم في الأقياد إلى المأمون حتى وصلوا أدنه فلما مات المأمون

ردوا في الاقيـاد إلى الـرقـة ، وأخـرجـوا من الـرقـة في سفينة مع قوم محبسين ومات بعضهم في الطريق ووصل الآخرون إلى بغداد مقيدين ومكثوا في الحبس .

وقيـل بلغتهم وفـاة المأمـون وهـم في الـرقة فأمر عنبسة بن اسحاق والي الرقة باحتجازهم بها حتى يعودوا إلى بغداد في حراسة الرسول نفسه الذي كان قد توجه بهم إلى المأمـون ، فلما صاروا إلى بغـداد أمـرهـم حاكمها بأن يلزموا بيوتهم . وقيل أعيد أحمد بن حنبل ورفيقه بن نوح إلى الرقة حيث ظلا في السجن إلى أن أخذت البيعـة للخليفة المعتصم فأحدر من الرقة مقيداً الى بغداد حيث سجن وضيق عليه . ولد الامام أحمد بن حنبل سنة ١٦٤ في بغداد من سلالة عربية وتوفي سنة ٢٤١هـ .

ولاة الرقة وشعراؤها :

عقبـة بن جعفـر بن الأشعث الخزاعي ، كان أميراً على الرقة . وكان جواداً يثيب الشعـراء انقطـع إلى مدحـه الشـاعـر أبو الشيص محمد بن رزين بن سليمان الخـزاعي الأزدي ، وهـو عم دعبـل بن علي الخـزاعي وقلما يروى له في غيره وأغناه عقبة . وأبو الشيص شاعر من شعراء عصره ، متوسط المحل فيهم غير نبيه الذكر ، لوقـوعـه بين مسلم بن الـوليد وأشجع وأبي نواس ، فخمل . قيل كان الشعر عليه أهون من شرب الماء على العطشان وكان من أوصف الناس للشراب وأمدحهم للملوك .

ولأبي الشيص ابن يقال له عبد الله شاعر أيضاً صالح الشعر . كان منقطعاً إلى محمد بن طالب .

طاهر بن الحسين :

ابن مصعب بن رزيق الخـزاعي ولـد سنة ١٥٩ بقرية من أعمال مرو ، وكان جده مصعب والياً عليها وعلى هراة نشأ شهماً شجاعاً أديباً . وأول أعماله العظيمة قيـادتـه الكتـائب الخـراسـانية في حرب الأمين حيث انتصر . فاشتهر ذكره وأرسله

المأمون إلى الجزيرة والرقة لحرب نصر بن شيث وبقي سنة ثم استدعاه المأمون إلى بغـداد لما قدم اليهـا من مروءة وعـرف فضله وولاه الجـزيرة والشرطة وجانبي بغداد. وولاه المأمـون خراسـان فساسهـا أحسن سيـاسة وكانت أحوالها مضطربة. وكان طاهـر مستقـلاً اداريـاً بخراسان يؤدي الخراج عن عمله. ولي خراسان سنة ٢٠٥ ومات سنة ٢٠٧ وقد استمر ملك البيت الطاهري إلى سنة ٢٥٩ وكان لآل طاهر مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد.

عبد الله بن طاهر بن الحسين:

ولـد سنـة ١٨٢ في خلافـة الـرشيـد، وكـان عمـره حين سطع نجم أبيه في حوادث المأمـون والأمـين ١٦ سنـة فتربى في كنف المأمـون فنشأ اديبـاً نبيـلاً وكان المأمـون يحبـه كثـيراً ولاه حرب نصر بعد انصراف أبيه فوفق إلى رد نصر إلى الطاعة بعد حرب خمس سنوات، وأقام والياً على الرقة خمس سنوات ولما فرغ من أمر نصر سيره المأمـون إلى خراسـان والجبال وارمينية واذربيجان لمحاربة بابك. استمر والياً إلى أن مات سنـة ٢٣٠ هـ رعى عدة شعـراء فحـول وكفـل لهم حياة راضية وعلى رأسهم الشاعر العتابي عندما كان عبد الله في الرقة (٢٠٦ ـ ٢١١) وعوف بن محلم الخزاعي ودعبل الخزاعي.

ربيعة الرقي:

هو أبـو أسـام ربيعـة بن ثابت بن لجأ الأسـدي الـرقي ولـد بالرقة ونشأ فيها وتعلم نظم الشعـر حتى برع فيـه وهـو ضريـر. استقـدمـه أمـير المؤمنـين المهدي العباسي إلى بغداد فمدحه بعدة قصائد أجازه وأجزل صلته.

وهو من الشعراء المجيدين الكثيرين اخمل ذكره وأسقط عن طبقته بعده عن العـراق وتـركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء في الحواضر الاسلامية. ومع ذلك لم يعدم مفضلاً له. قصد يزيد بن أسيد السلمي والي ارمينية وكان سيداً عظيماً وقائداً

شجاعاً ولكنه قصر بحق الشاعر بعد أن أقام عنده حولاً فعاد إلى الرقة فقصد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب وكان والياً على مصر بعد أن عزل. فأحسن جائزته. ومدح العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بقصيدة جيدة، ولكن العباس بعث اليه بدينارين فهجاه وسمع الرشيد بالخبر وطلب من ربيعة أن لا يعرض للعباس وخلع على الشاعر وكان الرشيد مزمعاً أن يصهر إلى العباس فعدل بعدما عرف بخله وتقصيره بحق الشاعر وقد مر ربيعة بقرقيسيا بطريقه إلى بغداد له فيها نكتة لطيفة رواها ياقوت. مما قاله في وصف بلده الرقة:

حبذا الرقة دارا وبلدْ	بلد ساكنه ممن تود
ما رأينا بلدة تعدلها	لا ولا أخبرنا عنها أحد
انها برية بحرية	سورها بحر وسور في الجدد
تسمع الصلصل في أشجارها	هدهد البر ومكاء غرد
لم تُضَمَّنْ بلدة ما ضمنت	من جمال في قريش وأسد

اسحق بن سماعة المعيطي:

شاعر محسن كان ينزل الرقة وله ضياع. وكان سليمان بن أبي جعفر المنصور والياً على الرقة من قبل المأمون فلم يعرف لابن سماعة موضعه ورده عن حاجته فأخذ اسحاق بن سماعة يهجو سليمان بن أبي جعفر فاستأذن المأمون في حبسه فأذن له فحبسه وجلده إلى أن مات في الحبس.

الرقة في عهد المعتصم بالله:

ولما بويع المعتصم أقر العباس بن المأمون على ولايته للجزيرة ولكنه عاد فقبض عليه بمنبج وهو عائد من الغزاة بتهمة التآمر عليه ومات العباس بمنبج سنة ٢٢٣ ومركز الجزيرة دائماً هي الرقة.

وولى المعتصم الشام والجزيرة عبد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح بن علي الهاشمي. ثم انه ولى اشناس التركي الشام والجزيرة ومصر. وتوجه وألبسه وشاحين بالجواهر في سنة ٢٢٥. وبقي في ولايته إلى أن مات سنة ٢٣٠ واشناس غلام تركي اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان معه في غزو عمورية على مقدمة الجيش واستخلفه مرة على سامراء.

الرقة في عهد المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧)هـ:

جعل لأكبر أولاده وولي عهده المنتصر المغرب وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا، وكان هو الذي يولي ولاة الرقة. واستمر بولايته هذه إلى أن قتل أبوه سنة ٢٤٧. وفي عهد المستعين (أحمد بن محمد بن المعتصم (٢٤٨هـ = ٢٥٢هـ) كان والي الرقة ميمون بن سليمان بن عبد الملك بن صالح مات بالرقة سنة ٢٥٦.

وفي عهد المعتمد وهو أحمد المعتمد على الله بن المتوكل (٢٥٦ ـ ٢٧٩) الذي لم يكن له من أمر الخلافة غير الاسم وكان الأمر إلى أخيه أبي أحمد الموفق. وكان الوالي على مصر احمد بن طولون ولي سنة ٢٥٤ وفي سنة ٢٦٢ حصل خلاف بينه وبين الموفق. فسير اليه الموفق جيشاً بقيادة موسى بن بغا، مكث بالرقة عشرة أشهر ولم يمكنه المسير إلى مصر لقلة الأموال فاضطر إلى أن يعود إلى العراق.

أبو تمام الشاعر في الرقة:

جاء أبو تمام إلى الرقة والخليفة المعتصم فيها. وكان الطائي من أكثر الناس عبثاً ومزاحاً وذهب أبو تمام إلى العراق منحدراً في نهر الفرات في سفينة وكان معه في السفينة منجم. . فكان الطائي قد أولع به يضربه ويخرق ثيابه، فلامه أحد من كان في السفينة، فكان من جواب أبي تمام أن قال: هذا العاض بظر أمه، لو كان

منجماً، لما ركب معنا هذه السفينة وأنا أضربه هذا الضرب (طبقات الشعراء) لابن المعتز.

الرقة في عهد الطولونيين:

كانت ولاية مصر بعهد المتوكل (٢٥٦ ـ ٢٧٩) مضافة إلى (بايكباك) وهو الذي يختار أميرها فاختار لها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ فدخلها في رمضان سنة ٢٥٤هـ. ولما قتل (بايكباك) حل محله (أماجور) وكان صهراً لاحمد بن طولون فكتب اليه أماجور تسلم من نفسك لنفسك. فاتسع ملك أحمد واستولى في سنة ٢٦٤ على حلب والشام والثغور وامتد ملكه الى الفرات وولى مملوكه لؤلؤ حلب وديار مضر في سنة ٢٦٦ وفيها الرقة. وفي سنة ٢٦٩ حاز لؤلؤ حلب وديار مضر لحسابه الخاص وقطع الدعاء لمولاه أحمد بن طولون في مدتها فسار اليه أحمد من مصر فهرب لؤلؤ الى العراق ولحق بأبي أحمد الموفق. وكان قد تمركز في الرقة ثم انحدر منها بأموال طائلة إلى العراق أغرت الموفق بمصادرتها.

كان طولون مملوكاً تركياً أهدى إلى المامون بمرور سنة ٢٠٠ وولد له احمد بسامرا سنة ٢٢٠ فربي مع الجنود وكان أحمد شجاعاً شهماً عاقلاً مات سنة ٢٧٠ فخلفه في مصر والشام والثغور الشامية ابنه خمارويه أبو الجيش واستمر ملك مصر والشام في أعقاب ابن طولون الى سنة ٢٩٢ ولي منهم خمسة امراء وكان خمارويه جاء إلى الرقة.

وكان محمد بن أبي الساج يلي ديار مضر. ثم انقلب على خمارويه ولحق بأبي أحمد الموفق سنة ٢٧٦ فولى أبو الجيش على حلب والرقة غلام أبيه طغج بن جف والد الأخشيد أبي بكر محمد بن طغج. وكان ولاة مصر الطولونيون تحت نفوذ الخلفاء العباسيين يخطبون لهم على المنابر ثم لأنفسهم. وتزوج الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩) ابنة خماروية قطر الندى.

الرقة في عهد المكتفي بالله (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ) :

كان بالرقة فكتب اليه الوزير وأعيان الخلافة فركب من الرقة ودخل بغداد في يوم مشهود الاثنين ٨ جمادي ولم يزل خليفة إلى أن توفي سنة ٢٩٥ .

وفي عهده أخذ القرامطة يعيثون في البلاد العراقية والشامية قتلاً وسلباً وبايعوا في سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه . ولكن الطولونيين وجهوا اليه الجيوش وقتلوه فولى القرامطة عليهم الحسين بن زكرويه فتغلب على كثير من بلاد الشام وتسمى بأمره المؤمنين سنة (٢٨٩ ـ ٢٩٠) فتوالت كتب أهل الشام إلى الخليفة ببغداد بالشكوى من القرامطة . فلم ير المكتفي بدأً من الخروج بنفسه إلى الشام وجعل طريقه على الموصل في سنة ٢٩١ وقدم بين يديه أبا الأغر خليفة بن المبارك السلمي فنزل قريباً من حلب فكبسه القرامطة وقتلوا من عسكره خلقاً كثيراً .

سار المكتفي حتى نزل الرقة . وسير الجيوش اليه وجعل أمرها إلى محمد بن سليمان فالتقى بالقرامطة قرب حماة وهزمهم وقتل وأسر منهم كثيرين وتفرق الباقون في البوادي وسار الحسين بن زكرويه أمير القرامطة يريد الكوفة فقبض عليه متولي بلدة الدالية على الفرات أسفل الرحبة مالك بن طوق (المياذين) وعلى من معه وساروا به إلى المكتفي بالرقة . وفي ستة وعشرين محرم سنة ٢٩١ أدخل الرقة مشهوراً ثم حمل إلى بغداد ومن الرقة وجه المكتفي بمحمد بن سليمان لمحاربة الطولونيين وفتح مصر . فسار وافتتحها من يد الطولونيين بعد قتل هارون بن خمارويه وأخرج طغج بن جف عن مصر وولاه حلب وعاد محمد بن سليمان .

البتاني : العالم الفلكي :

محمد بن جابر بن سنان أبو عبد الله الحراني المعروف بالبتاني نسبة إلى قرية بتان التي ولد فيها في حدود مدينة حران ولد حوالي سنة ٢٣٥هـ هوى الرصد وأنفق

فيه أموالاً كثيرة وأمضى حياته في مدينتي الرقة وانطاكية. بدأ بتجاربه في مرصد الرقة سنة ٢٦٤ وأقام على عمله في الرقة ٤٢ سنة.

اكتشف في الفلك والرياضيات أموراً كثيرة. أثبت الكواكب الثابتة في زيجه لسنة ٢٩٩هـ توفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة قال ابن العبري عنه في تاريخه (مختصر الدول) هو أحد المشهورين برصد الكواكب ولا يعلم أحد في الإسلام بلغ مبلغه.

ترجم زيجه للاتينية وطبع سنة ١٥٣٧ وطبع في روما سنة ١٧٩٩.

قال عنه طوقان في كتابه (الخالدون العرب) المطبوع ببيروت سنة ١٩٥٤: «البتاني من عباقرة العالم الذين وضعوا نظريات هامة وأضافوا بحوثاً هامة وأضافوا بحوثاً مبتكرة في الفلك والجبر والمثلثات ونظرة إلى مؤلفاته والازياج التي عملها تبين خصب قريحته وترسم صورة عن عقليته الجبارة كان من أبرز علماء القرن العاشر الميلادي الذين أسدوا أجل الخدمات إلى العلوم وعلى الرغم من عدم وجود آلات دقيقة كالتي نستعملها الآن فقد تمكّن من اجراء أرصاد لا تزال محل دهشة العلماء ومحط اعجابهم. عدّه (كاجوري) من أقدر علماء الرصد. وقال عنه (سارطون) انه من أعظم علماء عصره وأنبغ علماء العرب في الفلك والرياضيات وقال عنه (لاندند) العالم الفرنسي انه من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله» ذكرته مصادر عدة عربية واجنبية.

الرقة في عهد المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ):

كان جاهلاً فاسداً. كان الحكم في دولته للنساء والخدم، وتُنال الوزارة بالرشوة وقوى في عهده أمر القرامطة في العراق والحجاز. وفي عهده ابتدأت دولة بني حمدان في الموصل.

وكان القائد العام لجيوش المقتدر مؤنس الخادم ويقال له مؤنس الحاجب وكان هو الذي يولي ويعزل الولاة، وكان تولى الشام ومصر نيابة عن أبي العباس بن المقتدر، وكان أمر ديار مضر اليه وهو الذي يولي ولاتها، واستولى على الموصل

من يد بني حمدان ، واجتمعت اليه عساكر كثيرة من بغداد والشام ومصر لاحسان كان اليهم . ولما سار القرامطة بقيادة أبي طاهر سليمان الجنابي من الكوفة سنة ٣١٦ إلى الرحبة ودخلوها واضعين السيف في أهلها وساروا منها إلى الرقة فدخل منهم جماعة إلى ربضها بادر أهل الرقة إلى اعانة أهل الربض فقتلوا من القرامطة ثلاثين رجلاً . استدعى المقتدر من الشام مؤنساً (وصار يلقب بمؤنس المظفر) إلى بغداد وأمره بالمسير إلى الرقة لقتال القرامطة ، فسار اليها بطريق الموصل وجد السير من الموصل إلى الرقة . فسار أبو طاهر عنها وعاد إلى الرحبة ، ووصل مؤنس المظفر إلى الرقة بعد انصراف القرامطة عنها . وولى مؤنس على الرقة غلامه طريف بن عبد الله السبكري في سنة ٣١٩ وكان طريف شهماً شجاعاً .

وكان مؤنس شجاعاً فاتكا مهيباً لقب بالمظفر لما عظم أمره وغزا بلاد الروم .

وكان الخليفة القاهر (٣٢٠ - ٣٢٢) الذي تلى المقتدر أحضر مؤنس من داره بالحيلة وكان استولى عليه الكبر والضعف وأمر بقتله لأنه لم يكن من أنصاره سنة ٣٢٠ .

الرقة في عهد المتقي (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) :

كان بحكم أمير الامراء والتدبير كله إلى وزيره أبي عبد الله الكوفي ، وكان أبو بكر محمد بن رائق إلى جانب المتقي يذود عنه الديلم وغيرهم وخلع عليه المتقي وسماه أمير الأمراء . وكانت ديار مضر في حكم ابن رائق الذي كانت له الشام ثم اتفق مع محمد بن طغج الأخشيد صاحب مصر بعد حروب على أن تكون له حمص وحلب .

ولما استولى البريدي على بغداد هرب المتقي وابن رائق إلى الموصل وكانت بيد ناصر الدولة الحمداني الذي قتل ابن رائق بين يدي المتقي سنة ٣٣٠ ليحل محله في أمرة الأمراء . وسمى المتقي ناصر الدولة أمير الأمراء وكان معه أخوه علي

فلقبه سيف الدولة وجاء المتقي وبنو حمدان ودخلوا بغداد وهرب منها البريدي إلى واسط .

وسار ناصر الدولة من بغداد تاركاً امارة الأمراء إلى الموصل . فاختار المتقي بعد رحيل ناصر الدولة لامارة الأمراء القائد الديلمي توزون الذي كان جلفاً خافه المتقي ، فسار إلى الموصل في نسائه وعبيده وتبعه توزون ، فرحل الخليفة إلى نصيبين ثم إلى الرقة وكانت من أملاك ناصر الدولة يتولاها مع حلب وديار مضر والعواصم له أبو بكر محمد بن مقاتل في سنة ٣٣٢ وكان المتقي استعمله على الخراج والضياع بديار مضر وقبله كان مؤنس الخادم يلي الرقة بالنيابة عن يأنس المؤنس الذي ولاه ناصر الدولة . وكان شاطىء الفرات بين حلب والرقة تحت نفوذ الأخشيد محمد بن طغج صاحب مصر والشام .

وجاء الأخشيد إلى حلب وأرسل مقدمته إلى بالس (مسكنة) على شاطىء الفرات الغربي وسار بعدها بعد أن سير المتقي من الرقة أبا الحسن أحمد بن عبد الله الخرقي إلى الاخشيد يسأله أن يسير إليه ليجتمع معه بالرقة ويجدد به العهد ويستعين به . وجاء الأخشيد إلى مكان على شاطىء الفرات الغربي مقابل الرقة فعبر اليه الخليفة المتقي لثلاث عشرة ليلة خلت من محرم سنة ٣٣٣ . ووقف الاخشيد بين يدي المتقي بخشوع وكان قد حمل اليه الهدايا ومالاً كثيراً ولم يدع أحداً من أصحاب المتقي وحواشيه وكتابه إلا وبره ووصله .

واجتهد الاخشيد بالمتقي ليسير معه إلى الشام ومصر فيكون بين يديه فلم يجبه . فأشار اليه بالمقام مكانه بالرقة خشية عليه من توزون إذا هو سار إلى بغداد . وضمن له أن أقام في الرقة أن يمده بالأموال ، فلم يفعل . وكتب المتقي عهداً للأخشيد بل جدد ولايته على مصر وأعمالها والشامات والثغور وما والاها والحرمين وجعل ذلك له ولولده أبي القاسم أنوجور (محمود) إلى ثلاثين سنة .

وبقي المتقي في الرقة مع بني حمدان ، ولكنه ما لبث أن رأى منهم تضجراً

به. فاضطر إلى مراسلة توزون أمير الأتراك في بغداد في الصلح فأظهر الرغبة وحلف للمتقي وأشهد على حلفه الناس كتابة.

فانحدر المتقي من الرقة في الفرات إلى بغداد لأربع بقين من المحرم ٣٣٣ ووصل السندية على نهر عيسى بقرب بغداد، خرج اليه توزون يستقبله في الظاهر. وغدر به وقبض عليه وخلعه من الخلافة ثم سمل عينيه، فلما صاح المتقي وصاح من عنده من الحريم والخدم أمر توزون بضرب الطبول لئلا تسمع أصواتهم.

ثقافة أهل الرقة في العهد العباسي:

منذ أن صار الخلفاء والأمراء ينزلون الرقة، أخذ الرقيون يكونون لأنفسهم ثقافة عربية ويعدون أشخاصهم ليكونوا أهلاً لمجالسة الخلفاء والأمراء ومحادثتهم وايناسهم وادخال السرور إلى قلوبهم وانتزاع اعجابهم وتقديرهم ونيل برهم. جاء بكتاب مروج الذهب ج ٤ للمسعودي:

«حدث محمد بن عبد الله الدمشقي قال: لما نزل المتقي الرقة كنت فيمن بتصرف بين يديه، وأقرب منه في الخدمة، فقال لي في بعض الأيام في الرقة، وهو جالس في داره مشرفاً على الفرات اطلب لي رجلاً اخبارياً يحفظ أيام الناس أتفرج اليه في خلوتي، وأستريح به في الأوقات. فسألت بالرقة عن رجل بهذا الوصف فأرشدت إلى رجل بالرقة كهل لازم لمنزله فصرت اليه ورغبته في الدخول إلى المتقي، فقام معي كالمكره وصرنا إلى المتقي، فأعلمته احضاري للرجل الذي طلبه، فدعا به واستدناه، فوجد عنده ما أراد فكان معه أيام مقامه بالرقة، فلما انحدر في الفرات كان معه في الزورق. فلما صار إلى فم نهر سعيد ـ وذلك بين الرقة والرحبة (يمر هذا النهر بدير الزور وله فيها أثر) أرق المتقي ذات ليلة فقال للرجل. ما تحفظ من أشعار المبيضة وأخبارها؟ فمر الرجل في اخبار آل أبي طالب... فقال له المتقي: أتحفظ شعر أبي المقاتل نصر بن نصير الحلواني في

محمد بن زيد الحسيني الداعي؟ قال: لا يا أمير المؤمنين لكن معي غلام لي قد حفظ بحداثة سنه وحدة مزاجه وغلبة الهمة لطلب العلم والأدب ما لم أحفظ من الأخبار للناس وأيامهم واشعارهم قال أحضره، ولم أخفيت عني خبر مثل هذا فيكون حضوره زيادة في أنسنا فأحضر الغلام من زورق آخر فوقف بين يديه فقال له صاحبه: أتحفظ قصيدة أبي المقاتل في ابن زيد؟ قال نعم قال المتقي: انشدنيها، فابتدأ ينشده اياها وهذا مطلعها:

لا تقل بشرى وقل لي بشريان غرة الداعي ويم المهرجان

وهي طويلة رواها المسعودي. فلم يزل المتقي كلما مر به بيت استعاده وأمر الغلام بالجلوس وما زال المتقي يقول: لا تقل بشرى..

قال الدمشقي: لما انحدرنا مع المتقي من الرحبة وصرنا إلى (عانة) دعا بالرقي وغلامه فحادثاه، وتسلل بهم القول إلى فنون من الأخبار إلى أن صاروا إلى ذكر الخيل، ففاض الرقي وغلامه في أخبارها. وكان المتقي يأمر بتدوين وتثبيت ما يجري من الكلام، فلم يزالا معه في ذلك يجدد لهما البر إلى أن كان من أمره ما قد اشتهر».

ولو أن المتقي استمع إلى نصيحة محمد بن طغج الأخشيد ملك مصر والشام، وبقي في الرقة لكانت المرة الثالثة التي تصبح الرقة عاصمة للمملكة العباسية ولسلم المتقي فلم تسمل عيناه ولم يخلع من الخلافة ليلقي ذلك المصير المحزن.

وذكر أبو حيان التوحيدي في الجزء الأول من كتابه «الامتاع والمؤانسة» ص ١٠٤ اسم فيلسوف رقي يهودي هو (وهب بن يعيش الرقي) وأورد فقرات من رسالة له.

الرقة في عهد الحمدانيين:

بنو حمدان هم امراء دويلة أسسها القائد ابو الهيجاء عبد الله بن حمدان بن

حمدون بن الحارس التغلبي، من أمراء الخليفة العباسي المعتضد، الذي ولاه الخليفة المكتفي أعمال الموصل ومات سنة (٣١٧هـ ٩٢٩م) وخلفه ابنه حسن المسمى ناصر الدولة الذي ولاه المتقي حلب وديار مضر والعواصم ولما جاء الخليفة المتقي إلى الرقة كان سيف الدولة معه.

وكان ناصر الدولة وهو في بغداد يحارب معز الدولة قلد جمان قائد تركي في الرحبة وأخرجه اليها فعظم أمره فيها، فأظهر العصيان على ناصر الدولة وعزم على التغلب على الرقة وديار مضر فسار إلى الرقة فحصرها سبعة عشر يوماً فحاربه أهلها وهزموه، ووثب أهل الرحبة بأصحابه وعماله فقتلوهم لشدة ظلمهم وسوء معاملتهم، فلما عاد من الرقة وضع السيف في أهل الرحبة فقتل منهم مقتله عظيمة فأرس اليه ناصر الدولة حاجبه ياروخ في جيش فاقتتلوا على شاطىء الفرات فانهزم جمان وغرق في الفرات واستأمن اصحابه الى ياروخ.

وفي سنة ٣٣٣ سار سيف الدولة من سهول الرقة إلى حلب فملكها واستولى عليها وأسس فيها دولة الحمدانيين في حلب انتزعها من يد عمال الأخشيد صاحب مصر والشام وكان والي حلب له أبا الفتح عثمان بن سعيد بن العباس الكلابي. وخرج ابو الفتح نفسه يستقبل سيف الدولة ودخل حلب في ربيع الأول سنة ٣٣٣ وولى قضاءها أبا الحصين علي بن عبد الملك الرقي. وجرت بين سيف الدولة والأخشيد حروب ووصل سيف الدولة إلى دمشق ثم خرج منها وهرب إلى الرقة. واستقر الصلح بين الاثنين وصارت ولاية حلب الى سيف الدولة سنة ٣٣٦ وجرت بين سيف الدولة وبين الروم وقائع له وعليه. وحارب العشائر التي كانت تثور عليه في براري حلب. اجتمع في مجلسه عدد غير قليل من الشعراء فيهم المتنبي وأبو فراس الحمداني والصنوبري والخالديان وغيرهم توفي سنة ٣٥٦ في حلب ودفن في بلدة ميا فارقين في الجزيرة في تربته. وقد رأى سيف الدولة في الرقة العمارة وازدهار الصناعة والتجارة والزراعة ووفرة الخيرات فارهقها بالضرائب ليغذي حروبه ولينفق على بلاطه. وليمنح الأموال الكثيرة مادحيه من الشعراء.

ولم يكتف سيف الدولة بوضع الضرائب المرهقة على أهل الرقة ومصادرة أموالهم. بل عمل إلى نزع أبواب الرقة الحديدية الجميلة، وأرسلها إلى خلفائه القرامطة في هجر عاصمة البحرين سنة ٩٦٤ كما قال مسكويه المؤرخ. وكان سيف الدولة يتردد على الرقة من وقت لآخر. ولما قبض أبو تغلب بن ناصر الدولة على أبيه ناصر الدولة في سنة (٣٥٨هـ) امتعض حمدان بن ناصر الدولة لذلك وعصي على أخيه بالرقة والرحبة.

فسار أبو تغلب اليه إلى الرقة وتحصن حمدان بها فحصره أبو تغلب فيها إلى أن صالحه على أن يقتصر على الرحبة ويسلم اليه الرقة والرافقة وكتب الخليفة العباسي المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) توقيعاً بتقليد أبي تغلب أعمال ناصر الدولة وسيف الدولة وكان أبو تغلب في الرقة.

وتنقلت الرقة في أيدي الحمدانيين طوال استمرار دولتهم التي انتهت سنة (٣٩٩هـ) ولقيت على أيديهم الضرر والتأخر، فكل أمير منهم كان يطمع بها وينهبها.

غلمان الحمدانيين بكجور يحكمون الرقة:

استولى الحاجب قرغويه غلام سيف الدولة على حلب سنه ٣٥٨ وأشرك معه غلامه بكجور وقطع الدعاء لابن سيف الدولة: سعد الدولة أبي المعالي ودام لقرغويه وبكجور الأمر حتى سنة ٣٦٤ وفي ذي الحجة من سنة ٣٦٤ استولى بكجور الحاجبي الكاسكي على حلب وحبس شريكه قرغويه. وكان سعد الدولة اذ ذاك بحمص فتوجه إلى حلب ومعه بنو كلاب وحاصرها فطلب بكجور الأمان في سنة ٣٦٧ فولاه سعد الدولة حمص ثم أخرجه فتغلب على دمشق وأخرجه منها المصريون سنة ٣٧٨ فمضى إلى الرقة وأقام فيها الدعوة للمصريين وكان سعد الدولة قد انحاز إلى المصريين (الفاطميين) وأقام لهم الدعوة بحلب سنة ٣٧٦

ووصلته خلع العزيز أبي منصور في شعبان من هذه السنة (بعهد القادر العباسي) .

قوى أمر بكجور في الرقة واستمر فيها خمس سنوات وقصده سعد الدولة بجيش كبير بعد أن جمع اليه بني كلاب واستمال بني نمير ورغبهم في الاقطاع والعطاء الكثير ووعدهم بأن يعفو عنهم مساعدتهم لبكجور. فمالوا اليه وسار جيش سعد الدولة من حلب في الثاني والعشرين من محرم سنة ٣٨١ والتقى جيش سعد الدولة الحمداني وجيش بكجور على الناعورة قرب بالس (مسكنة) واشتد القتال فانهزم جيش بكجور وقبض سعد الدولة على بكجور وضرب عنقه وصلبه على أرض الناعورة وسار سعد الدولة إلى الرقة وفيها أولاد بكجور وحرمه وأمواله ، فقبض سعد الدولة أموال بكجور وكانت ثمانمائة ألف دينار وصادر أموال نواب بكجور وقبض عليهم ، بعد أن حلف لهم يميناً بأن لا يؤذيهم وأن يبقي لهم أموالهم . فنكث بعهده . ثم سار إلى حلب فأصابه الفالج في طريقه ومات في ٤ رمضان سنة ٣٨١ وحمل في تابوت إلى الرقة ودفن في المشهد ظاهرها (مشهد ويس القرني) .

الرقة في عهد المرداسيين :

أسس الدولة المرداسية بحلب الأمير أبوعلي صالح بن مرداس بن ادريس الكلابي سنة ٤١٦ وقتل سنة ٤٢٠ .

كانت قبيلة كلاب احدى القبائل العربية الضاربة في الجزيرة الفراتية والممتدة إلى نواحي حلب وكلاب بن ربيعة : بطن عظيم من عامر بن صعصعة من العدنانية أصلها من الحجاز وكانت حلب بيد لؤلؤ السيفي أحد غلمان الحمدانيين الذين كانوا تحت نفوذ الفاطميين بمصر.

خلف صالح بن مرداس في الحكم ابنه نصر الذي لقب شبل الدولة واستمر

حكمه من سنة ٤٢٠ ـ ٤٢٩ وخلفه معز الدولة أبو علوان ثمال بن صالح (٤٣٤ ـ ٤٤٩) ثم محمود شبل الدولة. ثم أبو ذؤابة عطية بن صالح سنة ٤٥٤هـ وقد انتهى أمر الدولة المرداسية على يد الدولة العقيلية سنة ٤٧٢ هـ. كانت الرقة في عهد هذه الدولة بيد شبيب بن وثاب النميري حليف المرداسيين وكان نصر بن صالح بن مرداس متزوجاً السيدة علوية بنت وثاب النميري أخت شبيب. وكان المرداسيون وشبيب في حرب مع أنوشتكين الدزبري أمير الجيوش المصرية والذي جاء من دمشق إلى حلب فهرب ثمال وشبيب والسيدة إلى الجزيرة. ومات شبيب بن وثاب في سنة ٤٣١ فاستولى أخواه مطاعن وقوام على ما كان في يده من الجزيرة. وكانت علوية امرأة نصر مقيمة بالرافقة، وكان زوجها قد قتل، فاحتلت على غلام أخويها الوالي بالرافقة وأخرجته واستولت على البلد لتقيم هيبتها به ويحفظ أمرها وحصل ثمال بن صالح على الرقة.

وخشي الدزبري الموجود بحلب من قرب ثمال، فاشترى قلعة دوسر على الفرات (قلعة جعبر) ليكون مطلاً عليه. وشرع ثمال يعد العدة في الرقة للاستيلاء على حلب، ولما مات فيها الدزبري في سنة ٤٣٣ تسلمها ثمال بن صالح بالتوقيع الذي سيره إليه المستنصر الفاطمي من مصر.

وفي سنة ٤٤٩ سلم ثمال بن صالح الرقة والرافقة إلى منيع بن شبيب بن وثاب النميري لأنها كانت لأبيه. وكان هذا وأبوه من قبل شبيب يخطبان للمستنصر بالله الفاطمي على منابر الرقة وحران.

وكانت الرقة قبل أن يستولي عليها بنو نمير بيد سالم بن مالك العقيلي هي وقلعة جعبر، ومنه انتزعها النميريون. ونمير قبيلة عربية قديمة بالرقة وآلت الرقة إلى جوشن النميري.

الرقة في عهد الدولة العقيلية:

أسس هذه الدولة العربي أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن مقلد

العقيلي بالموصل بعهد الخليفة العباسي احمد القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢) وتوفي مؤسسها سنة ٣٨٦، وامتدت حدودها إلى الفرات واستمرت بالموصل إلى سنة ٤٨٩. كانت تحت نفوذ الديلميين ببغداد. انتهت هي والدولة الديلمية على يد السلجوقيين.

وفي سنة ٤٧٧ استولى شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قرواش أحد أمراء الدولة العقيلية على الرقة.

وفي سنة ٥٠٢ جاء رسل سالم بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر إلى جاولي سقاو الأمير التركي المتغلب على الموصل والجزيرة والذي كان يعمل تارة لسلاجقة سورية وتارة لسلاجقة العراق والجزيرة وكان مقيماً بالرحبة (الميادين) استولى عليها بعد أن حاصرها سبعين يوماً يستغيثون به من بين نمير الذين استولوا على الرقة وقتلوا علي بن سالم العقيلي. ووعد العقيليون جاولي بوعود مقابل مساعدته لهم إذا هو أعاد لهم الرقة. فجاء جاولي من الرحبة إلى الرقة وحصرها نحو شهرين فلم يقدر عليها، وضمن له بنو نمير مالاً وخيلاً فعاد. وأرسل إلى العقيليين انه في أمر أهم من أخذ الرقة، وانه بإزاء عدو يجب التشاغل به دون غيره، (وكانت زوجة جاولي بالموصل لحفظها) وجاء جاولي إلى بالس ومنبج وخربها وعاد إلى الرحبة.

وهكذا تتوالى النكبات والمصائب على الرقة واخواتها مدن الفرات بسبب اضطراب الأحوال السياسية وتجزئة البلاد الذي أطمع الطامعين فكثر المغمرون الطامعون بالاستيلاء على المدن الفراتية ونهبها وتخريبها.

الرقة في عهد الاتابكية:

اقطع السلطان محمود بن ملكشاه السلجوقي مدينة الرحبة إلى اقسنقر البرسقي، وكان مقيماً بها في سنة ٥١٢، وفي نفس السنة تقدم فنزل بأسفل الرقة

في عسكره محاولاً الاستيلاء عليها، ثم انحدر إلى العراق لمقابلة السلطان محمود بن ملكشاه ليوسع له اقطاعية الرحبة ثم شغل مناصب أخرى.

وبعد موت آقنسقر آلت الجزيرة الفراتية والرقة إلى ابنه اتابك عماد الدين زنكي الذي استولى على الشام سنة ٥٢٢ وقتل سنة ٥٤١ وهو محاصر لقلعة جعبر غربي الرقة على بعد ٦٥ كيلو متر على الضفة الشرقية للفرات ودفن في الرقة وكان ابنه نور الدين محمود معه. فذهب من الرقة إلى حلب. واستولى عليها وأسس الدولة الاتابكية سنة ٥٤١. ولفظة أتابك تركية تعني مربي الأمير، لأن السلاجقة كانوا يعهدون بأبنائهم إلى مربين من كبار رجال حاشيتهم يكونون لهم رواداً.

وكان عماد الدين زنكي أبلى بلاء محموداً في جهاد الصليبيين وفتح مدينة الرها واستولى عليها من الصليبيين سنة (٥٣٩هـ - ١١٤٢م) وكان لذلك وقع كبير حسن في نفوس المسلمين وكان الصليبيون يواصلون غاراتهم منها على الجزيرة الفراتية والرقة. وفتح عماد الدين حصوناً أخرى من الجزيرة.

وبعد موت عماد الدين زنكي كانت الرقة من أملاك آل زنكي بالموصل. وفي سنة ٥٥٧ سار نور الدين محمود بن زنكي من حلب إلى حران ثم إلى الرقة وكان فيها أولاد أميرك الجاندار من أعيان الأمراء ومن عمال زنكي الموصل وقد توفي فيها وبقي أولاده في الرقة. فنازلهم نور الدين وأخذ الرقة منهم. وعاد اليها نور الدين في سنة ٥٦٣هـ وملك معها الخابور ونصيبين وسنجار. وفي عهد نور الدين انتعشت الرقة واستعادت شيئاً من ازدهارها وشهرتها وبنى فيها سنة ١١٦٦م جامعاً ومنارة مستديرة لاتزال قائمة حتى اليوم داخل سور الرقة ولا يزال جدار من جدران الجامع قائماً.

وفي هذا التاريخ قدم نور الدين الرقة إلى أخيه مودود ملك الموصل. فأخذت شهرتها تتضاءل بسبب الحوادث وطمع الطامعين بها. وأصابها كثير من النهب والحريق والتخريب. والحق بها فيضان الفرات اضراراً لعدم وجود سلطة قوية تتخذ الاجراءات لمكافحة فيضان الفرات.

وقـد أضعفت الحـروب الصليبيـة الكيـان العربي كثيراً وأحدثت اضطراباً عظيـماً في حيـاتـه الاقتصـادية والاجتماعية فانحطت الرقة أكثر من غيرها لاتصالها بالعـراق والشـام، ولمـا خرب التـتر العـراق واستـولوا على بغداد سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م جفت معـالم الحيـاة في الرقة وشل الرعب أهلها وأخذ القادرون يغادرونها إلى الشام ومصر.

وكـانت في عهـودهـا تحتـال على الحيـاة بزراعتها وتجارتها وصناعتها الخزفية المـزركشـة بالأسود المذهب وذات الطلاء المعدني اللماع اشتهرت به الرقة في القرن الخامس والسادس الهجري.

وفي سنة ٥٦٩هـ استولى سيف الدين غازي بن قطب الدين زنكي على الرقة.

الرقة في عهد الايوبيين:

ظهرت الدولة الايوبية في خلافة الخليفة العباسي المستضيء بالله (٥٦٦ - ٥٧٥هـ) وفي عهده انقرضت الدولة الفاطمية بمصر وظهرت الدولة الايوبية على يد صلاح الـدين الأيـوبي يوسف بن أيـوب الذي ظهر في كنف نور الدين زنكي، وذلـك في محرم سنـة ٥٦٧هـ. ولـد يوسف بن نجم الدين أيوب في تكريت حوالي سنـة ٥٣٢هـ وكـان أول بروزه بالعمل خروجه إلى مصر وفيها أصبح وزيراً وأميراً لجيوشها وقد خلع عليه الخليفة العباسي ولقبه سلطاناً. وكانت الجزيرة الفراتية بيد سيف الـدين غازي أخي نور الـدين وكـذلك الموصل. وقاتل صلاح الدين جنود سيف الـدين غازي قرب حماه وهـزمهم وقـاتل الصليبيين في الشام والاسماعيلية. ورأى صلاح الدين انه لا يستطيع التفرغ لمحاربة الشمال إلا بعد أن يستولي على حلب والجـزيـرة الفـراتيـة والمـوصـل. خرج صلاح الـدين من القـاهـرة في سنـة (٥٧٨هـ - ١١٨٢م). وبعـد غارات على الفـرنـج بالشام جاء وعبر الفرات سنة

٥٧٨هـ وملك الرها وحران والرقة وبلدان الخابور ونصيبين وامد. وحاصر الموصل ثم تركها وعاد.

الصناعات القديمة في الرقة:

برعت الرقة بصناعة الصابون، لكثرة ما كان فيها من أشجار الزيتون وقد كثرت فيها معاصر الزيت في العصر العباسي وما قبله، وكان مما فرضه عياض بن غنم فاتح الرقة على أهلها تأدية كميات معينة من الزيت إلى بيت مال المسلمين كل سنة، وكان فيها الصابون الجيد الذي يدخل في تركيبه الزيت كما ذكر الرحالة شمس الدين أبوعبد الله البشاري في سنة ٣٧٥هـ في كتابه (أحسن التقاسيم).

وكانت تضرب فيها النقود. فقد عثر في اثناء الحفريات التي قامت بها مديرية الآثار في قصر من القصور بالرقة خارج السور على نقود برونزية ضربت في الرافقة سنة ٢١٠هـ بعصر المأمون.

ويستدل من كثرة الأواني الخزفية والزجاجية المختلفة الأشكال والصحون والأباريق والأكواب والدنان والكؤوس والجرار والمصابيح والشوابك وخلافها مما عثر عليه في خرائب الرقة: ان الرقة كانت أيام العباسيين وحتى في العهدين الاتابكي والأيوبي مركزاً لمعامل خزفية وزجاجية كانت تكفي حاجة سكان المدينة وتفيض بحيث كانت تصدر إلى البلاد المجاورة، التي كانت تفخر بمصنوعات الرقة المتقنة الجميلة، والتي هي نتيجة الخبرة المتواصلة. وكانت صناعة الفخار والخزف والزجاج منتشرة ورائجة، مما جعل صناعها في الرقة يتزاحمون باتقانها والتفنن برسومها وكتاباتها وألوانها وأشكالها.

والأواني الزجاجية والخزفية التي وجدت في حفريات الرقة ذات زخارف خطية وهندسية وملونة. وبعضها ذوزخارف بارزة هندسية وخطية ونباتية. ووجدت أباريق نحاسية مزينة بكتابات.

وقد ذاعت شهرة لمدينة الرقة بصناعة الخزف وكانت الرقة تقف بهذه الشهرة إلى

جانب شهرة مدينة الموصل التي كانت أعظم مركز لصناعة التحف المعدنية المنزلة بالفضة والذهب في القرنين السادس والسابع بعد الهجرة - الثاني عشر والثالث عشر - ولا بد أن تكون الموصل قد أثرت في صناعة المعادن بالرقة - للعلاقات الادارية والتجارية والسياسية التي كانت بين المدينتين الجزريتين قروناً والمتأثرين كل منهما بالأخرى وبمدن الجزيرة الفراتية.

واليك ما جاء عن خزف الرقة في كتاب (الفنون الاسلامية) تأليف م. س. ديماند، ترجمة أحمد محمد عيسى - طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٤ (ص ١٩٥ - ١٩٧).

«من أنواع الخزف الاسلامي المعروف، نوع ينسب إلى مدينة الرقة على نهر الفرات، وقد تداولت أيدي التجار السوريين كميات كبيرة منه امتلأت بها الأسواق. وهي التي ترى اليوم في المتاحف والمجموعات الخاصة. وعلى الرغم من أنه لم تقم بمدينة الرقة حتى الآن حفريات علمية منظمة، إلا أن أبحاث زره وهرتزفلد بتلك المنطقة - وما عثر عليه من خزف تالف هناك - يدلان على أن الرقة كانت مركزاً هاماً لصناعة الخزف واستمر خزف تلك المدينة ينسب خطئاً إلى عصر هارون الرشيد بسبب اقامته هناك بعض الوقت.

غير أن زخارف آنيتها وأسلوب رسوم الأشخاص تدل على أنها في عصر متأخر. ومع أنه يمكن ارجاع بعض خزف الرقة إلى القرن الحادي عشر، إلا ان معظمه يرجع إلى القرن الثاني عشر والثالث عشر، لاحتوائه على عناصر زخرفية هي من مميزات عصر اتابكية السلجوقيين في سوريا والعراق.

وهناك أنواع عديدة مختلفة من خزف الرقة ذي البريق المعدني وذي الزخارف وتشتمل الأواني ذات البريق المعدني على زهريات وأباريق وسلاطين وكاسات مختلفة الاحجام. أما ألوان البريق المعدني السائدة فهي: البني الداكن، وهو من الألوان النادر استعمالها في مراكز صناعة الخزف الأخرى. وتزين أواني الرقة زخارف نباتية وكتابات نسخية أوكوفية، وأحياناً رسوم طيور محورة تحويراً كبيراً،

ومـرسـومـة بالـبر يق المعـدني على طلاء شفاف محضر يزيد في بهجته أحياناً إضافة اللون الأزرق الـزهـري اليـه . ورسـوم بعض القطع على جانب كبير من الرشاقة والجمال، ويرجع ابداعها إلى القرن الثاني عشر. أما زخارفها النباتية والكتابية فقد تركت بيضاء أو رسمت بالبريق المعدني البني اللون . وكان الموضوع الزخرفي يرسم على أرضية من الأشكال الحلزونية.

ومن الأنـواع الأخـرى المعـروفة من خزف الرقة نوع رسمت زخارفة باللون الأسود تحت طلاء أزرق فيروزي . وتتكون الحليات الرئيسية في هذه المجموعة من الأواني، من زخـارف نبـاتيـة، وزخارف متشابكة وحروف كوفية وطيور الحقت بها رسوم نقط وشولات ولوالب داخل مناطق منفصلة .

وكثـيراً ما يختلط هذا النـوع من خزف الـرقة مع نوع آخر مشابه من الخزف الايراني تزينه زخارف باللونين الأسود والأزرق.

ومـع ذلـك فان طينـة هذين النـوعـين يختلف بعضهـا عن بعْض تمام الاختـلاف، إذ أن النوع الايراني أشد صلابة وأقل مسامية وأميل الى اللون الأبيض المغبر منه إلى البرتقالي. وتعد بعض قطع الرقة المرسومة باللونين الأسود والأزرق من بين روائـع منتجـات الخزف الاسلامي وفي مجموعة هوارس هيماير بينيويورك: سلطانيتان من هذا النوع يزينها رسم طاووس، يؤلف الخط الذي يحدد جسماهما وذيلاهما المنفرجين على شكل دائرة، موضوعاً زخرفياً جذاباً، ومن القطع الأخرى المشهورة سلطانية بمتحف المتروبوليتان، يحتمل أن تكون من القرن الثاني عشر. ويزينها تنينان متشابكان، لهما جسد ثعباني منقط إلى جانب تفريعات نباتية تركت باللون الأبيض على أرضية سوداء.

ونلاحظ كثيراً في الأباريق الكبيرة بروز الزخرفة وتلوينها باللون الأسود.

وتـوجـد إلى جانب خزف الرقة ذي اللونين الأزرق والأسود، مجموعة ذات زخارف متعددة الألوان تذكرنا ببعض أنواع الخزف الايراني في القرن الثالث عشر. وتشمـل زخـارف هذه المجمـوعـة على رسـوم حيـوانـات لها رؤوس آدمية ورسوم

محاربين وصيادين وحيوانات وتفريعات نباتية استخدمت فيها الألوان الأسود والأزرق والأخضر والبني الفاتح تحت طلاء شفاف مائل إلى الاخضرار. وأسلوب هذه المجموعة الشبيهة بخزف الرقة ذي البريق المعدني يمثل الأسلوب السلجوقي في اصدق تمثيل.

ويشبه ما عرفنا من خزف الرقة ما عثر عليه من خزف بمدينة الرصافة الواقعة في صحراء سورية على مقربة من الرقة».

وكانت صناعة الآجر قديمة وشائعة في الرقة، لعدم وجود مقالع حجر في محيطها. وكان انتاج مصانع الآجر فيها كثيراً لتلبي حاجة السكان المتزايدة إلى بناء الدور وخاصة لبناء قصور الأمراء والقواد العديدة الحجرات والأبهاء والمرتفعة الحيطان، وذات الأسوار للقصور وحدائقها.

ان جميع بناء الرقة كان من الآجر. وقد اتقنوا صنعه بحيث أن الآجر الموجود قاوم عوامل الطبيعة مئات السنين، وبلغ من جودة اتقانه أنه لا يزال يبدو وكأنه قد صنع من مدة قريبة. ولو لم تعبث أيدي سكان الرقة بأطلالها لانتزاع الآجر منها لبناء دورهم لبقيت أطلال كثيرة دون أن تؤثر فيها العوامل الطبيعية وتطاول الزمن. وتهدمت أبنية كثيرة بفعل الهزات الأرضية والحريق.

ان جميع بناء الرقة منذماية عام إلى ما قبل بضع سنين انتزع من أنقاض الرقة القديمة وكان صالحاً للبناء.

واستعمل سكان الرقة القديمة اللبن أيضاً في بناء سور الرقة وأبراجه والبرج الكبير الذي كان في مدخل الرقة من عند الجسر والذي كان يسمى (القلة) وتلفظ القاف قافاً يمانية هو من اللبن ويدخل فيه عواميد خشب لتمسكه وقاعدته من الحجر وقد أزيل في سنة ١٩٥٥. وربما كان المرصد الذي عمل فيه العالم الفلكي البتاني.

ولا بد من انه كان في الرقة صناعات كثيرة كالنسيج وصنع أسرجة الخيل وألجمتها وصنع السلاح لتلبي حاجة الجيوش التي كانت تنزل الرقة وتتمون منها.

إلى غير ذلك من الصناعات مما لم يصلنا شيء مكتوب عنها . ولعله يكشف في المستقبل عن مخطوطات تلقي بعض الضوء على هذه الناحية الخافية من تاريخ الصناعات في الرقة .

فارس الرقة الخزفي :

للتدليل على أهمية خزف الرقة نقدم تعريفاً بدمية منه هي (فارس الرقة) دخلت متحف دمشق في أواخر سنة ١٩٤٩ . وهو أثر منقطع النظير ، له أهمية كبيرة في تاريخ الفن الاسلامي ويعد من أعظم الآثار الاسلامية التي وصلت الينا، من أشهر محتويات متحف دمشق .

يزعم تاجر العاديات الذي ملكه أنه سرق من حفريات السيد دولورية بالرقة . وبيع بحلب ونقل إلى باريس قبل الحرب العالمية الثانية طمعاً ببيعه بسعر عال واصلح هناك اصلاحاً علمياً ، لأنه كان مكسوراً في حذاء قوائمه وفي مؤخرته . وفي رأسه وسيفه وترسه بعض الصدوع ، وكانت تنقصه قطع في عنق الجواد، فأكملت ثم أعيد إلى سورية واشترته مديرية الآثار والمتاحف العامة بدمشق .

يبلغ ارتفاعه (٤٦,٥سم) يمثل محارباً اسلامياً له لحية مثلثة وضفيرة طويلة تنحدر على ظهره ، وعلى رأسه خوذة مخروطية ، متسربل بدرع طويلة . وفي يده اليمنى سيف مسلول ذو نصلة عريضة . وفي يسراه مجنة مستديرة . أما الجواد فصغير الرأس ضخم الجسم والقوائم . وله لجام غليظ يتألف من ثلاثة حبال تحيط برأسه وله سرج وصدار. والفارس يهم بضرب ثعبان يلتف على قائمة الجواد الأمامية اليمنى ثم على القائمة اليسرى .

هذا الشكل مصنوع ضمن قالب ، وتعلوه طبقة زجاجية رقيقة . ووجه الفارس ورأس الحصان وجسمه ملونة باللون الأبيض . والسيف ولحية الفارس

واللجام والحوافر والحبال باللون الأزرق. والمجنة والدرع وقدما الفارس والثعبان باللون البنفسجي وخوذة الفارس وعيناه باللون الأخضر.

وصفه سليم عادل مدير الآثار والمتاحف بدمشق في الجزء الأول من مجلة الحوليات الأثرية السورية ص ١٧٥ و ١٧٦ القسم العربي. وله صورة في القسم الغربي من الجزء.

مشاركة الرقة بالحركة العلمية العباسية:

كانت الرقة في كل عصورها مركزاً عسكرياً ممتازاً ومنطقة تجارية مزدهرة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار متوسطة الموقع، ولهذه الأسباب كانت من مراكز العلم والأدب في بلاد ما بين النهرين قبل الاسلام في العهد الآرامي والبيزنطي حيث كانت مركز أسقفية نبغ فيها أساقفة وكهنة علماء تولوا مناصب كهنوتية عالية والفوا كتباً ونبغ فيها أدباء وعلماء وشعراء آراميون.

وفي العصور الاسلامية خرج منها شعراء وفقهاء وأدباء ولغويون وقضاة ومؤدبون ورواة وفلاسفة وأطباء ومحدثون.

فهي قد عرفت في كل عصورها إلى أن خربت بغارات التتر في القرن الثالث عشر للميلاد حركة علمية وأدبية لم تفتر، وشاركت في الحركة العلمية في العصور الاسلامية مشاركة واسعة بمن خرج فيها من الأدباء والعلماء والفقهاء وبمن نزلها من اضرابهم.

فكانت في العصرين الأموي والعباسي من مراكز العلم والأدب في المملكة العباسية. والغريب أن الذين يذكرون مراكز الأدب في العصر العباسي يعدون الكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة ودمشق فقط ويغفلون اسم مدينة يشرف التاريخ الادبي اسمها. ويحمل أبناؤها نسبتهم اليها الرقي الرقيون وأحياناً الجزري الجزريون. وهذه اسماء بعضهم ولمحات عنهم مما تيسر لنا العثور عليه من أبنائها وممن نزلها. فقد اجتذبت في مختلف عصورها أدباء وشعراء وكتاباً وعلماء وفقهاء من

مختلف الأصقاع الاسلامية أقاموا فيها مدداً مختلفة، فمنهم من طالت مدة اقامته سنين عديدة، ومنهم من قصرت عن ذلك. وما من شاعر أوكاتب أو أديب قدم الرقة إلا وذكرها في شعره وكتابته وأثنى عليها، وتغنى بعضهم برياضها وبساتينها وتغزل آخرون بنسائها ووصفوا ما تركت الرقة في نفوسهم من انطباعات. وافتخر بعضهم باقامته بالرقة وعدوها وطناً لهم آثروه على غيره حتى على أوطانهم الأصلية.

ولقد شارك هؤلاء الأدباء الذين نزلوا الرقة في تغذية الحركة الفكرية فيها وفي توسعتها متعاونين مع أدباء الرقة. وكان من تلاقي أولئك وهؤلاء حركة علمية واسعة عرفتها الرقة وشاركت فيها بالحركة العلمية العامة في العصور العباسية كافة وخاصة في زمن الرشيد وابنه المأمون منتصف القرن السابع للهجرة.

وحسبك من أهمية من نزل الرقة أولئك الفحول من الأدباء الذين كانوا يرافقون الرشيد إلى الرقة ويؤلفون حاشيته أمثال العتابي الذي كان وحده مدرسة أدبية.

قل من بين أدباء العرب من لم يزر الرقة. ولو رحنا نستقصي عدد من نزلوا الرقة من العلماء والأدباء فضلاً عمن خرج فيها من الأدباء لبلغنا سفراً ضخماً.

عبد الله بن عمر محدث الجزيرة ومفتيها:

هو عبد الله بن عمر بن أبي الوليد الأسدي ولد سنة احدى ومائة ومات سنة ثمانين ومائة، كان ثقة صدوقاً كثير الحديث، وكان أحفظ من روى عن عبد الكريم الجزر، ولم يكن أحد ينازعه في الفتوى في دهره مات بالرقة سنة ١٨٠ في خلافة هارون الرشيد. ذكر في طبقات ابن سعد. وفي الشذرات لابن العماد: انه ابو رهيب عبيد الله بن عمرو الرقي الفقيه محدث الجزيرة ومفتيها، روى عن عبد الملك بن عمر وطبقته. قال محمد بن سعد: كان ثقة لم يكن أحد ينازعه في الفتوى في دهره وذكره القشيري وذكر أسماء من أخذوا عنه.

خالد بن حيان الرقي :

ويكنى ابـا يزيـد الخراز، كان ثقة ثبتا حدث عنه جماعة من أهل الرقة مات بالرقة في ذي القعدة سنة احدى وتسعين ومائة في خلافة هارون الرشيد، وكان يوم مات قد دخل في السبعين ولم يستكملها: من الطبقات لابن سعد. وقال صاحب ميـزان الاعتـدال: خالـد الـرقي هذا مولى كندة عن جعفر بن يرقان وسالم بن أبي المهاجر، وعنه أحمد بن حنبل وسجادة وجماعة، قال أحمد لم يكن به بأس، كتبنا عنه غرائب. وقـال عبـد الخـالق بن منصـور سمعت معين يوثقه وقال النسائي ليس به بأس. وذكره القشيري.

حكيم بن نافع الرقي :

حدث عنـه أهـل الـرقة وأهل الجزيرة، يروي عن صغار التابعين، قال ابن معين: ليس به بأس سمع عطاء الخراساني وخصيفا.

وفي تاريـخ بغـداد: حكيم بن نافـع أبـو جعفـر القـرشي الرقي نزل بغداد وحـدث بها عن عطـاء الخـراساني وهشام بن عروة وسليمان الأعمش وخصيف بن عبـد الـرحمن وروى عنـه محمـد بن بكـار. وحدث ابن الجنيد قال سألت يحيى بن معن عن حكيم بن نافع القرشي الرقي فقال: لا بأس به.

اسماعيل بن عبد الله الرقي :

هو اسماعيل بن عبد الله بن خالد العبدري الرقي ولى قضاء دمشق في سنة ثلاث وثـلاثـين ومـائتين، وتوفي بعد الأربعين ومائتين. كان صدوقاً روى عنه ابن ماجة. ذكر في ابن عساكر وفي ميزان الاعتدال.

فياض بن محمد :

ابن سنـان كان يتـولى قريشاً ومنزله ملاصق مسجد الجامع مات بالرقة بعد المائتين. كان عبيد الله بن الوليد الحراني يقول: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما مات بالرقة افضل من فياض بن محمد (بزمن المأمون).

الفيض بن اسحاق الرقي:

في طبقـات ابن سعـد «الفيض بن اسحـاق ويكنى أبـا يزيد من أهل الرقة وكـان صاحـب حديث وخـبر وغزومات بالرقة سنة ست عشرة ومائتين في خلافة عبد الله بن هارون».

وقال القشيري ذكر بعض شيوخنا انه ضبب الحجر الأسود وشرط أن يأخذ نحاتته، وكان رجلاً صالحاً وهو صاحب الفضيل بن عياض مات بعد فياض بن محمد.

عمرو بن عثمان الكلابي الرقي:

ابن سيـاريتـولى بني كلاب، كنيتـهُ أبـوعمـرو مات بالرقة سنة سبع عشرة ومائتين. قال ابن عدي: روى عنه ثقات وهو ممن يكتب حديثه وروى عنه محمد بن يحيى. ذكر في ميزان الاعتدال وذكره القشيري.

موسى بن مروان البغدادي:

في تاريـخ بغـداد: موسى بن مروان أبـوعمـران نزل الـرقة وحدث بها عن المعافي بن عمران الموصلي وأبي معاوية الضرير، وروى عنه الحسين بن عبد الله بن يزيد الرقي وجنيد بن حكيم، مات بالرقة وبها ولده كان ينزل فندق حسين الخادم بربض الرافقة سنة ست وأربعين ومائتين».

قد اندرس هذا الفندق مع ما اندرس من معالم الرقة.

عبد السلام بن عبد الرحمن :

في خلاصة تذهيب الكمال : «عبد السلام بن عبد الرحمن بن صخر الأسدي الوابصي أبو الفضل الرقي قاضيها وقاضي حران وحلب وبغداد حدث عن أبيه وكيع مات بالرقة سنة تسع وأربعين ومائتين، ولعبد السلام ترجمة وافرة في تاريخ بغداد .

عمر بن الصباح :

في تاريخ بغداد : «عمر بن الصباح بن عمر بن علي أبو حفص البغدادي نزل الرقة وحدث بها عن سفيان بن عيينة ، روى عنه الحسين بن عبد الله القطان الرقي مات بالرقة سنة سبع وثلاثين ومائتين . وذكره القضيري .

ابو شعيب السوسي :

صالح بن زياد مقرىء أهل الرقة وعالمهم . تصدر للاقراء مات بالرقة في المحرم سنة احدى وستين ومائتين .

محمد بن عبيد الله بن العظيم :

الكريزي أبو عبد الله البصري قاضي مصر، مات بالرقة سنة ستين ومائتين .

محمد بن خالد بن جبلة الرافقي :

سكن الرافقة وبها مات سنة خمس وستين ومائتين ، يقال أن البخاري حدث عنه .

محمد بن علي بن ميمون الرقي العطار :

الحافظ، كان أمام أهل الجزيرة في عصره، ثقة مأموناً، ولد سنة ثلاث وتسعين وماية. ومات سنة ثمان وستين ومائتين. وكنيته أبو العباس.

عبد الملك بن عبد الحميد الميموني:

الفقيه أبو الحسن الميموني الرقي صاحب الامام أحمد، روى عن اسحاق الازرق، ومحمد بن عبد وطائفة، وكان جليل القدر في أصحاب الإمام أحمد بن حنبل، وكان أحمد يكرمه ويجله.

روى عنه مسائل كثيرة جداً في ستة عشر جزءاً وجزئين كبيرين.

قال الحافظ بن ناصر الدين في بديعة البيان: عبد الملك بن عبد الحميد بن ميمون بن مهران الميموني الجزري الرقي أبو الحسن، وثقة النسائي وأبو عوانة وغيرهم. روى علوم ديننا القديم توفي في ربيع الأول أربع وسبعين ومائتين، وكان سنه يوم مات دون المائة.

هلال بن العلاء أبو عمرو الرقي:

محدث أهل الرقة وشيخها توفي في ذي الحجة سنة ثمانين ومائتين، وقد قارب التسعين، وله شعر رائق قاله في العبر. ولد في رجب سنة أربع وثمانين ومائة.

احمد بن العلاء أبو عبد الرحمن:

القاضي الرقي، ولد سنة ١٩٢هـ، سمع الحديث من جماعة وروى عنه جماعته. وقدم دمشق في أيام أحمد بن طولون، وكان ممن خلع الموفق بن المتوكل بن المعتصم بها سنة ٢٦٩هـ ومات وهو قاضي مصر سنة ست وسبعين ومائتين وهو أخو خلال بن العلاء أبو عمر الرقي. ذكره ابن عساكر.

محمد بن علي الحسن بن حرب:

ابو الفضل القاضي من أهل الرقة قدم بغداد وحدث بها. قال الدار قطني عنه أنه ثقة. ولد سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ومات سنة أربع عشرة وثلاثمائة. ذكر في تاريخ بغداد وذكره القشيري. وله أخ هو الحسن بن علي بن الحسن بن حرب قاضي الثغور ولد سنة ثلاثين ومائتين ومات سنة اثنتين وثلاثمائة بطرسوس التي كان المأمون مات بها في كليكية.

احمد بن أبي عبد الله بن محمد الرقي:

ابن خالد أبو جعفر، عالم وأديب، ثقة في نفسه، صنف كتباً كثيرة، ذكرها ياقوت الحموي في معجم الأدباء. منها كتاب التاريخ، وكتاب اختلاف الحديث، وكتاب الدواجن وكتاب الشعر والشعراء وكتاب النمو. توفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين. وذكره حاجي خليفة بكشف الظنون وياقوت بمعجم الأدباء.

ابراهيم بن أحمد بن محمد:

ابن المولد، أبو اسحاق الصوفي الواعظ الرقي من كبار مشايخ الرقة وفتيانها روى الحديث وصحب أبا عبد الله الدمشقي وابراهيم بن داوود القصار الرقي والجنيد وغير واحد. وروى عنه تمام بن محمد وأبو عبد الرحمن السلمي.

كان يحدث بالرقة وتروى أحاديثه وتتناقل أقواله. ومن أقواله المروية: عجبت لمن عرف أن له طريقاً إلى ربه كيف يعيش مع غير الله تعالى. والله يقول: «وأنيبوا إلى ربكم واسلموا له». وقال: «الأدب في الأكل الا يمدوا أيديهم إلى الارفاق إلا في أوقات الضرورات، ثم على قدر امساك الرمق».

وقد أورد ابن عساكر من شعره قوله:

لك مني على البعاد نصيب ... لم ينله على الدنو حبيب
وعلى الطرف من سواك حجاب ... وعلى القلب من هواك رقيب
زين في ناظري هواك وقلبي ... والهوى فيه رائع ومشوب

كيف يغني قرب الطبيب عليلاً   انت أسقمته وأنت الطبيب

توفي ابراهيم بن أحمد المولد، بفتح الواو سنة ثلاثمائة.

ترجم له أبوعبد الرحمن السلمي في كتابه (طبقات الصوفية) وله ترجمة في طبقات الشعراني وفي حلية الأولياء. وفي شذرات الذهب. وترجم له ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية).

ابراهيم القصار:

من كبار الصوفية، وهو ابراهيم بن داوود الرقي، أبو اسحاق، من جلة مشايخ الشام، من أقران الجنيد وابن الجلاء، إلا أنه عمر. وصحبه أكثر مشايخ الشام، وكان لازماً للفقر، مجرداً فيه، محباً لأهله.

ومن أقواله: «قيمة كل انسان بقدر همته. فان كانت همته الدنيا فلا قيمة له، وان كانت همته رضاء الله تعالى فلا يمكن استدراك غاية قيمته ولا الوقوف عليها».

«حسبك من الدنيا صحبة فقير وخدمة ولي».

«أضعف الخلق من ضعف عن رد شهواته، وأقوى الخلق من قوى على ردها».

«من تعزز بشيء غير الله فقد ذل في عزه».

توفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة. ترجم له في طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي. وفي حلية الأولياء. وفي طبقات الشعراني.

عبد الرحمن بن جعفر النحوي الرقي:

قال صاحب يتيمة الدهر: أنشدني الخوارزمي لعبد الرحمن بن جعفر النحوي الرقي:

قل لمن تاب ولم يقـ	ـض من اللذات نحبه
توبة الحشوى لا تعـ	ـد عند الله حبه
أم من تسبقه أنـ	ـت إلى الجنة قحبه .

عيسى بن المعلي بن مسلمة الرافقي :

قال عنه ياقوت في معجم الأدباء : «أحد أدباء عصرنا ، أخمل من ذكره خمول قطره كان مؤدباً (بكسر الدال) بمدينة الرقة التي على الفرات ، وله شعر كثير وفضائل جمة وعدة تصانيف منها : كتاب تبيين الغموض في علم العروض وجدته بخطه وقد كتبه في سنة تسعين وخمسمائة . وعاش بعد ذلك . وله كتاب في اللغة حسن في مجلدين ضخمين رأيته بخطه أيضاً . كتاب ديوان شعره مجلدان» .

الحسين بن محمد جعفر الرافقي :

المعروف بالخالع ، أحد كبار النحاة ، كان اماماً في النحو واللغة والأدب وله شعر. أخذ عن أبي علي الفارسي وأبي الحسن البرافي وغيرهما . وله من التصانيف كتاب الأودية والجبال والرمال وكتاب الأمثال ، وكتاب تخيلات العرب ، وشرح شعر أبي تمام ، وكتاب صناعة الشعر. توفي سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة .

ومن شعره في الأخلاق :

لا تعبسن بوجه عاف سائل	خير المواهب أن ترى مسئولا
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل	فبقاء عزك أن ترى مأمولا
يلقى الكريم فيستدل ببشره	ويرى العبوس على اللئيم دليلا
وأعلم بأنك لا محالة صائر	خبراً فكن خبراً يروق جميلا

أورد ياقوت في معجم الأدباء طرفاً من شعر الحسين الرافقي في الغزل وترجم له في بغية الوعاة.

علي بن عبد الرحيم بن الحسن الرقي اللغوي:

ابن عبد الملك بن ابراهيم السلمي المعروف بابن العصاد، اللغوي من أهل الرقة، ورد بغداد وقرأ العلم بها. مات في ثالث المحرم سنة ست وسبعين وخمسمائة. ومولده في سنة ثمان وخمسمائة انتهت اليه الرياسة في معرفة اللغة العربية. وتخرج به جماعة. وكان موسراً سافر كثيراً إلى الديار المصرية، وأخذ عن أهلها وروى عنهم. وكان مليح الخط. ترجم له ياقوت في معجم الأدباء.

هبة الله بن حامد النحوي اللغوي الرقي:

ابن احمد بن ايوب ابومنصور، يعرف بعميد الرؤساء، أديب فاضل نحوي لغوي شاعر. شيخ وقته ومتصدر بلده (الرقة). أخذ عنه أهل تلك البلاد الأدب وأخذ هوعن ابن العصاد وغيره. وله نظم ونثر مات سنة عشرة وستماية ترجم له ياقوت بمعجم الأدباء.

الحسن بن داوود الرقي:

له كتاب الحلي، وهومؤدب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد.

أبو طالب الرقي:

قال صاحب يتيمة الدهر: «لم أجد ذكره إلا عند أبي بكر الخوارزمي، وسمعته يقول انه أحد المقلين المحسنين الذين يطبقون المفصل في اغراضهم وينظمون الدر في معانيهم وألفاظهم وروى له في اليتيمية مقطوعات شعرية».

أبو القاسم الرقي:

منجم سيف الدولة بن حمدان ملك حلب.

عبيد الله بن علي الرقي :

كان اماماً في اللغة العربية .

ابو الحصين علي بن عبد الملك الرقي :

من أهل الرقة ، ولاه سيف الدولة الحمداني قضاء حلب يوم دخلها لثمان خلون من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة . وكان ظالماً إذا مات انسان قضى بتركته لسيف الدولة .

وكان ابو الحصين صديقاً للشاعر أبي فراس الحمداني حاكم منبج وبينهما مراسلات ومساجلات شعرية وقد روى صاحب يتيمة الدهر طرفاً من هذه المراسلات والمساجلات ، وكان أبو الحصين يتردد على بلدة الرقة من حين إلى حين قادماً اليها من حلب عاصمة سيف الدولة .

قيل كان أبو الحصين مع سيف الدولة في غزوة مغارة الكحل سنة تسع وأربعين وثلاثمائة في بلاد الروم فقتل سيف الدولة وسبى وعاد يريد درب مغارة الكحل فوجد الروم قد سبقوه اليها فتحاربوا وتغلب الروم فارتجعوا ما أخذه المسلمون منهم . وأخذوا خزانة سيف الدولة وكراعة وقتل فيها خلق كثير وأسر أبو فراس الحمداني وترك بخرشنة . وقيل أن أبا الحصين قتل في المعركة فداسه سيف الدولة بحصانه .

أطباء رقيون :

ذكر ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبو العباس احمد بن القاسم المتوفي سنة ٦٦٨ بكتابة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء الذي الفه سنة ٦٤٣ بمدينة دمشق : «ان الحكيم بدر الدين عبد الرحمن بن قاضي بعلبك قدم الرقة في البيمارستان

الـذي بها وصنف مقـالـة حسنة في مزاج الرقة وأحوال هوائها وأقام بها سنين» وبدر الدين توفي في سنة (٦٦٠هـ ١٢٦٢م).
وترجم ابن أبي أصيبعة لطبيبين رقيين هما:

أبو بكر محمد بن الخليل الرقي:

«كـان فاضـلاً في الصناعة الطبيعية، عارفاً بأحوالها وفروعها، جيد التعليم حسن المعـالجـة، وهـو أول من وجـدنـاه فسر مسائل حنين بن اسحاق في الطب، وكـان تفسـيره لهذه الكتـابـة في سنـة ثلاثـين وثـلاثـمائـة وقيل أنه ما كان يفسر الا سكران. وللرقي من الكتب وشرح مسائل حنين في الطب» ص ٢٣٤.

عيسى الرقي:

المعروف بالتفليسي، كان طبيباً مشهوراً في أيامه عارفاً بالصناعة الطبية حق معرفتها وله أعمال فاضلة ومعالجات بديعة. وكان في خدمة سيف الدولة بن حمدان ومن جملة أطبـائـه الـذين بلغ عددهم أربعة وعشرين طبيباً. وكان فيهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم وكان من جملتهم عيسى الـرقي وكـان مليـح الطـريقة له كتب في المذهـب. وكان ينقل من السريانية إلى العــربيـة ويأخـذ أربعـة أرزاق. رزقـاً بسبب النقـل ورزقـين بسبب علمـين آخرين. ص ١٤٠.

ابراهيم الرقي:

هو برهـان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن محمد بن معالي بن محمد بن عبـد الكـريم الـرقي الحنبـلي ولـد بالـرقـة سنـة سبع وأربعين وستمائة. قرأ وسمع الحديث ببغداد، ودرس مذهب ابن حنبل ونبه شأنه فيه حتى صار قدوة.

عني بتفسير القرآن والحديث والفقه ، واشتغل بوعظ الناس ، وكانت له فيه مقدرة ممتازة . قدم دمشق فسكن بالمأذنة الشرقية في أسفلها بأهله وكان معظماً عند الخاص والعام . فصيح العبارة كثير العبادة خشن العيش . حسن المجالسة ، لطيف الكلام . كثير التلاوة . له مصنفات وخطب وشعر حسن . واختصر جملة من كتب الزهد منها : احسان المحاسن . وصنف تفاسير للقرآن .

مات بدمشق في ليلة ١٥ المحرم سنة ٧٠٣ هـ الموافقة لسنة ١٣٠٣م .

وكانت ولادته سنة ١٢٤٩م ودفن بسفح جبل قاسيون .

ذكر في الدرر. وشذرات الذهب. وطبقات السبكي والبداية والنهاية .

يحيى بن البحتري :

جاء في تاريخ بغداد : أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد المظفر الدقاق قال أخبرني بن يحيى قال : أملي على أبو الغوث يحيى بن البحتري نسب أبيه بالرقة .

وفي ابن عساكر بالرصافة سنة احدى وتسعين ومائتين فقال هو : الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد بن شملال بن طيء بن قحطان .

بعض قرى الرقة القديمة :

نورد ذكرها للتدليل على عمران منطقة الرقة قديماً نقلا عن معجم البلدان .

دامان :

(قرية قرب الرافقة ، بينهما خمسة فراسخ ، وهي بازاء فوهة نهر النهيا واليها ينسب التفاح الداماني الذي يضرب بحمرته المثل يكون ببغداد .

ينسب اليها أحمد بن فهر بن بشير الداماني مولى بني سليم يقال له الرقي . روى عنه أهل الجزيرة ، توفي بعد المائتين .

باجدا :

«قرية كبيرة بين رأس العين والرقة، وكان مسلمة بن عبد الملك أقطع موقعها رجلاً من أصحابه يقال له أسيد السلمي، فبناها وسورها. وفيها بساتين وتسقيها عين تنبع من وسطها يشرب منها الناس وما فضل يسقي زروعها وهي قرب حصن مسلمة بن عبد الملك. منها محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد الحراني يعرف بابن تيمية وهو اسم لجدته، وكانت واعظة البلد، يعرف بالباجدي. وكان شيخاً معظماً بحران وخطيبها وواعظها ولأهل حران فيه اعتقاد ظاهر، وكان نافذ الأمر فيهم، مطاعاً سمع الحديث ورواه مات سنة ٦٢١».

باجروان :

قرية من ديار مضر بالجزيرة من أعمال البليخ.

الرقة في عهد الأتراك العثمانيين :

كان وادي الفرات السوري (الفرات الأوسط جزءاً من مملكة أيوبي حلب، إلى تاريخ استيلاء التتر على هذه البلاد سنة ٦٥٧هـ - ١٢٥٩م) وبعد فترة التتر القصيرة انتقل الحكم إلى المماليك الذين حكموا مصر والشام إلى سنة (٩٢٣هـ - ١٥١٦م). حيث فتح السلطان العثماني سليم سورية بعد أن انتصر على آخر المماليك قانصوه الغوري في مرج دابق شمالي حلب في ٢٤ آب ١٥١٦ وقتله وتابع سبيله إلى دمشق فدخلها في ٢٦ أيلول ١٥١٦ ودخل القاهرة بعدها.

واستولت الدولة العثمانية على العراق عام (٩٤١هـ - ١٥٣٥م) في عهد السلطان سليمان القانوني فكانت الجزيرة الفراتية كلها داخلة في حدود مملكتهم. وكانت كعهدها في السابق موطن قبائل عربية وكردية. وكانت هذه القبائل مصدر اقلاق للأمن وتعديات على حدود المدن العثمانية وعلى الجيوش والقوافل السالكة

بين العـراق والشـام والأنـاضول. فلم يكن بد للدولة من أن تفكر في توطيد الأمن في الجزيرة الفراتية. وكانت الرقة خراباً. غير أن موقعاً متميزاً مثل موقعها وتوسطه لا يطـول خرابـه واهمالـه. ولهـا من سحـر اسمهـا القديم، ما يلفت الأنظار ويجذب الاهتـمام. فقـد تنبـه اليها العثمانيون بعد فتحهم للعراق أيضاً حيث يتطلب الأمر بوضـع العـراق الاهتـمام بالجزيرة وبايجاد مراكز لهم فيها يشرفون منها على القبائل ويؤ منـون مواصـلاتهم إلى العـراق وهم في خوف دائم من الفـرس جيرانهم في العراق والذين يطمعون بالاستيلاء على بغداد التي كانت بيدهم.

ولما صدرت تشكيـلات الـولايـات العثـمانية سنة (٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م) بعهد السلطـان سليـمان كانت الـرقـة ايـالـة مثل ايالة بغداد، متكونة من سناجقة (جمع سنجق) أي منطقـة الـرقة، واورفة، وبيرة جك (البيرة القديمة) ودير الرحبة (دير الزور والخابور، وبنى ربيعة (أعلى الجزيرة) وسروج وعانة وكان والي الرقة يقيم في أورفـة، بالنظـر لخراب الـرقـة، وصار يسمى والي الرقة واورفة (الرها)، وانشغلت الحكومة العثمانية بمشاكلها وبحروبها في أوربا وبفساد سلاطينها عن تعمير الرقة، واكتفت من الاهتـمام بالـرقـة باحيـاء اسمها القديم وبقي حبل الأمن مضطرباً في منطقـة الـرقـة والجـزيرة الفراتية، والسلطة الحقيقية للعشائر فيها. وكان والي الرقة يسمى والي الرقة وديار بكر. ثم صار يسمى والي حلب والرقة.

وكـان يأتي إلى الـرقة موظف من أورفة يسمونه متسلم يتسلم الخراج الذي يتفق عليه رضاء مع رؤساء عشائر منطقة الرقة. ويقيم والي حلب والرقة في حلب.

وفي عهـد السلطـان محمـد الثـالث كان الأمن مضطرباً والحالة سيئة بسبب ثورة (قره يزيد جي عبد الحليم) الذي استولى على أورفة ثم أخضعته الدولة.

وفي سنة ١٠١٥هـ تعين المير شرف باشا امير امراء لايالة الرقة.

وفي سنـة ١٠٣١ وجهت ايـالة الرقة إلى بوستان باشا. وفي سنة ١٠٦٩ هـ

أبراج السور ومئذنة الجامع العباسي في الرقة

قتل أمير أمراء الرقة ابن الصدر طيار محمد باشا في جملة من قتل من الأمراء الذين اشتركوا في العصيان مع ابازة حسن باشا.

وفي سنة ١١١٦هـ تولى محمد باشا الجركسي ايالة الرقة. وفي سنة ١١٢٥ ولي حلب والرقة معاً طوبال يوسف باشا (وطوبال تعني الأعرج).

وفي سنة ١١٣٣هـ عين علي باشا مقتول زادة والياً على الرقة. وفي سنة ١١٦٤هـ عين الوزير راغب باشا والياً على الرقة. وفي سنة ١١٧٥هـ ولي ايالة الرقة سعد الدين باشا العظم، الذي عين والياً لبغداد في نفس السنة بدلاً من والي بغداد من المماليك. ولكن الاستانة لم تستطع تنفيذ أمرها بتعيين والياً من غير المماليك لأن هؤلاء رشحوا أحد زعمائهم علي بك فعينه السلطان وأنعم عليه برتبة الوزارة ودخل سعد الدين باشا العظم الرقة في ربيع الأول من سنة ١١٧٥هـ وكان بها الطاعون فتوفي مطعوناً بعد ١١ ذي القعدة من سنة ١١٧٥ ودفن بجامعها الكبير.

وفي سنة ١١٧٨هـ تولى محمد باشا العظم ولاية الرقة.

وفي سنة ١١٩٠هـ تولى ايالة الرقة (اسبناقجي حافظ مصطفى باشا).

وتولاها بعده الوزير محمد باشا وعهد بها إلى عبدي باشا سنة ١١٩٥هـ ومن بعده إلى محمد باشا ابن مير الحاج عثمان باشا.

وفي ١٣ شوال ١١٩٦هـ وليها الوزير مصطفى باشا آل الكاتب.

ووليها الوزير سليمان باشا بن عبد الجليل باشا سنة ١١٩٧هـ من الموصل.

وفي سنة ١٢٠٢هـ عين لها أحمد باشا الجزار ثم عزل عنها. وعين لها فيروز باشا وعزل. وعين بدله ابراهيم باشا النابلسي.

وفي سنة ١٢٠٥هـ - ١٧٩٠هـ ثار تيمور باشا الملي رئيس قبيلة الملية الكردية الكثيرة العدد، وكانت تعيش على تربية المواشي وتتجول في الأراضي الواقعة ضمن ايالات الرقة وديار بكر وحلب، وكان نفوذ تيمور قد ازداد وفرض سيطرته على القرى والقبائل، وأخذ يجبي الضرائب من السكان لنفسه واستولى على

جميع المراكز الواقعة ضمن ايالتي حلب وديار بكر والرقة وامتد نفوذه إلى ايالة حلب لعدم وجود مقاومة له . وأخذ يسلب القوافل ويشن الغارات على السكان ويصادر ممتلكاتهم . ولذلك قررت الاستانة امر تصفيته، وأناطت ذلك بوالي بغداد سليمان باشا، على أن يساعده والي ديار بكر والرقة وغادر سليمان باشا بغداد على رأس جيش يزيد على ٣٠ ألف بطريق الموصل وأتى إلى ماردين ومنها توجه إلى أورفة لمحاربة تيمور باشا الملي . ولما علم تيمور بسير هذه الحملة عليه هرب، وكان والي الرقة يدعى مصطفى باشا الكوسا وهو الذي قرر قتال العشيرة مباشرة وقد هزمها وغنم منها مواشي واغناماً .

ونشب خلاف بين والي الرقة ووالي بغداد من جراء الغنائم وكيفية توزيعها . فارسل والي بغداد إلى الباب العالي بالاستانة يشكو تصرفات والي الرقة وهو ابراهيم باشا الذي خلف مصطفى الكوسا . فأمر السلطان بعزل ابراهيم باشا واقامة والي بغداد مكانه موقتاً للإشراف بنفسه على مطاردة الثوار وأمر بسجن الوالي المعزول، ومصادرة أمواله التي بلغت خمسة وعشرين ألف قرش .

وعين سليمان آغا الجوقدار والياً على الرقة سنة ١٢٠٩هـ . وفي سنة ١٢١١هـ نصب السيد ابراهيم آغا آل شيخ من ديار بكر متسلماً لخراج الرقة . ثم عين والياً ليها . ،

وفي سنة ١٢١٥ عين تيمور بك الملي رئيس عشيرة الملية والثائر السابق والياً على الرقة بعد أن صدر عفو السلطان عنه ومنح رتبة الوزارة .

وفي سنة ١٢١٨هـ عين ولي الدين باشا ومن بعده سوريجي محمود باشا سنة ١٢٢١ . وفي سنة ١٢٢٤ كان محمد حمود باشا بن المحصل ابراهيم باشا والياً لها . ومن بعده تولى بابا باشا .

وفي سنة ١٢٣٤ جاء أحد شيوخ عنزة المدعو خليف من نجد مجتازاً الشام وعبر الفرات إلى الجزيرة من أنحاء بيرة جك مع أفراد عشيرته وآخرين وأخذ يسلب وينهب السكان ما بين الرقة إلى الخابور فالموصل فأورفة . وكان والي الرقة

بهرام باشا في أول عهد السلطان محمود الثاني. وأوعز الباب العالي إلى والي بغداد بالقضاء على خليف، واستعان والي بغداد بالشيخ الجربا (عشيرة شمر الجزيرة) وهرب خليف ولما صار بقرب الرها سار اليه والي الرقة على رأس قوة عسكرية وألقى القبض عليه وعلى أفراد من أقاربه وثلاثة عشر شخصاً من المتقدمين في جماعته وقتل نحو مائتين وثمانين شخصاً من أصحابه وأرسل بهرام باشا برؤ وسهم المقطوعة إلى الاستانة كما هي العادة في ذلك الوقت واستأذن بهرام باشا الاستانة في ارسال الغنائم من الخيل والابل إلى أضنة. ولكن السلطان أمر ببيعها بمحلها وأرسل موظفاً خاصاً للإشراف على البيع واستلام اثمانها والاتيان بها.

وتعاقب على ايالة الرقة من سنة ١٢٣٥هـ إلى سنة ١٢٤٧ لطف الله باشا وبهرام باشا مرة ثانية، واحمد باشا آل عبد الجليل وحسن باشا وحافظ باشا وبوليود باشا وجلال باشا وصالح باشا ومحمد باشا.

وكثرة توالي تعيين الولاة يدل على اضطراب الأمن وسوء وضع حالة البلاد فكان الوالي ما يكاد يعين حتى يعزل إما بسبب سوء تصرفاته وإما بسبب تزاحم الولاة على منصب الولاية، فقد كانت المناصب كثيراً ما تنال بالرشوة.

وصار والي حلب يسمى والي حلب والرقة للفت الأنظار إلى الرقة وان العثمانيين لا يزالون مهتمين بها. ولكن اهتمامهم لم يتجاوز ذكر اسمها ولم يحدث فيها إلى ذلك التاريخ عمران يذكر.

وقد توقف عهد الاتراك العثمانيين في الرقة فترة قصيرة ليحل محله العهد المصري في زمن محمد علي الكبير بسورية من سنة ١٢٤٧هـ - ١٢٥٦هـ) (١٨٣٣ - ١٨٤٠م).

الرصافة

حاضرة البادية الفراتية

الـرصـافـة حصن البـادية السورية التدمرية، تقع جنوب غربي الرقة على بعـد ٣٥ كم من الطـريق العـام المعبـد بين حلب ـ ديـر الـزور، اعتباراً من نقطة المقص (مفـرق الـرقة) على الطريق المذكورة، ويذهب اليها القادم من حلب من نقطة مخفر الحمام على نفس الطريق والمسافة بينها وبين الحمام ٢٥ كم، ويوجد بينها وبين تدمر طريق مسلوك.

تبرز اطـلال الـرصـافة وسط برية مستوية السطح لا يحدها البصر، يشاهد المسـافـرون في البـاديـة آثـارها من مسافات بعيدة. ويثير قيام الرصافة وسط هذه البادية المترامية الأطراف عجب المشاهد لها ودهشته.

كانت مفـرزة من جنـود قوات البادية بعهد الانتداب الفرنسي تخيم بالقرب من الـرصـافـة لحماية الأمن في باديتها حيث منتجعات عشيرة الولدة وغيرها لرعي

اغنـامهـا في فصـل الـربيـع ، وحيث توجـد زراعـة بعليـة للسكان ، وقبل التوسع بالزراعة كان الغزال يوجد بكثيرة في برية الرصافة ، انقطع لكثرة مطاردة الصيادين له بالسيارات . ويكثر القطا معظم السنة حول الرصافة . وكانت مصلحة الري قد حفرت بئراً قورب باب الرصافة الغربي لسقاية اغنام العشائر لخلوّ المنطقة من المياه الظـاهـرة وأراضي المنطقـة خصبـة إذا توفـرت لها الأمطار بفصل الشتاء وتوجد في المنطقة عدة آبار لسقاية السكان والأغنام .

يرجـع تاريـخ الـرصـافـة إلى عهـود بعيـدة ، فقـد ورد ذكرها في النصوص الآشـوريـة في القـرن الثـامن والتـاسع قبل الميلاد ، وكانت مركز حاكم آشوري ، تؤلف مع الخابور الأسفل وحدة . وجاء ذكرها في التوراة بصيغة «راصف» في سفر الملوك . ولفظـة رصف ساميـة تعني الطـريق المرصوف ، لأنها شيدت على الطريق الذاهب من الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط والذي يمر بمدينة الطيبة «اوريزا» والسخنـة وتـدمـر . وتعـود أهميتهـا لوقوعها على الطريق المستقيمة بين دول شمالي سوريـا وجنـوبها ، ولوقوعها على طرف بادية الشام من الشرق وهي تخوم للمملكة الفارسية قديماً . فهي محطة للقوافل وحصن عسكري لحماية الطرق والحدود ، ولهذا ازدهـرت في العهـدين البيـزنطي والأمـوي ، واستفـاضت شهرتها ولم تخمد رغم ما أصـابهـا من تخريب وهجـران أهلها لها بسبب غارات التتر والبدو واضطراب حبل الأمن في البادية .

ان بقـاء اثـارهـا إلى اليـوم برغم عوادي الـزمن والطبيعـة كل تلك القرون شاهد على ما كان لها من أهمية وازدهار كحصن ومدينة في بادية الشام الفراتية في العهـدين البيـزنطي والأموي . ولقد أخذت الحفريات التي تجريها البعثة الألمانية في الرصافة منذ سنة **١٩٥٢** لأول مرة تكشف عن عظمة عمران المدينة ودقة تنظيمها ورقي أهلهـا وسمـو تذوقهم لفن البنـاء والنحت والزخرف بحيث لم يدخروا جهداً ولا مالاً في سبيـل تجميـل مدينتـه وتنظيمهـا والاهتـمام بها . مما جعـل علماء الآثـار يعجبون بها ويهتمون بالحفر فيها اهتماماً زائداً .



الرصافة

والـرصـافة من مدن سورية التدمرية، تحرف اسمها من راصف إلى راسابه وإلى الرصافا. وفي سنة ٤٣٤م أصبحت مركز أسقفية. ودعيت في القرن الخامس الميلادي باسم «سرجيوبوليس» أي مدينة سرجيس تخليداً لأسم القديس سرجيس وهـو ضابـط رومـاني تنصَّـر واستشهـد من أجـل نصـرانيته بقرب الرصافة في عهد الاضطهـاد الكبـير للنصـرانيـة من قبـل أبـاطـرة الـرومـان في أوائل القرن الرابع الميلادي، وبعد ان هدأت الاضطهادات اقام النصارى هيكلاً للقديس سرجيس في الرصافة ونقلوا جثمانه باحتفال كبير إلى الهيكل واقيم دير على قبره اشتهر باسم ديـر الـرصـافة وصارت المدينة كلها في العهد الأموي تعرف باسم دير الرصافة وهو الـذي أشـار اليـه الشـاعر ابو نواس بشعره حيث حل فيه بعد رجوعه من مصر إلى العراق. وحظى مقام سرجيس بتعظيم كبير في انحاء البلاد السورية حتى دعيت المدينة باسمه، فكانت تدعى رصافة سرجيوبوليس، ثم عاد اسمها الرصافة مجرداً من الاضـافـات ـ وفي منتصف القرن الخامس للميلاد شيدت فيهاكنيسة عظيمة باسم القديس سرجيس كانت من الكنائس المشهوره، وهي احدى خمس كنائس بنيت داخل سور الرصافة، قيل بنيت خمس كنائس اخرى خارج السور، ولا تزال آثار الكنائس باقية داخل السور. حتى ان احدها تنفرد ببناء لا يوجد منه في سوريا غير كنيسة قديمة واحدة في جبل سمعان بضواحي حلب.

وكـان للعـرب الغسـاسنـة والتغلبيـين خاصة فضل في نشر تكريم القديس سرجيس، وفي دفع القبائل العربية قبل الاسلام في انحاء الفرات والجزيرة الفراتية إلى زيـارة قبره وتعظيمـه وتقـديم النـذور اليـه والاستشفـاع به. ومنـذ سنة ٣٥٤ للميلاد وجدت الكنائس والأديرة العديدة التي تحمل اسم سرجيس. ومن اشهرها المقـامـة على اسمـه التي شيدها الاعراب في الرصافة في عهد الامبراطور انستاس (٤٩١ ـ ٥١٨م) وهي احدث واكبر الكنائس الموجودة في الرصافة، ولا تزال آثارها وهيكلها وعواميدها الضخمة واقواسها المرتفعة باقية الآن.

وقد كان الرصافة إلى مركزها الديني ذي الشهرة مركز حامية رومانية وبيزنطية كبيرة لحفظ الأمن والطرق في البادية الشامية الفراتية ولحماية حدودها. وكانت مساحة المدينة عشرين هكتاراً. ولما توفرت العطايا والنذور من العرب لمعابد الرصافة اقام الامبراطور جوستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥م) سوراً منيعاً محصناً على المدينة خوفاً على ثروتها وحاميتها من الغارات. ولا تزال آثار هذا السور العظيم باقية.

ولما لم تكن الرصافة على جدول ولا على عين ماء فقد اهتم الرومان بتوفير المياه لها كما هو شأنهم بمسألة المياه في البراري. ان المياه الموجودة في جوف اراضي الرصافة على عمق ٤٧ متراً مالحة غير صالحة للشرب، فلاجل تأمين الماء العذب للمدينة حفروا أربعة صهاريج داخل السور في بطن الأرض، شيدت جدرانها بسمك مترين من الأحجار والآجر، وعقدت سقوفها بالآجر. وقد حولت اليها مجاري المياه المتجمعة من الأمطار بواسطة سدود في غرب المدينة حيث تجري جداول ربعية متجهة نحو وادي الفرات. وكان يوجد سد طوله ٥٠٠ م يحجز المياه وتتجه إلى حوض رئيسي مربع طول ضلعه مائة متر، ومن هذا الحوض تذهب المياه إلى ثلاثة احواض اخرى كل منها في ٥٠ ضرب ٦٠ متراً للتصفية. ومن هذه الأحواض تذهب المياه بقناة إلى الصهاريج الأربعة داخل السور لتكون مياهاً احتياطية. واكبر هذه الصهاريج طوله ٥٧ ضرب ٢١ متراً وعمقه ١٥ متراً وسعته ١٦٠٠٠ متراً مكعباً وان الآخرين كل منهما في ٢٧ متراً طول و٨ امتار عرض و ١٠ عمق وسعة كل منهما ٢٠٠٠مم، ومجموع سعة الصهاريج ٢٠٠٠٠مم وهو ماء احتياطي كافي لتأمين شرب الفي شخص من السكان. ومن الصهاريج. توزع المياه في مجاري تحت الابنية إلى قصور المدينة داخل السور ولهذه المجاري فوهات ولا تزال هذه الصهاريج باقية وطراز بناءها فريد من نوعه، وكانت موضع عناية القائمين على امر المدينة مدى عصور، ولا عجب فان الماء عنصر لا غناء عنه في وجود الانسان. وقدمت لنا الصهاريج المذكورة مثلاً رائعاً في الاعمال العظيمة التي

قامت في الرصافة. ولما ملك النعمان بن الحارث الأمير الغساني وهو نصراني اصلح صهاريج الرصافة.

أولى اباطرة البيزنطيين مدينة الرصافة عناية وافرة منذ أواسط القرن الرابع الميلادي. ومن سنة ٥٢٤م إلى سنة ١٠٩٣م عرفت الرصافة أساقفة تعاقبوا على كنيستها، ترجم لهم مؤرخوا الكنيسة.

ان الامبراطور جوستنيان اول من احاطها باسوار مبطنة، وذلك قبل سنة ٥٤٢، وأنشأ فيها اسواقاً وأبنية رائعة واقنية وصهاريج لاختزان الماء، وكان وزوجته الامبراطورة تيودورا قدما إلى ضريح سرجيس في الرصافة صليباً مرصعاً بالجواهر. وفي القرنين السادس وأوائل السابع م نهب الفرس الرصافة ودخلها كسرى الثاني سنة ٦١٦م. وعلى هذا الحال وجدها العرب على الأرجح، فلم يهتموا بها في بادىء الأمر. ولكنهم ما لبثوا ان اهتموا بها في العهد الأموي لحسن مركزها في بادية الشام الموالية لهم ولأهميتها الستراتيجية. وقد كان هشام بن عبد الملك أقام فيها وهو امير وولي العهد فعرفها، وأتته الخلافة وهو مقيم فيها وعمره ٣٤ سنة في سنة ١٠٥هـ و ٧٢٤م، وكان عندما يعود من الجزيرة الفراتية لا ينام في الرقة بسبب كثرة بعوضها وينام في الرصافة لأنها اكثر ارتفاعاً من الرقة واحسن موقعاً والطف هواء ولأنها في بادية الشام. ولما وقع الطاعون في دمشق كان الخليفة هشام يقيم في الرصافة في الصيف وكان طرأ خلل على أسوارها فرممها وأصلح صهاريجها وبنى ابنية وقصوراً له ولحاشيته خارجها، وكانت المواد الغذائية تحمل اليها من الرقة، وقد عني هشام بالزراعة والري على ضفة الفرات الغربية مما يلي الرصافة، وجعل منها عاصمة ثانية لدولته يدير منها شؤون المملكة اثناء اقامته فيها التي كانت تمتد اشهراً من كل سنة. ولذا ازدهرت الرصافة في عهده واشتهرت باسم رصافة هشام، وقصدها التجار واصحاب الحاجات من انحاء المملكة الأموية. وقصد الشعراء هشاماً فيها وانشدوه شعرهم في مدحه. وكانت الرصافة تتلقاهم

وتستضيفهم وتستمع إلى شرعهم وتستمتع به وبذلك شهدت نشاطاً ادبياً في عهد هشام وكثر سكانها وراجت اسواقها. وفيها مات هشام ودفن سنة ١٢٥هـ ـ ٧٤٣م.

وكانت تعتبر من الناحية الادارية من أرض قنسرين، كما ذكر المسعودي في كتاب التنبيه، وكان في داخلها حي اسلامي وجامع ملاصق لكنيستها الكبرى.

لم يهمل الأمويون بعد هشام الرصافة، فكانوا يولونها عنايتهم واهتمامهم، وكانت تسمى بدير الرصافة، وبقصر الرصافة، واقترن ذكرها بحوادث كثيرة في التاريخ الأموي بفضل مركزها الستراتيجي في بادية الشام مواطن القبائل العربية الموالية للأمويين. ولما حكم العباسيون صرفوا عنها انظارهم شأنهم في سائر المدن السورية، فتضاءلت اهميتها، وكان القائد عبد الله بن علي العباسي مهزم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين جاء اليها سنة ١٣٢ هـ عقب انتصاره على جيش مروان في موقعة الزاب في اثر مروان واخرج جثة هشام وأحرقها. ومرَّ بها الخليفة العباسي جعفر المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧) عندما خرج من الشام إلى العراق.

كان الفقراء في ضواحي المدينة يشربون من الآبار. أما أهل الثروة فيرسلون عبيدهم يستقون على الحمير من ماء نهر الفرات الذي يبعد عنهم ثلاثين كم إلى الشمال وماء الفرات اعذب من ماء الصهاريج. وكان هؤلاء المثرين تجاراً ومالكين، وكان مصدر ثروتهم من حماية القوافل وايوائها، ومن نقل البضائع ومن مشاركة اللصوص. وكان سكان المدينة في الغالب نصارى، وكان الرجال يغزلون الصوف، وتشتغل نساؤهم بالنسيج، فيصنعن كسية جميلة مشهورة. وكانت صناعة الأقمشة الكتانية مزدهرة فيها، وكانوا يصنعون مختلف انواع الأكياس لأن التجارة والعمل في القوافل تتطلبها، وكان الخزف يصنع فيها وهو من نوع خزف الرقة المشهور. وقد تداولت ايدي تجار العاديات كميات كبيرة منه تسربت إلى اوروبا وأميركا. كان افراد من أهالي قرية السخنة جنوب غربي الرصافة ينقبون في اطلالها للتحري عن الأواني الخزفية لحساب تجار العاديات بحلب، وكانوا يعثرون على آنية خزفية اسلامية من ذات البريق المعدني، ومن ذوات الزخارف المرسومة.

وكـان تجار الـرصـافـة عرضـة لاذى البدووحولها، فكانوا يدفعون لهم خفارة لكيْ يتخلصـوا من اذاهم. قال الأصمعي: «ولبني خفـاجـة على أهل الرصافة خفارة لكي يحمـوهم من البـدو» ولا يزال لخفاجة بقايا في الفرات بجهات مسكنة (بالس القـديمـة) ويـدعي البـوخـريص احـدى فرق دير الزور الحالية انهم من خفاجة، ويوجد خفاجة في العراق.

ان اسوار الرصافة من الأحجار الجصية المتبلورة قطعت من مقلع يقع على بعـد عشـرة كم الى شمالها. وتمتد هذه الأسوار على شكل مستطيل باتجاه الجهات الأصلية، ويبلغ طوله ٥٠٠ متراً، ولهـا في منتصف كل ضلع من اضلاع المستطيل باب، والبـابـان الرئيسيان هما الشمالي والجنوبي. ويبلغ ثخن الأسوار ثلاثة امتار، ولهـا ابـراج متعـددة مستطيلة على الأضـلاع، وابـراج مستديرة على الزوايا وكان يوجد امام الأسوار خندق متسع طمرته الأتربة ولا يزال قسم منه بادياً.

ولقـد هاجم القـرامطـة الـرصـافـة سنـة ٢٨٩هـ و٩٠٢م في عهـد الخليفة العبـاسي المعتضـد، وذبحـوا السكـان وأحرقوا الجامع، ومع ذلك فان ابن الفقيه يسمى من جديـد في سنـة ٢٩٥هـ و٩٠٨م الـرصـافـة مدينـة مزدهـرة. وفي سنة ٣٤٤هـ و ٩٥٥م اجتاز بها سيف الدولة الحمداني قادماً إليها من تدمر متوجهاً إلى الرقة، حيث كان يقاتل عرب نمير وكلاب وقشير وعقيل وعجلان من بني عامر بن صعصعة وهم من رعايا سيف الدولة وكانوا خالفوا فانتصر عليهم، وكانت منازلهم بشاطىء الفرات ونواحيه.

ومـــرَّ بها المتطبب النصـراني ابن بطـلان سنـة ٤٤٠هـ و١٠٤٩م قادمـاً من بغداد بطريق الرحبة (الميادين) متوجهاً إلى حلب. قال في وصفها: «وهذا القصر مبني بالحجارة وفيه بيعة عظيمة ظاهرها بالفص المذهب جددها هشام وسكنها..».

وذكر الادريسي (١١٥٤م) ان في الرصافة سوقاً مزدهرة وذكر الطريق الجيد المسلوك الـذي يؤدي منهـا إلى السلميـة وحمص عبر البـاديـة. ووصفهـا يـاقـوت

الحموي المتوفي سنة ٦٢٦هـ بمعجم البلدان وعدَّ ديرها احد عجائب الدنيا ويقول ابو الفداء ان المسافة بين الرصافة والفرات اقل من يوم على الماشي.

ومنذ أول القرن الثالث عشر الميلادي زالت أهميتها وتناقص سكانها. وقد مشى اليها الخوارزمية في سنة ١٢٤٠م من سلمية في تراجعهم من سوريا، وتبعتهم جيوش حلب وقاتلتهم قرب صفين ودخل الرصافة السلطان بيبرس ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ فنقل ما بقى من سكانها إلى سلمية وحماه خوفاً عليهم من المغول الذين كانوا يعاودون الغارة على البلاد، ومن ذلك الوقت هجرت المدينة المزدهرة إلى اليوم.

وكان تعرف الاوربيين عليها، ان جماعة من تجار الانكليز سافرت في تشرين الأول سنة ١٦٩١ من حلب إلى تدمر عن طريق الفرات، وفي طريقها بين الفرات وتدمر عثرت على أطلال الرصافة. وقد كتب احد افراد هذه الجماعة تقريراً إلى احدى المجلات الانكليزية يذكر فيه اسم الرصافة. رغم ذلك انقضت مدة طويلة دون ان ينتبه احد إلى الأمر، حتى اثار الموضوع من جديد (ف. شابو) في سنة ١٩٠٣م.

ان معرفتنا للرصافة تستند اليوم في الأكثر إلى ما كتبه الأوروبيون عنها. أما الحفريات التي تجري فيها فيعود الفضل فيها إلى الاستاذ الدكتور الفونس ماريا شنايدر الألماني الذي توفي في طريقه إلى حلب قبل البدء بأعمال الحفر وكان تعرف على الرّصافة سنة ١٩٥١ فادرك الأهمية الخاصة لاطلال هذا المكان من الوجهة الأثرية سواء المسيحية القديمة او الاسلامية. واسفرت الحفريات عن نتائج مهمة برغم المدة الصغيرة التي كانت تعمل فيها البعثة، وقد رسمت بعد تحريات مخططاً لكنيسة القديس سرجيس عرض في قسم الرصافة بالمتحف الوطني بدمشق، وكان على رأس الحفريات في المدينة البيزنطية الدكتور يوهانس كوللويتز. وكان من اولى مهام البعثة الألمانية الاهتداء إلى قصور هشام وقد دلت التحريات على ان المدينة

الاسـلاميـة تمتد حول المدينة البيزنطية على مسافة قطرها ٣ كم . وادت الحفريات في تل قريب .

رأس العين

مدينة الينابيع

من امهـات مدن الجـزيـرة الفراتية السورية، إلى الشمال الغربي من مدينة الحسكة تبعد عنها تسعين كم، تقع في اعالي نهر الخابور، احد روافد نهر الفرات، على الخط الحديدي بين الموصل وحلب، المار عبر الحدود التركية، تنبع فيها اهم الينابيع التي تؤلف نهر الخابور ومن كثرة عيون الماء فيها اتى اسمها منذ القديم.

مدينة عريقة في القدم، يرجع تاريخها إلى العهدين البابلي والآشُوري كانت محطـة على الطـريق التجـاري القديم بين (نينوى) الموصل، وبين حلب والشام، وذكرها المؤرخون والبلدانيون في عصور مختلفة، وافاضوا بما كان لها من حضارة. زهت فيها دولة الميتانيين، ومن بعدها ملكة كبارا الآرامية، اسمها بالسريانية «رش عينـا» وكـانت تسمى في العهـد الـرومـاني: (رزان تودو يوبوليـس، ورزان تعني الرأس او العنب، والتركيب الآخر نسبة إلى الامبراطور ثيودوس الأول اوثيودوس

الثـاني، ذلـك انهـا تلقت حقـوق المـدينـة على يده. أي مدينة ثيودوس، ومضت تحمـل اسمهـا الـرومـاني ثيـوذوبـوليس) عدة قرون. وكـانت من مدن الحدود بين الـرومـان والفـرس، ومن مراكز الثقافة الآرامية في الجزيرة الفراتية، نبغ فيها علماء آراميـون وسـريان في العهد الروماني والعهد البيزنطي وكانت مركز أسقفية يعقوبية إلى ما بعد العهد الاسلامي كان لها ١١ أسقفاً بين سنة (٧٩٢ ـ ١١٩٩م).

ذكـر مؤرخـو السـريـان ان كسـرى الثاني العاهل الفارسي، كان قد تنازل للرومـان عن رأس العـين ودارا للمـرة الثـانيـة، وبعد ذلك غزاها القائد الفارسي ادهـار ماهـان مرتـين في سنـة ٥٧٨م وسنـة ٥٨٠م. وفي عهد الامبراطور فوكاس (٦٠٢ ـ ٦١٠) انتـزع الفـرس رأس العـين من الـرومـان، فكـانت المدينة بسبب الحروب بين الدولتين تقع تارة بيد الفرس واخرى بيد الرومان، وكانت تتضرر من جراء هذا التنقل.

ان منطقـة رأس العـين منطقـة عيـون ماء غزيـرة، بعضهـا عذب وبعضها كبريتية، والنبع الرئيسي في وسط المدينة، ومنه معظم مياه نهر الخابور ومن عيونها المشهـورة عين الكـبريت، وهي على مسـافـة كيلومـتر من العـين الكبـيرة إلى الشـرق، ويستخـرج من قاعهـا الكـبريت بشكل طين، والحكومة السورية تلزمه بالمـزايـدة كل خمس سنـوات. ويـرسـو منـذ ثلاثين سنة على مواطنين ديريين كانا مصطفى الحرويل ومحمد سعيد هنيدي.

وفي المـدينـة عشـرات العيـون، ذكر المؤرخون والجغرافيون اسماء بعضها، ومن كثـرة عيـونهـا اتت أهميـة المـدينـة وقـدم حضارتها وشهرتها، وقد جعلت هذه العيون من المدينة مدينة للبساتين والحمامات في القديم، وكانت قبل الاسلام من مراكز ديار ربيعة.

فتحهـا القـائد العربي عياض بن غنم فاتح الجزيرة الفراتية في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، بعد فتح الرقة وحران والرها، وكانت رأس العين محصنة وفيهـا قوة كبـيرة للروم، تجمعت فيهـا بعد فتوحات عياض في الجزيرة، وقيل كان

فيها مائة ألف جندي فيهم نحو ثلاثين ألفاً من العرب المتنصرة، وكانت سرايا عياض قبل مسيره إلى رأس العين من الرقة فتحت مدينة قرقيسيا عند مصب نهر الخابور بنهر الفرات، ليكون ظهره آمنا إذا سار إلى رأس العين، وجرى قتال شديد بين جيش المسلمين وجيش الروم من أجل رأس العين فخربت، ولم يأخذ من ديار بكر بالسيف إلا رأس العين، وكان بها بيع ورهبان، وبعد فتح رأس العين عزم عياض على فتح مدن ديار بكر ففتحت كفر توثا ودارا ونصيبين وآمد وغيرها.

وكان قسم كبير من سكان رأس العين نزح عنها، فجعل المسلمون اراضيها املاكاً عامة.

إن اخبار رأس العين بعد الفتح غامضة جداً، وكل ما هناك ورود ذكرها عند ذكر بعض المواقع أوعند ذكر بعض الشخصيات. وأطلق بعض العرب عليها اسم عين الوردة أيضاً وقد تكون عين الورد. هذه إحدى العيون الكبيرة برأس العين.

وممّا فصل بعين الوردة من الحوادث: أن الخليفة الأموي مروان بن الحكم كان قد جهَّز جيشاً في ثلاثين ألفاً في سنة ٦٥ أو ٦٦ يقوده عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة لمحاربة زفر بن الحارث الكلابي بقرقيسيا (البصيرة) ومصعب بن الزبير، فلما كان في الجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب ابنه عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على السير إلى العراق، فسار حتى إذا كان بين الوردة (رأس العين) قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكن خرجوا للمطالبة بدم الحسين بن علي وسموا أنفسهم التوابين، وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الذنب إلاَّ إذا قاموا بثاره وقتلوا قتلته وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن جرد الخزاعي، فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس إلى ما عزموا عليه حتى تمَّ لهم ما أرادوا، فخرجوا من الكوفة وساروا بطريق الجزيرة الفراتية فانتهوا إلى قرقيسيا وبها زفر بن الحارث الكلابي فأخرج إليهم الانزال وساروا ليسبقوا إلى (عين الوردة) ليقصدوا منها

الشـام لينتقمـوا من أهلهـا ومن الأمـويين الذين قتلوا الحسين حتى إذا صاروا إلى عين الوردة وقعت موقعة عظيمة بين الفريقين قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من كان معه وكانوا نحواً من ستة آلاف .

وكان عمر بن الحباب من زعماء قبيلة قيس أحد الذين خرجوا على الخليفة الأمـوي عبـد الملك بن مروان من رأس العـين (سنة ٧٠٠م) وفي سنة ٨١٤/م في عهد الخليفة العباسي المأمون استولى على رأس العين أحد أبناء عمر بن الحباب . ومات بطريق اليعاقبة يوحنا الثالث فيها في ٣ أيلول سنة ٨٧٣/م . وذكر ابن الأثير أن الروم كانوا غزوا دارا ونصيبين ثم استولوا على رأس العين سنة ٩٤٣/م ونهبوها واستـاقـوا منهـا عدداً كبيراً من الأسرى . وفي سنة ٤٣٩/هـ ظهر الأصفر التغلبي برأس العـين وادعى أنـه من المـذكـورين في الكتب واستغـوى قومـاً كثير ين وغزا نواحي الروم فظفر وأعاد الكرة وغنم أضعاف ما غنمه أولاً وكثر جمعه فأرسل ملك الـروم إلى نصـر الـدولـة بن مروان الكردي (حاكم ديار بكر) وكان بينهما موادعة ، يطلب منه أن يكفيه الأصفر، فاستعان نصر ببني نمير الذين أظهروا المودة للأصفر ثم أخـذوه وحملوه إلى نصـر الـدولـة فاعتقله . (ابن الأثـير ج ٦) . وفي سنـة ٥٢٣/هـ - ١١٢٢٩/م استـولى صليبيـو الـرهـا بقيادة جوسلين على رأس العين وذبحـوا قسـماً كبـيراً من السكـان العـرب وسجنوا الآخرين ولكنهم لم يبقوا طويلاً وساروا عنها وتوالت عليها الغزوات والحروب .

وفي سنـة ٥٧٧/هـ - ١١٨١/م وقعت المـدينـة بيد السلطان صلاح الدين الأيـوبي وبعـد ذلك حاصرها أتابكة الموصل فلم يستولوا عليها ثم آلت إلى الملك الأفضـل الأيوبي . مع سميساط وقلعة النجم ، وفي سنة ٦٢٦/ هـ - ١١٢٧/م ، آلت إلى الملك النـاصـر الأيـوبي مع حران والـرهـا والـرقـة والبـلاد الشـرقيـة واصـابهـا خراب بسبب تعـدي الجـوارزميـة عليهـا وعلى مدن الجـزيرة الفراتية . وجـاءهـا التـتر ، وما كادت تنتعش حتى اجتاحتها تيمورلنك في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، فاستباحها ودمرها مع قراها .

كانت رأس العين طيلة القرون الوسطى مزدهرة بفضل وقوعها على الطريق التجاري الهام «عن طريق الموصل المار الى الشام ماراً بنصيبين فرعان يقطع الفرات عند قلعة النجم ليذهب إلى منبج ومنها إلى حلب بطريق بزاعة من قرى منطقة الباب بمحافظة حلب» . وكانت من مراكز الفكر والعلم ، اسهمت في الحركة العلمية في العهد العباسي بها انجبت من علماء وباحثين وشعراء وفقهاء ، والمشهور في النسبة اليها الرسعني ، وقد نسب اليها الراسي ، وممكن ان نقول ممن اشتهر بذلك أبو الفضل جعفر بن محمد بن الفضل الراسي ، محدث مشهور والفقيه الامام ابو الحسن منصور بن اسماعيل بن عمر التميمي الضرير كان اديباً مجيداً ، وله مصنفات في مذهب الشافعي وشعر جيد ، قدم مصر وبها توفي سنة ٣٠٦ ، ولم يكن في زمانه مثله في مصر. ترجم له ياقوت الحموي وابن خلكان .

ومن أبناء رأس العين تقي الدين الرسعني املعروف بابن الخطاب طبيب مشهور ترجم له ابو الفرج الملطي في مختصر الدول في حوادث عام ٦٤٦هـ ومن جهات رأس العين الشاعر العباسي المشهور منصور النميري وهو تلميذ الشاعر الجزري العتابي وراويته ، ومن جهات رأس العين الشاعر العباسي العتابي التغلبي والعالم والخطيب. اتصل بالبرامكة وبالرشيد وبالمأمون ، ومن رأس العين الوالي والقائد ابو السرايا السري بن منصور الشيباني خرج على المأمون واستولى على الكوفة وهزم جيوش المأمون ، ثم هزمه القائد هرثمة بن اعين وقبض عليه وهو متجه إلى رأس العين فضرب عنقه وصلب جسده ببغداد .

وممن نزل برأس العين الشاعر الكبير البحتري حوالي سنة ٢٧٢ وكان عمره ٦٦ سنة وكان فيها محزوناً كئيباً بسبب انتهاب امواله عندما كان في نصيبين ، قال وهو برأس العين قصيدة في ٣٨ بيتاً يرثي بها غلامه قيصر:

لقد سر الاعادي في اني برأس العين محزون كئيب

اشاد ياقوت الحموي بذكرها في معجم البلدان ، ومما قاله : «وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة ، وفيها عيون كثيرة عجيبة صافية» . . .

ويقول الاصطخري في مسالك الممالك «ورأس عين الغالب عليها القطن، ويخرج منها زيادة على ثلاثمائة عين كلها صافية، فتجتمع مياهها حتى يصير منها نهر الخابور الذي يقع إلى قرقيسيا».

ويقول الادريسي في (نزهة المشتاق): ورأس العين مدينة كبيرة فيها مياه نحو ثلاثمائة عين.. ومن هذه المياه ينشأ معظم نهر الخابور وعليه لأهل رأس العين مدن كثيرة.. وقال الرحالة ابن جبير، بقيت خراباً إلى مابعد الحرب العالمية الأولى وقد دب فيها العمران منذ ١٩٢٢ وكانت منطقتها في أواخر العهد العثماني قضاء مركزها قرية الغرة في جبل عبد العزيز ثم نقل إلى قرية السفح القريبة منها على الخابور عمرها الجاجان وسكنوها بعد هجرتهم من بلادهم في اوائل القرن الثالث عشر للهجرة.

ورأس العين اليوم بلدة تعد نحو خمسة آلاف نسمة يتألفون من عرب وارمن واكراد وجاجان وقد اخذت تجتذب الغرباء للعمل في الزراعة واصلاح الآلات الزراعية وفي التجارة وهي مركز ناحية رأس العين بمحافظة الحسكة. ووسط لعدة عشائر بمنطقتها. تذهب منها عدة طرق إلى الرقة وعين العرب وتل أبيض والقامشلي ودير الزور والحسكة. وجميعها غير معبد وتتبع رأس العين نحو ٧٠ قرية.

وهي منطقة اثرية في جنوبها الغربي على بعد كيلومترين ونصف يقع تل حلف بين نهر الخابور ونهر حلف الآتي من تركيا. حين نقب المستشرق الألماني المعروف ماكس فون اوبنهايم منذ سنة ١٨٩٩ وعاد إلى رأس العين سنة ١٩١ يحمل اجازة قانونية بالتنقيب من الحكومة العثمانية. وكان معه طبيبه وبضعة اخصائيين وعمال كان يصل عددهم احياناً إلى خمسمائة. وانهى حملته الأولى في صيف ١٩١٣ وحالت الحرب دون مواصلة عمله. وبدأ حملته الثانية سنة ١٩٢٩ وانتهت بنهاية السنة المذكورة واصابت نجاحاً كبيراً وعثر على اقدم قصر وهو قصر (كابارا) واسفرت الاكتشافات عن حضارة متميزة اطلقوا عليها اسم حضارة تل

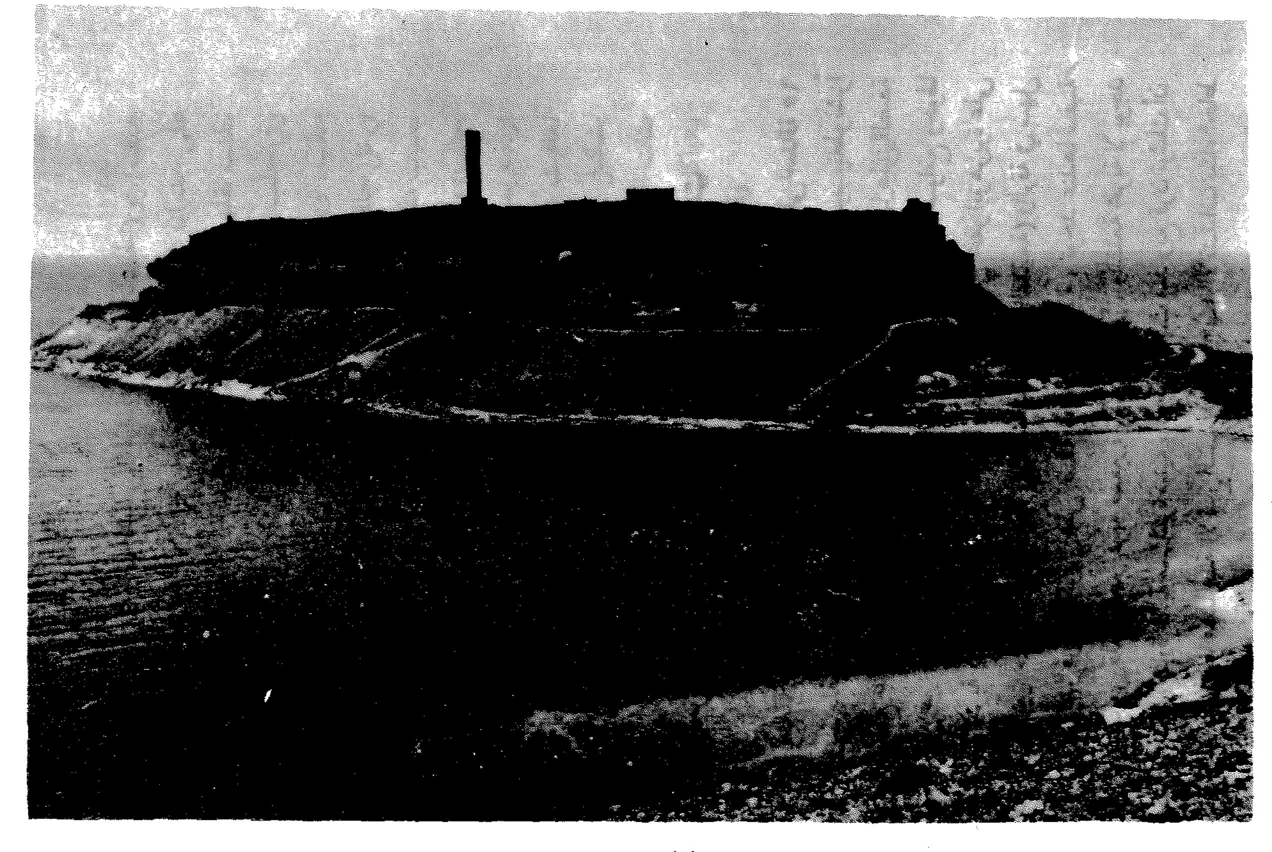
حلف: او (الحضارة الميتانية) نسبة إلى الشعب الميتاني وابرزها الفخار الملون وعثر على جدران هياكل منقوشة وتماثيل كبيرة وتحف فنية. وكانت من الكثرة بحيث تطلب نقلها من رأس العين إلى حلب ١٣ شاحنة من شاحنات الخط الحديدي وفي حلب تم اقتسام هذه العاديات بين دائرة الآثار السورية وقد اودعت متحف حلب. وبين القائم بالتنقيب، وقد أسس متحفاً في برلين جمع فيه الآثار المكتشفة في تل حلف التي بقيت في حوزته مضافاً إليها قوالب من الجص تمثل تلك التي من نصيب متحف حلب وكانت واجهة المتحف تحمل باحرف كبيرة عبارة (متحف تل حلف) وقد وضع المنقب كتاباً كبيراً بالألمانية بسط فيه مراحل اكتشاف تل حلف ثم اردفه بمؤلف آخر في مجلدين احاط فيه بجغرافية المنطقة وتاريخها والشعوب التي تعاقبت عليها ودرس بشكل مستفيض الآثار التي عثر عليها في تل حلف، ودرس بشكل جيد، وضم إلى كتابة (٢٤٠) لوحاً فوتوغرافياً معرفاً بأهم تلك الآثار، عدا مئات الرسوم الايضاحية المنبثة في متن الكتاب وعشرون مخططاً للمدينة وشوارعها وهياكل وقصورها وكتبه مترجمة إلى الفرنسية والانكليزية.

وقامت في السنين الأخيرة مؤسسة تحمل اسم فون اوبنهايم في برلين واوفدت بعثة إلى رأس بقيت في تل فخرية في سنة ١٩٥٥ للحصول على معلومات اوسع عن حضارة تل حلف وكيفية نشأتها والبحث عن عاصمة الميتانيين، وقد عثرت على لقى من العهد الآشوري . . .

قلعة جعبر

حصن البلاد المصرية والشامية على الفرات

تقع قلعة جعبر على ضفة الفرات الشرقية غربي الرقة على مسافة ٦٥ كيلومتراً بين قرية سويدية كبير من الشرق، وقرية شهر من الغرب تعلو نشزاً صخرياً يرتفع عن السهل الذي يحيط بها نحو خمسين متراً ويقابلها على الضفة الغربية سهل غير عريض ترتفع في جنوبه هضبة عالية تقوم فوقها صوامع وحولها منارة مستديرة مخربة يصعد اليها، وتقع هذه الهضبة في أراضي مخفر ابو هريرة على الطريق العام بين حلب وديرالزور بين مسكنة (بالس القديمة) والرقة في سهل صفين، وعلى النهر قرية الكرين على ضفة الفرات الغربية، توجد عندها سفينة للعبر. وبالقرب من قلعة جعبر قرية صغيرة تسمى جعبر، والقلعة مخربة لا يوجد على سطحها سوى منارة عالية مستديرة مبنية بالآجر، كانت منذ ربع قرن توشك أن تسقط. وقد دعمتها مصلحة الآثار السورية في عهد الانتداب ببناء احاط



منظر عام لقلعة جعبر

بقاعدتها، ولا تزال المنارة قائمة تشاهد من مسافة بعيدة خصوصاً للقادم من حلب إلى الـرقـة وديـر الـزور بعـد ان يجتاز مسكنة (بالس) وقد بقيت اكثر اجزاء سورها وعليه ابراج بعضها سالم وبعضها متهدم وكان حولها خندق، وبناء السور والأبراج من الحجـر الجصي المحـلي من القطع الكبير المنحوت، وشكلها مستدير وحجمها متوسط. وهي متأخرة البناء عن تاريخ بناء الحصون الفراتية القديمة باستثناء قلعة النجم، الواقعة على ضفة الفرات الغربية في منطقة منبج وعلى بعد ٤٠ كم منها، فإنها متأخرة البناء لا يعود تاريخها إلى اكثر من العهد الأيوبي ولذا تبدو سليمة.

أمـا قلعـة جعـبر فقـديمة يعود تاريخ بنائها إلى ماقبل الإسلام. وفي رواية ياقـوت الحمـوي وابن خلكان وغيرهما ان اسمها القديم دوسر او الدوسرية، نسبة إلى غلام النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو الذي بناها اولاً لما جعله النعمان على افواه الشام، وفي ذلك اشارة إلى قدم القلعة، على انها تعود إلى ما قبل المنذر بقرون.

كان نهر الفـرات يمـر من تحتهـا، غير انه ابتعد عنها وحل محل مجراه القديم سهـل يزرع بالحبـوب وعنـدمـا يفيض الفـرات فيضـانـاً اكثر منسوباً من المنسوب الاعتيـادي بشهـر نيسـان يصـل إلى اسفـل القلعـة ويغمر السهل أمامها. ومنارة القلعـة متأخـرة كثيراً عن تاريخ بناء القلعة. وتدلنا المنارة على ان سكان الحصن كانوا غير مقتصرين على الجند، وانما كان معهم اهلون وكان في الحصن جامع، وربما كانت هذه المنارة التي أقدر أنها من عهد الناصر بن قلاوون (٧٠٩ ـ ٧٤١هـ) كانت مرقبـاً بالاضـافـة إلى كونهـا منارة لمراقبة زحوف التتر ان منور جمع مناور لرفع النـار عليهـا في الليـل والدخان في النهار، مما كان متبعاً في دولة المماليك للتنبيه إلى زحف التتر من العراق، وكانت جعبر من املاك دولة الناصر بن قلاوون في القرن الثامن للهجرة.

كانت قلعـة فخمـة فسيحـة الـرقعة قوية الأسوار. وكان يحيط بها خندق لا

تزال بقية من آثاره، والأرض حولها من جهة الشرق وعرة المسالك، وإلى جوار القلعة توجد ابراج متهدمة كانت مخافر دفاع أولية للقلعة.

لم يرد ذكرها في العهد الاسلامي الأموي والعهد العباسي الأول لا باسم دوسر ولا باسم جعبر على قدم بنائها، وانما جاء ذكرها في عهد المرداسيين امراء حلب في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة.

وكانت منذ أول القرن الخامس للهجرة بيد النمير يين المتولين على الرقة، ولا بد انها كانت من اعمال الرقة لأنها منطقة واحدة، يسيطر عليها شبيب بن وثاب النميري حليف المرداسيين، وكان نصر بن صالح ابن مرداس (٤٢٠ ـ ٤٢٩ هـ) متزوجاً السيدة علوية اخت شبيب بن وثاب النميري.

كان شبيب هذا مع نصر بن صالح في حرب مع انوشتكين الدزبري امير الجيوش المصرية الذي كان في دمشق، وقدم منها إلى حلب لمحاربة نصر بن صالح بن مرداس فالتقى جيش الدزبري وجيش نصر غربي سلمية فانهزم جيش نصر، وقتل نصر واحتز رأسه في نصف شعبان سنة ٤٢٩ هـ وحمل إلى الدزبري.

وكان ثمال بن صالح اخو نصر معه ومعهما شبيب بن وثاب فهربا إلى حلب، فسيَّر امير الجيوش الدزبري جيشاً في اثرهما إلى حلب، فخاف ثمال من المقام بحلب، فولّى بقلعتها أحد اقاربه وسار هو وشبيب واولاد اخيه والسيدة علوية إلى الجزيرة ونزلوا في الرقة، ومات شبيب بن وثاب سنة ٤٣١ هـ، وخشي الدزبري الذي أتى إلى حلب من وجود ثمال بن صالح في الرقة (٤٣٤ ـ ٤٤٩)هـ فاشترى قلعة دوسر على الفرات (جعبر) ليكون مطلاً على ثمال، وشرع ثمال يستعد في الرقة لمنازلة الدزبري والاستيلاء على حلب وتلقى مساعدة من الوزير المصري الجرجرائي خصم الدزبري، ومات الدزبري في حلب سنة ٤٣٣، وتسلم ثمال بن صالح حلب بالتوقيع الذي سيره إليه المستنصر الفاطمي بمصر. وفي سنة ٤٤٩ هـ سلم ثمال بن صالح الرقة ومنطقتها إلى منيع بن شبيب بن وثاب النميري. وكانت قلعة جعبر بالرقة بيد سالم بن مالك العقيلي. وكان العقيليون اسسوا الدولة

العقيلية في الموصل تحت نفوذ حكام العراق دامت في الموصل من سنة ٣٨٦ إلى سنة ٤٨٩هـ، انقرضت على يد السلجوقيين هي والدولة البويهية.

وفي أيام الملوك السلجوقيين تملك القلعة الأمير جعبر الملقّب سابق الدين القشيري مدة طويلة، وقيل انه توفي سنة ٤٧٠، ثم ان هذا الأمير كبر وعمي. يقول ابن خلكان لم اقف على شيء من احواله «الأمير جعبر».

وقشير عشيرة عربية، وعدة عشائر في البلاد العربية تحمل هذا الاسم، وقد بقيت القلعة بيد أولاد جعبر إلى ان سار السلطان ملكشاه السلجوقي من أصبهان سنة ٤٧٩ إلى حلب فملك البلاد بينهما، وكان السلطان قد ارسل سابق بن جعبر في تسليمها فامتنع، فحاصره ونصب عليها المناجيق ففتحها وامر بقتل سابق بالقائه من أعلى القلعة، وقيل ان زوجة سابق القت بنفسها وراء زوجها فسلمت، وقيل ان الهواء رفع ثوبها فلامها البعض فقالت: كرهت ان يصل إلي تركي فيبقى ذلك عاراً علي. وقيل ان السلطان نفى عن القلعة بني قشير وسار إلى حلب واستناب على منطقة الرقة وسروج والخابور والرحبة محمد بن شرف الدولة مسلم وزوّجه بأخته زليخا خاتون، وعزل فخر الدين بن جهير عن ديار بكر، وكانت جعبر تعد في منطقتها وبقيت جعبر بيد العقيليين، وكان صاحبها في سنة ٤٩٠ الأمير شهاب الدين بن مالك بن سالم العقيلي وكان صديقاً للأمير مرشد بن قسيم الدولة بن علي بن مقلد والد الأمي اسامة وقد تحدث عنه في كتابه الاعتبار.

وفي سنة ٤٩٧ اغار صليبيو الرها على الرقة وجعبر، كانت بيد سالم بن مالك العقيلي الذي كان يمتلك الرقة أيضاً فانتزع الرقة منه جوشن النميري وكان عليها علي بن سالم فقتل.

وفي سنة ٥٠٢ جاء رسل سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر إلى الأمير جاولي سقاو التركي من امراء السلاجقة، وكان مقيماً في الرحبة (الميادين) وكانت له الموصل يستغيثون به من بني نمير الذين استولوا على الرقة وقتلوا علياً بن سالم، وضمنوا لجاولي مالاً ان هو أعاد اليهم الرقة فسار اليها وحاصرها سبعين يوماً

فضمن له بنو نمير مالاً وخيلا لكي يرجع فرجع وارسل إلى سالم يقول له انني في أمر أهمّ من محاصرة الرقة.

وكان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي فوَّض إلى عماد الدين زنكي ولاية بغداد سنة ٥٢١ وكان من الأمراء المقدمين، وتقلد الموصل وسلم اليه السلطان ولديه الب ارسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي، ليربيهما، فلذا قيل له اتابك وهو الذي يربي أولاد الملوك.

واستولى زنكي على الجزيرة الفراتية وفتح الرها سنة ٥٣٩هـ ـ ١١٤٤م من يد الصليبيين بعد ان سيطروا نحوا من نصف قرن عليها، وكانوا يغيرون منها على جعبر والرقة، وكان لفتح الرها وقع حسن عظيم عند المسلمين.

وقصد عماد الدين زنكي قلعة جعبر لأنه لا يقبل ان يكون مثل هذا الحصن بيد غيره بعد ان فتح بلدان الجزيرة الفراتية وهو يتهيأ لأعمال عظيمة. وكان على الحصن يوم ذاك سيف الدولة ابو الحسن علي بن سالم العقيلي فحاصرها، واشرف على اخذها، ولكن جماعة من خدمه اغتالوه ليلاً في ١٥ ايلول سنة ٥٤١هـ = ١١٤٦م وهو في خيمته أثناء الحصار. وكان ابنه نور الدين معه ففك الحصار وذهب إلى حلب واستولى عليها ونظم امورها. ودفن عماد الدين زنكي في القرة، وقيل صفين في السهل المقابل لقلعة جعبر.

وكان نور الدين عزم على الاستيلاء على جعبر، وفي سنة ٥٦٤هـ بينما كان شهاب الدين بن مالك بن علي العقيلي صاحب جعبر يتصيد أخذه بنو كلاب الذين كانوا يقيمون في تلك الجهات وحملوه إلى نور الدين فاعتقله، ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم اليه القلعة فلم يفعل، فعدل إلى الشدة، فلم يفعل، ثم ارسل عسكراً كثيفاً إلى القلعة فحاصرها فلم يفز منها بطائل، فعاد إلى الرفق مع مالك فرضي ان يسلمها إلى نور الدين ويأخذ عوضها سروج واعمالها وملاحة الجبول وعشرين ألف دينار معجلة، وقيل لصاحبها: أيما احب القلعة أم هذا العوض؟ فقال: هذا اكثر مالاً، وأما العز ففقدناه بمفارقة القلعة.

وفي سنة ٥٦٩ بعد موت نور الدين سار الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين من دمشق إلى حلب وتملك قلعة جعبر في المحرم سنة ٥٧٠ وحاول سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل الذي ملك نصيبين وحران والرها والرقة ان يستولي على جعبر فلم يستطع لأنها كانت منيعة. وكانت من املاك الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين.

ان الدولة الأتابكية التي ابتدأت عام ٥٤١ انتهت عام ٥٧٧هـ على ايدي الايوبيين، فدخلت جعبر ضمن حدود دولة صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية بعد ان سار بنفسه إلى الجزيرة الفراتية وعبر الفرات عام ٥٧٨هـ ١١٨٢م وسلك الرها وحران والرقة وبلاد الخابور، ولما توفي صلاح الدين في ١٦ فرعام ٥٨٩هـ - ١١٩٣م وقسم مملكته بين اولاده واخوته كانت جعبر من قسمة اخيه العادل مع بلدان اخرى كثيرة قاطع الفرات، وكانت في أيام ياقوت الحموي المتوفي عام ٦٢٦ هـ للملك الحافظ بن العادل ابي بكر بن ايوب، وقد انتهت الدولة الايوبية في جبهات حلب عام ٦٥٧هـ - ١٢٥٩م بغارة التتر على هذه البلاد وقتلهم السلطان يوسف بن ايوب في بلاد العجم قتله هولاكو وكان اخذه معه على اثر انتصارات البلاد الشامية على جيوش هولاكو.

وبعد الأيوبيين تسكت المصادر العربية عن ذكر جعبر. ومن المؤكد ان اهلها هجروها خوفاً من التتر في البدء، ولا بد انهم عادوا اليهم بعد هزيمة التتر في عين جالوت وهزائمهم في البلاد الشامية لأن اسماء بعض الجعبريين تطالعنا بانهم ولدوا بجعبر في الربع الأول من القرن الثامن وقبله وبعده، مما يدل على أن اهل جعبر لم يهجروها طويلاً، وانه لم يصبها كبير خراب مما نزل بالرقة ومنبج بسبب التتر.

جاء في صبح الأعشى: قال القاضي جمال الدين بن واصل عمرت جعبر بعد ذلك في أواخر الدولة الناصرية او بعدها بقليل. أي الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩هـ ٧٤١٠ وقد أشار إلى ذلك في «التعريف» حين تعرض لذكرها في آخر

مضـــافـات الشـــام . قال وهي مجددة البنيـان مستجـدة الآن ، لأنهـا جددت منـذ سنـوات ، بعـد ان طال عليهـا الأمد . كانت من اعمال حلب ثم صارت من اعمال دمشق ثم صارت من اعمال حلب بذلك الوقت .

وقـد عني بها النـاصـر بن قلاوون وحفـر بقربها نهراً من الفرات ، وكان يأتي بالفـــلاحـــين من جهـــات بعض قرى حلب يعملون في حفـر النهـر مدة اسبـوع ويعيـدهم إلى قراهم خوفـاً عليهم من التـتر ولكي يريحهم ، وهكـذا كرر العملية ذكره ابو الفداء .

وكـان السـلاطـين المـماليـك يعيّنـون لها نائباً أي حاكماً بمرسوم يعني كاتب الـديـوان بصيغتـه وديباجته ، وقد اورد القلقشندي في صبح الأعشى نص توقيعين بنيابة قلعة جعبر الأول من انشاء ابن نباته كتب به لهبة الله بن النفيس نائب قلعة منشـور في الجـزء الثـاني عشر ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ والثاني منشور في الجزء المذكور ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

ومن عبارة النصين نتبينّ اهمية قلعة جعبر بنظر الدولة المملوكية وكانوا جعلوا منها قلعة على الفرات مع غيرها من المدن على حدودهم الشرقية . وعنوا بتنظيم الـبر يـد بينهـا وبـين مدن الشـام بجميـع وسـائله وطرقه . وذكر القلقشندي مراكز الطرق اليها من دمشق ومن حمص ومن حلب ومنها يذهب طريق إلى رأس العين ونصيبين .

فالطريق إليها من حمص يذهب إلى السلمية ثم إلى بغيديد ثم الى أسريا إلى الحصى إلى جعبر . ومن مركز حلب يذهب طريق إلى الجبول ثم إلى بالس ومنها إلى جعبر .

بقيت قلعـة جعـبر بيـد المـماليـك إلى تاريخ انتهاء دولتهم «سنة ٩٢٣هـ ـ ١٥١٧م» على يد السلطان العثماني سليم .

وتسكت المصـادر عن ذكـر قلعـة جعبر في العهد العثماني ، ولا تطالعنا كتب الـتراجم والسـير باسم أي اديب او عالم ولـد فيهـا أو نشأ فيها ولا بأي خبر عنها .

واحسب ان العشائر قد جارت عليها وكان النفوذ الحقيقي لها طول مدة العهد العثماني، وانقطع الأمن، وصار الحكم للقوي ينهب ويسلب ويقتل. ولم يعد مجال للعلم والعمل فهجرها اهلها، وروى لي بعض الشيوخ أهل الرقة ان القلعة كانت مسكونة إلى ما قبل قرن ونصف، ولكن تعديات فخذ الابورسان رؤساء عشيرة ولدة الجزيرة على سكان القلعة ومن كان يسكن بجوارها من سكانها جعلهم ينزحون إلى جهات منبج، حيث يوجدون اليوم ويسمون جعابرة نسبة إلى قلعة جعبر ويشكلون عشيرة صغيرة هناك.

ومنذ ان هجر القلعة اهلها صار السكان ينزعون آجر بيوتها وينقلونه ليبنوا به غرفاً لهم شأن السكان الذين سكنوا الرقة والرحبة وغيرهما.

ولقد شاهدت في قرية كديران الواقعة غربي الرقة على بعد ٤٥ كم سيارة نقل كبير تنقل آجراً قديماً إلى القرية، فلمّا سألت سائقها من أين يأتي بالآجر قال ينقله من قلعة جعبر حيث يوجد عمال ينزعونه من الأنقاض ويحملونه في سيارة، ورأيت غرفة كبيرة مستطيلة تبنى من آجر قلعة جعبر يبنيها المدعو عابد الضيف لتكون غرفة لضيوفه على حساب تخريب قلعة أثرية عظيمة، ولم تكن السلطات تعني بالمحافظة على الآثار فضلاً عن عدم صيانتها.

وقد خرج من قلعة جعبر بعض الأدباء والعلماء، فكان لها نصيب بالنسبة لها بالمشاركة في الحركة العلمية في عصر المماليك، دون نصيب اخواتها المدن الفراتية الرقة والرحبة ويعادل نصيب جارتيها وأختيها بالس والرصافة وهذه اسماء من وقع لنا من علمائها وادبائها:

١ ـ برهان الدين الجعبري هو ابراهيم بن عمر بن ابراهيم بن خليل الجعبري الربعي الخليلي ويقال له ابن السراج ويعرف بشيخ الخليل ولد بجعبر سنة ٦٤٠هـ ١٢٤٢م وعاش مدة في بغداد وسمع الحديث وتفقه، واتقن القراءات، وتلا بالسبع ومهر في الأحوال العربية، وسكن دمشق مدة، وأقام ببلد الخليل نحو أربعين سنة يقرىء الناس، وشرح الشاطبية برسم الحديث، وصنف

بالعربية والعروض والقراءات نظماً ونثراً، وكان من المشايخ المشهورين بالفضائل والرياضة والخير والديانة والعفة، وتوفي يوم الأحد خامس شهر رمضان «سنة ٧٣٢هـ = ١٣٣٢م» ودفن ببلد الخليل وله ٩٢ سنة، ترجم له ابن كثير في البداية والنهاية ج ١٤ وذكره عمر رضا كحاله في معجم المؤلفين ج١ وذكر في مصادر اخرى.

٢ ـ ابراهيم بن معضاد بن شداد الجعبري الشادلي، شاعر صوفي له مشاركه في اشياء من العلم والطب توفي سنة ٦٨٧هـ = ١٢٨٨ م له ديوان شعر كبير، ذكره الصفدي في الوافي وذكره عمر رضا كحاله في معجم المؤلفين ج١.

٣ ـ الشيخ الصالح ناصر الدين ابراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبري ثم الحصري، ولد سنة خمسين وستمائة بقلعة جعبر وسمع صحيح مسلم وغيره وكان يعظ الناس ويستحضر اشياء كثيرة من التفسير وغيره. كان فيه صلاح وعبادة توفي في سنة ٧٣٧ ودفن بزاويتهم خارج باب النصر بمصر ذكره ابن كثير في البداية والنهاية.

٤ ـ بلغ من اهتمام الملك الناصر محمد بن قلاوون بقلعة جعبر ان قرب اليه بعض ابنائها ولما حضرته الوفاة في سنة ٧٤١ في صبيحة يوم الأربعاء. السابع والعشرين من ذي الحجة كان اخذ العهد لابنه سيف الدين ابي بكر ولقبه بالملك المنصور، فلما دفن حضره من الأمراء قليل وكان قد ولى عليه الأمير علم الدين الجلولي، ورجل آخر منسوب إلى الصلاح يقال له الشيخ عمر بن محمد بن ابراهيم الجعبري، ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ج ٤.

وإلى غرب قلعة جعبر على مسافة نصف كيلومتر مشهد صغير مؤلف من بنائين صغيرين يحيط بهما سياج من الحجر، الأول إلى الجنوب تعلوه قبة يضم قبر سليمان شاه احد امراء العثمانيين، وقيل جد الأسرة العثمانية، فارق بلاده ما هان جافلاً من التتر مع جماعة مقبلاً إلى السلجوقيين قصد جهة حلب فوصلوا إلى نهر الفرات أمام قلعة جعبر ولم يعلموا المعبر فعبروا النهر فغرق سليمان مع ولدين من

اولاده سنة ٦٨٣هـ = ١٢٨٤م فاخرجوهم ودفنوهم عند القلعة، ولمَّا ولي السلطان العثماني عبد الحميد الثاني سنة ١٨٤٢م أمر بتجديد القبر فجدد، وكان ان اعطيت تركية مكان هذا القبر في الأراضي السورية وفقاً لمعاهدة انقرة وان تبقى بجواره حامية تركية من بضعة جنود تقيم في البناء الثاني وهو عبارة عن ثلاثة غرف وتبدل الحامية كل ثلاثة أشهر. ويبدو البناء من بعيد بلونه الأبيض، وحول هذا المشهد يوجد مخفر شرطة سوري.

الرها (اورفة)

آثينة الآراميين

تقع مدينة اورفة في اعالي الجزيرة الفراتية شمال غربي الرقة ، على بعد ١٥٠ كم ، في الحدود التركية ، وتبعد عن بلدة تل ابيض السورية ٥٥كم إلى الشمال الغربي ، وعن مدينة حلب ١٩٠ إلى الشمال الشرقي ، شرقي نهر الفرات ، وقسم اراضيها الغربي يسقى من نهر الفرات ، وهي منذ القديم من كبريات مدن ديار مضر العربية احدى ثلاث ديارات او اقسام الجزيرة الفراتية ، والقسمان الآخران هما ديار ربيعة وديار بكر ، واورفة فراتية مثل الرقة وحران ومن اخواتها ، وكانت دير الزور والرقة والرحبة (الميادين) من اعمالها في العهد العثماني مدى قرنين ، تقع على مرتفع امامها سهل خصب كثيرة الأمطار وترتفع عن سطح البحر ٥٥٠ متراً يحيط بها من الغرب والجنوب جبل يعرف بتل فلدر. مدينة قديمة وشهيرة يرتقي تاريخها إلى العهد الآشوري ، لها أهمية تجارية منذ القديم لوقوعها على

الطريق التجاري بين الموصل والشام وتشكل كورة كبيرة وأدخلها المؤرخ بلينيوس في جملة المدن العربية واسماها عدة اسماء فهي آدسا والرهاء واورفة وأوهائي، واورهو في السريانية، وآور الكلدانية، وأور سرهوئين، واورهين، من جملة الأرضين الداخلة في العربية، ومن المدن التي جدد بناءها سلوقس الأول اليوناني وسميت آدسا وعرفت ايضاً باسم «انطوخية» نسبة إلى انطيوخس الرابع.

ولا يكاد يعرف من أمرها قبل سنة ١٣٩ قبل الميلاد شيئاً يذكر وما يعرف عنها، يعود إلى ما بعد هذا التاريخ.

وقد تكونت في القرن الثاني قبل الميلاد مملكة في هذه المقاطعة باسم اوسرهوئين منذ سنة ١٣٢ق.م. حتى سنة ٢١٦ للميلاد عدَّ الكتبة الرومانيون ملوكها من العرب وعدوا سكانها عرباً كذلك، وان سبب تكونها الفوضى التي ظهرت في الجزيرة الفراتية على اثر احتلال الفرس لها، ودعيت هذه المقاطعة باوسروئين نسبة إلى ملك اسمه اوسروس كان يحكمها، وكان حليفاً للفرس، وقد وجدت اسماء ملوك الرها مرتبة ترتيباً زمنياً في حوليات وعلى نقود ضربت في أيامهم، وقد حكموا ٣٥٢ عاماً، وقيل ان اول من حكم منهم هوآريو، وبين اسمائهمَ اسماء نبطية عربية، وعرف ملوكها باسم الأباجرة، مفردها أبجر، تعاقبوا على حكمها حتى سنة ٢١٦ للميلاد حيث بسط الامبراطور الروماني كاراكلا سلطانه عليها وأسر ملكها أبجر العاشر وهو آخر ملوكها المستقلين وقد ازدهرت في عهدهم حتى عرفت باسم مدينة الأباجرة العظام.

أما الأخباريون فنسبوا بناء الرهاء إلى رجل سموه الرهاء بن البلدني بن مالك بن دعر، وقال الكلبي في انساب البلاد: الرهاء بن سبند بن مالك بن دعر بن لخم، وقال قوم انها سميت بالرها بن الروم بن لنطي بن سام بن نوح.

وبعد سقوط مملكة آدسا بيد الرومان نصبوا عليها ملكاً اسمياً هوعبدو كاركان يقيم في روما.

وفي سنة ٢٤١ أغار الفرس على الجزيرة الفراتية بقيادة الملك ازدشير

واستولوا على نصيبين وحران والرها، ولكن الامبراطور غورديان الثالث حمل عليهم سنة ٢٤٢ واسترجع المدن المذكورة ونصب على الرها ملكاً يدين له بالطاعة هو ابجر عبد كار الحادي عشر ملك حتى سنة ٢٤٤م وهو تاريخ موت غورديان. وبموته انتهت مملكة الرها الصغيرة.

وحاصرها ملك الفرس سابور الأول سنة ٢٦٠ وأسر بقربها الامبراطور الروماني فاليران. واقتاده الفرس إلى بلادهم وقتلوه هناك.

وجاءت فترة ضمت فيها الرها ومقاطعتها إلى مملكة تدمر في عهد ملكها اذينات وملكتها زنوبيا من بعده في الربع الثالث من القرن الثالث للميلاد.

وكانت عبادة الكواكب دين اهلها قبل انتشار النصرانية فيها، ومن آلهتها الالهان آزيزوس ومونيموس، ويرى موردتمن ان هذين الالهين عربيان اصليان الأول عزيز والآخر منعم، وهما من آلهة عرب منطقة آدسا، وان أضافهما بعض الكتاب إلى آلهة الأراميين، والاله بعل وبنو، وفنوس، وكانت تسمى فيها بات نيكال ومعناها ابنة نانكال.

دخلت النصرانية الرها بعهد ملكها أبجر الخامس وتنسب اليه رسالة قيل انه بعثها إلى المسيح، ومراسلات مع الحواريين الأولين، وأضحت الرها ابنة الكنيسة المتميزة في الجزيرة الفراتية وينبوع المعارف والعلوم. انشئت فيها كنائس عظيمة وانتشرت حولها وفي جبلها الأديرة العديدة وقد عني افرام سيروس (السوري ٣٠٦ - ٣٧٣) بمدرستها، وكان اول اللاهوتيين العظام في الكنيسة المسيحية، كما كان شاعراً دينياً ساعد في ادخال الرهبنة. ولد في نصيبين واتى إلى الرها حيث أعاد تنظيم مدرسة اللاهوت فيها التي أصبحت جامعة عظيمة للسوريين. أمّها كثير من الطلبة السوريين، فكانت الرها أهم مركز ثقافي للنساطرة ولا سيما في عهد اسقفها إيباس «٤٣٦ - ٤٥٧م»، وبعد وفاته انتخب نونوس اسقفاً للمدينة وكان كارهاً للنسطورية، فارتحل النساطرة عنها إلى بلاد الفرس اعداء الروم، ومنحهم ملوك الفرس الحرية الدينية وحرية التبشير

بمذهبهم وصاروا يعلمون الفلسفة اليونانية والطب، وغدت مدينة «سلوقية على نهر دجلة مركزاً ثقافياً ينافس مدينة نصيبين، ومن هؤلاء النساطرة تعلم اهل الحيرة النسطورية وكانت اللغة الآرامية هي لغة الرها.

وقد ازدهرت هذه المدينة خاصة في أواسط القرن الرابع وفي القرن الخامس للميلاد، وكان لها مركز خير في الأدب السرياني وفي الأدب النصراني وفي تاريخ النسطورية.

والأدب السرياني أدب مسيحي تقريباً ويشتمل على كتب في العلوم والفلسفة مترجمة عن اليونانية، ولذا اعتبرت الرها أثينة العالم الآرامي وقد ازدهرت مدرسة الرها حتى عام ٤٨٩، عندما هدمت بأمر الامبراطور زينون فانتقل الاساتذة إلى نصيبين التي اصبحت وريثة الرها كمركز علمي سرياني يوناني.

وكانت آدسا في القرن الخامس قاعدة كبرى من قواعد المسيحية في الشرق ومركز أبرشية كبرى ترتبط بها سبع ابرشيات، منها حران وبيريجيك وطي وسروج وتلمحرا وقلعة جعبر على الفرات، ومن اساقفتها المشهورين يعقوب البرادعي الذي رسم اسقفاً للرها حوالي عام ٥٤٣ وتوفي عام ٥٧٨، وهو الذي نظَّم الكنيسة المونوفيزية في سورية (المذهب القائل بالطبيعة الواحدة) في المسيح، وسمى اصحاب هذا المذهب باليعاقبة، وهذا المذهب انما هو رد على مذهب النسطوريين القائلين بمذهب الطبيعة (الإلهية والبشرية) في المسيح، وهم الذين شكلوا الكنيسة الشرقية او «كنيسة الشرق» كما تسمي نفسها.

وكانت الرها تقع تارة بيد الرومان وتارة اخرى بيد الفرس وقد اضطهد الاثنان مسيحي الرها في فترات متعددة ونال المدينة خراب من جراء ذلك.

وفي الحرب ٥٠٢ ـ ٥٠٦ بعهد الامبراطور انستاس وضع الحصار عليها، ونهبتها جنود الدولتين، فاأقفرت، فجدد الامبراطور جوستنيان الأول بنائها، وعسكر أمامها كسرى الأول عند تراجعه من سوريا وسار عنها لقاء مبلغ قدمته له المدينة. واستولى عليها كسرى الثاني سنة ٦٠٩.

وقد تعرضت في تاريخها لفيضانات طاغية من النهر المعروف باسم قره كوبون أو نهر القوط، انزلت كوارث في المدينة، وكان الامبراطور جوستنيان قد أقام قناة كبيرة شمال المدينة لتحويل مياه الفيضان، ودفع أذاها، وعلى الرغم من ذلك، عادت فاجتاحتها في سنة ٦٦٨ و٧٤٣.

استولى عليها العرب المسلمون في سنة ١٨ للهجرة ٦٣٩م من ايدي الروم بعهد الخليفة عمر بن الخطاب وبقيادة عياض بن غنم الذي اتخذ منها مركزاً لحركاته العسكرية في الجزيرة الفراتية حيث فتح جميع مدنها وسموها الرها من اسمها اليوناني آدسا.

ولما مات عياض ولي الجزيرة الفراتية سعيد ابن عامر، فبنى مسجد الرقة ومسجد الرها، ثم توفي فبنى المساجد بديار مضر وربيعة عمير بن سعيد.

واتصلت احداثها بالتاريخ الاسلامي منذ ذلك الوقت، واصابها اذى كثير بسبب الفتن والثورات التي وقعت في العهود الاسلامية.

وقد فقدت المدينة اهميتها السياسية والدينية، وأغار عليها الروم عدة مرات فنهبوا وقتلوا وخربوا، وكانت من املاك الحمدانيين، وملكها نصر الدولة بن مروان الكردي صاحب ديار بكر، وفي القرن الخامس الهجري تعرضت لنهب بني نمير، واستولى عليها السلجوقيون، ودارت بينهم وبين الفرنج عدة معارك من أجلها، وتسلمها السلطان ملكشاه السلجوقي في سنة ١٠٨٦ حتى سنة ١٠٩٤، وكان عليها في فترة حاكم ارمني من قبل السلجوقيين.

واستولى الصليبيون على الرها سنة ١٠٩٨ واسسوا فيها امارة عرفت في التاريخ باسم كونتية آدسا، دام حكمهم فيها نحو خمسين سنة.

وفي جمادي الآخرة سنة ٥٣٩ ـ ١١٤٤م استولى عليه السلطان عماد الدين زنكي صاحب الموصل، بعد أن حاصرها ٢٨ يوماً، وجرى فيها القتل والنهب، وعاد الفرنج اليها غير ان السلطان نور الدين بن عماد الدين زنكي استردها في سنة ٥٤١ ـ ١١٤٦م بعد معركة كانت آخر ايام الفرنج في تلك الديار، وبقيت الرها

من املاك نور الدين إلى ان توفي سنة ٥٦٩ هـ آلت بعده إلى اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل، ثم ملكها الايوبيون حتى سنة ٦٥٦.

واجتاحها التتر سنة ١٢٥٢، وغزتها جيوش تيمورلنك سنة ١٣٩٥، وفي زمن ابي الفداء (٦٧٢هـ - ٧٣٢م) (١٢٧٥ - ١٣٣١م) كانت الرها خراباً. وبحسب القلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى كانت المدينة في زمنه (١٤٠٠م) جدد بناؤ ها ومأهولة وفي رخاء.

استولى عليها العثمانيون في سنة ١٦٣٧م خلال حروب السلطان التركي مراد الرابع مع الفرس وسموها اورفة.

وفي حدود سنة ١١٧٤هـ كانت اورفة أيالة تتبعها الدير «دير الزور» والرحبة «الميادين» والرقة والخابور وحران وجلاب وقيس، وقد جعل الأتراك الرقة ولاية مركزها في اورفة وكانت تسمى أحياناً ولاية الرقة واورفة، وكانت دير الزور تابعة لها، ولا تزال علاقات كثيرة بين الرها وبين دير الزور والرقة. وقيود تمليك اراضي الرقة ما زالت موجودة في اورفة يذهب الرقيون لاستخراج صور عنها، ويوجد ديريون من فخذ البعاجين في اورفة حتى اليوم.

وفي أيام الدولة العثمانية امر السلطان وزيره حسين باشا بن القاضي ان يأتي بثمانين الف تركماني ويسكنهم بمنطقة اورفة قرب عين العروس في اعالي نهر البليخ على نهر الجلاب، ولا يزالون حيث اسكنهم حسين باشا يعيشون عيشة العشائر العربية المجاورة لهم، وكان ذلك الاسكان لاسباب سياسية.

وفي جنوبها وشمالها وشرقها بساتين وحدائق غناء تشرب من عيون تتفجر من جبلها وتسقي بساتينها وتنبع فيها عينان عين الخليل وعين زليخة.

كانت نفوسها في الحرب العامة الأولى نحو مائة الف فيهم ٤٠ ألف أرمني قتلت الدولة معظمهم للعصيان الذي قاموا به في اورفة، والآخرون عرب واكراد وأهلها العرب مشهورون بالكرم، وهم من قبيلة قيس «جيس» وافخاذ اخرى من

بني عجل ونمير وحمدان وأسد وطي وكلاب وبقارة «وشهور» وغول، كثير منهم في ناحية حران، وكان لأورفة أربعة ابواب منها باب الرقة وباب حران.

حاصلاتها القمح والشعير والعدس والرز والعسل والزبيب والدبس وثروة حيوانية من الغنم والبقر والابل والخيل. وتتألف ولايتها من قضاء سروج وقضاء براجيك وناحية حران، وكانت سنجقا تؤلف مع حلب ومرعش ولاية حلب.

بالس (مسكنة)

مرفأ حلب على نهر الفرات

مسكنـة قريـة صغـيرة في سفـح آكـام وروابي طباشيرية بيضاء، على بعد كيلومتر ونصف من ضفة الفرات الغربية، على الطريق العام المعبدة بين حلب ـ دير الزور، شرقي حلب تبعد عنها ٩٠ كم وغربي الرقة تبعد عنها ٩٠كم. احدى محطـات القـوافـل والعـربـات والسيارات على هذا الطريق بينها وبين حلب محطة واحـدة، هي قريـة ديـر حافر التي تبعد عن حلب ٥٠ كم، فيها مخفر للشرطة فوق الرابية، وقهوة صغيرة وبضعة حوانيت ومطعم ومركز لبيع وقود السيارات التي تقف عنـدهـا للاستـراحة ونقل المحاصيل الزراعية. وهي احدى نواحي منطقة منبج، احدى مناطق محافظة حلب، ومركز ناحية مسكنة قرية الخفسة. تتبعها عدة قرى ومزارع.

لا يعـرف سبب تسمية مسكنـة وتـاريخهـا، بعـد ان كان اسمهـا في العهد

الـرومـاني باربـاليسـوس وفي العـبر يـة بيتابليش، وعرفها العرب باسم بالس منذ الفتوحات الاسلامية. ولا يعرفها سكان منطقة الفرات إلا باسم مسكنة. سكانها اعـراب متحضـرون ينتسبـون إلى عشـيرة خفاجة القديمة التي كانت لها خفارة الـرصـافة وبريتها، ولا يزال قسم منها في العراق وإلى عشيرة الولدة احدى عشائر البوشعبان الموجودة في منطقة الرقة ومنبج وعين العرب.

كانت مسكنـة وعشـرات القـرى الممتـدة بينها وبين بلدتي الباب ومنبج من الجفتلك، وهي الأراضي التي كانت للسلطان العثماني عبد الحميد، ة وبعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ دورت إلى الخزانة العامة وسميت الأملاك المدورة ثم أمـلاك الدولة في العهد السوري، كان السلطان المذكور يعني بشؤون سكان هذه القـرى ويحميهم من تعـديـات البدو، ومن تسلط موظفي الحكومة، بواسطة جباة تـابعين لادارة خاصة باملاكه مركزها حلب، وبفضل هذه الحماية عمرت القرى، وكانت منذ تخريب التتر لهذه البلاد بائرة.

وحـول مسكنـة توجـد عشـيرة الفدعان العنزية البدوية، ولبعض شيوخها أراض واسعـة في ناحيـة مسكنـة منتجـع لعشائر الولدة والبوخميس والكيار والوهب وغيرهم. تمتد نجعتهم إلى نواحي الرصافة وجبل البشري في الربيع.

لمسكنة موقع جغرافي هام، فهي اقرب نقطة على الفرات إلى حلب تمرّ بها القوارب الخشبية ذات القعر المسطح من بلدة براجيك التركية (قلعة البيرة)، وتمر بجرابلس وقلعة النجم ومسكنة والرقة ودير الزور، وتنتهي ببلدة الفلوجة في العراق، وهي مرفأ بغـداد على ضفـة الفـرات الغـربيـة، حلّت محل بلدة الأنبـاء القـديمة والقريبة منها، والتي كانت في العصر العباسي مرفأ بغداد على ضفة الفرات الشرقية.

نقلت هذه القـوارب اثنـاء الحـرب العـالميـة الأولى المؤن والذخائر والمدافع والبنـادق والطيـارات إلى الجيش العثماني في العـراق لصـد الانكليز الزاحفين من البصـرة. واستخـدم الفـرنسيون في عهد الانتداب الفرنسي بسوريا هذه القوارب

لنقل المؤن من مسكنة إلى دير الزور وما برحت توجد في الفرات لنقل الحاصلات الزراعية والاحطاب ونقل السكان من ضفة إلى ضفة لعدم وجود الجسور على الفرات باستثناء جسري دير الزور والرقة.

على سبعة كم من مسكنة إلى الجنوب الشرقي توجد خرائب بالس القديمة، والأسم غير معروف في المنطقة حتى من المتعلمين، على هضبة تعلو عن مستوى سهل الفرات نحو عشرين متراً. تبرز للمسافر على طريق حلب. دير الزور من مسافة بعيدة بمنارتها الباسقة وبقايا جدران قصورها، وهي على بعد ماية متر من الطريق العام غربيه، ولها درب منه اليها.

ورد ذكر باربااليسوس في الحروب بين الفرس والرومان، واقدم رواية عنها هي التي رواها المؤرخ الاغريقي اكزانوفون الذي تكلم عن قلعة وحديقة حاكم سوريا (بلسيس) كانت واقعة في هذا المكان، وعلم بطليموس الموقع الحقيقي لمدينة باربااليسوس على أنها محطة على طريق الفرات، قد يعود تاريخ الموقع إلى ما قبل العهد الروماني قال العالم الأثري «دوسان» الذي اشتغل بقراءة رقم ماري «تل الحريري» ان موقع بالس ينطبق على اسم مدينة ايمار القديمة، التي ورد ذكرها في الواح ماري. فهي منذ العصور القديمة وخلال العهدين الروماني والعربي كانت ثغراً نهرياً تجارياً، ومركز مناقلات (ترانسيت)، كان الفرات يجري من جانب شرقيها، ويغمر الأراضي الواسعة التي يمر منها طريق السيارات حتى قرية ردة الصغيرة.

كانت مرفأ هاماً تنزلها القوافل القادمة من انحاء حلب وانطاكية وميناء السويدية ومن غيرها من مدن الشام وموانئها، تفرغ حمولتها من مصنوعات البلاد الرومية والشامية لتسلمها إلى عشرات السفن الراسية في باريس لتنحدر بها إلى العراق وايران والهند والصين.

كانت هذه القوافل القادمة إلى بالس تترك الطريق البرية وتفرغ حمولتها في بالس الميناء على الفرات الذي كان طريقاً مائياً صالحاً للملاحة وكانت جوانبه

حافلة بالمدن والقلاع لحماية الطريقين المائي والبري منذ عهد الحثيين الذين كانوا يتاجرون مع بابل ناقلين سلعهم ومصنوعاتهم المعدنية بالسفن منحدرين في الفرات من عند عاصمتهم كركميش (جرابلس)، وكانت السفن الآتية من العراق إلى الشام ترسي ببالس فتفرغ فيها حمولتها لتنقلها القوافل بطريق البر إلى حلب والشام والبحر الأبيض المتوسط، وبالس اقرب المدن الفراتية إلى هذا البحر، وهي في نفس الوقت واقعة على سيف بادية الشام التي كانت عامرة في العصور القديمة بفضل العناية بتنظيم الري فيها، كانت بالس سوقاً لها، وهي منذ القديم مركز مواصلات لوقوعها على طريق الفرات القديم البري وأول مدن الشام على هذا الطريق بعد مدينة الرحبة التي تفصل بين الشام والعراق.

تقع بالس على حد مناخي هام، فان رطوبة الفرات تخفف منها وطأة المناخ الجاف المتصفة به بادية حلب ويستبدل باقليم الجزيرة الفراتية المعتدل، ولذا صار في نباتها وحيواناتها ميزات تميزها عن نبات البادية وحيواناتها، وكانت تسمى باب سوريا على الفرات.

كانت بالس بلدة رومانية بيزنطية كالرقة والرصافة والبصيرة والصالحية وغيرها من المدن الفراتية القديمة على ضفتي الفرات. عرفت ازدهاراً في التجارة والزراعة والعمران والصناعة، بفضل حسن موقعها على الفرات مما جعل منها مرفأ ومركز ترانسيت وكانت اسقفية تابعة لمتروبولية الرصافة.

وحوالي سنة ٤٢٥م كانت من اعمال مقاطعة الفرات الرومانية في عهد الامبراطور اغسطوس، وكان فيها قلعة محصنة تقيم فيها حامية رومانية. وكانت من جملة قلاع الرومان وخطوطهم الدفاعية ضد الفرس وكان لها سور فيه عدة أبواب.

اصابتها كوارث عديدة في العهد الروماني من زلازل ومحاصرات وتخريب كسرى الثاني انوشروان العاهل الفارسي نحوسنة ٥٤٠ في حملته التخريبية على سوريا. فاعاد الامبراطور جوستنيان بناؤها، ولا تزال من آثاره بقايا ساحة،

وأطلال برج ومعبد . وبينما كان الرومان ينعمون بالحياة فيها فاجأهم الفتح الاسلامي .

قال البلاذري : «سار ابو عبيدة حتى نزل عراجين وقدم مقدمته إلى بالس ، وبعث جيشاً عليه حبيب بن مسلمة إلى قاصرين . وكانت بالس وقاصرين لاخوين من اشراف الروم . فصالحهم اهلها على الجزية أو الجلاء فجلا اكثرهم إلى بلاد الروم وارض الجزيرة وقرية جسر منبج ، ولم يكن الجسر يومئذ ، وانما اتخذ في زمن عثمان بن عفان للطوائف ، واسكن بالس وقاصرين قوماً من العرب والبوادي . . وكانت بالس والقرى المنسوبة اليها في حدها الأعلى والأوسط والأسفل اعداء عشيرة فلما كان مسلمة بن عبد الملك توجه غازيا إلى الروم ، من نحو الثغور الجزرية عسكر ببالس فاتاه اهلها واهل بويلس وقاصرين وعابدين وصفين وهي قرى منسوبة اليها ، فسألوه ان يحفر لهم نهراً من الفرات يسقي ارضهم على ان يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان ، فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة ، ووفا له بالشرط ، ورمم سور المدينة وأحكمه فلما مات مسلمة صارت بالس وقراها لورثته ، فلم تزل في ايديهم حتى جاءت الدولة العباسية فقبضت على اموال بني امية فدخلت بالس فيها وآلت إلى الرشيد ثم إلى ابنه المأمون . . » .

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب والخليفة عثمان بن عفان ، كانت بالس في عداد القلاع المعدة لحماية الحدود الشمالية ضد الروم . وكانت حران مركز هذه الحصون والعواصم : لمنبج وانطاكية وبالس والرصافة . ثم الحقت بالس بجند قنسرين .

وفي العهد العباسي اهملت بالس كشأن بلاد الشام الأخرى ، وتداولت عليها ايدي المتغلبين .

وفي سنة ٢٤٥ هـ خربت هزة ارضية بالس شعروا بها في الرقة وحران وغيرهما . وفي سهول بالس (خساف والناعورة) جرى قتال بين مجزأة بن كوثر بن

زفر الكلابي، وكان يقيم في هذه السهول وبين جيوش العباسيين بعد هزيمة مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ.

وفي سنة ٢٦٥ دخلت بالس تحت سلطة احمد بن طولون صاحب مصر، وكان يخطب له على منبرها، وكان عليها من قبله محمد بن العباس بن سعيد الكلابي واخوه سعيد، واستولى عليها لؤلؤ مولى ابن طولون الذي عصي مولاه سنة ٢٦٩ وقطع الخطبة لابن طولون في حلب وقنسرين وبالس ثم مضى عنها إلى الرقة، ومنها انحدر في الفرات إلى بغداد، واجتازبها الخليفة المعتضد سنة ٢٨٧ والأخشيد محمد بن طغج صاحب مصر والشام سنة ٣٣٢ قادماً من حلب متوجهاً نحو الرقة حيث التقى بالخليفة العباسي المتقي على شاطىء الفرات الغربي مقابل الرقة.

وملكها سيف الدولة الحمداني، وكانت المدينة غنية لمرور القوافل بها، ولكونها سوق البادية وكان التجار الشوام يجتمعون فيها ليوجهوا بسلعهم اما إلى الشرق الى العراق والخليج العربي، واما الى الغرب الى البحر الأبيض المتوسط عبر حلب مركز تجارة الشمال.

وفي القرن السابع للهجرة كان الفرات ودجلة الشريانين الرئيسيين للتجارة وكان على ضفتي الفرات فرضتان هامتان هما الرقة وبالس، ويسمى الرحالة ابو اسحق الاصطخري سنة ٣٠٩ بالس مرفأ الشوام، وسماها مدينة صغيرة.

وفرض سيف الدولة الضرائب الباهظة على القوافل المارة ببالس وعلى التجار المقيمين فيها، ووكل بجبايتها قاضيه ابا الحصين الرقي، وهومعروف بظلمه فارهقها بالضرائب فم تعد القوافل تمر بها، وابتدأ عهد انحطاطها من ذلك الوقت.

ولى سيف الدولة على بالس وحران ومنبج ابن عمه الشاعر ابا فراس الحمداني. ورد ذكرها في عدة ابيات من شعره منشورة في ديوانه الذي حققه الدكتور سامي الدهان وكان ينزل في بواديها قبائل بني كلاب وغيرهم من

الأعـارب، وكـانـوا من رعـايا سيف الدولة. وكانوا يخرجون عليه من وقت لآخر، فيسير إليهم يبطش بهم ويشردهم، وكان الشاعر المتنبي معه في بعض حروبه هذه فوصفها في شعره. وقصدت بنوكلاب ابا فراس وهوفي بالس تتشفع به إلى سيف الدولة فشفع لهم.

وفي سنة ٣٨١ استولى بكجور على الرحبة والرقة وسار الى بالس ليستولي عليهـا فحـاصـرهـا خمسـة أيـام فلم يظفـر بها فسـارعنها مهزوماً أمام سعد الدولة الحمداني ملك حلب، الذي جاء إلى بالس وقام بها أربعة ايام وفيها التقى داعي الـدعـاة الـداعيـة الفـاطمي بالقـائـد التركي البساسيري صنيعة الفاطميين سنة ٤٥٠هـ، والـذي استـولى على بغـداد بعد تلك المقابلة وخطب فيها لخليفة مصر المستنصـر ولبثت بيـده مدة سنـة. وكـانت بيـد المـرداسيـين ملوك حلب كل مدة حكمهم في حلب وتحت نفوذ الفاطميين وكان الصليبيون قد امتدوا شمالاً واسسوا امـارة في اورفـة وفي سنـة ٥٠٥ و١١١١م وقعت بالس في ايـدي صليبيي اورفـة، فاخلى اهلها واهل منبج بلدهما. ولكن لم يلبث المسلمون ان استعادوها. وكانت من امـلاك عماد الـدين ز نكي ومن بعـده آلت إلى ابنه نور الدين، وقيل ان المنارة الموجودة فيها من عمله، ثم آلت إلى الملك غازي بن ايوب ملك حلب المتوفي سنة ٦١٣. ثم آلت إلى الملك العادل ابو بكر بن ايوب ٥٤٠ ـ ٦١٥ وهو البذي شيد المنارة القائمة فيها.

وممن أقام ببالس مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين من اتابكية دمشق حوالي سنـة ٥٣٥ بامـر نور الـدين زنكي. ثم توجه إلى بغداد، واقبل عليه الخليفة المقتفي، ويظهر ان الأمير بدر الدين بن يوسف الجعبري الذي كان والياً بقلعة دمشق في أواخر القرن السادس الهجري كان من أهل بالس، لأنه بعد موته نقله اهله ودفنوه في بالس، ورثاه الشاعر ابن عنين (٥٤٩ ـ ٦٣٠) بقصيدة منشورة في ديوانه الذي حققه المرحوم خليل مردم بك وطبعه المجمع العلمي العربي بدمشق.

ومن اكـبر الاسبـاب التي عملت في انحطـاط بالس في القـرنـين الـرابـع والخـامس الهجـري ان نهر الفـرات الـذي كان يجري من تحتهـا اخـذ يغـير مجراه ويشرق عنها قليلاً حتى صار بينهما في زمن ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ اربعة اميال ولذا لم يعن بها في معجمه إلا أنها بلدة في الشام بين حلب والرقة كانت على ضفة الفرات الغربية ثم يذكر بعض أسماء من نسب اليها من العلماء.

ولم يكن السلطان والأهلون من القوة والغنى بحيث يجهدون في اعادة النهر إلى مجراه القديم، وذلك ممكن لو كان ثمة استقرار وغنى ولكن ضعف واضطراب.

بقيت بالس بيـد الأيـوبيـين تلملم شعثها إلى ان استولى التتر على بغداد سنة ٦٥٦هـ واجتازوا الجزيرة الفراتية سنة ٦٥٧هـ وعبروا الفرات من عدة اماكن من قرب قرقيسيا ومنبج فاجتازوا ببالس، واجهزوا عليها واكتسحوا حلب ودمشق ومـا بينهـما، وكان يحل القتل والخراب والدمار حيث حلوا، وخربوا انظمة الري في وادي الفـرات فخـلا من السكان والعمران ومن الأشجار والحيوان، بعد أن كان جناناً متصلة ومدناً وقرى عامرة نضرة.

ولقـد شاركت بالس في الحـركـة العلمية في العصر العباسي عدة قرون إلى جانب اخـواتهـا المدن الفراتية الرقة والرحبة وجعبر، ومدن الجزيرة الفراتية، رأس العين وحران ونصيبين، بمن نبغ فيها من الفقهاء والعلماء والأدباء وبمن نشأ فيها من العلماء. وهذه اسماء بعض من وقع لنا من ابنائها والناشئين فيها ولمحات من حياتهم:

١ ـ ابـو المجـد معـدان بن كثير بن علي البالسي، الفقيه الشافعي، كان له معرفة جيدة بالأدب واللغة.

٢ ـ الحسن بن عبـد الله بن منصـور بن حبيب بن ابـراهيم ابـو علي الانطاكي يعـرف بالبـالسي، حدث بدمشق ومصـر عن الهيثم بن جميل واسحاق بن ابراهيم

الحنيني وغيرهم، وروى عنه جماعة منهم ابو العباس بن ملاس ومكحول البيروتي .

٣ ـ اسماعيل بن احمد بن ايوب بن الوليد بن هارون ابو الحسن البالسي .

٤ ـ وابو العباس احمد بن ابراهيم بن محمد بن بكر البالسي . ذكرهم ياقوت في معجم البلدان .

٥ ـ ترجم محمد بن شاكر الكثيبي المتوفي سنة ٧٦٤ في كتابه (فوات الوفيات) العالم بالسي هو: «ابو بكر بن قوام بن علي بن قوام بن منصور بن معلى البالسي . احد مشايخ الشام . كان شيخاً زاهداً عابداً عديم النظر، كثير المحاسن وافر النصيب من العلم والعمل ولد بصفين[1] . سنة أربع وثمانين وخمسمائة ونشأ ببالس ، وكان حسن الأخلاق لطيف الصفات وافر الأدب والعقل ، دائم البشر، كثير التواضع ، شديد الحياء متمسكاً بالآداب الشرعية ، تخرج به غير واحد من العلماء والمشايخ وتلمذ له خلق كثير ، وقصد بالزيارة وبعث اليه الملك العادل على يد فخر الدين خمسة عشر ألف درهم ، فما قبلها ، وقال لا حاجة لنا بها ، انفقها في جند المسلمين ، وجاءته امرأة وقالت له عندي دابة قد ماتت ومالي من يخرجها عني ، قال امضي وحصلي حبلاً حتى أبعث من يجرها ، فمضت فجاء الناس وجروها عنه ، وكان لا يدع احداً يقبل يديه ، ويقول من امكن من تقبيل يده نقص من حاله شيء .توفي بقرية علم سنة ثمان وخمسين وستمائة ودفن بها . نقل بعد اثنتي عشرة سنة إلى دمشق أي سنة ٥٧٠ ودفن بزاويته» .

٦ ـ وترجم ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ج ١٤ لعالم عامل بالسي نجتزي من الترجمة بما يلي : «الشيخ الصالح العابد الناسك الزاهد القدوة ، بقية السلف ابو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح عمر بن الناسك الكبير ابي بكر بن قوام بن علي البالسي . ولد سنة خمسين وستمائة ببالس وكان شيخاً جليلاً بشوش

---

١ ـ صفين قرية فراتية بسهل صفين الذي يتصل بسهل بالس، وهي من قرى بالس.

الـوجـه، حسن السمت، وكان يوم قازان، في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيميـة لما تكلم مع قازان فحكى عن كلام شيـخ الاسـلام تقي الـدين لقـازان وشجـاعتـه وجـرأتـه عليـه، وأنـه قـال لترجمانه قل للقازان انت تزعم انك مسلم ومعـك مؤذن وقـاض وامـام وشيـخ على ما بلغنـا، فغزوتنا، وبلغت بلادنا على ماذا؟ وابـوك وجـدك هولاكو كانا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدوا قومنا وانت عاهــدت فغــدرت، وقلت فما وفيت، قال وجـرت له مع قازان وقطلوشـاه وبولاي امور قام بها ابن تيمية كلها لله، وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل، قال وقرب إلى الجماعة طعاماً فاكلوا إلا ابن تيمية، فقيل ألا تأكل فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتهم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من اشجار الناس، قال فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة وغيره كدت تهلكنا وتهلك نفسك، والله لانصحبـك من هنـا، فقـال وأنا والله لاأصحبكم، وكنت أنا من جملة من ان معه أما اولئك الذين أبو أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة التتر فقتلوهم.

توفي الشيخ محمد بن قوام ليلة الاثنين الثاني عشر من صفر بالزاوية المعروفة بهم غربي الصالحية والناصرية سنة ٧١٨، حضر جنازته خلق كثير، وكان في جملة الجميع الشيخ تقي الدين بن تيمية لأنه كان يحبه كثيراً وكان يزار، وكان لديه علم وفضائل جمة وكان فهمه صحيحاً، وصنف جزءاً فيه اخبار جيدة.

٧ ـ ذكـر أبـو الفـرج الاصبهـاني بكتـابـه الاغاني شاعراً من بالس في أخبار سليـمان بن وهب وهــو اخـو الحسن بن وهب. قال لما استـوزر الخليفـة العبـاس المهتـدي بالله (٢٥٥ و ٨٦٩م) سليـمان بن وهب ولقبـه الـوزيـر، جلس للناس، فدخل اليه شاعر يقال له هرون بن محمد البالسي فذكر مظلمة له ببلده ثم انشده:

زيــد في قدرك الــعــلي علو	يا ابــن وهــب من كاتـب ووزيــر
اسفر الشرق منك والغرب عن ضو	ء من الـعــدل فاق ضوء الـبــدور
أنشــر النــاس غيثكم بعــد ما كا	نوا رفـاقــاً من قبـل يوم النشــور

شرد الجـــوع رعـــد لكم فســرحنــا   بيــنـكــم وبـــين روضـــة وســـرور

فوقع في ظلامته ووصله بمائتي دينار.

أما معالمها الأثرية: فمنارة باسقة مثمنة الأضلاع جميلة متماسكة البينان فوق قاعدة مربعة، مبنية بالآجر المشوى الأصفر، بابها من الجهة الغربية يبلغ ارتفاعها ٢٢ متراً، يصعد اليها بسلم داخلي ذي ١٠٧ درجات وذات سبع طبقات في كل منهـا قوس جميـل يختلف الواحد عن الآخر. وبعض مداميكها من الخارج مزخرفة بكتابة كوفية، لم نستطع قراءتها تماماً، ولكننا تبينا منها اسم احد الملوك الأيوبيين، وقسمهـا الأعلى خراب، يصعـد اليهـا بسهـولـة، ولقد صعدت فيها سنة ١٩٥٧ واطللت من اعـلاهـا على خرائب بالس وعلى نهر الفـرات والقـرى القريبة على ضفتـه والسهـول الممتدة حول بالس وتشاهد منها قلعة جعبر ومنارتها، وهي كائنة فوق تل على ضفـة الفـرات الشـرقيـة، وداخـل المدينة اطلال المسجد الذي كان حول المنـارة، واطـلال بنـاء فخم لعله كان قصـر امـير المـدينة، واطلال بناء آخر شاهق لعله كان حصنـاً، واطـلال كثـير من الـدور العـربيـة الطراز مبنية بالآجر، ولكنها نبشت من قبل لصوص العاديات، فلا ترى سوى جور واكوام من التراب المستخرجة، وقطع لا تعد من كسور الأواني الخزفية الملونة. كان النباشون يتحرون على هذه الأواني السليمـة، وبقـايـا لخزف يشهـد بازدهار صناعته في بالس، فقد اشتهرت جاراتها بصناعته وإلى مدة قريبة كانت تبدو آثار سورها. ولقد نقب فيها الأثري الفرنسي دولوريه تنقيباً سريعاً خفيفاً، وتوجد في متحف دمشق من آثارها قطع نقوش جصية.

منبج

عاصمة سورية الفراتية ومدينة العواصم

تقع شمال شرقي حلب على بعد ٨٠ كيلومتراً، في فضاء واسع مرتفع عما حوله قليلاً، ينحدر نحو الفرات في الشرق، وتبعد عن ضفته الغربية ١٥ كيلو متراً، وتمتد نحو نهر الساجور في الشمال ونهر ابو قلقل في الجنوب، وهما من روافد الفرات، وتتجه نحو أراضي منطقة الباب وقرية بزاعة في الغرب، وارتفاعها عن سطح البحر ٤٤٧ متراً.

وهي اليوم مركز منطقة منبج احدى مناطق محافظة حلب، تتوسط منطقتي الباب وجرابلس (كركميش الحثية على ضفة الفرات الغربية) من مناطق محافظة حلب ايضاً.

منبج مدينة عريقة في القدم، كان لها شأن قبل الاسلام وبعده، يرجع تاريخها إلى ما قبل الحثيين في هذه البلاد، وكانت العاصمة الدينية لكل بلاد

الآراميين الـذين كان لهم ممالـك عى شواطىء الفـرات وفي بلاد ما بين النهـرين وداخل سورية .

عرفها الآشوريون باسم «نابيجي» او «نانبيجي» في عهد الملك سالمناصر، وجـاءت في الكتـابـة المسـمارية باسم : «بامنبوكي». ويرجح ان اللفظة من اصل سامي إذ يمكن ارجاعها إلى اللفظة الارامية (مانبوك) ومعناها الماء المتفجر او المنبع او النبع سميت بهذا الأسم لوجود عين ماء عظيمة فيها تعرف باسم الرام تدين لها المدينة بوجودها وازدهارها لأنها على طريق تجاري .

ولما جاء اليونانيون السلوقيون سموها (هيرابوليس)، ومعناه المدينة المقدسة لتقـديس سكـان المنطقـة لها، وكـان لأسمها صيغ اخرى يونانية ولاتينية فيقال لها بامبيـك (وهـيرا بوليس) ومعناه المدينة المقدسة لتقديس سكان المنطقة لها، او(يره بوليس) والأخـير اسم مدينـة كركمبش (جـرابلس) شقيقتهـا وجـارتها. نقل هذا اللفـظ من كركميش بعـد خرابها في الحروب بين الحثيين والآشوريين وبين الحثيين والمصريين منذ ما قبل القرن الخامس قبل الميلاد. إلى منبج. ثم رد إلى كركميش بعد خراب منبج .

ومعنى (يـره بوليس) مدينـة الإلـه، أي المـدينـة المقدسة، ويسميها الفرنج مينكز، و(مابيجوم) وجاء في تقويم البلدان وفي معجم البلدان ان بعض الأكاسرة ملوك الفـرس الـذي غلب على الشام بنى منبج وسماها «منبه» وبنى بها بيت نار، ووكل به رجلاً يسمى ابن دينار من ولد ارشير بن بابك. وهذا خطأ من البلدانيين المسلمين .

ولما استولى الرومان على سوريا تملكوا منبج، ومنذ القرن الثالث الميلادي كانت منبـج مركـزاً لتجمـع الجيوش الرومانية في الشرق للدفاع عن سورية، ضد الفرس وصارت من اهم مراكز الجيش الروماني الذي كان يفد على ميناء السويدية ويمـر بانطـاكيـة ثم يأتي إلى منبـج ليتـوزع منهـا ويساق إلى المراكز في بلاد ما بين النهرين على الحدود الفارسية الرومانية ويتمركز في الحصون على الخابور.

الآراميين الذين كان لهم ممالك عى شواطىء الفرات وفي بلاد ما بين النهرين وداخل سورية .

عرفها الآشوريون باسم «نابيجي» او «نانبيجي» في عهد الملك سالمناصر، وجاءت في الكتابة المسمارية باسم : «بامنبوكي» . ويرجح ان اللفظة من اصل سامي إذ يمكن ارجاعها إلى اللفظة الارامية (مانبوك) ومعناها الماء المتفجر او المنبع او النبع سميت بهذا الأسم لوجود عين ماء عظيمة فيها تعرف باسم الرام تدين لها المدينة بوجودها وازدهارها لأنها على طريق تجاري .

ولما جاء اليونانيون السلوقيون سموها (هيرابوليس) ، ومعناه المدينة المقدسة لتقديس سكان المنطقة لها ، وكان لأسمها صيغ اخرى يونانية ولاتينية فيقال لها بامبيك (وهيرا بوليس) ومعناه المدينة المقدسة لتقديس سكان المنطقة لها ، او(يره بوليس) والأخير اسم مدينة كركمبش (جرابلس) شقيقتها وجارتها . نقل هذا اللفظ من كركميش بعد خرابها في الحروب بين الحثيين والآشوريين وبين الحثيين والمصريين منذ ما قبل القرن الخامس قبل الميلاد . إلى منبج . ثم رد إلى كركميش بعد خراب منبج .

ومعنى (يره بوليس) مدينة الإله ، أي المدينة المقدسة ، ويسميها الفرنج مينكز ، و(مابيجوم) وجاء في تقويم البلدان وفي معجم البلدان ان بعض الأكاسرة ملوك الفرس الذي غلب على الشام بنى منبج وسماها «منبه» وبنى بها بيت نار، ووكل به رجلاً يسمى ابن دينار من ولد ارشير بن بابك . وهذا خطأ من البلدانيين المسلمين .

ولما استولى الرومان على سوريا تملكوا منبج ، ومنذ القرن الثالث الميلادي كانت منبج مركزاً لتجمع الجيوش الرومانية في الشرق للدفاع عن سورية ، ضد الفرس وصارت من اهم مراكز الجيش الروماني الذي كان يفد على ميناء السويدية ويمر بانطاكية ثم يأتي إلى منبج ليتوزع منها ويساق إلى المراكز في بلاد ما بين النهرين على الحدود الفارسية الرومانية ويتمركز في الحصون على الخابور.

وكـان الامـبراطـور قسطنطـين رفـع مكانة منبج فاصبحت عاصمة سورية الفـراتيـة، وكـانت مدينـة محصنة شاد فيها الامبراطوريوستنيان اسواراً منيعة عجز عن اقتحامها كسرى الأول انوشروان في عام ٥٤٠ لما زحف على رأس جيش من ثلاثـين ألف جنـدي على سوريـة بطـريق هيرا بوليس (منبـج) فاكتفى بمطالبتها بثلاثة آلاف دينار دفعتها واشترت بها سلامتها، وسار منها إلى حلب حيث اشعل فيهـا النـار لأنها لم تستطع جمع الجزية الثقيلة التي فرضها عليها، هو ضعف المقدار الذي دفعته منبج. وقيل هو ٤٠٠٠ رطل من الفضة انكليزي.

وفي العهد البيزنطي كانت منبج احد المراكز المهمة لأصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة في المسيح.

ويقـال ان الامـبراطـوريوستنيـان جاء في سنة ٥٢٧ ففي اول حكمه الذي استمر حتى سنة ٥٤٨ لمحاربة الفرس ومر بطريقه على مدينة منبج. فسمع باخبار جمال تيـودورا التي كانت من ضواحي المـدينـة، وكان ابوها قسيساً آرامياً ارثوذكسياً وكـانت فتـاة رائعة الجمال بهية الطلعة على جانب عظيم من جمال الأخلاق، وقيل بل هي مبتـذلـة، وتـزوج بها. وعطفت تيـودورا على الكنيسة الارثوذكسية وبنت كنائس واديرة بمنبج ومنطقتها.

وعـدا المكـانـة العسكـرية التي كانت تتمتع بها منبج، فقد كانت لها مكانة دينيـة قبـل النصـرانيـة حيث كانت مركـزاً لعبـادات وثنية للآراميين سكان البلاد وغيرهـم من الآسيويين، وكان فيها هيكل فخم وغني هو أعظم هياكل الآراميين في بلاد سوريــة في ذلـك العهـد. كان يعبـد فيـه رب العـواصف هادادوريـة الميـاه «آتراكاتيس» التي كانت تعد ايضاً ربة البلاد السورية وكان تمثال هذه الربة يمثلها معتلية مركبة تجرها الأسود وفي يدها آلة موسيقية وعلى رأسها تاج.

وقـد أسهب المؤرخ لوسيـان الفـراتي المـولود في مدينة سميسـاط الفراتية في القـرن الثـاني الميـلادي في وصـف ما كان عليـه هيكـل هيرابـوليس من الفخـامـة والغنى. وكان الوف الحجاج يتوافدون في أيام الأعياد لزيارة هذه الأرباب، حتى

كانوا يضحون لها الأطفال. وكان **هيكلها وسط بحيرة بالمدينة**، وكان حول كاهن الهيكل كهان صغار يتقبلون النذور من الزوار ويتنقلون في البلاد لجمع الصدقات لهيكل هيرابوليس. وكان هيكلها من المرمر الناصع، كانت الحجاج تصله سباحة لتقدم نذورها.

وقد انتشرت عبادة الربة /آترا كاتيس/ عند اليونانيين المتطوعين في جيش ملوك سورية وفي اوربا على يد التجار اليونانيين والسوريين الذين كانوا يصلون إلى أوربا.

وكان فيها هيكل لعبادة /كيوس/ أو /كيوان/ احدى العبادات الوثنية. وبعد انتصار النصرانية وانتشارها تلاشت عبادة الأوثان في منبج. وحلت مكانها تقديس آثار القديسين لاستعداد اهل منبج لذلك وتأصل الروح الدينية فيهم، وجلبت آثار القديسين لمنبج مؤمنين كثيرين وثروة وبنيت فيها كنائس عديدة، وكان بها اجمل كنيسة من الخشب كما كان بها كنيسة للقديسة ماري وكنيسة للقديس توما، وكانت اسقفية يعرف لها اساقفة منها ومن الفرنج قبل الاسلام وبعده.

وقد اسهمت منبج في النشاط الفكري في العهد الروماني ببليغ يدعى «أنتيباتر» من ابنائها كان من تلامذة البليغ ادريانس الفيلسوف والبليغ هو الذي يحسن المرافعة أمام المحاكم ويحاضر في مختلف الأماكن كخطيب. وقد حظى انتيباتر بعطف الامبراطور (ماركوس اوريليوس) وامتاز بكتابة الرسائل مما دعا الامبراطور سفيروس لاختياره سكرتيراً خاصاً له وعينه معلماً لولديه كاراكلا وغينا سنة ٢١٢م ورفعه إلى مقام قنصل أي والي على بنينيا.

ولما جاء المسلمون قدم القائد العام ابو عبيدة في خلافة عمر بن الخطاب بعد فتح حلب وانطاكية عياض بن غنم إلى منبج ثم لحقه وقد صالح أهلها على مثل صلح انطاكية وانفذ الصلح، وكان ابو عبيدة جعل حمص وقنسرين جندا واحداً، قال البلاذري في فتوح البلدان: «ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص

حتى كان يزيـد بن معـاوية ، **فجعل قنسرين** وانطاكية ومنبج وذواتها (كذا) جندا ، فلما استخلف هارون الـرشيـد الخليفة العباسي افراد قنسرين بكورها فصير ذلك جنـدا واحـداً وأفرد منبج ودلوك ورعبان وقورس[1] وانطاكية وتيزن وسماها العواصم لأن المسلمـين يعتصمـون بها فتعصمهم وتمنعهم إذا انصـرفوا من غزوهـم وخرجوا من الثغر. وجعل مدينة العواصم منبج . وقال ياقوت في معجمه وسمى الجند جنـداً لأنـه جمع كـورة والتجنيد التجميع وقيل سميت كل ناحية جندا لأنهم كانوا يقبضون فيه اعطياتهم .

وفي عهـد يزيـد الأول بن معـاويـة كان لمنبج شيء من الاستقلال الاداري وكـان سكـانهـا سألوا الخليفة عمر بن الخطاب ان يأذن لهم بالاتجار في بلاد الخلافة الاسلامية وكانت منبج على الطريق الهام الآتي من الموصل والمار بنصيبين ورأس العين يقطع الفرات عند موقع قريب من منبج يسمى جسر منبج ويمر الطريق منها متجهـاً نحـو حلب فبـلاد الشام ومن حلب إلى انطاكية والبحر الأبيض المتوسط . وكانت عدة طرق تلتقي بهذا الطريق آتية من اورفة (الرها) وحران وشمال الجزيرة الفراتية لتقطع الفرات عند جسر منبج ولتجتاز بها ، وإلى هذا الطريق تدين منبج بغنـاهـا فهي محطة مهمة على الطريق بين بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام والبحر الأبيض المتـوسـط ، وتـدين إلى عيـون الماء العذبة وإلى القنوات التي نظمت فيها الري لسقاية أراضيها الخصبة حتى سميت في كل العهود السابقة مدينة القنوات أو الأقنية .

وعنـــدمـا فتحهـا العـرب كان بجـوارهـا عرب من اليمن ومن طي وتغلب وغيرهم ، كانوا منذ مئات السنين قبل الفتح الاسلامي وغيرهـم ، كانوا منذ مئات السنين قبل الفتح الاسلامي هاجروا اليها من الجزيرة العربية وإلى ريف الفرات

---

١ ـ دلوك ورعبان وقورس حصون كانت قرب مدينة عنتاب في الحدود التركية .

وارجـاء الجـزيـرة الفراتية حتى سميت باسماء قبائلهم الكبيرة ديار ربيعة وديار بكر وديار مضر.

وفي العهود الاسلامية تقلبت بمنبج الأحوال وتنقلت من يد ملك وقائد إلى آخر ولم يذكر مؤرخو العرب من اخبارها إلا نتفاً لا يمكن ان تؤلف تاريخاً للمدينة.

ففي سنـة ١٣٢ جاءهـا مروان بن محمـد آخـر الخلفـاء الأمويين في الشرق منهـزمـاً عقب المـوقعـة الفـاصلة بين جيشـه وجيش عبـد الله بن علي بن عبـد الله العباسي على نهر الزاب بجهات الموصل، وعبر الفرات من جسر منبج الذي كان عند قلعة النجم فاحرقه، وتبعه عبد الله بن علي حتى اتى منبج فنزلها، وراسل منها اهل حلب بالبيعة للعباسيين، فبعثوا اليه بالبيعة مع ابي امية التغلبي، وقدم اليه وهو في منبج اخوه عبد الصمد بن علي فقلده حلب وقنسرين.

وفي خلافة ابي العباس السفاح (١٣٢ ـ ١٣٦) كان اخوه ابو جعفر المنصور يلي الجـزيـرة وأرمينيـة، وكـان من قبله على الـرقة مقاتل بن حكيم العكي فوجهه المنصـور من الـرقـة لمحاربة العباس بن محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية الذي عصى في جهات منبج فسار العكي ونزل منبج متخذاً منها قاعدة عسكرية لجيشه، وقد واقع السفياني وهزمه واستباح عسكره وافتتح حلب عنوة وجمع الغنائم وسار بها إلى أبي جعفر المنصور وهو بحران.

وفي سنـة ١٧٣ جعـل الـرشيـد من منبج عاصمة للعوام في الجزيرة الفراتية وفـك ارتبـاطهـا من جنـد قنسرين، وعين والياً عليها عبد الملك بن صالح بن علي العباسي وكان قد ولد فيها، وكان من أجلّ قريش ولسان بني العباس، ويضرب به المثل في البلاغة، وكان والد عبد الملك والياً على حلب وقنسرين.

ابتنى عبـد الملك بمنبـج قصـراً لنفسـه وبستـانـاً إلى جانبه، وظل البستان يعـرف ببستـان القصـر إلى زمن مؤرخ حلب ابن العـديم (٥٨٨ ـ ٦٦٠هـ) وقد شجـع عبـد الملك العمـران في منبـج، وكـان عمرانها قد تخرب بسبب هزة ارضية وقعت فيها سنة ١٣١هـ وخربت فيها خربت كنيسة اليعاقبة.

ومرّ الرشيد بمنبج وعليها عبد الملك بن صالح ونزل بمنزله. فقال له الرشيد: هذا منزلك؟ قال هو لك ولي بك قال فكيف هو؟ قال دون منازل اهلي وفوق منازل الناس قال كيف صفتها «منبج»؟ قال: طيبة الهواء عذبة الماء قليلة الأدواء قال فكيف ليلها؟ قال سحر كله. قال صدقت انها لطيبة الهواء. قال بل طابت بامير المؤمنين وأين يذهب بها عن الطيب وهي برة حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء في فياف فيح، بين قيصوم وشيح» هـ.

وكان عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح يغزو الصائفة حتى وصل سنة ١٧٥ إلى اقريطية، وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ انقرة.

ولم يزل عبد الملك والياً على منبج ويرى الثغور حتى عزله الرشيد وحبسه في الرقة بعد نكبة البرامكة سنة ١٨٧ بسبب وشاية نقلت إلى الرشيد بأنه يطمع بالخلافة، وبقي في الحبس إلى ان تولى الخلافة الأمين فاطلقه، وعينه والياً على الرقة وبقي والياً عليها إلى ان توفي سنة ١٩٦ وفيها قبره.

وفي سنة ٢١٥ سار الخليفة المأمون من بغداد لغزو الروم في المحرم مارس سنة ٨٣٠ سالكاً طريق الموصل فنصيبين ومنها اتى إلى منبج ثم إلى انطاكية ثم المصيصة ومنها خرج إلى طرطوس وهي الثغر الاسلامي في (كيليكيا) ومنها دخل إلى بلاد الروم فغزا وعاد.

وعين المأمون على منبج عيسى بن علي بن صالح نيابة عن العباس بن المأمون. ثم ولى على العواصم ومركزها منبج عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح نيابة عن العباس بن المأمون إلى أن توفي المأمون سنة ٢١٨هـ.

وفي سنة ٢٢٣هـ كان المعتصم في غزو بلاد الروم، ولما عاد إلى منبج نمي اليه ان العباس بن المأمون يريد اغتياله ليأخذ الخلافة، فقبض المعتصم على العباس ودبر موته فمات بمنبج في ذي القعدة من سنة ٢٢٣ ودفن فيها. وولى المعتصم في سنة ٢٢٥هـ الشام والجزيرة ومصر أشناس التركي وتوّجه وألبسه

وشاحين بالجوهر، وهذا ولي على العواصم وقنسرين عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح، فتدخل منبج في ولاية هؤلاء الولاة ونوابهم.

ولما جاء الخليفة الواثق أقر ولاية عبيد الله بن عبد العزيز. وولى بعده عليها وعلى قنسرين وحلب والعواصم محمد بن صالح ويقال انه استعمل الرشوة (البرطيل).

وولى الواثق الثغور والعواصم دون حلب احمد بن سعيد بن قتيبة فامضى الفداء سنة ٢٣١ مع ميخائيل صاحب الروم، وغزا في الشتاء تحت الثلج والمطر فمات من جيشه أناس فعزله الواثق واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعي.

ولما جاء المتوكل عين على العواصم علي بن اسماعيل من أولاد علي ابن ابي طالب فكانت سيرته حسنة. وتولى بعده بغا الكبير وموسى بن بغا سنة ٢٣٥ هـ. وجاء بعده محمد ابن أبي الساج الافشين سنة ٢٥٤. وولى أبو احمد الموفق العواصم القائد سيما الطويل ومدحه البحتري، قتله عسكر أحمد بن طولون في حصارهم لانطاكية، وكان سيما انحاز اليها في سنة ٢٦٤ واستولى ابن طولون على الشام وحلب ودخلت منبج تحت حكمه أي تحت حكم المصريين. وآلت إلى الأخشيديين حكام مصر والشام سنة ٣٢٨هـ.

وكانت منبج وديار مضر إلى ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل في سنة ٣٣٠ وفي منبج التقى جيش ناصر الدولة الحمداني وعلى رأسه يأنس المؤنسي، وجيش أحمد بن مقاتل وكان من جهة ابي بكر بن رائق عند جسر منبج واقتتلوا.

ولما استولى سيف الدولة الحمداني اخو ناصر الدولة على حلب سنة ٣٣٣ من يد عمال الدولة الاخشيدين قادماً اليها من الجزيرة الفراتية، وبعد ان استقر بحلب قلد ابن عمه ابا فراس الحمداني الشاعر منبج وحران وبالس وما حولها من القلاع، وكانت منبج حصناً لحلب وفي سنة ٣٥١ عندما هاجم الدمستق نيسافور فوكاس سوريا سنة ٩٦٢م أسر الأمير ابا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان وكان خارج منبج يتصيد، وحمل إلى خرشنة ثم إلى القسطنطينية. وظل في الأسر أربع

سنوات، وكان يراسل سيف الدولة بغرر القصائد يطلب فكاكه حتى افتكه، وفي الأسر نظم قصائده الشهيرة المعروفة بالروميات يتشوق فيها الى منبج وإلى والدته التي خلفها فيها، ولما اصبح نيسفور امبراطوراً عسكر بنفسه أمام منبج سنة ٩٦٦. وجرت له احتفالات من النصارى الذين بمنبج.

وفي سنة ٤١٥هـ استولى الأمير صالح بن مرداس الكلابي على منبج قادماً من الرحبة ودخلت في حدود دولة المرداسيين التي اسسوها وامتدت إلى عانة على الفرات، وتنقلت بين ايدي المرداسيين. وفي سنة ٤٦٢هـ استولى الروم عليها وكانت بحوزة محمود بن نصر بن مرداس وقتلوا أهلها ونهبوها وخربوا اسوارها ثم رحلوا عنها لجوعهم. وكانت اسوار المدينة محاطة بخندق عريض لا تزال آثاره.

وفي سنة ٤٦٨ تسلم نصر بن محمود المرداسي صاحب قلعة حلب منبج من الروم.

وفي سنة ٤٧٢ استولى عليها الروم وحصنوها. وفي ٤٧٩هـ ١٠٨٦م جاء السلطان ملكشاه السلجوقي إلى شمال سوريا وقصد منبج فملكها وكانت في حوزة شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي وسار منها إلى حلب ولى عليها وعلى حلب وحماه واللاذقية أقسنقر.

وفي سنة (٥٠٤هـ = ١١١٠ ـ ١١١١م) سار الافرنج بقيادة تنكرد صاحب انطاكية وملكوا الاثارب وزردنا وقتلوا أهلهما، ثم ساروا إلى منبج وبالس فوجدوهما قد اخلاهما اهلها فعادوا عنهما واحرقوا بالس.

وحدثت معركة حول اسوار منبج في سنة ١١٤٢ بين جوسلين الافرنجي صاحب الرها وبلك بن بهرام بن ارتق صاحب حلب، وقتل من الافرنج وأسر جوسلين وجماعة من فرسانه إلى ان فكهم في سنة ٥١٧ الافرنج من المكان الذي كانوا محبوسين فيه وكان بدوين الثاني غزاها في سنة ٥١٣ وكذا جوسلين.

وفي سنة ٥١٧ كانت بيد الامير حسان البعلبكي، وفي سنة ٥١٨ حاصره فيها بلك بن بهرام بن آرتق، وقتل بسهم وهو محاصر لقلعتها فعاد عنها جيشه،

وعادت إلى حسان البعلبكي، المنبجي الذي اشتهر بحروبه ضد الصليبيين، وبقي اولاده بمنبج نحو نصف قرن.

واستولى عليها عماد الدين زنكي عام ٥٢١ وعاد اليها في عام ٥٢٢ ومنها سار إلى حلب بطريق بزاعة، ولم تقع منبج بيد الروم منذ القرن الحادي عشر للميلاد. وكانت بيد غازي بن حسان المنبجي وقد ثار على نور الدين محمود بن زنكي الذي اقطعه منبج فبعث نور الدين محمود بن زنكي الذي اقطعه منبج، فبعث نور الدين جيشاً إلى منبج وعزل غازي ونصب أخاه قطب الدين بن حسان.

وفي عام ٥٧١ سار السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى منبج فحصرها وصاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي ففتحها عنوة وأسر ينال وصادر أمواله ثم أطلقه. وآلت إلى الملك غازي الأبن الثالث لصلاح الدين.

وفي عام ٥٨٦ أقطعها صلاح الدين مع قلعة النجم إلى ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما بيده في حماة والمعرة وسلمية وغيرها. وبعد وفاته انتقلت إلى ابنه الملك المنصور ملك حماه إلى ان تنازل عنها في عام ٥٩٦هـ بامر الملك العادل الى ابن المقدم الأمير عز الدين ابراهيم وبعد سنة مات فانتقلت إلى أخيه شمس الدين عبد الملك. وماكاد هذا يستقر في منبج حتى سار إليه الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي صاحب حلب وحاصرها وملكها وفي عام ٥٩٨ خرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفاً من ان ينتزعها منه عمه الملك العادل. واقطعها عماد الدين احمد بن سيف الدين المشطوب. وفي ربيع الثاني عام ٦٣٨ استولى عليها الخوارزمية بعد حصار لها وبعد ان كسروا عندها عسكر حلب مع المعظم تورانشاه بن صلاح الدين واعملوا فيها القتل والنهب وهدم المنازل، والتجأت النساء إلى الجوامع فلاحقهن الخوارزمية وسلبوهن حليهن وارتكبوا الفحش مثلما فعل التتر بعدهم الذين جاءوا إلى بلاد الشام عام ثمان وخمسين وستماية في اربعماية الف مقاتل.

ونزل هولاكو على حران وقتل اهل سروج ونصب جسراً على الفرات قريباً من ملطية، وآخر عند قلعة الروم (منبج) وآخر عند قرقيسيا (البصيرة) وعبرت عساكره الفرات وقتلوا عند منبج مقتلة عظيمة، وسارت جيوشه إلى حلب فخرج اليهم الملك المعظم بن صلاح الدين فالتقاهم ولكنه انكسر. ونزل هولاكو بنفسه على حلب وقتل فيها خمسين الفاً وملك قلعتها.

وفي المعاهدة التي عقدت بين السلطان قلاوون وبين ليون الأرمني في الواحد من شهر ربيع الثاني عام ٦٨٤ (٦ حزيران ١٢٨٥م ذكرت منبج على أنها من المدن المصرية وبحسب ابن الشحنة كانت منبج تحمل إلى السلطان «٥١٠٠٠٠درهم» من الضرائب في السنة.

ويقول ابو الفداء (٧٣١هـ) انه في عصره كانت المدينة وحصونها مخربة تماماً ويخبرنا انه كان فيها اقنية كبيرة وأشجار مثمرة وعلى الأخص التوت لتربية دود الحرير، وحتى لو عادت فلملمت شيئاً من حالها بعد زمن ابي الفداء وبعد كل ما صابها من كوارث فان زلزلة عظيمة في عام ٧٤٤ خربت بحلب ومنبج اماكن كثيرة ووقع عليها طاعون قضى على أهلها. وجاء تيمورلنك عام ٨٠٤هـ فأجهز عليها، وجلا عنها من سلم من سكانها، وبقيت خراباً يأوي اليها رحالة الأعراب إلى عام ١٢٩٥هـ.

كانت منبج متقدمة في تربية دود الحرير وزراعة شجر التوت وكانت تنسج فيها الأكسية المعروفة عند العرب بالمنبجية. قال ابن قتيبة في ادب الكاتب: كساء منبجاني، ومن اسم المدينة بابيك في القرون الوسطى اشتقوا اسم قماش القطن.

ومنذ القديم كانت منبج من المدن المشهورة في سورية: واليك وصف بعض الرحالين المسلمين لها في اوقات مختلفة.

قال الرحالة ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الذي تجول في البلاد عام ٣٣١هـ ووضع كتابه المسالك والممالك: «هي في برية الغالب على مزارعها

الأعـذاء (الـزرع لا يسقيـه إلا المطر) وهي خصبة كثيرة القنى السارحة والبساتين وغالب شجرها التوت لأجل القز».

وجاءها الرحالة الفارسي ناصر خسرو عن طريق ديار بكر وحران قال: (وفي يوم السبت الثاني من رجب عام ٤٣٨هـ ٢ يناير ١٠٤٧ أبلغنا مدينة سروج واجتزنا الفرات ونزلنا في منبج وهي أول مدن الشام، والطقس هناك معتدل جداً، ولم يكن خارج المدينة عمارات قط وقد سرت منها إلى حلب).

ومرَّ بها الرحالة الأندلسي ابو الحسين محمد بن احمد جبير في ١١ ربيع الأول والثاني والعشرين من شهر حزيران عام ٥٨٠هـ فوصفها بكتابه (رحلة ابن جبير) (منبـج بلدة فسيحـة الأرجـاء صحيحـة الهـواء، يحف بها سور عتيق ممتـد الغـايـة والانتهـاء، جوهـا صقيل ومجتلاها جميل، ونسيمها أرج النشر عليل، نهارها يندي ظله، وليلها كما قيل فيه سحر كله تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار، مختلفـة الثـمار، والمـاء يطـرد فيهـا ويتخلل جميع نواحيها، وخصها الله داخلها بآبار معينـة شهـدية العذوبة سلسبيلة المذاق تكون في كل دار منها بئر والبئران، وأرضها ارض كريمـة تستنبـط ميـاهـاً كلهـا واسـواقهـا وسككها فسيحة متسعة ودكاكينها وحـوانيتهـا كأنهـا الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً وأعالي سوقها مسقوفة وعلى هذا الـترتيب اسـواق اكثر مدن هذه الجهـات لكن هذه بلدة تعاقبت عليها الأحقاب حتى أخـذ منهـا الخـراب، كانت من مدن الـروم العتيقة، ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها ولها قلعة حصينة، ثم وصلنا نصف الليل ووصلنا بزاعة).

وقال ياقوت الحموي في عام ٦٢١هـ يصفها في كتابه معجم البلدان (منبج بلد قديم ومأأظنه إلا رومياً. وهي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وارزاق واسعـة في فضـاء من الأرض، كان عليهـا سور مبني بالحجـارة محكم بينهـا وبـين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ، وشربهم من قني تسيح على وجـه الأرض وفي دورهم آبـار أكثـر شربهم منها لأنها عذبة صحيحة وهي لصاحب

حلب في وقتنا . . ومنها البحتري وله بها أملاك وقد خرج منها جماعة من الشعراء . . » .

وردت في شعر ابي فراس الحمداني باسم منبج السوداء ، وكان عندما يغيب عنها يتشوق اليها ويذكر ايامه ومنازله فيها . وقد ذكرها الشعراء من ابنائها وغيرهم بشعرهم منهم ابراهيم بن المدبر ، ولقد خرج منها جماعة من الشعراء والكتاب والفقهاء والمحدثين في مختلف العصور منهم عبد الملك بن صالح الهاشمي واليها بعهد الرشيد يضرب به المثل بالبلاغة . وأبوعبادة الوليد بن عبد الله البحتري من قبيلة طي ولد سنة ٢٠٦ ومات في منبج سنة ٢٨٤ شاعر الدولة العباسية وشاعر العرب .

ويعتبر الشاعر حبيب بن أوس الطائي منبجياً كما روى ابو الفرج الأصفهاني في الأغاني خلافاً لرواية ياقوت والمسعودي المتأخرتين ولد سنة ١٩٠ ومات سنة ٢٣١ ومن المحدثين سنان بن بكر الطائي وهشام بن خالد . وابوبكر محمد بن عيسى الطوسي ، وابو القاسم عبد الله بن احمد الطائي وابو العباس عبد الله بن عبد الملك المنبجي .

وفي عام ١٢٩٥هـ = ١٨٧٣م قدم على حلب مهاجرون جراكسه من القفقاس فأقطعتهم الحكومة العثمانية خربة منبج فبنوا فوقها بيوتاً لهم من انقاضها ، ولذا اختفت بقايا آثار الأبنية القديمة التي كان رآها السائحون في القرن السابع عشر والثامن عشر فيها .

وفي سنة ١٣٠٢ هـ أمر السلطان عبد الحميد بترميم جامعها القديم وهو من آثار نور الدين محمود الزنكي بني سنة ٥٥١هـ كما هو مرقوم على حجر في مأذنته . وأمر ببناء مدرسة على نفقته . ثم تهافت عليها السكان من حلب والباب وغيرهما للعمل في التجارة والصناعة والزراعة .

ومنبج منذ العهد السوري مركز منطقة منبج ، يحدها من الشرق نهر الفرات ومن الغرب منطقة الباب ومن الشمال منطقة جرابلس ، ومن الجنوب طريق حلب

دير الزور والبادية . نفوس المنطقة نحو سبعين الفاً منهم ٢٠٠٠ جراكسة يقيمون في بلدة منبج التي تعد نحو سبعة آلاف ونحو ١٠٠٠ من الأكراد والباقي عرب من منابت مختلفة بشكل عشائر ١ ـ ابلاديش . ٢ ـ النعيم ، ٣ ـ ولد علي بدو عنزة ، ٤ ـ الأبوبنا من عشيرة البوشعبان ، ٥ ـ التوامات من الحديدين ، ٦ ـ بنو سعد : عشيرة كبيرة أصلها من انحاء دير الزور زبيدية ، ٧ ـ الأبو سلطان : فرقة كبيرة اصلها من عشيرة البقارة من دير الزور وهم احلاف عشيرة بني سعد ٨ ـ العون من بني سعد وقيل من قيس ، ٩ ـ الجلاد ، ١٠ ـ العميرات من الأبو شعبان ، ١١ ـ بنو عصيد ، ١٢ ـ الأبو بطوش من عشيرة العبيد بالعراق ، ١٣ ـ ابو خميس ، ١٤ ـ ولدة .

تتألف المنطقة من نحو اربعماية قرية ، كان العدد الأكبر منها في العهد العثماني من املاك السلطان عبد الحميد الخاصة (جفتلك) . عادت إلى خزانة الدولة بعد الانقلاب العثماني ١٩٠٨ .

مساحة المنطقة ستة آلاف كم مربع يمر نهر الفرات شرقيها ويخترقها نهر الساجور وطوله فيها ٧٠ كم من الحدود التركية إلى مصبه في الفرات الهوشرية ، تزرع على شواطئه الخضار واشجار الحور والقطن . وللمنطقة ناحية واحدة هي ناحية مسكنة مركزها قرية الخفسة . وفي المنطقة فصيل للشرطة يتألف من ثمانية مخافر في انحائها . وفيها ٤٠ مدرسة ونحو الف مضخة على الفرات وعلى الآبار ، ونحو ماية الف راس غنم و٢٧ ألف ماعز و ١٥٠٠ جمل . وفي بلدة منبج دار للحكومة بنيت سنة ١٩٢٧ ومستوصف انشيء سنة ١٩٥٣ وثلاث مدارس ابتدائية وواحدة للإناث ومتوسطة انشئت حديثاً ، وسوق للبضائع وسوق للحيوانات شرقي المدينة ينعقد كل يوم اربعاء ويقصد من انحاء المنطقة .

وفي جنوبها مسجد آخر فيه قبر الشيخ عقيل المنبجي ، وفي غربيها بحيرة صغيرة مياهها من رشح القنوات القديمة الكثير في منبج ، كان سوق الحيوانات المذكور يقام على شاطئها كل يوم جمعة .

يصلها بمدينة حلب طريق عام معبد يتجه نحو الشمال إلى بلدة جرابلس السورية على ضفة الفرات الغربية، وتبعد عن منبج ٣٨ كم، وتجارة منبج مع حلب تستورد منها البضائع وتصدر اليها حاصلاتها من القمح والذرة والشعير والقطن والماشية.

وتزرع الخضار والفاكهة في منبج وفي بعض قراها، ولقرية ابو قلقل شهرة ببستانها الكبير الذي تملكه الدولة وبنهرها الصغير، كان لمنطقتها نائبان في البرلمان السوري.

وزراعة المنطقة منها سقي بواسطة المضخات على الفرات والساجور وعلى الآبار وزراعة بعلية على الأمطار ومعظم المشاريع الزراعية فيها لأهالي حلب.

وبلدة منبج منورة بشبكة كهربائية انشئت سنة ١٩٥٢ وفيها مشروع مياه للشرب تؤخذ مياهه من نبع غزير عذب داخل المدينة وهواؤ ها جيد، تهب عليها رياح غربية في الربيع والصيف تثير الغبار ولو عمرت ضاحيتها وزادت مغارسها لخف ضرر هذه العواصف، ويتقدم فيها العمران وتتحسن احوالها، على ان نسبة الأمية ما زالت مرتفعة كثيراً في المنطقة في الوسط العشائري تبلغ ٩٠٪.

لم يبق من اطلال منبج القديمة وآثارها سوى كسور احجار واعمدة وقواعد وتيجان أعمدة تقع عليها عين الزائر بكثرة عند دخوله البلدة وتجواله في احيائها وبعضها داخلة ضمن جدران البيوت. ورؤوس وتماثيل أمام دار الحكومة، وفي متحف حلب بعض آثارها من ذلك تمثال من الحجر الأسود لكاهن منبج الأكبر. وكان الأثري الفرنسي كيليوم راي زار منبج سنة ١٨٦٠ ووجد قرب البحيرة انقاض تعود للهيكل، عثر بينها على تمثال صغير للآلهة اتراكاتيس وعثر النباشون فيها على بعض العاديات نقلوها إلى الخارج. وفي غرب البلدة اطلال قصرين قديمين ينسبان للبنات يملك احدهما الجركس ويملك الثاني العرب، وكان احسن الأطلال سور منبج، وفي خارج منبج مقبرة رومانية، وبمنطقتها توجد قلعة النجم على ضفة الفرات الغربية. زرت منبج عام ١٩٤٢ قادماً اليها من حلب

وجئتها من دير الزور عام **١٩٥٦** بطريق مسكنة التحتاني ذهبت منها إلى قلعة النجم .

قلعة النجم

حصن الأيوبيين على الفرات

تقع على ضفة الفرات الغربية شرقي بلدة منبج. تبعد عنها ثلاثين كيلومترا. في مكان هام من الناحية الجغرافية والاقتصادية والعسكرية ولذا قامت عنده هذه القلعة الحصينة المنيعة، لا تزال على كثير من جدتها وروعة بنياتها واتقان عمارتها، رابضة فوق اكمة من اكمات الفرات ذات الصخور البيضاء الهشة تطل من الشرق على نهر الفرات الذي يجري من تحتها، وامامها عبر النهر سلسلة اكام في منطقة عين العرب من مناطق حلب. وتشرف من جهة الشمال على اكام صخرية بيضاء، ومن جهة الجنوب على عدوتي الفرات وفيها قرى عديدة، وإلى شمال قلعة النجم بلدة جرابلس السورية (قرقميش) الحثية على بعد ١٨ كم وإلى جنوبها موقع سد يوسف باشا، حيث كان يراد اقامة سد عنده على الفرات من قبل الحكومة السورية.

كانت القـوافـل والجحـافل القادمة من الجزيرة الفراتية من حران او الرها او من ماردين او من الموصل مارة بنصيبين ورأس العين متجهة إلى الشام تمر منها من فوق جسر كان عند اقدام القلعة. وكذلك الجحافل والقوافل الآتية من الشام تمر من فوق الجسـر، وقـد خرب. وروى بعض سكان المنطقة انه كانت آثار من ركائز الجسـر باقيـة إلى مدة قريبـة وكان الأهلون ينتزعون الرصاص من بين صخور هذه الـركـائز. ويجري اليوم العبور بين الضفتين بواسطة زورق خشبي بدائي الصنعة. وتوجد عندها اليوم قرية صغيرة باسم النجم من قرى منطقة منبج بمحافظة حلب.

كانت القلعـة لحمايـة الطـريق التجـاري بين الشام والجزيرة الفراتية واهمية القلعـة في كونهـا مدخـل لبـلاد الشام للقادمين من شمال العراق ومن بلاد الجزيرة الفـراتيـة، وكـان صاحبهـا يتقـاضى رسـوماً من العابرين فوق جسرها او من عند معـبرهـا بالزوارق بعد خراب الجسر. والعبور اليوم من عندها بزورق خشبي لقاء رسم يأخذه ملتزم يلتزمه من بلدية منبج، ويقدم الزورق.

كانت القلعـة تتحكم بهذا الممـر وتحميـه، وقـد حفـر حولها خندق في قلب الصخـر عمقـه خمسـة امتار وعرضه خمسة وعشرون متراً. قسم منه ما زال ظاهراً. وأقسـامـه مملوءة بالـتراب وانقـاض القلعة وحجارتها المتدحرجة من بنيانها والقلعة مستطيلة الشكل في الجملة، طولها من الشرق إلى الغرب ١٧٠ متراً ومن الشمال إلى الجنـوب ١٣٠ متراً ذات طابقـين ولهـا ثلاثـة جدران ضخمـة عاليـة، فالأول الخـارجي الـراكب على طرف الأكمـة المنحـدر علوه ١٨ متراً، وعلو الثـاني ثمانية امتار، وعلو الثالث خمسة امتار وهو بشكل مدرج.

مدخـل القلعـة متجـه إلى الشـرق، لا يزال سليـماً، والبـاب مرتفـع نحـو مترين. غير ان الدرج قد دثر ولم يبق له أثر. ويصعد إلى القلعة من جهة الشمال من خلال فجـوة في الجـدار، وقد كتب على طبقة الباب بالخط النسخي سطران: «تجـددت في دولـة مولانـا السلطـان الملك الظـاهـر لمدة اولها بسنة خمس وستمائة،

وآخـرهـا سنـة اثنى عشـرة وستـماية» وبعد الباب بخمسة امتار دهليز قام في طرفيه جداران متقـابـلان علوهما نحـو عشـرة امتار، في الشمال الأيمن منها باب ذو قوس شاهق جميل البناء ينفذ إلى غرفة خفراء الباب، وفي خارج هذا القوس كتابة على الجـــدار هذا شكلهـــا: «بلعـه المنصـو. صنعهـا ابـراهيم بن نان المنبجي الملك الظاهري رحمه الله» اهـ.

ويـاقبـل هذه الكتـابـة في الجـدار المقـابل كتابة اخرى لم نتمكن من قراءتها لعلوهـا. ومـا زالت دهاليز وممرات القلعة سالمة، وكلها معقودة بالحجارة المنحوتة، وينفذ من هذه الدهاليز إلى قاعات وغر مظلمة، كلها معقودة بالحجارة المنحوتة، وقـد سقطت بعض العقـود، وفي وسـط عقـودها كوات النور، وفي وسطها: باحة سماويـة، وفي جهتهـا الشـرقي جامـع داخـل القلعة، جدرانه الثلاثة سالمة، وفيه محراب وعلى يمينـه دائـرة فيهـا اسم الجـلالـة، والجـدار الرابع الشرقي، وسقف الجـامـع متهـدم، ما عدا غرفـة متصلة بالجـامـع سالمـة وعلى باب الجـامـع كتابة مطمـوسـة، وقـد سقطت مأذنته وفي بعض الجدران منافذ تنفذ من الطابق الأعلى إلى الأسفل كانت ابارا.

مر بقلعـة النجم الـرحـالـة العـربي ابن جبـير في العـاشر لربيع الأول سنة ٥٧٩هـ قادماً اليها بطريق الموصل، بعد ان اجتاز بنصيبين وبحران، قال. «كان وصولنا إلى الفرات وعبرنا في الزواريق المقلة المعدة للعبور إلى قلعة جديدة على الشـط تعـرف بقلعـة نجم وحولها ديار بادية وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف وخبـز، فأقمنـا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول مريحين خلال ما تكمل القافلة بالعبور، وإذا عبرت الفرات إلى الشام وسرت في طاعة صلاح الدين (الأيوبي) إلى دمشق. والفـرات حد بين ديـار ربيعـة وبكر، وعن يسار الطريق في استقبالك الفـرات إلى الشـام مدينـة الرقة، وهي على الفرات وتليها رحبة مالك بن طوق، وتعـرف برحبـة الشـام، وهي من المدن الشهيرة، ثم رحنا منها (قلعة النجم) عند

قلعة النجم (٣٠ كم شرقي بلدة منبج)

مضي ثلث الليل الأول وأسرينا ووصلنا مدينة منبج مع الصباح من يوم الجمعة الحادي عشر لربيع المذكور والثاني والعشرين ليونيه» اهـ.

وذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان قال: «قلعة النجم: بلفظة النجم من الكواكب، وهي قلعة حصينة مطلة على الفرات على جبل تحتها ريض عامر، وعندها جسر يعبر عليه، وهي معروفة بجسر منبج في الاقليم الرابع.. ويعبر على هذا الجسر القوافل من حران إلى الشام، وبينها وبين منبج اربعة فراسخ، وهي الآن (سنة ٦٢١) في حكم صاحب حلب الملك العزيز ابن الملك الظاهر ابن الملك الناصر يوسف بن ايوب» اهـ.

ذكر مؤرخو الافرنج ان مكان قلعة النجم كان يدعى في عهد الرومان (كاسيليانا) وان هذه القلعة قديمة. ملكها بنو حمدان، ثم بنو مرداس، ثم بنو نمير. وآلت إلى الايوبيين، ورممها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الايوبي، وتعاورتها الأيدي إلى ان خربها التتار بقدومهم إلى منبج من الجزيرة الفراتية. كانت خراباً في القرن الثامن الهجري وقد زاد خرابها في سنة ١٢٣٧هـ عندما تحصنت فيها فرقة من الأعراب كانت عاصية على الدولة ومتمنعة عن اداء الضرائب، فجاء الجند العثماني واطلق مدافعه على القلعة.

وفي بعض المصادر ان الذي عمرها نجم غلام الصفواني. تسكت المصادر عن هوية نجم هذا وزمنه.

ان هذه القلعة الحصينة الجميلة قديمة لا نعرف تاريخ بنائها ولا بانيها وهي احدث قلعة على شاطىء الفرات، تبدو بالنسبة لقلاع الفرات جديدة البنيان في الجملة. وقد أهملت في الأزمنة الماضية، ولم تتخذ مديرية الآثار أي تدبير للمحافظة عليها وصيانتها، ولفت الانظار اليها وجعلها مكاناً سياحياً. ولم يرد عنها شيء في مجلة الحوليات الأثرية السورية، ولم تنشر لها حتى صورة.

اتيح لي زيارتها في صيف عام ١٩٥٦ جئتها خصيصاً بسيارة من دير الزور، أخذت طريقي من مسكنة (بالس) إلى منبج شرق الطريق العام بين حلب ـ دير

الزور ومن منبج ذهبت اليها، وفي عودتي بت بمنبج لأزور معالمها الأثرية في اليوم التالي. والتقطت صوراً للقلعة وأقسامها.

ولقد زارها المهندس الزراعي وصفي زكريا في صيف عام ١٣٤٥ هـ ووصفها في كتابه «جولة جثرية في بعض البلاد الشامية» المطبوع في المطبعة الحديثة بدمشق ١٩٣٤ وهو الوحيد الذي كتب عنها بكتاب مطبوع فيما أعلم.

قال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (١١٣٥ - ١٢٠٠م) من مشاهير وزراء صلاح الدين الايوبي، من رسالة يصف بها قلعة النجم، جاءت في كتاب «هاية الأرب» للنويري ج١.

«هي نجم في سحاب، وعقاب في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة وأنملة إذا خضبها الاصلي كان الهلال لها قلامة، عاقدة صبوة صالحها الدهر ان لا يحلها بقرعة، بادية عصمة، صافحها الزمن على ان لا يروعها بخلعة، فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لم تطبع طبع حمص في العقارب وضربتها بحجارة اظهرت فيها العداوة المعلومة في الأقارب، فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثرت فيها الحجارة، ولم يصل إلى السابعة الا والبحر مؤذن بنقبها، فاتسع الخرق على الراقع، وسقط سعده عن الطالع، إلى من هو إليها طالع، وفتحت الأبراج، فكانت ابواباً، وسيرت الجبال فكانت سرابا» اهـ.

لانعلم الظروف التي كتب فيها القاضي الفاضل رسالته هذه. ولا بد ان تكون عى أثر محاصرة السلطان صلاح الدين لها بطريق قدومه من الشام إلى الجزيرة الفراتية، وكان القاضي الفاضل يرافقه في رحلاته في مصر والشام والجزيرة الفراتية.

قرقميش (جرابلس)

عاصمة الحثيين على الفرات

بلدة جرابلس مركز منطقة جرابلس، احدى مناطق محافظة حلب، تعد نحو أربعة آلاف نسمة، يتألفون من ارمن وعرب مسلمين ومسيحيين. تقع على ضفة الفرات الغربية شمال شرقي مدينة حلب على بعد ١١٨كم وشمال بلدة منبج على بعد ٣٨ كم، وشمالها بلدة بيره جك (البيرة القديمة) على ضفة الفرات الشرقية على بعد عشرين كيلومتراً في الحدود التركية.

كانت منذ عهد قريب قرية صغيرة مقسومة إلى قسمين أحدهما في الحدود التركية على ضفة الفرات الشرقية، والثاني ضمن الحدود السورية وهوجرابلس.
أول من نبه على وجود بقايا أثرية فيها الرحالة الانكليزي (هنري مندرال) سنة ١٧١٤ في كتابه «رحلة من حلب إلى اورشليم»، وذكرها بعده المستشرق

بوكوك عام ١٧٣٧ ، واول من حدد وضعها الجغرافي ورسم مخططها قنصل انكلترا في حلب (الكسندر درموند) في كتابه «رحلات . . حتى شواطىء الفرات» .

وأول من حقق ان جرابلس هي قرقميش عاصمة الحثيين جورج سمث بمساعدة قنصل انكلترا في حلب و. هـ. سكيني في آذار سنة ١٨٧٦ ، وهذا التحقيق حدا بالمتحف البريطاني ان يرسل حملة للبحث والتنقيب فيها ، ابتدأت سنة ١٨٧٩ ، بعد جهود عديدة لشراء الأراضي التي تقع فيها المدينة القديمة من اصحابها ، وانتهت في سنة ١٨٨١ بموت جورج سمث ، ثم ابتدأت ثانية في عام ١٩١١ برئاسة (د. هـ. هوجارت) ثم برئاسة (ت. ل. فالي) (وت. ي. لورنس) .
وكان الاعتقاد السائد حتى عام ١٨٧٠ ان قرقميش هي «سريزيوم» /قرقيسيا/ القديمة ، بلدة البصيرة حالياً على ضفة الفرات الشرقية عند مصب نهر الخابور في الفرات تبعد عن دير الزور ٤٢ كم ، إلى الشرق الجنوبي مركز ناحية البصيرة بمنطقة الميادين بمحافظة دير الزور ، أو أنها منبج وان اسم جرابلس هو من كلمة هيرابوليس ، وهو اسم منبج القديم ، انتقل إليها بعد خراب قرقميش ، عندما سقط عن منبج . وعاد اسم هيرابوليس إلى جرابلس وقيل ان كلمة جرابلس هي من آروبوس ، وهذا الاسم اطلق عليها في العهد الروماني ، ومن ثم تحول إلى جرابيس او جريبيس . وهي اليوم قرية صغيرة جنوبيها ، وبقاء الاسم يطلق على القلعة يؤكد ان البقايا الرومانية ـ السورية ـ هناك هي بقايا آروبوس ، وقد أضيف إلى القسم الأول من الكلمة بلوس التي هي تحريف بوليس ، وعلى الاستعمال اصبحت جرابلس ، والأرجح ان هذا الاسم انتقل اليها من اسم قبيلة قديمة .

تمتد اطلال المدينة القديمة في أراضي جرابلس الحالية وتشكل هضبة حوارية على شاطىء الفرات الغربي ، وترتفع اراضي جرابلس عن سطح البحر ٣٢٥م ، وعندها يدخل نهر الفرات حدود اراضي الجمهورية العربية المتحدة مقبلاً من الأراضي التركية .

يرتقي عهد المدينة القديمة إلى ازمنة ما قبل التاريخ ، ويظهر أن شعباً لا

يزال مجهولاً اختطها في العصر الصواني العريق في القدم، ثم انتقلت إلى ايدي شعوب عديدة شأن المدن القديمة على شواطىء الفرات.

تبين بنتائج الحفريات ان الحثيين أتوا اليها نحو عام / ٢٠٠٠ / ق.م، وبنوا فيها قلعة ذات شكل بيضوي تهيمن على الفرات، لها منحدرات من الجانبين، ولقد اتسعت المدينة التي كانت في داخلها خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، فتجاوزت حدودها السور، فاضطر سكانها لبناء سور ثانٍ خارج السور الأول، وجعلوا له ثلاثة أبواب، حول كل منها برجان، بينها الواح منحوتة ومزينة بمواضيع ميثولوجية وحيوانية ومشاهد صيد، وكان لسور المدينة نحو مائة برج متوزعة على اطرافه. واخذت المدينة تتقدم بسرعة في طريق الحضارة، وبلغت اوج عظمتها في النصف الأول من الألف الأول. واتسعت كثيراً حتى اندفع اهلها الى بناء سور ثالث أكثر اتساعاً من الثاني، بفضل موقعها من نهر الفرات على ملتقى طرق القوافل، حتى تفوقت على سائر الحواضر الحثية رقياً وعمراناً، واصبحت تعد من اكبر العواصم الحثية، ومن اهم مراكزهم الحربية في مناجزة الأشوريين، لأنها كانت على ضفة الفرات بمثابة مفتاح من جهة الشرق. ولذلك بالغ الحثيون في تحصينها وسموها قرقميش وهو مؤلف من كلمتين قر ومعناها قرية. وقميش اسم إله عند المؤآبيين يقرب في المنزلة من البعل عند الكنعانيين، فيكون معنى قرقميش الاله اوحسن الاله. ولقد تطورت اسوار المدينة من الشكل البيضوي إلى الشكل الربع.

ان الشعب الحثي من الجنس الآري، له لغة ومدنية خاصة تختلف اختلافاً كبيراً عن الساميين الذين خرجوا من جزيرة العرب.

كان الحثيون في أول امرهم قبائل تحالفت تحت زعامة ملك حثي واسسوا دولة شملت بلاد الأناضول، وكانت عواصمهم بوغازكوي، وزنجرلي في الأناضول وقرقميش على الفرات الأوسط او الفرات السوري.

اخذت الدولة الحثية بالتقدم نحو الجنوب، فاصطدمت بدول سورية

وبالمصريين وتوسع الحثيون على حساب الدولة الأمورية الثانية التي كان مركزها مدينة حلب، وكانت دولة مستقلة يرعاها ملوك الحثيين، وقد قويت حتى ناصبت الحثيين العداء فزحف عليها الملك الحثي مورسيل الأول ودمرها، ثم زحف على بابل في القرن الثاني عشر قبل الميلاد فاكتسح مدينة بابل ونهبها وعاد الى العاصمة حاتوشا بكنوز كثيرة، فازدادت حاتوشا غنى وعمراناً، واصبحت قاعدة الحثيين الكبرى حتى اضمحلال أثرهم من آسيا الصغرى.

كان سويلوليوما (١٤٤٧ ـ ١٣٨٧)ق.م اكبر ملك في سلالة الملوك الحثيين، وآخرهم شأناً. حرر مقاطعة غربي الفرات من حكم الميتانيين الذين اسسوا دولة في اعالي نهر الخابور، واقام احد ابنائه ملكاً على قرقميش وآخر على حلب، وذاع صيته وخطبت مصر وده. وما لبث الحثيون حتى اشتبكوا مع المصريين بحروب عنيفة، اضطرت الحثيين إلى موالاة الدول المجاورة ومحالفتها ليتفرغوا للمصريين. وقد نشبت معظم المعارك بين الطرفين عند مدينة قادش قرب بحيرة قطينا وتسمى بحيرة حمص. وكانت قادش في حيازة الحثيين بمثابة حصن لصد المصريين عن التقدم شمالاً. وعندها دحر رمسيس الثاني العاهل المصري الحثيين.

وكانت مملكة آشور قد قويت وبدأ ملكها (سلمناصر الأول) ١٢٦٠ ـ ١٢٨٠ يطمع بالاستيلاء على البلاد الحثية العامرة. وخشيه الحثيون وعقدوا مع المصريين معاهدة تحالف. ومكّن اواصر التحالف بين الطرفين زواج الملك رمسيس الثاني من ابنة الملك الحثي حاتوشيل الكبير عام ١٢٦١ق.م واتخذ المصريون الحثيين حاجزاً بينهم وبين الآشوريين. وفي عام ١٢٠٠ق.م قامت شعوب اخرى بالغارة على سورية وهي المسماة بشعوب البحر، فأضعفوا الدولة الحثية. فاخذت تقوم هنا وهناك دويلات حثية تشبه دويلات المدن السومرية في الجنوب، ومن هذا الدويلات الجديدة: قرقميش. وحماة. وغوزانا (تل حلف) في اعالي الخابور عند رأس العين.

أنشأ الحثيون عدة مدن، بلغت بعضها شأواً رفيعاً من العمران والرقي مما اطمع بها آشور فهاجمتها في سنة ١١٠٧ق.م. حملت على عاصمة الحثيين فاستسلمت وسلبوها كنوزها وقصورها وخربوها. وسنحت الفرصة للشعوب الخاضعة للحثيين فثارت وتحررت. فتمزقت المملكة الحثية في آسيا الصغرى.

وسأم الآشوريون الحثيين صنوف الذل والعذاب مما جعلهم يهاجرون إلى الجنوب ويتخذون من مدينة قرقميش قاعدة لهم وحصناً فازدادت ازدهاراً واصبحت مدينة منيعة ومركزاً تجارياً هاماً بين الأناضول وسورية وبلاد الرافدين والبحر الأبيض المتوسط وبقيت محتفظة بمركزها حتى بعد ضعف الحثيين.

تسرب الآشوريون إلى المملكة الجديدة قصد الاستيلاء عليها بالسياسة بعد ان تغلبوا على معظم البلاد السورية. واعترفت مصر في عام ١١١٠ق.م. بسيادة الملك الآشوري تفلا تفلاسر على سورية وفلسطين وما بين النهرين، وسكنها الآشوريون والبابليون في أيام الملك البالي نبوخذ نصر بعد معركة جربت بينه وبين المصريين، واصبحت قرقميش ملتقى التجار من مختلف الشعوب. وكانت آخر مدينة أقامها الحثيون في جنوب بلادهم هي مدينة قادش.

ظلت قرقميش تقاوم النفوذ الآشوري عدة اجيال إلى أن هاجمها الملك آشور ناصر بال الثاني عام ٨٧٦ق.م واذلها وفرض جزية ثقيلة عليها وكذلك فعل الملك سلمناصر الذي حارب الدول السورية مجتمعة.

كانت نهاية قرقميش على يد الملك الآشوري سرجون الثاني (٧٤٤ - ٧٥٠) حين تحالف ملكها بسيرس مع الميكائيين وهم احدى القبائل الحثية الكبرى، للوقوف في وجه آشور التي كانت متفرقة بالعدة والعدد، ولم يكن الحثيون على وفاق بعضهم مع بعض فغلبوا على امرهم سنة ٧١٧ق.م واصبحت قرمقيش ولاية آشورية.

وكما قضى الآشوريون على الحثيين، قضى البابليون على الآشوريين ودمروا عاصمتهم نينوى نهائياً، ووقعت بلاد غربي الفرات بيد البابليين وكانت شعوب

سوريـة تطمـع باستعـادة استقلالها، وكانت مصر استيقظت وقام عليها ملوك ذوو همم عاليـة وفيهم فرعـون نخـو طمع في استعادة نفوذ اسلافه في سوريا والاستيلاء على قرقميش، وانحـازت اليـه شعـوب سوريـة فجـاء إلى قرقميش فسـير الملك البابلي نيوبلاسر ابنه نبوخذ نصر على رأس جيش كبير إلى قرقميش حيث الجنود المصـريـين وجـرت بين الفـريقين معركة كبيرة في نفس قرقميش انتصر فيها نبوخذ نصر نصراً مبيناً، وارتد نخو مهزوماً، ووضع نبوخذ نصر يده على قرقميش وجعل فيهـا حاميـة من قبله وتعقَّب المنهـزمين، وأذعنت شعوب سورية وفلسطين لطاعته بعـد وقعـة قرقميش، وكـانت أهميتهـا التجارية قد تضاءلت واضمحلت واستولى عليهـا بعـد البابليين الماديون الفرس، ولكنهم لم يعيشوا فيها لبعدها عن بلادهم. ثم صارت إلى الاسكندر المقدوني الكبير ومن بعده إلى خلفائه السلوقيين.

وجدد اليونان بنيانها لحسن موقعها الجغرافي والتجاري وللاعتبار الذي كان لها. وسـادت فيهـا اللغـة اليـونـانية وسكنتها جالية يونانية وسموها اسماً جديداً هو ترجمـة لأسمهـا القديم اومناسب له: «هيرابوليس» وهو اسم مؤلف من كلمتين: هيرا وهو اسم اله عند اليونان، وبوليس معناه مدينة.

وتقلبت بقرقميش الأيام فصارت إلى الرومان ثم إلى العرب، وكان فتحهم لها مع فتـح تمنبـج، وعـرفت عند المسلمين في ذلك الوقت باسم قرية الجسر، ولم يكن الجسـر يومئـذ موجـوداً، وانـما احـدث في خلافـة: عثمان للصوائف، وربما سماها العرب منبج القديمة، اومنبج العليا، وكانت قرية. ولعلها هي التي سماها ياقوت الحـوي في معجم البلدان (جـرباس) عند كلامه على دير قنسرين الذي كان على الفرات في تلك الجهات.

كانت في أيـام الـدولـة الآشـوريـة مدينـة عظيمة كثيرة الأشجار والبقول. وكانت دورها وسورها بالحجارة.

وبقي اسمهـا قرقميش «مـدينـة الالـه» وكان فيها معبد لقدماء السوريين،

وكان يأتي اليها المسافرون من مدينة البيرة (بيرة جك) على الزوارق والأطواف في الفرات .

وجد في خراباتها عاديات كثيرة عليها كتابات بالقلم الهير وغلوفي وذكرت في الواح العائلة البابلية الأولى «قرقميسو» مما يدل على قدمها وذكرت في النقوش المصرية التي سجلها تحوتمس الثالث (١١٤٧ق.م) لتخليد حملاته على سورية والتي وصل في احداها إلى جوار قرقميش . وفي أيام الملك المصري امنحوتب الثالث ذكرت كاحدى المدن التي احتلتها القوات المصرية . وهذا غير مؤكد . ولا يوجد لها ذكر في رسائل تل العمارنة بينما نرى في نقوش احاض - نراري الثاني الموجودة في آشور ان هذا الملك اغار على قرقميش . وكذلك سجل خليفته سلمناصر الأول غارة عليها .

كانت قرقميش في زمن الحثيين مدينة تجارية كبرى ، قامت بنشاط تجاري مع بلاد الرافدين وبلاد البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى وبلاد الشام ، وكان الحثيون منذ أقدم عهودهم تجاراً من الطبقة الأولى وعلى اتصال وثيق بسائر امم الشرق ، يتجارون معها بشتى الأصناف ، وأهمها الأصواف والماشية والمعادن . وكان عندهم شبه مصارف تجارية لترويج معاملاتهم وتداول نقودهم على عقود بيع وشراء وتسليف ومؤسسات اشبه بالغرف التجارية تعين فوائد القروض ، وتحسم الخلافات بين التجار ، وكانت قيودهم تختم بالرصاص خاتم الغرفة التجارية او المؤسسة التجارية .

وعندما تقدموا في الحضارة مهروا في تنقية المعادن وصياغتها ، واتقنوا صنع الأسلحة وسائر مستلزمات الحضارة من معدن الحديد في ذلك الوقت .

وكانت صناعاتهم مؤممة (ملكاً للدولة) . وصار بعض ملوك الدول الأخرى يوصون على صنع حلي وسلاح في معامل قرقميش الحثية . وكان الأمن مستتباً على طرق مواصلاتهم التجارية ، وشادوا المخافر والحصون على هذه الطرق . كانت قرقميش منفذهم على نهر الفرات ، وعقدة مواصلاتهم مع بلاد الرافدين .

وكـان الفـرات طريقـاً مائياً وتجارياً من هم طرقهم . وكانت لهم عليه معاقل وقلاع كثيرة على ضفتيه لحماية تجارتهم فيه ، ولا يزال على التلال المطلة على الفرات آثار قلاع ، من المؤكد انها حثية في الغالب ، إلا ما عرفت نسبته إلى دول معينة جاءت بعدهم .

ان اكتشـاف الحضـارة الحثيـة أوضـح فضـل قرمقيش واخواتها الحثية على المـدينـة ، والقى نوراً على تاريـخ الحضارات قبل أربعة آلاف سنة . يضم متحف حلب عدداً من آثار قرقميش والدويلات الحثية .

كانت قرقميش قبل سنة ١٣٢٩هـ من جملة الخرائب القديمة التي يقصدها هواة الآثـار، وقـد استخـرج السكـان من خرائبها اواني خزفية وزجاجية ونحاسية وتمـاثيـل حجرية باعوها من تجار العاديات بحلب وبيروت ، وقد وضعت الحكومة السـوريـة حداً لذلـك عندما سنت قانون الآثار، وكانت إلى السنة المذكورة قرية صغـيرة شاد عنـدهـا الألمـان على الفـرات سنـة ١٩١١ جسراً حديدياً لمرور قطار بغداد، واتخذت محطة لهذا القطار، وتقع المحطة اليوم في الحدود التركية على بعد كيلومـتر شمال جرابلس السـوريـة . ويملك الأتـراك هذا الجسـر ولهم عنده جنود لحراستـه ولا يستعمـل إلا لمرور القطار، وعند بلدة جرابلس السورية إلى الجنوب على الفـرات سفينـة خشبية عادية للعبر بين شفتي النهر يلتزمها شخص من بلدية البلدة، ويتقاضى رسماً معيناً على نقل الأشخاص والدواب والسيارات .

ابنيـة جرابلس من الحجـر وشـوارعهـا مستقيمـة على شكل مربعات وفيها سوق تتـوفـر في حوانيتـه السلع المستـوردة من حلب ، وفيها معمل للدقيق ومعمل للجليـد وحـديقة عامة صغيرة ودار للحكومة بنيت عام ١٩٣٠ ، ومدرسة ابتدائية للذكور واخرى للإناث ومدرستان ابتدائيتان للأرمن .

يشـرب الأهلون من عين ماء في المـدينة تشرف عليها البلدية ، والبلدة منارة بالكهرباء منذ عدة سنوات ، يصله بحلب طريق معبد طوله ١١٨كم يمر بمنطقتي

الباب ومنبج، وفيها بساتين وبقول واشجار مثمرة وبطيخ اصفر له شهرة بتلك النواحي ومحطة الخط الحديدي التركي تسمى قرقميش باسم المدينة القديمة.

ولمركز المنطقة ٦٥ قرية. وفيها ناحية واحدة هي ناحية الراعي كانت تسمى (جوبان بيك) ومركز الناحية قرية الراعي نفوسها ١٥٠٠ وبيوتها من اللبن والحجر سكان عرب ولها ٤٤ قرية. وفي المنطقة اربعة مخافر للشرطة عدا مخافر الحدود.

تقع منطقة جرابلس كله على ضفة الفرات الغربية، وهي آخر منطقة للجمهورية العربية المتحدة في الشمال على الحدود التركية على الفرات، وتعد نحو أربعين الف نسمة معظمهم من العرب من العشائر التي اصولها في منطقة منبج. وهم قسم من عشيرة بني سعيد ومن الغنايم المنتمين لعشيرة الولدة. ومن ابو سلطان، ومن الخراج المنتمين إلى بني سعيد، ومن عشيرة الرق، ومن البوبطرش، والعون وحسان، ومن العكيدات، والمجادمه، والعجيل، والعماري، وغزة والمغار.

ان طول الفرات في المنطقة نحو ٢٥ كم وعليه مضخات لسقاية المزروعات من القطن والقمح والشعير.

ويجري نهر الساجور في المنطقة في الجهة الجنوبية بين منطقتي جرابلس ومنبج وطوله في حدودها ٤٨ كم ينبع في اراضي مدينة عينتاب التركية، ويصب في الفرات جنوبي بلدة جرابلس، وعليه جسر يمر فوقه الطريق الآتي من حلب إلى جرابلس. على ضفافه القرى، يستفاد منه في زراعة القطن والحور والأرز وعليه طواحين مائية، وورد ذكره في شعر الشاعر العربي الكبير البحتري المولود في منبج عام ٢٠٦هـ وتوجد في المنطقة ينابيع عذبة للشرب وآبار لسقاية المزروعات من حنطة وشعير وذرة وقطن وعدس.

كما توجد فيها زراعة بعلية، أما المواشي فقليلة وهي الماعز والغنم، ويوجد عدد من الدواجن والدجاج. وكان للمنطقة نائب في البرلمان السوري، وتجارتها مع مدينة حلب، وهي بتقدم عام مستمر.

الأديرة في وادي الفرات

في العصور القديمة

نهر الفـرات ودجلة توأمـان جنييـان يؤلفـان (بلاد ما بين النهرين) الشهيرة بالخصب والحضـارات القـديمة كان فيها قبل التاريخ الميلادي وحتى أواخر القرن الثـاني للميلاد ديانات شتى؟ بابلية، وفارسية، ويهودية، ووثنية عربية، وتدمرية، واغريقية، ورومانية وثنية.

وكـان سكـان مدن بلاد ما بين النهـرين خليطـاً من شعوب مختلفة العناصر والأرومات على رأسها الأراميون.

وكـانت في بوادي هذه البـلاد قبـائـل عربيـة نزحت من موطنهـا في الجزيرة العربية قبل الميلاد بعدة قرون، واجدة في بواديها وسهولها وجبالها ما يصلح لمعاشها ولرعي مواشيها.

وكـانت القبـائـل العـربيـة هذه تتنقل بحرية في براري بلاد ما بين النهرين

وأريـافهـا وتختلط بسكـان مدنهـا وقـراها تتأثر بهم وتؤثر فيهم . وقد حافظت على لغتها العربية وتقاليدها التي جاءت معها من الجزيرة العربية إلى اليوم .

وقـد سميت أقسـام بلاد ما بين النهرين باسم كبرى هذه القبائل وهي ديار ربيعة ، وديار بكر، وديار مضر.

انتشرت النصرانية في بلاد ما بين النهرين في النصف الثاني من القرن الثاني الميـلادي ونشأت فيهـا عدة كنـائس مسيحيـة ، وكان لهذه البلاد شهداء في سبيل النصرانية ذكرهم مؤرخو السريان في القرن الثالث للميلاد .

وفي القرن الرابع كثر النصارى في المملكة الفارسية وكان قسم كبير من بلاد ما بين النهـرين جزءاً من هذه المملكـة ، وصـار للنصرانية عدة اسقفيات ومدارس وعلماء فيهـا ، وكـانت بعض بلدان ما بين النهـرين تنقـل بين ايدي الروم والفرس بسبب الحروب .

وأمـا طريقـة الانفـراد في البراري والقفار، وعلى ضفاف الأنهار للتعبد من قبـل النصـارى أي السـيرة الـرهبانية؟ فقد نشأت في مصر أولاً موطن الرهبانية في القـرن الثـالث أو أوائـل القـرن الرابع ، ومنها امتدت إلى سوريا ولبنان . ولم تكن الرهبانية منظمة في قوانين مكتوبة تسير بموجبها الرهبان كما هي في أيامنا ، بل كان الأفراد يعتزلون في مكان يعيشون من كدّ أيديهم ، أو من صدقات المؤمنين، حتى ظهر القديس انطونيوس فنظم الرهبان في جماعات يسكنون الأديرة .

وكان مولده سنة ٢٥٢ ووفاته ٣٣٧ وهو مصري الأصل ، تتلمذ له كثيرون صاروا يسكنـون الـديـارات ويلبسون لباساً واحداً تقريباً ويخضعون لنظام واحد ، وشاعت الحياة الرهبانية وظلت تنمو وظهر رؤساء من الرهبان بنوا الديارات وسنوا لها انظمة اضافية . يقوم نظام الرهبان الداخلي على تقسيم ساعات النهار للصلاة والعمـل اليـدوي داخـل الـدير كالخيـاطـة والحيـاكـة والطبخ والنجارة ، وخارجه كالفلاحة كما تقوم الرهبنة على ترتيل الصلوات في اوقات معينة ، والرهبان ينذرون لله تعـالى الطـاعـة والعفة والفقر وهذا هو ركن الرهبانية ولهم كتب قوانين وفرائض

يتمشون عليها. وغاية الرهبانية الانقطاع عن العالم وقهر الذات بالتقشف والصيام والسهر والعمل. ولكل دير رئيس ونائب وامين صندوق وطباخ وموظفون آخرون، ولديارات الطائفة الواحدة رئيس عام يشرف على جميع الديارات يعاونه مديرون، ويعيش الرهبان عيشة مشتركة واحدة في الطعام والشراب واللباس. كما انتشرت النصرانية ونظام الرهبانية في مدن بلاد ما بين النهرين انتشرت في القبائل العربية التي وجدت في هذه البلاد منذ تاريخ انتشار النصرانية فيها. وتنصر خلق كثير من العرب لاختلاطهم بالكهنة والرهبان العائشين بجوارهم وبنيت لهم كنائس وكان رهبان النساطرة ورهبان اليعاقبة يتسابقون إلى عرب البادية ينشر تعاليمهم بينهم في القرن السادس ميلادي.

ونسبت الرهبانية إلى العرب فيما بين النهرين، فبنوا الأديرة في الحيرة وعلى ضفاف الفرات وفي اطراف بادية الفرات وبادية الشام، وكان من أشهر القبائل العربية واعلاها كعباً وأشدها شكيمة في الجزيرة الفراتية قبيلة تغلب من ربيعة عدنانية، وقد تنصرت في القرن الرابع بتبشير اساقفة ما بين النهرين.

وكان من تغلب اساقفة وكذلك تنصرت قبائل اخرى كالنمر وبني شيبان وطي واياد.

وكان ليعقوب البرادعي اتباع من العرب في الجزيرة الفراتية في القرن السادس واشتهر منهم جرجس اسقف العرب، وكان من علماء عصره وكان كرسيه في عاقولة بمنطقة الكوفة توفي سنة ٧٢٤هـ.

ومع سيادة الاسلام واسلام كثير من نصارى بلاد ما بين النهرين، بقيت النصرانية بين فريق من عرب سهول الفرات الشرقية والغربية في عهد الخلفاء الراشدين، وعهد بني أمية وبني العباس، وفيما يلي ذلك من العهود، وفي أخبار الشعراء ابي زبيد الطائي، والأخطل التغلبي، شواهد تبين وجود النصرانية في القبائل العربية بعد الاسلام.

والدير مكان وجود الرهبان وتعبدهم وسكنهم وعملهم، منها الصغير

والمتوسط والكبير وتجمع على اديار واديرة، وديور، وديارات، ويسمى الدير أيضاً العُمر، بضم العين جمعه أعمار. وقد اشتهرت بهذه التسمية عدة أديار، والعمر في لغة العرب نوع من النخل ويقال عمرت ربي أي عبدته، وفلان عامر لربه أي عابد.

وقد يكون مأخوذ من الاعتمار، والعمرة هي الزيارة. والديراني صاحب الدير الذي يسكنه ويعمره. ديار وديراني. نسب على غير قياس.

منذ تاريخ انتشار النصرانية في بلاد ما بين النهرين تتابع تأسيس الأديرة فيها وعلى ضفاف الفرات، وضفاف روافده: الخابور، والبليخ والساجور. لوقوع هذه المنطقة على طرف البادية ولتوفر الماء فيها ولوجود مدن كبيرة فيها اشتهرت بمدارسها النصرانية وكنائسها قبل الاسلام وبعده، وهي: الرقة، والرها ونصيبين، ورأس العين، وحران، وقرقيسيا. وبسبب خصوبة الأرض ويسرة المعاش.

وقد تحمَّس الأباطرة المستنصرون للنصرانية وأقاموا الكنائس والأديرة في مدن ونواحي بلاد ما بين النهرين، فقد تأسس في الرصافة وحدها خمس كنائس عد الأديرة، وأكثر ما كان يفد الرهبان لتأسيس الديارات على الفرات من: الرها ونصيبين، وحلب، وماردين وغيرها.

وكانت الأديرة غالباً ما تكون في أجمل المواقع بين الرياض والحدائق وعلى قمم الجبال والروابي. كانت الأديرة تشتمل على الكنيسة والهيكل والقلالي وبيوت المائدة والمخادع للمستودعات ودور الضيافة وصهاريج الماء والحدائق والبساتين والحانات لبيع خمور الدير للزوار.

وكما كانت الديارات تبنى بناءاً بالأحجار والمواد تنقر في الصخر الأصم، وكثيراً ماكانت الاديرة تحصن بالاسوار العالية وأبواب الحديد خوفاً من اللصوص. ولم تكن حتى هذه ترد عنها اعتداءات اللصوص، وكان لبعض الأديرة طائرة بنفاسة

البنـاء وأحكـام الصنعـة كدير الـرصـافة في بادية الفرات، وكان في بعض الأديرة عجائب من بدائع التصوير.

وكـانت القـلالي جمع قليـة وهي غرف الـرهبـان تقوم في جوار الأديرة ولكل راهب من المتنسبـين إلى الـديـر قلية خاصة تفصلها عن الدير وعمّا جاورها بستان صغـير يهتم الـراهب بزراعتـه ويرتزق من بيع غلته، يزاول الرهبان في القلالي ما يحتـاجـون اليـه من الصنـاعـات ويقـرأون فيه، وكان للأساقفة والبطارقة قلاليهم الخـاصـة، وإلى جانب الفـواكـه والخضـار يزرع الرهبان الرياض والأزهار لبيعها للزوار ورواد الحانات.

وكـان يقـوم إلى جانب بعض الأديـرة مرقب أو شبه صومعة، يدعى القائم لسكن أحد النساك المعتزلين. وهناك أيضاً أديرة النساء المتبتلات وتدعى راهبة أو ديرانية، أو ديرية وتختلف أنظمة بعض الأديرة اختلافاً بسيطاً.

وكـانت معظم الأديـرة تحتـوي على: امـاكن لايواء الزوار، والمجتازين بها واللاجئين اليها ولذا سمي ابن سيدة الدير خان النصارى.

ومن المـرجح أن معظم ماروي من نواد ماجنة على انها وقعت في الأديرة إنما حقيقة مسرحها دار الضيافة. وكان بعض الرهبان اصحاب القلايات يتخذون من قلاياتهم مشارب للخاصة والزوار حيث يقدمون لهم الخمر من كروم بساتينهم.

وكانت للأديرة تجارة ومعاملة واتصال مع الناس تبيعهم من غلات مزارعها وانتاجها لتغطية حاجات الدير وتأدية ما عليه للدولة من خراج، وقد قيل شعر كثير في اطار خمور الديارات، في العهود الاسلامية.

وكـان لأديـرة النسـاء حانـاتهـا كذلـك لبيـع الخمور قصد الاستعانة بثمنها لتسديد حاجات الدير وخرجه.

فيرى قاصـد الحـانـة راهبـة تديـرهـا ولا يعـدم ان يرى جواري حسان الوجوه والقدود والألفاظ.

وبعض الأديــرة كان يضم رهبـانـاً وراهبـات، لكـل جنس ناحيـة مختص بها فلا

جرم ان كان الاقبال على حانات الأديرة التي اجتمعت فيها لذات البصر والشم والذوق عميقاً وعظيماً لذلك قصدها الكثيرون من مختلف الطبقات وخاصة في مواسم الأعياد والزيارات. ومن الأديرة ما كان ينزلها الخلفاء والملوك والأمراء كدير الرصافة ودير زكى ودير القائم الأقصى.

ووصف الشعراء العرب القدامى حانات الأديرة وخمورها ورهبانها ووصف بعضهم لذاته فيها. واشهر هؤلاء ابو نواس اكثر الناس طروقاً لهذه الأديرة.

وكان غير المجّان يزورون الأديرة كعابري السبيل واصحاب الطرد والصيد والراغبين في الاستفادة من مواعظ الرهبان وحديثهم من النصارى والمسلمين.

وكانت النذور والهبات تقدم للأديرة من الكثيرين من النصارى والمسلمين من عدة أماكن وكان لباس الرهبان والراهبات المسوح الأسود وهو شعارهم يشدون فوقها الزنار وكان لباس الرأس هي القلانس وقد وصف رهبان الأديرة بالتقشف والعلم والآداب وحسن الأخلاق فضلاً عن أعمالهم الدينية وكثرة خلواتهم.

أما اللغات التي استعملتها النصرانية في هذه البلاد في القرون الأربعة الأولى فهي :

١ ـ الآرامية لغة بلاد ما بين النهرين وسواد العراق وبلاد الشام وبها كتب إنجيل متى وإليها نقلت التوراة عن العبرانية أواخر المئة الأولى.

٢ ـ اليونانية وكانت أشهر اللغات القديمة واكثرها انتشاراً في النصرانية بها كتبت معظم اسفار العهد العتيق واسفار العهد الجديد وبها بشر القديس بولس. وبها وضع اشهر علماء النصرانية القدامى مصنفاتهم.

٣ ـ اللغة اللاتينية والتي يقال لها أيضاً الرومية وكانت لغة الامبراطورية وتعلمها اهل بلاد ما بين النهرين وأهل الشام.

٤ ـ اللغة العبرانية لغة التوراة حذقها بعض أئمة النصرانية الأولين لضبط نصوص التوراة.

٥ ـ اللغة العربية لغة القبائل العربية التي كانت تقطن في بوادي بلاد ما بين

النهرين قبل التاريخ الميلادي بعدة قرون واستمر وجودها قوية متماسكة محتفظة بلغتها العربية إلى اليوم. وكان بعض افراد منها يحذق بعض اللغات المذكورة وكان الرهبان من اديرة مدن بلاد ما بين النهرين يحذق العربية ويبشر بها بين القبائل العربية.

٦ ـ اللغة الفارسية كانت شائعة في بعض مدن بلاد ما بين النهرين بحكم خضوعها في فترات للحكم الفارسي ولوجود جاليات فارسية فيها وبحكم التجارة.

كان في بلاد ما بين النهرين منذ القرن الرابع حتى السادس اديرة كثيرة. وعند الفتح الاسلامي كان فيها مائة دير. وقد كثرت الأديرة بعد الفتح الاسلامي بسبب استتباب الأمن واحترام المسلمين للبيع والأديرة ورهبانها.

فكان في الرها وحولها فيما رواه الرحالة «زيادة على ثلاثمائة دير» (مسالك الممالك ص ٧٦). وأبلغها ابن الفقيه إلى ثلاثمائة وستين ديراً (كتاب البلدان ص ١٣٤) ولا شك ان الروايتين مبالغ فيهما ولكنهما تدلان على كثرة الأديرة التي كانت في الرها وجبلها.

وقد تعرضت مدن واديرة بلاد ما بين النهرين ومعالم حضارتها لكوارث الحروب الكثيرة التي كانت تنشب بين الفرس والروم وما تعاقب بعد ذلك من حروب وفتن.

وهذه اسماء ما وصلني من اديار الفرات مع لمحات عن بعضها.

١ ـ دير حنظلة بن ابي عفراء الطائي من أهل الحيرة نسك في عهد ملكها المنذر بن ماء السماء. فارق بلاد قومه ونزل الجزيرة الفراتية مع النصارى حتى فقه في دينهم، وبنى ديراً بالقرب من شاطىء الفرات بين الدالية والبهنسة أسفل من رحبة مالك بن طوق (الميادين).

ترهب فيه وفيه مات سنة ٥٩٠م. وقد عمر هذا الدير إلى ما بعد القرن الثالث الهجري.

قال أبـو الفـرج الاصفهـاني : ومـوضعـه حسن لما فيـه من جنينـات رهبـانيـة واشجارهم ، وما يلبسه الربيع من الرياض .

نزل به عبد الله بن محمد الأمين فاستطابه وقال فيه ابياتاً روتها كتب الأدب منها :

ألا يا ديـر حنظـلة المـفـدى	لقـد اورثـتـني سقـماً وكـدا
أزف من الـفـرات اليـك دنـا	واجـعـل حولـه الـورد المبـدى
وابـدأ بالـصبـوح امـام صحبي	ومـن ينـشـط لها فهـو المفـدى

وروى الخالدي فيه لغيره شعراً منه :

ياديـر حنظـلة المهيـج لي الهـوى	هل تستطيـع صلاح قلب العـاشق

٢ ـ ديـر الـرصـافـة (رصافة هشام بن عبد الملك) ويسمى ايضاً دير حنينا ، كان يقوم وسط حصن الرصافة . وكان بناء رومياً قديماً من عجائب الدنيا حسناً وعمارة .

وقـد اجتـاز به الشـاعـر ابـو نواس في طريقه من العراق إلى مصر وبات فيه وقضى سحابة اليوم التالي قال فيه :

ليس كالـديـر بالـرصـافـة ديـر	فيـه ما تشتهي النفـوس وتهـوى
بتـه ليـلة فقـضـيـت أوطـا	راً ويـومـا ملأت طرتـه لهوا

ولما خرج الخليفـة العبـاسي جعفر المتوكل من الشام إلى العراق مر بطريقه بالصرافة واتصل خبره برجل من ولد روح بن زنباع من اخوال هشام بن عبد الملك فجـاء ونـزل دير الرصافة وكتب قصيدة في رقعة ألصقها في حائط من حيطان الدير قرأهـا المتـوكـل تضمنت وصفـاً لسكن هشـام بن عبد الملك في الرصافة وسط ابهة الملك فاستاء المتوكل منها وأمر برفعها نقلها ابن عساكر وياقوت الحموي ومطلعها :

أيـا منـزلاً بالـديـر اصبح خاويـا	تلاعـب فيـه شمأل ودبـور
كأنـك لم تقطـنـك بيض نواعـم	ولم تتبـخـتر في فنـائـك حور
ليـالي هشـام بالـرصـافـة قاطن	وفيـك ابنـه يا ديـر وهـو امـير

إذ الملك غض والخلافة لدنة وانت خصيب والزمان طرير

وكان لدير الرصافة شهرة بعيدة حتى عرفت الرصافة كلها باسم دير الرصافة.

٣ ـ دير زكى كان بظاهر مدينة الرقة شرقيها في زاوية التقاء نهر البليخ بنهر الفرات وكان من أديار السريان الكبرى المشهور شيّد في المئة الخامسة للميلاد. وكان يضم مدرسة لاهوتية مشهورة يقصدها الرهبان للتعلم. وللشاعر الصنوبري عدة مقطوعات شعرية فيه. وذكره شعراء آخرون قبل الصنوبري. وكان محجاً لزيارات سكان قرى البليخ ومنطقتي حران والرقة قال الصنوبري فيه من مقطوعة:

كم غدا نحو دير زكى من قلب صحيح فعاد وهو حزين

لو على الدير عجت يوماً لألهتك فنون واطربتك فنون

لائمي في صبابتي قدك مهلاً لا تلمني ان الملام جنون

بقي دير زكى حتى القرن العاشر للميلاد اخرى أساتذة في علم اللاهوت واشتهر من رهبانه كثيرون.

٤ ـ دير القائم الأقصى. كان موقعه على شاطىء الفرات من الجانب الغربي في طريق (بغداد ـ الرقة) كان بين أرض الروم وفارس.

وقيل له القائم لأن عنده مرقباً عالياً للمراقبة وهو إلى ذلك شبه صومعة لسكن احد النساك. وتوجد ناحية من نواحي الجمهورية العراقية تسمى ناحية القائم قصبتها حصيبة شرقي بلدة ابو كمال السورية على الحدود العراقية السورية.

وإلى مدة قريبة كانت ترى آثار مرقب الدير. نزله هارون الرشيد في أحد اسفاره بين بغداد والرقة.

وذكره الشعراء ومنهم هاشم بن محمد الخزاعي قال فيه:

بدير القائم الأقصى غزال شادن أحوى

برى حبي له جسمي ولا يدري بها ألقى

واكتم حبه جهدي وا والله ما يخفي

وفي بعض المصادر ان الأبيات لاسحاق بن ابراهيم الموصلي: كان نزل الدير مع الرشيد.

٥ ـ دير الباعوث. كان موقعه على شاطىء الفرات من جانبه الغربي بين الرقة ومنبج وكانت العمارة قليلة حوله، وله خفراء من الأعراب. وله مزارع، ومباقل، وجنينات.

اجتاز به الشاعر الكندي المنبجي واستحسنه واستطابه، قال عنه: لولا الوطن لاستوطنته بات فيه ليلة وعمل فيه قصيدة منشورة في معجم البلدان لياقوت وفي كتب اخرى مطلعها:

يا طيب ليلة دير مر باعوث	فسقاه رب العرش صوب غيوث
وسقى حمامات هناك صوادحاً	أبداً على سدر هناك وتوث

٦ ـ دير قنسرين. كان على ضفة الفرات الشرقية في نواحي الجزيرة وديار مضر مقابل مدينة جرابلس وبينه وبين منبج اربعة فراسخ وبينه وبين سروج سبعة فراسخ.

انشىء حوالي سنة ٥٣٠. استفاضت له شهرة كبيرة، وكان مزدهراً إلى القرن التاسع للميلاد. وكان مدرسة لاهوتية كبيرة إلى أوائل القرن التاسع احرقه الخوارج ولكنه رمم سنة ٨٢٢ والحق بأبرشية سميساط حول سنة ١٠٢٥ ظل عامراً حتى صدر القرن الثالث عشر.

كان في مدرسته ايام عمارته ثلثمائة وسبعون راهباً. درس فيه علماء كبار وتخرج منه رجال مشهورون. وكان بعض مشاهر الكنيسة في ذلك الوقت من رهبانه. قال فيه بعض الشعراء:

أيا دير قنسري كفى بك نزهة	لمن كان بالدنيا يلذ ويطرب
فلا زلت معموراً ولا زلت آهلاً	ولا زلت مخضراً تزار وتعجب

٧ ـ دير الصالحين ـ كان موقعه في خرائب صالحية الفرات «دوار اوروس»

الـواقعـة على ضفـة الفـرات الغربية بين الميادين وابوكمال منسوب إلى مار دانيال الصـالحي المـولـد في مدينـة الصـالحيـة المذكورة. ذاع صيته في النصف الأول من القـرن السـادس. وكـان في أول أمره رئيس دير الصالحين واليه نسب على الأرجح. ثـم رسم اسقفـاً على تل موزل وهي اليـوم بليـدة (ويـرانشهـر) غربي شمالي رأس العـين السـوريـة. وله عدة مصنفات. واسلوبه مثال للفصاحة والانشاء البليغ في الآرامية وكان ضليعاً في اللاهوت ومن خيرة احبار زمانه علماً وفضلاً مات سنة ٥٤٢م.

٨ ـ ديـر مار برصـوم: اسس السـريـان عدة اديرة باسم مار برصوم الناسك المتـوفي سنـة ٤٥٨ وكـان رئيسـاً للأديـرة السـريـانية وكان ديره الرئيسي في نواحي سميساط. ولكن اشهر الأديرة المعروفة باسمه كان دير مار برصوم الذي قام ببنائه الفخم في أواخر القرن الثامن على جبل عال يطل على مدينة ملطية مشرفاً على سهول مترامية وراء ضفتي الفرات الشرقية والغربية.

كان معهداً علمياً كبيراً وله تاريخ حافل منذ تأسيسه حتى اندثاره في اواسط القرن السابع عشر. وكان في القرن الثاني عشر كقلعة واسعة الأرجاء محاطاً بأسوار عالية عليها ابراج تقيه شر المهاجمين وكان فيه كنيستان جليلتان.

ظهـر بين جدرانـه بطـاركـة، واسـاقفة وعلماء، ورهبان فضلاء صار كرسياً بطريركياً فأغناه البطاركة بالكنوز والأبنية.

وكـان فيـه مئـات الـرهبـان. ومحـاطاً بكروم وبساتين إلى مسافات بعيدة. وكـانت له حقـول واسعـة تزرع فيها الحبوب وقطعان الغنم ورحي كثيرة يعمل في كل ذلك رهبانه وخدامه.

وفي سنـة ١١٤٨ اغـار جوسلين الصليبي صاحب الرها على بلاد الترك في نـواحي ملطيـة وعـرج على الـديـر بحجـة الـزيارة فنهب كل شيء فيه وطلب من الرهبان عشرة آلاف دينار ليغادر الدير. فجمعوا له خمسة آلاف من القرى المجاورة.

وجوسلين هذا وقع بعد ذلك اسيراً بيد نور الدين فسجنه مدة تسع سنوات في حلب ومات فيها سنة ١١٥٨ . وكانت تقدم له النذور من جميع انحاء الفرات والجزيرة الفراتية من النصارى والمسلمين.

٩ ـ دير العامود: في مدينة الرقة تبرعت بعمارته القيصرة تادور ٥٤٨ ووسعه الرهبان عام ٦٣٥م. قدم للكنيسة بطريركياً وعشرة أساقفة حتى سنة ٩٦٥.

١٠ ـ دير مار ابحاي، أو دير السلالم على ضفة الفرات الغربية مسيرة نصف ساعة بين قرية عور بيش بقرب كركر انشيء بعد القرن الخامس وذكره التاريخ صدر القرن التاسع ظل عامراً حتى صدر القرن الثامن عشر.

١١ ـ دير الجب في برية الفرات بين حلب ومنبج بني في صدر القرن السادس وانقطع خبره أواسط القرن التاسع.

١٢ ـ دير فسقين ويقال له دير الحفاة على نهر الفرات بقرب دير مار ابحاي في كركر. كان موجوداً حول سنة ١١٦٠ وكان عامراً سنة ١٥٦٥ ثم انقطعت أخباره.

١٣ ـ دير الرمان. وهو اصل مدينة دير الزور.

١٤ ـ دير العذارى من اعمال الرقة.

١٥ ـ دير لبنى على الفرات وكان لتغلب.

١٦ ـ دير مار سرجيس على الفرات كان من اعمال الرصافة.

١٧ ـ دير الحتليف كان على ضفة الفرات الغربية بالقرب من دير الرمان.

١٨ ـ دير مار سرجيس: قال الشابشتي هو بعانه وهي بلدة على الفرات وهو حسن نزه كثير الرهبان والناس يقصدونه من هيت وغيرها للنزعة.

وكانت ضفاف الخابور ولاية واسعة من أرض الجزيرة الفراتية دعيت خابوراء كانت ابرشية وكان إلى جانب مدن الخابور وقراه اديرة منها:

١ ـ دير قرقفتا ومعناها الجمجمة او قمة الجبل. كان موقعه في بلدة مجدل على ضفة الخابور الغربية بين رأس العين والحسكة. اشتهر امره في غرة القرن

الثامن الميلادي وكان مركزاً هاماً لعلم الكتاب المقدس واللغة السريانية، وإلى رهبانه تنسب القرقفية أخرج عدة فقهاء وعلماء.

٢ ـ دير أسفلولس من اشهر اديار رأس العين واقدمها انشىء في القرن الخامس خرب سنة ١٢٠٣.

٢ ـ دير تيراوتيز بقرب رأس العين اضطهد رهبانه سنة ٥١٩ في جملة من اضطهد من رهبان المشرق.

٤ ـ دير المبيض دير كبير مشهور بمنطقة رأس العين.

٥ ـ دير قدار من اقدم اديار رأس العين ذكر في القرن السادس.

٦ ـ دير مارزعورا بقرب قرية طابان على الخابور يرقى عهده إلى اواخر القرن الرابع اوغرة الخامس وكان عامراً في القرن الثالث عشر.

٧ ـ دير منصور كان يطل على نهر الخابور.

٨ ـ دير بصير كان في موقع البصيرة (قرقيسيا).

وكانت ضفاف البليخ منذ عصور قديمة عامرة آهلة بالسكان. وكان عليه عدة أديرة اشهرها دير زكي ومن أديرته دير بيت ريشير وريشير كان رئيساً لدير البيض في رأس العين سنة ٦٣٥. وجاء رهبان دير البيض إلى الجهة الغربية من البليخ وشيدوا لهم ديراً دعوه بيت ريشير باسم رئيسهم في اواخر النصف الأول للقرن السابع.

كان لأديار الفرات وأديار روافده فوائدها في حياة السكان الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعمرانية. فكانت إلى جانب كونها اماكن للعبادة والنسك معاهد للعلم والتهذيب. وكان رهبانها يعملون في الزراعة والبستنة ورعي الماشية وفي الصناعات وغرس الأزهار والرياحين لبيعها وكانت الأديار الكبيرة قرى اشتراكية.

وكان النصارى والمسلمون من المدن والقرى والبادية يخرجون إلى الأديار في المواسم كل فريق يجد فيها ما ينشد، فمنهم من جاء لسماع وعظ الرهبان

واحـاديثهم . ومنهم من جاء للتجـارة وآخـرون للفـرجـة والنـزهة والعبث والتمتع والتلذذ بخمور حاناتها .

وكـانت أعيـاد الأديار تغذي مشاعر زوارها وتبهج نفوسهم . وكانت زخارف هيـاكلهـا وصورها الفنية تساعد على تذوق الفن الجميل وكان أثر الأديار كبيراً في العمران ، لما كانت تنشأ من الأبنية الملحقة .

الفهرس

صدر عن الأهالي

* النباتات الطبية واستعمالاتها
د. محمد العودات و د. جورج لحام
* المعتزلة والفكر الحر
د. عادل العوا
* ساعة الشؤم (رواية)
غابرييل غارسيا ماركيز، ترجمة صالح علماني
* من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان
د. عبد الله حنا
* والليل الذي يسكنني (شعر)
ممدوح عدوان
* الفضاء هذا العالم الجديد
مجموعة من الباحثين، ترجمة عيسى طنوس
* السينما والقضية الفلسطينية
حسين العودات
* أناباز (قصيدة طويلة)
سان جون بيرس، ترجمة عبد الكريم كاصد
* الفرسان الثلاثة (للاطفال)
سليمان العيسى وصلاح مقداد
* الداء السكري
د. ميه الرحبي
* المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة
علي القيّم

* أزهار الكرز (أشعار يابانية)
ترجمة عدنان بغجاتي
* وضاح وليلى (للاطفال)
سليمان العيسى
* القيامة والزبال (مسرحيتان)
ممدوح عدوان
* الذاكرة والغضب (رواية)
فائز الزبيدي
* حكاية الرجل الذي رفسه البغل (قصص)
وليد معماري
* حكى لي الأخرس (سخريات صغيرة)
خطيب بدلة
* قدّاس من أجل فلاح اسباني (رواية)
رامون خ. سيندر، ترجمة عاصم الباشا
* البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف
د. أحمد جاسم الحميدي
* الذهب (قصة للأطفال)
يحيى الشيخ
* التلوث وحماية البيئة
د. محمد العودات
* مسرح الريادة (دراسة)
عبد الفتاح قلعه جي

* طبرصف والزينبية
عدنان عمامة
* الكاتبات السوريات ١٨٩٣ - ١٩٨٧
مروان المصري
* حطين
يوسف سامي اليوسف
* الانتفاضة بالكاريكاتير
الأهالي
* زوبُك (رواية)
عزيز نسين، ترجمة: عبد القادر عبداللي
* الطفل والاحلام (دراسة)
د. عبد الرزاق جعفر
* من قاموس التراث
هادي العلوي
* الحب والظلال (رواية)
ايزابيل الليندي، ترجمة: صالح علماني
* دراسات في أدب عبد السلام العجيلي
مجموعة من الكتاب، تحرير: أبراهيم الجرادي
* قيامة عبد القهار عبد السميع
حسن. م. يوسف
* الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر
فريد جحا

* أرق الليلة الفاصلة
منيف حوراني
* النفق (رواية)
ارنستو ساباتو، ترجمة: عبد السلام عقيل
* كيف تُكتب الرواية؟
غابرييل غارسيا ماركيز - ترجمة صالح علماني
* الرؤية المنهجية لدراسة الأخلاق
محمد الجبر
* تسعة أشهر حتى الولادة
ترجمة غازي أبو عقل
* مرايا صغيرة (شعر)
شيركو بيكه س
* السواد (رواية)
حسن حميد
* الجغرافية السياسية والجغرافية الستراتيجية
ترجمة: أحمد عبد الكريم
* السؤال الآخر
فاضل الربيعي
- ايفالونا (رواية)
ايزابيل الليندي، ترجمة: صالح علماني

* بم التعلل (شعر)
حميد العقابي
* الانحرافات الجنسية
د. ناجي الجيوش
* ليلة ناعمة (مجموعة قصصية)
دينو بوزاتي، ترجمة د. منذر عياشي
* بين حدود النفي (شعر)
كريم ناصر
* ارتقاء المجتمعات الشرقية - ج١، ج٢، ج٣
مجموعة من الباحثين السوفيين، ترجمة: د. حسان اسحق
* سورية الجنوبية
مجموعة من المترجمين
* تفاح الشيطان (رواية)
احمد يوسف داود
* السقوط الثاني (شعر)
أحمد جان عثمان
* سوسيولوجيا النص الروائي
عبد الرزاق عيد
- نحو نظرة جديدة الى فقه اللغة العربية
د. جعفر دك الباب

* التجارة الداخلية.. السوق والتنمية
منير الحمش
* النقد الأدبي الحديث
سمر روحي الفيصل
* معراج الموت «قصص»
ممدوح عزام
* موت مدرس التاريخ العجوز «قصص»
حاتم علي
* تاريخ فلسطين
يوسف سامي اليوسف
* المسألة اليهودية
كارل ماركس، ترجمة حمزة برقاوي
* شارلي شابلن
ترجمة: حسن سامي اليوسف
* عبد الرحمن الشهبندر
د. عبدالله حنا
* معتقل انصار
ماهر اليوسفي
- علي بن ابي طالب
ميثم الجنابي
- الحضارة الفراتية
عبد القادر عياش

يصدر قريباً

- تطور الحركة الشيوعية ونضالها في آسيا وأفريقيا
مجموعة من الكتاب الالمان، ترجمة: سليم خليل
- اتفرج على الكوكب (قصص)
محمود عبد الواحد

- اعلانات عن مدينة كانت تعيش قبل الحرب
محمد ملص
الساخرون (نماذج من القصة الساخرة في سوريا)
أعداد: خطيب بدلة

- اينشتين والقضايا الفلسفية لفيزياء القرن العشرين
مجموعة من الكتاب ترجمة: ثامر الصفار



حضـارة وادي الفـرات، ضوء ساطـع سلطـه الاستـاذ المـرحـوم عبـد القـادر عيّاش على الحواضر الفـراتيـة وجزيرتها منذ وجودها حتى عام ١٩٧٢...

وقـد تنـاول في رحلة البحث هذه أربـع حواضـر في الـفـرات الأعـلى، وخـمس حواضـر في الفـرات الأوسط، وثلاث حواضر في الجزيرة الفراتية، وسبع حواضر في الفرات الأسفل ولم يسلط الضوء على اثار تلك الحواضر وتاريخها فحسب بل بحث في تطورها العمـراني والاجتماعي، وعرض لاهلها، وحادثاتها، وعشـائرهـا، وأيـامهـا، ورجـالاتهـا، واقتصـادها، وسيـاستهـا، وكـل ما يتعلق بديـنـاميـاتهـا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. إنه جهد عظيم قام به وحده، ذلـك الجنـدي المجهـول الذي عمل بصمت فحفظ لهذه المنطقة ماضيها بكل دقائقها.

إنـه سفـر تاريخي هام، وتـراجم للاعـلام والـرجـال، ومتحف عظيم مكتـوب، ودليـل سياحي مفصـل، وبحث متـواصـل بدقة في علم الاجتماع، وتقويم حضـاري متـواتر وموثق بعبقرية فذة، وجسر متين يربـط المـاضي المـوغـل في القـدم: بالحاضر الباحث أبدا عن الحقيقة بكتابة التاريخ بأمانة.

الناشر

السعر: ١٧٥ ل.س